التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

المجلد السادس:

ويحتوي على تفسير هذه السور

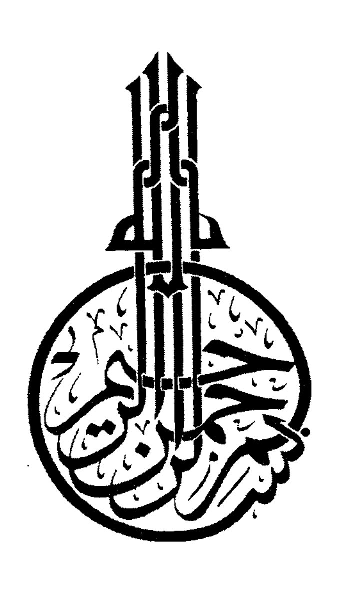
النور - الفرقان - الشعراء - النمل - القصص

العنكبوت - الروم - لقمان - السجدة - الأحزاب



دار القلم

دمشق



التفسير الموضوعي

لسور القرآن العظيم

٦



الطبعة الثانية
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

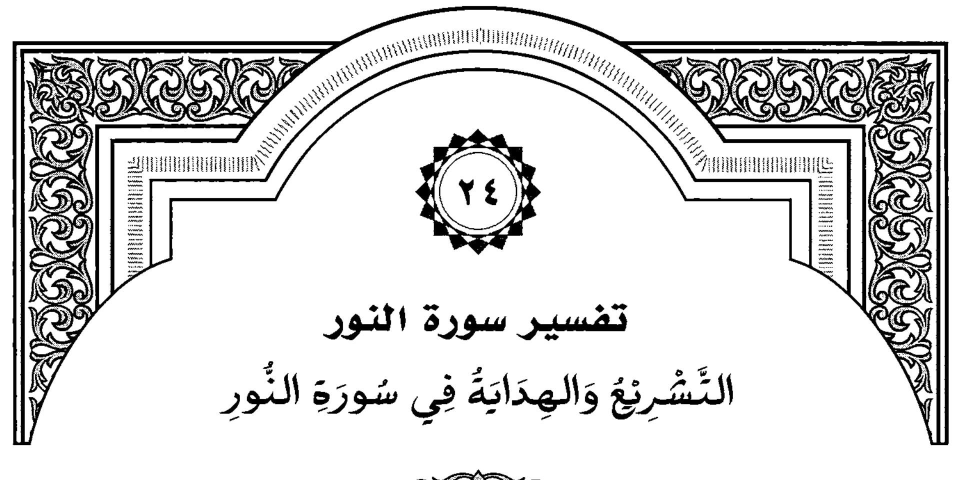
دار القلم - دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤


ISBN 978-9933-29-024-5



تفسير سورة النور

التَّشْرِيعُ وَالهِدَايَةُ فِي سُورَةِ النُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد أصبحت كثير من المجتمعات الإسلامية في أمسِّ الحاجة إلى العودة إلى هَدْي الشريعة الإسلامية، بعد أن ذاقت مرارة فشل القوانين الوضعية، وقصورها وضعفها، وخاصة في المجال الاجتماعي والأخلاقي، فقد أورثتها القوانينُ الوضعية خللاً كبيراً في العلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء، وانحلالاً أخلاقيّاً كبيراً، أدَّى إلى تفسخ العلاقات الزوجية، وانهيار كثير من الأسر، وضياع الأنساب، وكثرة المشردين، وازدياد مستوى الجريمة، وهي الآفات الاجتماعية نفسها التي أصيبت بها المجتمعات الغربية.

ولقد اهتمت آياتُ سورة النور اهتماماً كبيراً بهذا الجانب، وشرع الله تعالى فيها كثيراً من الأحكام، التي تطهِّرُ المجتمعَ من آفاته، وتزكي نفوسَ أفراده، فإذا أحسنوا تطبيق هذه الأحكام، وفِّقوا إلى الالتزام الدائم بها.

وتفسير هذه السورة القرآنية المباركة: سورة النور في هذا التفسير لموضوعات السور القرآنية المباركة، قد أوضح هذه الحقيقة، من خلال موضوع

السورة، التي تدور معاني آياتها في فلكه، وهو موضوع **التشريع والهداية**، وما بينهما من ارتباط وثيق، وحاجة الإنسان الماسة إليهما.

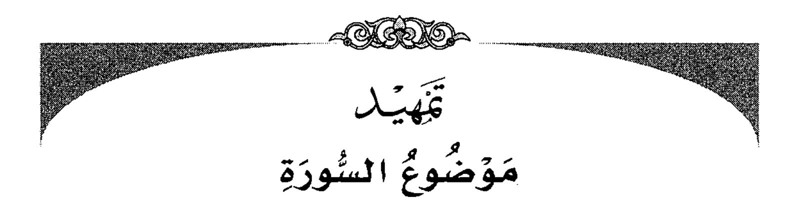
وجاء تفسير السورة بحمد الله تعالى، في فصلين، متفقين مع تسلسل آياتها:

- **الفصل الأول**: ركَّز على **الجانب التشريعي وبيان الأحكام**.
- **الفصل الثاني**: ركز على **جانب الهداية**، وأنها من الله تعالى، وبيَّن أسباب تحصيلها، واستنزال فضله تعالى ورحمته وتوفيقه.

أسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين، كخطوة لهم على الطريق للعودة إلى الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية في كل شؤون الحياة. اللهم آمين.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.





تَمْهِيد
مَوْضُوعُ السُّورَةِ

الإنسان محتاج إلى هداية الله تعالى، ولا غنى له عنها، وهو من دونها يعيشُ في ظلمات كثيفة، فهو محتاج أولاً إلى **هداية البيان وتشريع الأحكام**، وخاصة في حياته الاجتماعية، التي تتشابك فيها العلاقات بين أبناء المجتمع، وتشتجر وتتداخل، ويصبحُ الناس في أمسِّ الحاجة إلى الموازين الشرعية الدقيقة، التي تنيرُ لهم الدرب، وتلقي لهم الأضواء، وتبين الحلول الفاصلة للقضايا الشائكة المتداخلة في علاقاتهم الاجتماعية.

هذا هو الموضوع الأساس الأول في سورة النور، الذي قررته في أول آياتها: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾.

وتضمَّن هذا الجانب تشريع حدِّ الزنى، وتشريع حدِّ القذف، وتشريع اللِّعان.

وبعد بيان هذه التشريعات، ألقت الآيات الأضواء على **حادثة الإفك**، فأظهرت الحقيقةَ، وبينت شدَّةَ حاجة الناس على بيان العليم الحكيم وهدايته.

ثم أتبعت الآيات ذلك ببيان **التشريعات الوقائية**، التي تحمي المجتمع من آفات وشرور الفواحش والزنى، فقررت حرمة للبيوت المسكونة، وشرعت الاستئذان قبل دخولها، وأمرت بغضِّ الأبصار، وحفظ العورات، وحرَّمت على المرأة التبرج وإظهار الزينة، ثم شرعت الزواجَ، وحثَّت عليه، كما نادت بتحريم البغاء، وعملت على سد منافذه وقطع أسبابه.

ثم انتقلت الآيات إلى بيان حاجة الناس إلى هداية ثانية، وهي **هداية التوفيق للالتزام بهذه الأحكام وتطبيقها**، وهي أيضاً من الله تعالى، فقرَّبت هذا

المعنى المجرد بالأمثلة المحسوسة، وفي أثناء ذلك بينت للإنسان الأسباب التي يستنزل بها رحمة الله تعالى ومعونته وتوفيقه.

وعادت الآيات في آخر السورة إلى موضوع **التشريع وبيان الأحكام**، فألقت أضواءها على تشريعات خاصة، بعضها مستثنى من عموم ما سبق بيانه من أحكام، وبعضها يعد تتمة لها، فجاءت السورة بحق سورة التشريع والهداية، سورة النور.



الفَصْلُ الأَوَّلُ
التَّشْرِيعُ وبَيَانُ الأَحْكَامُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا
تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ
عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟
ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ
أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ
لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ
وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟
وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا
حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ
﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا
يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا
ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ
ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ
أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ
لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ
جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ
وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ
نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ
فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟

عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

- **فرض وتفريض:**

بدأ الله تعالى سورةَ النور بوصفها بثلاث صفات؛ تفخيماً لها، وتنبيهاً على الاعتناء بها، وتنويهاً بأهميتها وأهمية ما شرع فيها من أحكام ومبادئ، فقال سبحانه:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ أي: هذه سورة أنزلناها، كما أنزلنا غيرها من سور القرآن الكريم.

وقرئت (**سورةً**) بالنصب بفعل مقدر يفسره ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾، أو على تقدير: اقرأ سورةً، أو: دونك سورةً(١).

﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ أي: أوجبنا العمل بما فيها من الأحكام إيجاباً قطعيّاً.

وهذا مما انفردت به هذه السورةُ، ممَّا يدلُّ على أهمية الأحكام التي شُرعت فيها، وضرورة العمل بها، وقد اهتمَّ بها الصحابة ﷺ كثيراً حتى كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أهل الكوفة: **علِّموا نساءكم سورة النور**(٢).

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يفسِّرها للحُجاج في عرفات، فقد أخرج الحاكم [٣/ ٦٠٣]: عن أبي وائل قال: حججتُ أنا وصاحب لي، وابن عباس على الحج، فجعل يقرأ سورة النور ويفسِّرها، فقال صاحبي: يا سبحان الله! ماذا يخرجُ من رأس هذا الرجل، ما رأيتُ ولا سمعتُ كلامَ رجلٍ مثله، لو سمعتْه فارس والروم لأسلمت.

وقرئت بالتشديد: (**وفَرَّضْناها**) بمعنى: فصَّلناها، ونزَّلنا فيها فرائض

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٥٥.

(٢) تفسير القرطبي: ١٢/١٥٨.

مختلفة، فهما قراءتان مشهورتان، وقد قرأ بكلٍّ واحدةٍ منهما علماء من القراء، فبأيتهما قرأ القارئُ فمصيبٌ، وذلك أنَّ الله قد فصَّلها، وأنزل فيها ضروباً من الأحكام، وأمر فيها ونهى، وفرض على عباده فيها فرائض، ففيها المعنيان كلاهما، التفريض والفرض[١].

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي: وأنزلنا في هذه السورة علامات ودلالات على الحق واضحات، فمن تأمَّلها وفكَّر فيها يجزم أنها من عند الله تعالى، فهي كما قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: الحق المبين، تهدي إلى الصراط المستقيم[٢].

وأفاد تكرير كلمة ﴿أَنزَلْنَا﴾ إبراز كمال العناية بشأنها، وإظهار خطرها، وأهميتها في حياة الأفراد والجماعات، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨][٣].

﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لكي تتعظوا بما فيها، وتلتزموا بتشريعاتها، وتقفوا عند حدودها، فمن حقها أن تكونَ على ذُكْرٍ منكم، بحيث تستحضرونها كلَّما مسَّت الحاجة إليها.

- **تشريع حد الزنى:**

أول تشريع شرعه الحق تعالى في هذه السورة تشريعُ حد الزنى، وأشار تقديم هذا التشريع إلى وجوب المبادرة إلى تطبيقه على الزناة، قمعاً لهذه الجريمة، وتطهيراً للمجتمع من شرورها وعواقبها الوخيمة الذميمة، فإنَّ التراخي عن تطبيق هذا الحد يؤدي ـ كما هو معلوم من حال المجتمعات الحاضرة ـ إلى انتشار هذه الجريمة، واستفحال خطرها.

---

(١) تفسير الطبري: ٧/ ٥٢.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) انظر: روح المعاني: ١٨/ ٧٦.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ﴾ أي: فاضربوا كل واحد من الزانيين مئة جلدة.

والجلد: الضربُ على الجلدِ، وفيه إشارة إلى أنه لا يبالَغُ بالضرب، ليصل الأذى إلى اللحم والعظم.

والخطابُ لولاة الأمر؛ لأنَّ إقامةَ الحد من الدين، وهي على جميع أفراد المجتمع، إلا أنهم لا يمكنهم الاجتماع، فينوب الإمام منابهم[1].

وأجمعَ العلماءُ على أنَّ الواجبَ الجلدُ بالسَّوْط، والسوط الذي يجب أن يُجلد به يكون سوطاً بين سوطين، لا شديداً ولا ليناً[2].

والجلد حَدُّ **الزاني البكر**، وهو الذي لم يتزوَّج، وأما **الزاني المحصن**، وهو الذي أحصن نفسه فتزوَّجَ امرأة في نكاح صحيح ودخل بها، فإنه يُرْجَمُ، لما ثبتَ في الحديث الشريف: عن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما: أن رجلاً من أسلمَ أتى رسولَ اللهِ ﷺ فحدَّثه أنه زنى، فشهدَ على نفسِهِ أربعَ شهاداتٍ، فأمَر بهِ رسولُ اللهِ ﷺ فرُجِمَ، وكان قد أَحْصَنَ. [رواه البخاري (٦٨١٤) ومسلم (١٦٩١)].

وعن **أبي هريرة وزيد بن خالد** رضي الله عنهما قالا: كُنَّا عندَ النبيِّ ﷺ، فقام رجل فقال: أنشدُكَ الله إلا ما قضيتَ فينا بكتابِ اللهِ، فقام خصمُهُ وكان أفقه منه فقال: اقضِ بيننا بكتابِ اللهِ وائذنْ لي. قال: «**قل**». قال: إنَّ ابني هذا كان عَسِيْفاً على هذا، فزنى بامرأتِهِ، فافتديتُ منه بمئةِ شاةٍ وخادمٍ، ثم سألتُ رجالاً من أهلِ العلمِ، فأخبروني أنَّ على ابني جلد مئةٍ وتغريب عامٍ، وعلى امرأتِهِ الرَّجْم.

فقال النبيُّ ﷺ: «**والذي نفسِي بيدِهِ لأقضينَّ بينكما بكتابِ اللهِ جلَّ ذِكْرُهُ، المئةُ**

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٦٤.

(٢) تفسير القرطبي: ١٢/ ١٦١.

شاةٍ والخادمُ رَدٌّ، وعلى ابنِكَ جَلْدُ مئةٍ، وتغريبُ عامٍ، واغدُ يا أُنَيْسُ على امرأةِ هذا، فإن اعترفتْ فارجُمْهَا» فغدا عليها فاعترفت فرجمها. [رواه البخاري (٦٨٢٧)].

وعن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: قال عمر رضي الله عنه: لقد خشيتُ أن يطولَ بالناسِ زمانٌ، حتَّى يقولَ قائلٌ: لا نجدُ الرجمَ في كتابِ اللهِ، فيضلوا بتركِ فريضةٍ أنزلهَا اللهُ، ألا وإنَّ الرجمَ حقٌّ على مَنْ زنى وقد أحصنَ، إذا قامتِ البينةُ، أو كان الحَمْلُ أو الاعترافُ. [رواه البخاري (٦٨٢٩)].

والمراد من قوله: «**أو كان الحمل**» أي: وُجِدَتِ المرأة الخلية من زوج أو سيد حُبلى، ولم تذكر شبهة ولا إكراه(١).

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تأخذكم في الزانيين رحمة ورقة في طاعة الله وحكمه، فيؤدي بكم ذلك إلى تعطيل الحدود، أو تخفيفها، فإنَّ إقامةَ الحدود طاعةٌ لله تعالى وعبادة له، لا يجوزُ تعطيلها، ولا التهاون في تطبيقها.

وكأنَّ الآيةَ الكريمةَ تخاطب في هذا الزمن أولئك المنادين بعدم تطبيق الحدود، بدافع الرأفة والرحمة بالزناة، مع أنه تعالى ـ وهو العليم الحكيم، والبر الرؤوف الرحيم ـ أعلم بما يصلح للناس، وما يقطع دابرَ الفسادِ عن مجتمعهم، ولهذا قال في ختام الآية:

﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي: فأقيموا حد الزنى ولا تتهاونوا فيه إن كنتم حقّاً تؤمنون بالله واليوم الآخر.

ففيها حَثٌّ وتهييجٌ على الالتزام بأحكام دين الله وشرعه، وتطبيق ما شرع من العقوبات الزاجرة، وأولها وأهمها حد الزنى.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليحضر إقامة الحد عليهما جماعةٌ من المؤمنين، فلا يُقام الحد على الزانيين سرّاً، بل يُقام جهراً أمام ملأ من الناس، زيادةً في التنكيل بهما، وزجراً لغيرهما عن هذه الجريمة.

وهذا يدلُّ على خطورة جريمة الزنى، وأنَّ لها آثاراً سيئة كبيرة في البنية

---

(١) فتح الباري: ١٢/ ١٤٨.

الاجتماعية والخلقية والصحية للأمة، فينبغي المسارعةُ إلى معالجة هذه الآفة الخطيرة وحَسْمِها، وتطهيرِ المجتمع منها.

ومن كمال الشريعة الإسلامية أنها لم تقتصر على تشريع العقوبات الحاسمة الزاجرة لآفة الزنى بعد وقوعها، بل شرعت أيضاً عدداً من التشريعات الوقائية، تحول دون وقوعها، فالوقايةُ خيرٌ من العلاج، ولا شك أن للزنى أسباباً تؤدي إليه، وقد عملت الشريعة الإسلامية على قطع أسبابه، أشار إلى هذه الأسباب قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وهذا ما اتجهت آياتُ سورة النور إلى بيانه بأسلوب رفيع معجز، أدَّبَ فيه العليمُ الحكيمُ المؤمنين بأعلى الآداب وأسماها، ورباهم تربية حكيمة، طهرت قلوبهم، وهذَّبت نفوسهم، وصانت ألسنتهم عن لوثِ الفُحْشِ، وبذاءة القول، وهُجْر الكلام.

● **التنفير من الزنى:**

بدأت الآيات أولاً تنفر المؤمنين من الزنى، بتصويره بصورة قبيحة مزرية:

﴿الزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿الزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ أي: الزاني المتصف بالزنى والمصرُّ عليه، لا يليقُ به أن ينكحَ العفيفة المؤمنة، وإنَّما يليق به أن ينكحَ زانيةً فاجرةً مثله، أو مشركة هي أسوأ حالاً منه.

﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أي: وكذلك الزانية، لا يليقُ أن ينكحها إلا مَنْ هو مثلها، وهو الزاني، أو مَنْ هو أسوأ حالاً منها وهو المشرك.

وأمَّا المسلم العفيف فَغَيْرَتُه تأبى عليه نكاح الزانية.

وَتَجْتَنِبُ الأُسُوْدُ وُرُوْدَ مَاءٍ إذا كانَ الكلابُ وَلَغْنَ فِيْهِ

فالآية سيقت للتنفير من الزنى، وتقبيح حال الزناة، ولا يُشْكِلُ على هذا صحة نكاحه إياها، وعدم صحة نكاح المشرك[1].

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وحُرِّم الزنى على المؤمنين، وخَصَّهم بالذكر لشرفهم. ويحتمل أن يكون التحريمُ لنكاح الزانية، وعليه فالمرادُ من التحريم المنعُ، وجعل نفوسهم تترفع عنه، فلا يليق ذلك بهم.

وقد رُوي في سبب نزول الآية: أن رجلاً يقال له: مرثد بن أبي مرثد، وكان رجلاً يحمل الأسارى من مكة حتى يأتي بهم المدينة، وكانت امرأةٌ بغيٌّ بمكة يقال لها: عِناقُ، وكانت صديقةً له، وواعد رجلاً من أسارى مكة يحمله، قال: فجئتُ حتى انتهيتُ إلى ظِلِّ حائطٍ من حوائط مكة في ليلة مقمرة، فجاءت عِناقُ فأبصرت سوادَ ظلٍّ تحت الحائط، فلمَّا انتهتْ إليَّ عرفتني، فقالت: مرثد؟ فقلت: مرثد. فقالت: مرحباً وأهلاً، هلمَّ فبتْ عندنا الليلةَ. فقلتُ: يا عناقُ حرَّمَ الله الزنى. فقالت: يا أهلَ الخيامِ، هذا الرجلُ يحمِلُ أسراكم. قال: فتبعني ثمانيةٌ، فانتهيتُ إلى غارٍ، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي، وبالوا فظل بولهم على رأسي، وأعماهم الله تعالى عنِّي. ثم رجعوا ورجعتُ إلى صاحبي، فحملتُه حتَّى قدمتُ المدينةَ، فأتيتُ النبيَّ ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ أنكحُ عِناقاً؟ فأمسكَ، ولم يردَّ عليَّ شيئاً حتى نزل: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «**يا مرثدُ لا تَنْكِحْها**» [رواه أبو داود (٣٠٥١) والنسائي (٦/ ٦٦) والترمذي (٣١٧٧)].

- **تشريع حد القذف:**

والتراشق بتهمة الزنى يؤدِّي إلى إشاعته في المجتمع، كما يؤدي إلى نشر الخصومات والمنازعات بين أبنائه، ولهذا شرع الله تعالى عقوبة جسديةً وأدبيةً لمن يرمون غيرهم بجريمة الزنى، فقال:

---

(١) روح المعاني: ١٨/ ٨٤.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: يقذفون المؤمنات العفيفات بالزنى، وعدم التصريح به لدلالة الآية السابقة عليه.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: ثم عجزوا عن إثبات صحة ما قالوا بالبينة، وهي أن يأتوا بأربعة شهداء عدول يشهدون على الزنى.

فشأنُ الزنى أخطرُ من غيره، ولهذا جعلت الشريعةُ بينة ثبوته أربعة شهداء، بينما القذفُ بغير الزنى بأن يقول: يا فاسق، يا آكل الربا، يُكتفى فيه بشاهدين، قال تعالى: ﴿وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥].

وهذا يدل على شدة حرص الشريعة الإسلامية على حماية أعراض الناس، وحماية جو المجتمع من البلبلة والاضطراب، والقلق والريبة، بسبب التراشق بالزنى، فشددت في ثبوت الزنى، وشرطت له أربعة شهود عدول، يشهدون على معاينتهم للجريمة، فإذا ما شهد ثلاثةٌ رُدَّتْ شهادتُهم، وعُدُّوا قاذفين، وجُلدوا حَدَّ القذف، وهو ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الثلاثة الذين شهدوا على المغيرة بن شعبة بأنَّه زنى، وهم أبو بكرة نُفَيْعُ بن الحارث، وأخوه نافع، وشبل بن معبد البَجَلي، فلمَّا جاؤوا لأداء الشهادة، توقَّفَ الشاهد الرابع: زياد بن أبيه، ولم يؤدِّها، فجلدَ عمرُ الثلاثةَ المذكورين(١).

وذكر تعالى في الآية النساءَ مِنْ حيثُ إنَّ رميهن بالفاحشة أشنعُ وأنكى للنفوس، وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى، وإجماع الأمة على ذلك(٢).

ودل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ على أنه لا حَدَّ على من رمى رجلاً أو

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ١٧٨.
(٢) المرجع السابق: ١٢/ ١٧٢.

امرأة قد ثبت عليهما الزنى سابقاً ببينة أو إقرار، فهو يدل بمفهومه على أن من رمى غير محصنة لا حد عليه، لكن يلزم تعزيره، ولا يُتْرَكُ عِرْضُ مَنْ ثبتَ عليه الزنى مباحاً دونَ عقوبةٍ رادعةٍ لمن يرميه بالزنى[(١)].

﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ أي: مهما كانت هذه الشهادة، في قذف أو غيره، فرد شهادته جزء من عقوبة القذف، المؤلفة من العقوبة المادية، وهي جلدُهُ ثمانينَ جلدة، ومن العقوبة الأدبية المعنوية، وهي رَدُّ شهادته وعدم قبولها مدة حياته.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: وأولئك عند الله تعالى فاسقون، خارجون عن طاعته، ومتجاوزون لحدود شريعته.

وهذا تقريرٌ لما قبله، يبين سوء حالهم عند الله ﷻ.

ودلَّ اسم الإشارة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ على بُعد منزلتهم في الشر والفساد، أي: أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة، والتجاوز عن الحدود، الكاملون فيه، المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم، لا غيرهم من الفسقة[(٢)].

وفتحت الآيات بعد هذا التأديب والتهذيب بابَ التوبة والإنابة للمذنبين من القاذفين، بهذا الأسلوب التربوي الرفيع، الذي يؤدِّب المذنبين، ثم يأخذُ بأيديهم ليلحقَهم بقافلة الصالحين، في ساحات رحمته تعالى ومغفرته:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي: إلا الذين تابوا من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب القبيح، وأصلحوا ما أحدثوا من فساد في المجتمع، بتكذيبهم أنفسهم، واستسلامهم للحد، واستحلالهم من المقذوف.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويرحمهم.

---

(١) أضواء البيان: ٦/ ١٢٣.

(٢) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٥٨.

وهل تُعادُ للقاذفين عدالتُهم، وتُقبلُ شهادتهم بعدَ توبتهم، ويرجع الاستثناء في الآية إلى الفسق والنهي عن قبول الشهادة؟ رأى بعض العلماء ذلك، ورأى أنَّه ليسَ القاذفُ بأشد جرماً من الكافر، فحقه إن تابَ وأصلحَ أن تقبلَ شهادتُه، وإذا قبلَ الله توبتَه، فلا بدَّ أن تقبل شهادته.

وتمسَّك بعضُهم بظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ وقصر الاستثناء على الجملة الأخيرة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ لكن إذا زالَ عنهم اسم الفسق، فلمَ لا تقبلُ شهادتهم، وقد ردت بسبب فسقهم؟![(١)].

• **تشريع اللعان:**

وقد يحدث القذف في داخل الأسرة بين الزوجين، فيقذف الزوج زوجته، وهو أخطر أنواع القذف، وهذا يؤدِّي إلى انهدام الأسرة، وتقطيع أواصر الأرحام والأنساب، ولهذا شرع له العليم الحكيم أحكاماً خاصَّة، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ أي: والذين يقذفون زوجاتهم بالزنى، ولا يستطيعون إثبات ذلك، لعدم توفر أربعة شهداء، ويسبب هذا الأمر للزوج معاناة نفسية كبيرة وحرجاً، كما جاء في سبب النزول.

فعن **ابن عباس** رضي الله عنهما: أن هلال بن أمية قذفَ امرأته عند النبيِّ ﷺ بشريك بن سحماء، فقال النبيُّ ﷺ: «**البينةُ أو حَدٌّ في ظهرِكَ**».

فقال: يا رسول الله، إذا رأى أحدُنا على امرأتِهِ رجلاً، ينطلقُ يلتمِسُ البينةَ؟! فجعلَ النبيُّ ﷺ يقول: «**البينةُ وإلا حَدٌّ في ظهرِكَ**».

فقال هلال: والذي بعثكَ بالحقِّ إنِّي لصادقٌ، فليُنْزِلَنَّ الله ما يبرِّئُ ظهري

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ١٨١.

من الحدِّ، فنزلَ جبريلُ، وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فانصرف النبيُّ ﷺ فأرسل إليها، فجاء هلالٌ فشهد، والنبيُّ ﷺ يقول: «**إنَّ اللهَ يعلمُ أنَّ أحدَكُم كاذبٌ، فهل منكما تائبٌ؟**».

ثم قامتْ فشهدتْ، فلمَّا كانتْ عند الخامسةِ وقفوها وقالوا: إنَّها موجبةٌ. قال ابن عباس: فتلكَّأتْ ونَكَصَتْ حتى ظننا أنَّها ترجعُ، ثم قالت: لا أفضحُ قومِي سائرَ اليومِ، فمضت. فقال النبيُّ ﷺ: «**أبصروها، فإن جاءتْ بهِ أكحلَ العينينِ، سابغَ الأَليتينِ، خَدَلَّجَ الساقينِ، فهو لشريك بن سحماء**».

فجاءت به كذلك، فقال النبي ﷺ: «**لولا ما مضى من كتابِ الله لكان لي ولها شأنٌ**» [رواه البخاري (٤٧٤٧)].

ودل الحديث على أنَّ نزولَ آياتِ اللعانِ تأخَّرَ عن الآيات السابقة، التي شرعت حد القذف، ويبدو أنَّ سبب النزول تكرر:

فعن **سهل بن سعد**: أن عويمراً أتى عاصمَ بن عدي، وكان سيد بني عجلان، فقال: كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلاً؟ أيقتله فتقتلونه؟ أم كيف يصنع؟ سل لي رسولَ اللهِ ﷺ عن ذلك، فأتى عاصمٌ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ. فكره رسولُ اللهِ ﷺ المسائلَ، وقال لعويمر: إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كَرِهَ المسائلَ، قال عويمرُ: واللهِ لا أنتهي حتى أسألَ رسولَ اللهِ ﷺ عن ذلكَ، فجاء عويمرٌ فقال: يا رسولَ اللهِ، رجلٌ وجدَ مع امرأتِهِ رجلاً، أيقتله فتقتلونه؟ أم كيف يصنعُ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**قد أنزلَ الله القرآنَ فيكَ وفي صاحبَتِكَ**» فأمرهما بالملاعنةِ. [رواه البخاري (٤٧٤٥)].

﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فالواجب أن يشهد الزوجُ القاذِفُ على زوجته أربع شهادات بالله تعالى أنَّه صادقٌ فيما رماها به من الزنى.

﴿وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أي: والشهادةُ الخامسةُ أنَّ لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من الزنى.

ودلت الآيةُ على أنَّ اللعان واجبٌ على الزوج إذا رمى زوجته بالزنى،

واختلفَ العلماءُ في حال امتناع الزوج عن اللعان، فرأى بعضُهم أنَّه يُحَدُّ حَدَّ القذف، وهو ما ذهب إليه الأئمة الثلاثة، خلافاً لأبي حنيفة القائل بأنه يُحْبَسُ حتى يلاعِنَ، أو يكذِّبَ نفسه فيقام عليه حد القذف[1].

﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾

﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ أي: يُدْفَعُ عن الزوجة العذاب الدنيوي، وهو الحبس عند بعض العلماء، والحد عند الآخرين.

والأصل اختلافهم في ثبوت الزنى، ووجوب الحد بنكول الزوجة عن اللعان، فذهب **أبو حنيفة وأحمد** إلى القول بأنه لا حَدَّ عليها بنكولها عن الشهادات، وتحبس أيضاً حتى تلاعن أو تقر، فيقام عليها الحد؛ لأنَّ شهادات الزوج ونكولها هي لا يتحقق بواحد منهما ولا بهما مجتمعين ثبوت الزنى عليها، وذهب **الشافعيُّ ومالكٌ** ومن وافقهما، إلى أنها تحد بشهاداته ونكولها[2].

﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: إن كان زوجها لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنى.

﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: إن كان الزوج من الصادقين فيما رماها به من الزنى.

وجعل سبحانه الغضبَ في جانبها؛ ردعاً لها، لأنَّ النساءَ يستعملن اللعنَ كثيراً، كما ورد به الحديث، فربَّما يجترئنَ على الإقدامِ، لكثرة جري اللعنِ على ألسنتهنَّ، وسقوط أثر وقوعه عن قلوبهن[3].

---

(١) أضواء البيان: ٦/ ١٣٣.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٣٧١.

والحديثُ المشارُ إليه رواه ابنُ عمرَ رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «**يا معشرَ النساءِ تصدَّقنَ، وأكثرنَ الاستغفارَ، فإنِّي رأيتُكُنَّ أكثرَ أهلِ النَّارِ**».

فقالت امرأةٌ منهن جزلةٌ (أي: ذاتُ عقل ووقار): وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «**تُكْثِرْنَ اللعنَ، وتكفُرْنَ العشيرَ، وما رأيتُ مِنْ ناقصاتِ عقلٍ ودينٍ أغلبَ لذي لُبٍّ منكنَّ**».

قالت: يا رسول الله، وما نقصانُ العقلِ والدينِ؟ قال: «**أمَّا نقصانُ العقل، فشهادةُ امرأتينِ تعدِلُ شهادةَ رجلٍ، فهذا نقصانُ العقلِ، وتمكثُ الليالِيَ ما تصلِّي، وتفطِرُ في رمضانَ، فهذا نُقصانُ الدِّينِ**» [رواه مسلم (٧٩)].

وتجلَّت في هذه الأحكام الشرعية المبينة في الآيات رحمته تعالى بعباده المؤمنين، وحكمته في كل ما شرع لهم، ولهذا قال تعالى في معرض الامتنان عليهم:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

أي: كثير التوبة، يتجاوز عن التائبين بقبول توبتهم، حكيم في كل ما شرع لكم.

وحذف جواب (**لولا**) تعظيماً له، وإشعاراً بضيق العبارة عن حصره، كأنه قيل: ولولا تفضُّله تعالى عليكم ورحمته، وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة، حكيمٌ في جميع أفعاله وأحكامه، لكان ما كان ممَّا لا يحيطُ به نطاقُ البيانِ، ومن جملته أنَّه تعالى لو لم يشرع ذلك، لوجب على الزوج حد القذف، مع أنَّ الظاهرَ صدقُه، لأنَّه أعرفُ بحال زوجته، وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما في الفضيحةِ، وبعدما شرع لهم ذلك، لو جعل سبحانه شهادة الزوج موجبةً لحدِّ الزنى على الزوجة، لفات النظر لها، ولو جعل شهادتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له، فآثار التفضُّلِ والرحمةِ غيرُ خافية، أما على الصادق فظاهر، وأما على الكاذب فهو إمهاله والستر عليه في الدنيا، ودرء الحدِّ عنه، وتعريضه للتوبة، فما أعظمَ شأنه، وأوسعَ رحمته، وأدقَّ حكمته[1]!.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٦٠.

إنَّ تشريعَ أحكام اللعان قد أنارَ طريقَ الخلاص من هذه الأزمة المستحكِمة، التي يمكِنُ أن يتفاقمَ شرُّها، وينتشرَ ضررُها في نطاق المجتمع الكبير خارج الأسرة.

- **حادثة الإفك:**

ثم ألقت آياتُ سورة النور الضوءَ على أخطر مشكلة اجتماعية واجهتِ النبيَّ ﷺ في المدينة المنورة، والتي كادتْ آثارُها السلبية الخطيرة أن تزعزعَ وحدةَ المجتمع المسلمِ الوليدِ، الذي حرص النبيُّ ﷺ على تقويةِ بنائه، ورصِّ صفوف أبنائه، فأظهرت الحقيقةَ، وبدَّدت الشكوكَ، وأعادت للمجتمعِ المسلمِ في المدينة المنورة وحدتَه وصفاءَه، بعد أن فضحتِ المنافقين، وكشفت كيدَهم ومكرَهم بالنبيِّ ﷺ وأهله على وجه الخصوص، كما أظهرت في الوقت نفسه خطورة القذف بالزنى، وخطورة ما يؤدي إليه من شقاقٍ ونزاعٍ وإشاعةٍ للفاحشة بين أبناء المجتمع:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ﴾ أي: إن الذين جاؤوا بأبلغ ما يكون من الكذبِ والافتراءِ، جماعةٌ منكم.

والعصبة: من ثلاثة إلى عشرة، والمشهور في الروايات الصحيحة: أنَّهم عبد الله ابن أُبيٍّ ابن سلول، ومِسْطَح بن أثاثة، وحَمْنَةُ بنت جحش، وحَسَّانُ بن ثابت[1].

وأصلُ **الإفكِ** من الأَفْكِ، وهو القَلْبُ والصَّرْفُ، فهو قول مأفوك عن وجهه، والمرادُ منه ما أُفِكَتْ به السيدة عائشة رضي الله عنها.

(١) فتح الباري: ٨/ ٤٦٤.

وفي لفظ **المجيء** إشارة إلى أنَّهم أظهروه من عِنْدِ أنفسهم، من غير أن يكون له أصل[١].

وسبب نزول هذه الآيات: تبرئةُ السيدة عائشة ﵂ من حديثِ الإفك.

فعن **عائشة** ﵂ قالت: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا أرادَ أنَ يخرجَ أقرعَ بين أزواجِهِ، فأيتهنَّ خرجَ سهمُها خرجَ بها رسولُ اللهِ ﷺ معه.

قالت عائشةُ: فأقرعَ بيننا في غزوةٍ غزاها، فخرجَ سهمي، فخرجتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ بعدما نزلَ الحجابُ، فأنا أُحْمَلُ في هودجي، وأنزلُ فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسولُ اللهِ ﷺ من غزوته تلك، وقفلَ، ودنونا من المدينةِ قافلينَ، آذنَ ليلةً بالرحيلِ، فقمتُ حين آذنوا بالرحيلِ، فمشيتُ حتى جاوزتُ الجيشَ، فلمَّا قضيتُ شأني، أقبلتُ إلى رَحْلِي، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَارٍ قد انقطعَ، فالتمستُ عِقْدي، وحبسني ابتغاؤه، وأقبلَ الرَّهْطُ الذين كانوا يرحِّلون لي، فاحتملوا هَوْدَجِي، فرحَّلوه على بعيري الذي كنتُ ركبتُ، وهم يحسبون أنِّي فيه، وكان النساءُ إذ ذاكَ خِفافاً لم يثقلهنَّ اللحمُ، وإنَّما يأكلنَ العُلَقَة (أي: القليل) من الطعام، فلم يستنكرْ القومُ خفةَ الهودجِ حين رفعوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السنِّ، فبعثوا الجملَ وساروا، فوجدتُ عِقْدي بعدما استمرَّ الجيشُ، فَجِئْتُ منازلَهُم، وليس بها داعٍ ولا مجيبٌ، فأَمَمْتُ منزلي الذي كنتُ به، وظننتُ أنَّهم سيفقدونني فيرجعونَ إليَّ.

فبينا أنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني فنمتُ، وكان صفوانُ بنُ المعطِّلِ السُّلمي ثم الذكواني من وراءِ الجيشِ، فأدلجَ، فأصبحَ عندَ منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبلَ الحجابِ، فاستيقظتُ باسترجاعِهِ حين عرفني، فخمَّرتُ وجهي بجلبابي، واللهِ ما كلَّمني كلمةً، ولا سمعتُ منه كلمةً غيرَ استرجاعه، حتَّى أناخَ راحلته، فوطئ على يديها

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٦٠.

فركبتُها، فانطلقَ يقودُ بي الراحلةَ حتى أتينا الجيشَ بعدما نزلوا موغرين في نَحْرِ الظهيرةِ، فهلكَ مَنْ هلكَ، وكان الذي تولَّى الإفكَ عبدُ الله بنُ أُبي ابن سَلُول.

فقدمنا المدينةَ، فاشتكيتُ حين قدمتُ شهراً، والناسُ يفيضون في قول أصحابِ الإفكِ، ولا أشعرُ بشيءٍ من ذلكَ، وهو يُرِيْبُني في وجعي أنِّي لا أعرفُ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ اللطفَ الذي كنتُ أرى مِنْهُ حين أشتكي، إنَّما يدخلُ عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ فيسلِّمُ ثم يقول: «**كيفَ تِيْكُم؟**» ثم ينصرِفُ، فذاكَ الذي يُرِيْبُني ولا أشعرُ بالشرِّ، حتى خرجتُ بعدما نقِهْتُ، فخرجتْ معي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَناصِعِ، وهو متبرَّزُنا، وكنَّا لا نخرجُ إلا ليلاً إلى ليلٍ، وذلك قبلَ أن تُتَّخَذَ الكُنفُ قريباً من بيوتنا.

فانطلقتُ أنا وأُمُّ مِسْطَحٍ ـ وهي ابنةُ أبي رهم بن عبد مناف، وأُمُّها بنت صخر بن عامرٍ خالةُ أبي بكر الصديق، وابنها مسطحُ بن أثاثة ـ فأقبلتُ أنا وأمُّ مسطح قِبَلَ بيتي، وقد فرغنا من شأننا، فَعثُرتْ أم مسطح في مِرْطِها فقالت: تَعِسَ مسطحُ. فقلتُ لها: بئسَ ما قلتِ، أتسبِّينَ رَجُلاً شهدَ بدراً؟ قالتْ: أي هنتاه، أولم تسمعي ما قالَ؟ قالتْ: قلتُ: وما قال؟ فأخبرتني بقولِ أهلِ الإفكِ، فازددتُ مرضاً على مرضي.

فلمَّا رجعتُ إلى بيتي، ودخلَ عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ، تعني سلَّم، ثم قال: «**كيف تِيْكُم؟**» فقلتُ: أتأذنُ لي أن آتي أبويَّ ـ قالت: وأنا حينئذٍ أريدُ أن أستيقنَ الخبرَ مِنْ قِبَلِهما ـ قالت: فأذنَ لي رسولُ اللهِ ﷺ.

فجئتُ أبويَّ، فقلتُ لأمي: يا أمَّتاه ما يتحدَّثُ الناسُ؟ قالتْ: يا بنيةُ هوِّني عليكِ، فواللهِ لقلَّما كانتِ امرأةٌ وضيئةٌ عندَ رجلٍ يحبُّها، ولها ضرائرُ إلا أكثرنَ عليها، قالتْ: فقلتُ: سبحانَ اللهِ، أو لقد تحدَّثَ الناسُ بهذا؟! قالت: فبكيتُ تلكَ الليلةَ حتَّى أصبحتُ لا يرقأُ لي دَمْعٌ، ولا أكتحلُ بنومٍ، حتَّى أصبحتُ أبكي.

فدعا رسولُ اللهِ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالبٍ وأسامةَ بنَ زيدٍ رضي الله عنهما حين استلبثَ الوحيُ، يستأمِرهما في فراقِ أهلِهِ.

قالتْ: فأمَّا أسامةُ بنُ زيدٍ فأشارَ على رسولِ اللهِ ﷺ بالذي يعلمُ مِنْ براءةِ أهلِهِ، وبالذي يعلمُ لهم في نفسِهِ من الودِّ فقالَ: يا رسولَ اللهِ هُمْ أهلُكَ، وما نعلمُ إلا خيراً. وأمّا عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقال: يا رسولَ اللهِ، لم يضيِّقِ اللهُ عليكَ، والنساءُ سواها كثيرٌ، وإنْ تسألِ الجاريةَ تصدقكَ.

قالتْ: فدعا رسولُ اللهِ ﷺ بَرِيْرَةَ، فقال: **«أَيْ بريرةُ، هل رأيتِ من شيءٍ يريبُكِ؟»** قالتْ بَرِيْرَةُ: لا والذي بعثَكَ بالحقِّ، إنْ رأيتُ عليها أمراً أغمصُه عليها، أكثرَ من أنها جاريةٌ حديثةُ السنِّ، تنامُ عن عجينِ أهلِها، فتأتي الداجِنُ فتأكلهُ.

فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ، فاستعذرَ يومئذٍ من عبدِ اللهِ بن أُبي ابنِ سلولٍ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ وهو على المنبرِ: **«يا معشرَ المسلمينَ، مَنْ يعذرني من رجلٍ قد بلغني أذاه في أهل بيتي[1]؟! فواللهِ ما علمتُ على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما كان يدخلُ على أهلي إلا معي»**.

فقام سعدُ بن مُعاذٍ الأنصاري فقال: يا رسولَ اللهِ، أنا أعذرُكَ منه، إنْ كانَ من الأوسِ ضربتُ عنقَه، وإنْ كانَ مِنْ إخواننا مِنَ الخزرجِ أمرْتَنا ففعلنا أمرَكَ.

قالت: فقامَ سعدُ بنُ عُبادةَ وهو سيِّدُ الخزرجِ ـ وكان قبلَ ذلكَ رَجُلاً صالحاً، ولكن احتملتْهُ الحميةُ ـ فقال لسعدٍ: كَذبتَ لَعَمْرُ اللهِ، لا تقتلُه، ولا تَقْدِرُ على قتلِهِ.

فقام أُسيدُ بنُ حُضيرٍ ـ وهو ابنُ عَمِّ سعدِ بنِ مُعاذٍ ـ فقال لسعدِ بنِ عُبادةَ: كذبتَ لَعَمْرُ اللهِ لنقتلنَّه، فإنَّكَ منافقٌ تجادِلُ عن المنافقينَ.

فتساورَ الحيَّانِ الأوسُ والخزرجُ، حتى هَمُّوا أن يقتتلوا، ورسولُ اللهِ ﷺ قائمٌ على المِنْبَرِ، فلم يَزَلْ رسولُ اللهِ ﷺ يخفِّضهم حتى سكتوا وسكتَ.

قالتْ: فمكثتُ يومي ذلك لا يرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتحِلُ بنومٍ.

قالتْ: فأصبحَ أبواي عندي وقد بكيتُ ليلتينِ ويوماً، لا أكتحِلُ بنومٍ، ولا يرقأُ لي دمعٌ، يظنَّانِ أنَّ البكاءَ فالقٌ كبدي.

---

(١) في هذا دليل قاطع على أن أمهات المؤمنين هم أهل بيته خلافاً لما تزعمه الرافضة.



قالت: فبينما هما جالسانِ عندي وأنا أبكي، فاستأذنتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصارِ، فأذنتُ لها، فجلستْ تبكي معي.

قالت: فبينا نحنُ على ذلكَ، دخلَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ، فسلَّمَ ثُمَّ جلسَ، قالت: ولم يجلسْ عندي منذُ قيلَ ما قيلَ قبلها، وقد لبثَ شَهْراً لا يوحَى إليه في شأني، قالتْ: فتشهَّدَ رسولُ اللهِ ﷺ حين جلسَ، ثم قال: «**أمَّا بعدُ، يا عائشةُ، فإنَّه قد بلغني عنكِ كذا وكذا، فإن كنتِ بريئةً فسيبرئكِ اللهُ، وإن كنتِ ألمَمْتِ بذنبٍ فاستغفري اللهَ، وتوبي إليه، فإنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبه، ثم تابَ إلى اللهِ، تابَ اللهُ عليه**».

قالتْ: فلمَّا قضى رسولُ اللهِ ﷺ مقالته قلصَ دمعي، حتى ما أحسُّ منه قطرةً، فقلتُ لأبي: أجبْ رسولَ اللهِ ﷺ فيما قال. قال: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسولِ اللهِ ﷺ. فقلتُ لأمي: أجيبي رسولَ اللهِ ﷺ. قالت: ما أدري ما أقولُ لرسولِ اللهِ ﷺ. قالت: فقلتُ ـ وأنا جاريةٌ حديثةُ السنِّ لا أقرأُ كثيراً من القرآن ـ: إنِّي واللهِ لقد علمتُ أنَّكم سمعتُم هذا الحديثَ، حتى استقرَّ في أنفسِكُم، وصدَّقتم به، فلئِنْ قلتُ لكم: إني بريئةٌ ـ والله يعلمُ أني بريئةٌ ـ لا تصدِّقوني بذلكَ، ولئن اعترفتُ لكم بأمرٍ ـ واللهُ يعلمُ أني منه بريئةٌ ـ لتصدقُنِّي. واللهِ ما أجدُ لكم مثلاً إلا قول أبي يوسفَ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قالت: ثم تحوَّلتُ فاضطجعتُ على فراشي.

قالت: وأنا حينئذٍ أعلمُ أني بريئة، وأنَّ الله مبرئي ببراءتي، ولكنْ والله ما كنتُ أظنُّ أنَّ الله منزلٌ في شأني وحياً يُتْلَى، ولشأني في نفسي كان أحقرَ مِنْ أن يتكلَّمَ اللهُ فيَّ بأمرٍ يُتْلَى، ولكنْ كنتُ أرجو أن يرى رسولُ اللهِ ﷺ في النومِ رؤيا يبرِّئني اللهُ بها.

قالت: فواللهِ ما رامَ رسولُ اللهِ ﷺ ولا خرجَ أحدٌ من أهلِ البيتِ حتَّى أُنْزِلَ عليه، فأخذه ما كان يأخذُهُ من البُرَحَاء، حتى إنَّه ليتحدَّرُ منه مثل الجُمَانِ من العَرَقِ، وهو في يوم شاتٍ، مِنْ ثِقَلِ القولِ الذي يَنْزِلُ عليه.

قالتْ: فلمَّا سُرِّيَ عن رسولِ اللهِ ﷺ، سرِّي عنه وهو يَضْحَكُ، فكانتْ أوَّلُ

كلمةٍ تكلَّمَ بها: «**يا عائشةُ، أمَّا اللهُ ﷻ فقد برَّأكِ**» فقالت أُمي: قومِي إليه. قالتْ: فقلتُ: واللهِ لا أقومُ إليه، ولا أحمدُ إلا اللهَ ﷻ. وأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ . . .﴾ الآيات العشر كلها [١١ ـ ٢١].

فلمَّا أنزلَ اللهُ فيَّ براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفِقُ على مِسْطَحِ بنِ أثاثة لقرابته منه وفقره: واللهِ لا أنفقُ على مِسْطَحٍ شيئاً أبداً بعدَ الذي قال لعائشة ما قالَ. فأنزلَ الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] قال أبو بكر: بلى واللهِ، إنِّي أحبُّ أن يغفرَ اللهُ لي. فرجعَ إلى النفقةِ التي كان ينفِقُ عليه. وقال: واللهِ لا أنزعُها منه أبداً.

قالت عائشةُ: وكان رسولُ اللهِ ﷺ يسألُ زينبَ بنةَ جَحْشٍ عن أمري، فقال: «**يا زينبُ، ماذا علمتِ أو رأيتِ؟**» فقالتْ: يا رسولَ اللهِ، أحمي سمعي وبصري، ما علمتُ إلا خيراً. قالت: وهي كانت تساميني من أزواجِ رسولِ اللهِ ﷺ، فعصمَها اللهُ بالورعِ، وطفقتْ أختُها حَمْنَةُ تحارِبُ لها، فهلكتْ فِيْمَنْ هلكَ من أصحابِ الإفكِ» [رواه البخاري (٤٧٥٠)].

وبعد أن بين الله تعالى كذب الحديث الذي تحدثوا به عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وجَّه سبحانه الخطابَ إلى جميع المسلمين، الذين آلمهم وأحزنهم حديثُ الإفك، وفي مقدمتهم النبي ﷺ، والسيدة عائشة، ووالدها الصديق، وصفوان بن المعطّل السلمي، يواسيهم بقوله الكريم:

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: لا تحسبوا حديثَ الإفك شرّاً لكم، بل هو خيرٌ لكم، أظهر فيه تعالى كرامتكم عنده، فأنزل هذه الآيات الكريمة، تعظيماً لشأنكم، وإظهاراً لبراءتكم، وتهويل الوعيد لمن تكلَّم فيكم، والثناء على من ظن فيكم خيراً، كما أنه سبحانه أثابكم عليه الثواب العظيم، وأدَّبَ المؤمنين بأعظم الآداب، وبيَّن لهم ما يجب عليهم أن يتصفوا به من الأقوال والأفعال، في مثل تلك الأحوال.

وأما الذين أذاعوا حديث الإفك:

﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي: لكل واحد منهم جزاء إثمه على مقدار خوضه فيه، مما يدل على تفاوتهم في خوضهم في حديث الإفك.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: والذي تحمَّلَ معظمه، أو: والذي بدأ بإذاعته ونشره بين الناس، له عذاب عظيم في الدنيا والآخرة. وهو رأسُ المنافقين في المدينة المنورة، عبد الله بن أبي ابن سلول، كما مرَّ في حديث سبب النزول.

وفي مرسل سعيد بن جبير: وقذفها عبد الله بن أبي فقال: ما برئت عائشة من صفوان ولا برئ منها، وخاضَ فيه بعضُهم، وبعضهم أعجبه.

ووقع في «المغازي»: من طريق صالح بن كيسان، عن الزهري، عن عروة قال: أُخبرتُ أنّه كان يشاع ويتحدَّث به عنده، فيقره ويستمعه، ويستوشيه. [رواه البخاري (٤١٤١)][(١)].

- **تأديب وتوبيخ:**

ثم أدَّبتِ الآيات المؤمنين، وبيَّنت لهم الموقفَ الذي ينبغي أن يقفوه عند سماعهم مثل حديث الإفك، بقوله تعالى:

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: كان الواجبُ على المؤمنين والمؤمنات عند سماعهم حديثَ الإفك، أن يبادروا إلى تكذيبه، ويحسنوا الظن بالذين اتُّهموا به من المؤمنين والمؤمنات، لأنهم كنفس واحدة، كما قال تعالى في سورة الحجرات [١١]: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، فالإيمانُ رَحِمٌ بين المؤمنين، يوجب عليهم ظن الخير ببعضهم، والكفَّ عن الطعن فيهم، ومنع الطاعنين عنهم، كما يمنعونهم عن أنفسهم.

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٤٦٤.

﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ردوا ما سمعوا من طعن وافتراء، وقالوا: هذا كذب واضح لا حقيقة له.

ولا يخفى ما في الآية من توبيخ وعتاب لعامة المؤمنين، الذين لم يبادروا إلى ردِّ حديث الإفك وتكذيبه، ولذلك عدل عن الخطابِ إلى الغيبةِ، كما صرَّحَ بلفظ الإيمان، ليدل على أن الاشتراك فيه، يقتضي ألا يصدِّقَ مؤمنٌ على أخيه، ولا مؤمنةٌ على أختها قولَ عائبٍ ولا طاعنٍ، وهذا من الأدبِ الحسنِ، الذي قلَّ القائم به والحافظ له[1].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا تأديبٌ من الله تعالى للمؤمنين، في قصَّة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، حين أفاضَ بعضهم في ذلك الكلام السوء، وما ذكر من شأن الإفك. وقوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: هلا ظنوا الخير، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به»[2].

ولأجل هذا قال العلماء: إنَّ الآية أصلٌ في أن درجة الإيمان، التي حازها الإنسان، ومنزلة الصلاح التي حَلَّها المؤمن، ولبسة العفاف التي يستتر بها المسلم، لا يزيلها عنه خبرٌ محتمَلٌ وإن شاع، إذا كان أصله فاسداً أو مجهولاً[3].

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي: هلَّا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا، فالله تعالى جعل شهادة الشهداء الأربعة هي الفاصِل بين الرمي الصادق والكاذب، كما مَرَّ عند قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

وكما وصفهم تعالى في الآية السابقة بالفسق، وصفهم هنا بالكذب فقال: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي: فأولئك الخائضون في

---

(١) تفسير النسفي: ٤/٣٧٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٥٩١.

(٣) تفسير القرطبي: ١٢/٢٠٣.

حكم الله وشرعه، هم المتمادون في الكذب، المستحقُّون لإطلاق اسمه عليهم دون غيرهم.

وقد يعجزُ الرجلُ عن إقامة البينة، وهو صادقٌ في قذفه، لكنَّه في حكم الشرع وظاهر الأمر كاذبٌ، لا في علم الله تعالى، وهو سبحانه إنَّما رتَّبَ الحدودَ على حكمه الذي شرعه في الدنيا، لا على مقتضى علمه الذي تعلَّق بالإنسان على ما هو عليه، فإنما يُبنى على ذلك حكم الآخرة[١].

ولا شكَّ أن الذين قذفوا السيدة عائشة رضي الله عنها كاذبون في الحقيقة والواقع وفي علمه تعالى وفي شرعه.

وبعد أن بينت الآياتُ حكمه تعالى بالقاذفين، توجهت إليهم بالخطاب، تبين لهم فضله تعالى عليهم، بإمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقاب:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

أي: لأصابكم بسبب ما خُضتم فيه من حديث الإفك، عذاب عظيم في الدنيا والآخرة، وهذا الفضل منه تعالى لمن تاب وأناب، ورجع عما اتهم به السيدة عائشة رضي الله عنها، وأكذب نفسه.

- **البهتان العظيم:**

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أي: يأخذه بعضكم من بعض، يقال: تلقَّى القول وتلقَّفه وتلقنه، وقُرِئ: (تتلقونه) على الأصل، دون حذف التاء.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: وتتحدَّثون به من غير أن تعلموا أنه

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/٢٠٣.

حق، فحديثُ الإفك مجرَّدُ قولٍ لا سندَ له، ولهذا قيده بالأفواه، مع أنَّ القول لا يكون إلا بها؛ لأن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، ثم يترجم عنه اللسانُ، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يدور في أفواهكم، من غير ترجمة عن علم به في القلب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧][1].

﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أي: وتظنونه سهلاً لا إثمَ فيه، وهو عندَ الله ذنبٌ عظيم.

فما أعظمَ غَيْرته جلَّ وعلا على حَرَم نبيه عليه الصلاة والسلام!.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ أي: والواجبُ عليكم عندما سمعتم حديثَ الإفك أن تقولوا: ما يصحُّ لنا أن نتكلَّم بهذا الحديث.

وهو أدبٌ آخرُ ألزم الله تعالى به المؤمنين، إضافة إلى ما سبق من وجوب إحسان الظن بهم، فالواجب عليهم أن يزجروا أنفسهم عند سماعه عن التكلم فيه، وعليهم أن يقولوا:

﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾: وكلمة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ للتعجُّب من عِظَمِ القول، إذ الأصل أن يسبِّح الله عند رؤية العجيب من صنائعه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه، أو لتنزيه الله أن تكون زوج نبيه ﷺ فاجرة[2].

والبهتان العظيم: الكذب العظيم، عظَّمه الله تعالى لعظمة المفترى عليه، وهي الصديقة بنت الصديق، السيدة عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحرم الله عليكم تحريماً قطعياً دائماً.

---

(١) انظر: تفسير النسفي: ٤/ ٣٧٩.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٣٨٠.

﴿أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ لمثل هذا الحديث، من القذف أو استماعه.

﴿إِن كُنتُم﴾ حقاً.

﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يمنع عن كل قبيح.

﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨)﴾.

﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: ينزلها سبحانه عليكم مبينات، تنير لكم الطريق، وتكشف الحقيقة، كما ذكر سبحانه في أول آيات السورة: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)﴾.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليمٌ بجميع أحوالكم، حكيم في كل ما شرع لكم، وقد علم تعالى براءةَ السيدةِ عائشة، وحكمَ بذلك.

• **التعقيبات:**

ظهرت الحقيقة، وتبددت الأراجيف والأكاذيب، بعد أن أنزل الله هذه الآيات الكريمة، التي ألقت النور الكاشف للحقيقة، على هذه الحادثة الخطيرة، فدفعت التهمة، وتوعَّدت القائلين بها، ودعتهم إلى التوبة والإنابة، ووبَّخت السامعين لها، الذين لم يبادروا إلى ردها وتكذيبها، وأدَّبت أبناء المجتمع بما أدَّبتهم به من الآداب الرفيعة، القائمة على حُسن الظن بالمؤمنين في مثل هذه الوقائع والأحوال. ثم عقبت على ما حدث بقوله سبحانه الكريم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩)﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: يحبون أن ينتشر الزنى، ويظهر في مجتمع المؤمنين، وذلك بقذف المؤمنين والافتراء عليهم، ونشره وإذاعته بين الناس، فإنَّ ذلك يؤدي إلى انتشار الفواحش والزنى وانحلال الأخلاق؛ ولهذا توعدهم الله تعالى بأشد أنواع الوعيد فقال:

﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: والله يعلم وجه الحكم في تشديد الوعيد على هؤلاء الكذبة المفترين، إذ يؤدي افتراؤهم إلى إشاعة الفواحش والمنكرات، التي تهدم المجتمع المسلم، وتقوّض أركانه وقواعده من داخله.

وهذا يدل على رحمته تعالى بالمؤمنين، وإحسانه إليهم، وعنايته بطهارة مجتمعهم وسلامته، ولهذا شرع لهم هذه الأحكام، وأدبهم بهذه الآداب، ومنَّ عليهم فقال:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾.

وهو تكرير لمنته تعالى عليهم فيما شرع لهم، ليتمسَّكوا بشرعه، ويلتزموا بأحكامه، فهي وحدها التي تزكِّي نفوسهم ومجتمعاتهم من الفواحش والمنكرات، ولهذا قال بعدها محذِّراً:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: لا تسلكوا مسالكَ الشيطان، وتعرضوا عن أحكام دينكم وشريعة ربكم.

وما أكثر مسالك الشيطان، التي تبعد المسلمين عن شريعة ربهم! ولا شك أنَّ أحكام القوانين الوضعية، المخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية، هي من مسالك الشيطان التي تؤدي إلى شيوع الفواحش والمنكرات.

﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ أي: فاحذروا اتباعه، لأنَّ دأبه المستمر أن يأمرَ بالفحشاء والمنكر.

والفحشاء: الأمر المفرط في القبح، ويراد به عادةً الزنى.

والمنكر: ما ينكره الشرع من التبرُّج والاختلاط وكشف العورات، المؤدية إلى انتشار الزنى وانحلال الأسر، واختلاط الأنساب، وهو ما ابتليتْ به أكثر المجتمعات الإسلامية، بسبب إعراضها عن شرع الله تعالى، وتقليدها للأمم الغربية الكافرة، وتطبيقها لقوانينهم الوضعية، التي دأبت على نشر الفساد، وتمكينه في نفوس الناس.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي: ولولا فضل الله عليكم، بفتح باب التوبة لكم، ورحمته بقبولها منكم، ما طهر من دنس إثم الإفك أحد أبداً.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ أي: يطهِّر من يشاء بمحض إرادته جل وعلا.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع أقوال التائبين المستغفرين، ويعلم حقيقة أحوالهم، وما تكنُّه نفوسهم وصدورهم، وهو حثٌّ لهم على الإقبال على التوبة والاستغفار، بعدَ الإعراض عن اتباع الشيطان، وترك الفواحش والمنكرات.

- **فضل أبي بكر الصديق** رضي الله عنه:

ثم أوردتِ الآياتُ بعد هذا التعقيب العام، الموجَّه إلى عامة المسلمين، تعقيباً خاصّاً بصيغة العموم:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ أي: لا يحلف أولو الفضل منكم في الدين والسعة في المال. من: **ائتلى**، إذا حلف. أو: لا يقصِّر، من الألو.

والمراد **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه كما سيأتي معنا، وكفى به دليلاً على فضله.

﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يحلفوا على ألا يُحْسِنوا إلى المستحقين للإحسان، من الأقارب والمساكين والمهاجرين.

وهي صفاتٌ اجتمعت في موصوف واحد، وهو مِسْطَح بن أُثَاثَةَ، وكان

مسكيناً مهاجراً، ابن خالة أبي بكر الصديق ﷺ، كما تقدَّم في حديث السيدة عائشة عن سبب النزول، حيث قالت: «فلمَّا أنزل الله فيَّ براءتي قال أبو بكر الصديق ﷺ ـ وكان ينفِقُ على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره ـ: واللهِ لا أنفقُ على مسطح شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي. فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه وقال: والله لا أنزعها منه أبداً» [رواه البخاري (٤٧٥٠)].

﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ أي: وليعفوا عما فرط منهم، عندما تحدَّثوا بحديث الإفك، وليتجاوزوا عن العقوبة والانتقام منهم.

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: فافعلوا بهم ما ترجون أن يفعل الله بكم من الرحمة والمغفرة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر ويرحم مع كمال قدرته على المؤاخذة، فهو ترغيبٌ عظيمٌ في العفو، ووعدٌ كريمٌ بمقابلته.

ودلَّت الآية على فضل أبي بكر ﷺ وشرفه، فقد ذكر تعالى الفضل في معرض المدح بلفظ الجمع، ودل أيضاً على أنَّ مَنْ حلفَ على يمينٍ فرأى غيرَها خيراً منها، فليأتِ الذي هو خيرٌ، وليكفِّرْ عن يمينه، كما ورد في الحديث الشريف(١).

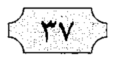
فعن **أبي هريرة** ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ حلفَ على يمينٍ، فرأى غيرَها خيراً منها، فليأتِ الذي هو خيرٌ، وليكفِّرْ عن يمينِهِ**» [رواه مسلم (١٦٥٠)].

- **الكفر الغليظ:**

وختمت الآيات تعقيباتها على حديث الإفك، بلعنة موجَّهة إلى جميع القاذفين الكاذبين:

---

(١) تفسير الخازن: ٤/ ٣٨٢.



﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: إن الذين يرمون النساء العفيفات المؤمنات، اللاتي لم يخطر ببالهنَّ شيءٌ مما رُمِيْنَ به من الفاحشة، مما يدل على كمال نزاهتهن، وأنهنَّ سليماتُ الصدور، تقياتٌ نقياتٌ عن كلِّ سوء.

ولا شك أن المراد بهذه الأوصاف السيدة عائشة رضي الله عنها، وصيغة الجمع باعتبار أنَّ رميها رميٌ لسائر أمهات المؤمنين؛ لاشتراكهن في العصمة والنزاهة، والانتساب إلى رسول الله ﷺ، فإنهنَّ قد خصصن من بين سائر المؤمنات، فجعل رميهن كفراً؛ إبرازاً لكرامتهنَّ على الله عز وجل، وحماية لحمى الرسالة من أن يحومَ حولها أحدٌ بسوء، حتى إنَّ ابنَ عباسٍ رضي الله عنهما جعله أغلظ الذنوب من سائر أفراد الكفر، حين سئل عن هذه الآية فقال: مَنْ أذنبَ ذنباً ثم تابَ مِنْهُ قُبلتْ توبتُه، إلا مَنْ خاضَ في أمرِ عائشةَ رضي الله عنها. قال أبو السعود تعليقاً على قول ابن عباس: وهل هو منه رضي الله عنه إلا لتهويلِ أمرِ الإفكِ، والتنبيهِ على أنَّه كفرٌ غليظٌ؟![1].

قال ابن كثير رحمه الله: «هذا وعيدٌ من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات، خرج مخرج الغالب (المؤمنات)، فأمهات المؤمنين أَوْلَى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما، وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة، على أنَّ من سبَّها بعد هذا، ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية، **فإنّه كافر معاند للقرآن الكريم**»[2].

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ أي: لعظم ذنوبهم، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولا توبةَ له، ولو فتشت وعيدات القرآن لم تجد أغلظَ مما نزل في إفك عائشة رضي الله عنها[3].

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٦٦.
(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٩٤.
(٣) تفسير البيضاوي: ٤/ ٣٨٣.

وتابعت الآياتُ وعيدَها الشديد، بقوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: بما كانوا يعملون في الدنيا من الإفك والبهتان، فَيُنْطِقُ الله أبعاضَهم شاهدة عليهم.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: جزاءهم الحق الثابت الذي هم أهله.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ويعلمون أنَّ وعدَ الله ووعيده وحسابه هو العدل الظاهر الذي لا جَوْر فيه.

- **براءة وبشارة:**

ثم قررت الآيات هذه القاعدة العامة، تأكيداً لبراءة السيدة عائشة رضي الله عنها، وتوطئة للتصريح بها في ختام هذه الآيات الكريمة:

﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَـٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَـٰتِ ۚ﴾ أي: الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبه أهل النفاق إلى السيدة عائشة رضي الله عنها من كلام، هم أولى به، وهي أولى بالبراءةِ والنزاهةِ منهم، ولهذا قرر تعالى هذه الحقيقة وصرح بها فقال:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ﴾ أي: هم بريئون مما يقوله أهل الإفك والعدوان.

ويمكن أن يكونَ المعنى أيضاً: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وحيث كان رسول الله ﷺ

أطيبَ الطيبين، وخيرةَ الأولين والآخرين، تبيَّنَ كونُ الصدِّيقة رضي الله عنها من أطيب الطيبات بالضرورة، واتضح بطلانُ ما قيلَ في حقها، ومآل هذا القول تنزيه الصدِّيقة أيضاً.

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: عند الله في جنات النعيم، وهي بشارة عظيمة للسيدة عائشة رضي الله عنها ولأمهات المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١].

- **تشريع الاستئذان:**

وكما قررت الآيات السابقة حرمةَ أعراض الناس، فصانت أعراضهم، وحفظت كرامتهم، قررت الآياتُ اللاحقةُ حرمةَ البيوت المسكونة، فحرَّمت دخولها دونَ استئذانِ ساكنيها، ومنعت بذلك اختلاطَ الرجال بالنساء، ودخولهم عليهن من غير استئذان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآيات أنَّ امرأةً من الأنصار قالت: يا رسول الله، إنِّي أكونُ في منزلي على الحال التي لا أحبُّ أن يراني أحدٌ عليها، لا والدٌ ولا ولدٌ، وإنَّه لا يزالُ يدخلُ عليَّ رجلٌ من أهلي وأنا على تلكَ الحالِ. فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ﴾(١).

قال القرطبي رحمه الله: «لمَّا خصص الله سبحانه بني آدم، الذين كرمهم وفضلهم بالمنازل، وسترهم فيها عن الأبصار، وملَّكهم الاستمتاع بها على الانفراد،

---

(١) تفسير الطبري: ١٨/ ٨٧.

حجر على الخلق أن يطلعوا على ما فيها من خارج، أو يلجوها من غير إذن أربابها، وأدَّبهم بما يرجع إلى الستر عليهم؛ لئلا يطلع أحد منهم على عورة»[(١)].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ أي: تستأذنوا من يملك الإذن من سكانها.

وأصلُ معنى **الاستئناس**: الاستعلام، من آنس الشيء إذا أبصره، كما في قوله تعالى: ﴿إِذۡ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].

فالمستأنِسُ مستعلمٌ للحالِ، مستكشِفٌ أنه هل يؤذن له.

وقد يكون الاستئناس الذي هو خلافُ الاستيحاش، فالمستأنس مستوحِشٌ خائفٌ ألا يؤذن له، فإذا أذن له استأنس.

أو حتى تتعرَّفوا هل ثمةَ إنسانٌ، من الإنس[(٢)].

وذهب بعضُهم إلى أنَّ الاستئناس، إعلامُ أصحاب البيت وإشعارهم بالقدوم عليهم، بأيِّ وجهٍ ممكن، كالتنحنح والتكلم، واستدلوا بما أخرجه **ابن ماجه** [٣٧٠٧]: عن **أبي أيوب** ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلامُ، فما الاستئناسُ؟ قال: «**يتكلَّمُ الرجلُ بتسبيحةٍ وتكبيرةٍ وتحميدةٍ ويتنحنحُ، ويؤذِنُ أهلَ البيتِ**».

قال القرطبي: «وهذا نصٌّ في أن الاستئناس غير الاستئذان»[(٣)].

لكنَّ إعلامَ القادم أهلَ البيتِ بقدومه لا يعدُّ إذناً له بالدخولِ عليهم، فلا بد من الاستئذان، لصريح قوله تعالى بعد ذلك: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ﴾ [النور: ٢٨].

﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ﴾ أي: عند الاستئذان.

فحكمُ الآيةِ أنَّه لا يُدْخَلُ بيتُ الغير، إلا بعد الاستئذان والسلام، سواء

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ٢١٢.

(٢) تفسير البيضاوي: ٤/ ٣٨٥.

(٣) تفسير القرطبي: ١٢/ ٢١٤.

كان الباب مغلقاً أم مفتوحاً، لأنَّ الشرعَ قد أغلقه بتحريم الدخول، حتى يفتحه الإذن من أهله[١].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: الاستئذان والسلام خيرٌ لكم من الدخول بغتةً من غير إذن، لعلَّكم تتذكرون هذه الأحكام، وتلتزمون بالعمل بها، فإنَّ لها دوراً كبيراً هامّاً في تنظيم حياتكم الاجتماعية.

وقد صرَّحتِ الأحاديثُ الشريفةُ بحكمة الاستئذان وضرورته، فعن **سهل بن سعد الساعدي**: أنَّ رجلاً اطَّلعَ في جُحْرٍ في بابِ رسولِ اللهِ ﷺ، ومع رسولِ اللهِ ﷺ مِدْرَى يحكُّ بها رأسَهُ، فلمَّا رآه رسولُ اللهِ ﷺ قال: «**لو أعلمُ أنَّكَ تَنْظُرُنِي لَطَعَنْتُ بِهِ في عَيْنِكَ، إنَّما جُعِلَ الإذنُ مِنْ أجلِ البَصَرِ**» [رواه مسلم (٢١٥٦)].

والمِدْرى: آلةٌ يسوَّى بها الشعرُ، تشبِهُ المُشط.

وعن **عطاء بن يسار**: أنَّ رجلاً سألَ رسولَ اللهِ ﷺ فقال: أستأذنُ على أُمي؟ قال: «**نعم**» فقال الرجلُ: إنِّي معها في البيتِ، فقال: «**استأذنْ عليها**» فقال: إنِّي خادِمُها؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**استأذنْ عليها، أتحبُّ أن تَرَاهَا عَرْيَانةً؟**» قال: لا. قال: «**فاستأذنْ عليها**» [رواه مالك في «موطئه» في باب الاستئذان برقم (٩٠١)].

ومما يدل على أهمية الاستئذان، أنَّ الآيات الكريمة فصَّلت أحكامه في أحواله المختلفة، بقوله تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي: فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها ليأذنَ لكم فلا تدخلوها إلا بإذن منهم، لأن التصرُّفَ في ملك الغير لا بدَّ أن يكونَ برضاه.

وإن كان أهلُها غيرَ مستعدين لاستقبالكم والإذن لكم فارجعوا:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ٢٢٠.

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ﴾ أي: ولا تُخرِجوا سكانَ البيوت، ولا تلحُّوا في الاستئذان، وتُطيلوا الوقوفَ على الأبواب.

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إذا استأذنَ أحدُكُم ثلاثاً فلم يُؤْذَنْ لَهُ، فَلْيَرْجِعْ**» [رواه مسلم (٢١٥٣)].

وهذا يدلُّ على واقعيَّةِ أحكام الشريعة الإسلامية، وتقديرها لأحوال الإنسان وظروفه، فقد تمرُّ بالإنسان أحوالٌ في بيته لا تمكِّنه من استقبالِ أحدٍ، وقد يكونُ قولهم: ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾ بلسانِ حالهم، كأن يجد الزائرُ على الأبواب إعلاناً بمواعيد الزيارة، أو يشعر بوجود حركةٍ في البيتِ تدلُّ على انشغالِ سكانه، وعدم استعدادهم لاستقباله.

﴿هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ﴾ أي: الرجوعُ أطهرُ وأطيبُ لكم، لما فيه من سلامة الصدور ودفع الحرج، فليس من المروءةِ إطالةُ الوقوف على الأبواب، فإنَّ ذلك يعرِّضه للريبة والتهمة.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ فالتزموا بهذه الأحكام، فإنكم مسؤولون عنها.

ثم استثنت الآيات من أحكام الاستئذان دخول البيوت التي لم تخصص للسُّكنى، وإنَّما هي بمثابة مرافق عامة، يدخلها من له حاجة فيها، كالحوانيت والفنادق، ومحطات السكك الحديدية، وغيرها من الأماكن المعدة لمصالح الناس:

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ۝٢٩﴾

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ﴾ أي: فيها منفعة لكم.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ أي: والله تعالى يعلمُ حقيقة مقاصدكم، وهو وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل، قاصداً لفسادٍ أو اطلاعٍ على عوراتٍ، فإنَّه تعالى شرع أحكام الاستئذان، درءاً لهذه المفاسد.

- **وجوب غض الأبصار وحفظ العورات:**

ولهذا أضافت الآياتُ إلى أحكام الاستئذان، أحكاماً عامة شاملة، تندرِجُ فيها آداب الزيارة والاستئذان اندراجاً أوليّاً، فيها تربية وجدانية نفسية، تقوم على تنمية الإحساس بالمراقبة الإلٰهية، وجعل الوجدان الداخلي يقظاً حذراً، كابحاً لنزوات النفس وشهواتها:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ أي: يكفُّوا أبصارهم عما يحرم عليهم، ويقتصروا على ما يحل لهم.

وتوجيهُ الخطابِ للنبيِّ ﷺ، وتكليفُه بتبليغهم الحكم، يدلُّ على أنه متعلق بأمور واقعية جزئية كثيرة الوقوع.

وفي الحديث الشريف: عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لا ينظرُ الرجلُ إلى عورةِ الرَّجُلِ، ولا المرأةُ إلى عَوْرةِ المرأةِ، ولا يُفْضِي الرجلُ إلى الرَّجُلِ في ثوبٍ واحدٍ، ولا تُفْضِي المرأةُ إلى المرأةِ في الثوبِ الواحدِ**» [رواه مسلم (٣٣٨)].

قال النووي: فيه تحريمُ نظرِ الرجلِ إلى عورة الرجل، والمرأة إلى عورة المرأة، وهذا ممَّا لا خلافَ فيه، وكذا الرجلُ إلى عورةِ المرأةِ، والمرأةُ إلى عورةِ الرجلِ، حرامٌ بالإجماع(١).

﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ أي: يحفظوها عن الزنى والفواحش، ويستروها عمن لا يحل له النظر إليها.

ودل تقييد غض الأبصار بـ (من) التبعيضية، دونَ حفظ الفروج، على وجود

---

(١) فتح الباري: ٩/٣٣٨.

شيء من السعة في النظر، أمَّا الزنى فلا رخصةَ فيه أبداً، فالنظرة الأولى التي لا يمكِنُ الاحترازُ عنها، لا مؤاخذةَ عليها.

وفي الحديث الشريف: عن **بُرَيْدَةَ**: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لعلي: «**يا عليُّ، لا تُتْبِعِ النظرةَ النظرةَ، فإنَّما لكَ الأُوْلَى، وليستْ لكَ الآخِرَةُ**» [رواه أبو داود (٢١٤٩) والترمذي (٢٧٧٧) وقال: حديث حسن غريب].

وعن **جرير بن عبد الله** رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ اللهِ ﷺ عن نَظَرِ الفُجاءةِ، فأمرني أن أصرفَ بصري. [رواه مسلم (٢١٥٩)].

فالنظرة الأولى لا تُمْلَكُ، فلا تدخل تحتَ خطاب التكليف، إذ وقوعها لا يتأتَّى أن يكون مقصوداً، فلا تكونُ مكتسبةً، فلا يكونُ مكلَّفاً بها، فوجبَ التبعيضُ لذلك، ولم يقل ذلك في الفرج؛ لأنها تُملك، **ولقد كره الشعبيُّ أن يديمَ الرجلُ النظر إلى ابنته أو أُمِّه أو أخته، وزمانه خيرٌ من زماننا هذا، وحرامٌ على الرجلِ أن ينظرَ إلى ذاتٍ مُحَرَّمةٍ نظرَ شهوةٍ يرددها**[١].

وأشارتِ الآيةُ بتقديم غض الأبصار على حفظ الفروج، إلى خطورة النظر المحرَّمِ، وأنَّه بريدُ الزنى، ورائدُ الفساد، وأكد ذلك الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ كتبَ على ابنِ آدمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنى، أدركَ ذلكَ لا محالةَ، فزنى العينِ النظرُ، وزنى اللسانِ المنطقُ، والنفسُ تتمنَّى وتشتهي، والفرجُ يصدِّقُ ذلكَ كلَّهُ ويكذِّبُه**» [رواه البخاري (٦٣٤٣)].

وقوله: «**أدرك ذلك لا محالة**» لا يعني الإجبار وتجريدَ الإنسان عن كسبه واختياره، وكلُّ ما كتبه الله على الآدمي، فهو قد سبق في علمه تعالى، والإنسان لا يعلمُ ما كتبه تعالى عليه، وهو مكلَّفٌ بما أمره تعالى وشرع له، وله في ذلك كسب واختيار يسأله الله عنه، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام في نهاية الحديث: «**والنفسُ تتمنَّى وتشتهي**».

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي: الغض من الأبصار وحفظ الفروج أطهر لنفوسهم

---

(١) تفسير القرطبي: ١٢/ ٢٢٣.

ومجتمعاتهم من دنس الفواحش، وآفات الزنى وأضراره الصحية والخلقية والاجتماعية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم ومقاصدهم، فليكونوا على حذر منه تعالى في جميع تصرفاتهم.

وأظهرت الآياتُ خطورةَ هذه الأحكام، وأهميتها في حياة الناس رجالاً ونساء، فكرَّرتِ الخطابَ في حق النساء، مع أنهن يدخلن في الخطاب الأول دخولاً ضمنيّاً:

﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ أي: فهنَّ في هذا مكلفات كالرجال، بغضِّ الأبصار وحفظ الفروج.

- **تحريم كشف مواضع الزينة:**

ثم شرعت الآياتُ أحكاماً خاصة بالنساء، كُلِّفْنَ بها لأنهنَّ موضعَ الفتنة، فقالت:

﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ أي: لا يكشفنَ ويُظْهِرْنَ ما يتزينَّ به من أنواعِ الزينة أمامَ الأجانب عنهن، فالمرادُ تحريمُ كشف مواضع الزينة من جسد المرأة.

والزينةُ حلالٌ للمرأة تلبية لفطرتها، فكل أنثى مولعةٌ بأن تكون جميلةً، وأن تبدو جميلةً.. والإسلام لا يقاوِمُ هذه الرغبة الفطرية، ولكنَّه ينظمها ويضبطها، ويجعلها تتبلور في الاتجاه بها إلى رجل واحد، هو شريكُ الحياةِ، يطَّلعُ منها

على ما لا يطَّلعُ أحد سواه، ويشترك معه في الاطلاع على بعضها المحارمُ المذكورون في الآية بعدُ، ممَّن لا يثيرُ شهواتِهم ذلك الاطلاع[١].

﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: إلا ما ظهر منها بنفسه، عند مزاولة المرأة لأمور ضرورية لا بدَّ لها منها، كالخاتم في إصبع اليد، وأطراف الثياب، فإنَّ في سترها حرجاً كبيراً يشق عليها.

واختلف العلماء في الزينة المستثناة ومواضعها، قال سعيد بن جبير والضحاك والأوزاعي: الوجه والكفان، وقال ابن مسعود: هي الثياب، وقال ابن عباس: هي الكحل والخاتم والخضاب في الكف، فما كان من الزينة الظاهرة يجوز للرجل الأجنبي النظر إليه للضرورة، مثل تحمُّل الشهادة ونحوه من الضرورات، إذا لم يخف فتنة وشهوة، فإن خاف شيئاً من ذلك غَضَّ البصر[٢].

ثم أضافت الآيةُ بعد تقرير الحكم، بيان كيفية إخفاء مواضع الزينة، فقالت: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ أي: عليهن أن يرسلنَ خمرهنَّ على جيوبهن، ستراً لما يبدو من أعناقهن وصدورهن.

والخُمُرُ: جمع خِمَارٍ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها.

والجيوبُ: جمعُ جيبٍ، وهو فتحةُ الصدرِ.

وكان النساء في الجاهلية يسدلنَ خمرهن من خلفهن، فتبدو صدورهنَّ ونحورهنَّ، فأمرَ الله المؤمناتِ بمخالفتهنَّ، وإرسالِ خمرهنَّ على صدورهنَّ لسترها.

ووصفت السيدة عائشةُ رضي الله عنها مبادرةَ النساءِ إلى تنفيذ أمر الله تعالى، فقالت: يرحمُ الله نساءَ المهاجراتِ الأُوَل، لمَّا أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شققنَ مروطهنَّ فاختمرنَ بها. [رواه البخاري (٤٧٥٨)].

وقولها: **(مروطهن)** جمع مرط، وهو الإزار.

قولها: **(فاختمرن)** أي: غطينَ وجوههنَّ، وصفة ذلك أن تضع الخمار على

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٥١٢.

(٢) تفسير الخازن: ٤/ ٣٨٩.

رأسها، وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر، وهو التقنُّع. وأخرج الحديثَ النسائيُّ بلفظ: أخذَ النساءُ...[١].

ثم كررت الآياتُ النهيَ عن إظهار الزينة، تأكيداً للحكم، وإظهاراً لخطورته وأهميته، وأضافت إليه بيان من يحل للمرأة أن تظهر لهم زينتها:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: لأزواجهن، فإنهم المقصودون بالزينة، فللزوجِ أن ينظرَ إلى جميع بدن زوجته، ومن السُّنَّة أن تتزينَ المرأةُ لزوجها.

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فهؤلاء هم المحارم الذين يجوز للمرأة إظهار زينتها أمامهم، لكثرة المخالطة لهم، وقلة توقع الفتنةِ مِنْ قبلهم، فلهم أن ينظروا منهنَّ ما يبدو عند المهنة والخدمة، وأشارتِ الآيةُ بسكوتها عن ذكر الأعمام والأخوال، مع أنَّهم من المحارم، إلى أنَّ الأحوطَ أن يتسترن عنهم؛ حذراً من أن يصفوهن لأبنائهم[٢].

ونبّه القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أمرٍ هام، وهو أنَّ هؤلاء المحارم، وإن سوَّى الله سبحانه بينهم في إبداء الزينة، ولكن تختلف مراتبهم بحسب ما في نفوس البشر، فلا مريةَ أنَّ كشفَ الأب والأخ على المرأةِ أحوطُ من كشف ولد زوجها، وتختلِفُ مراتبُ ما يبدَى لهم، فيبدى للأب ما لا يجوز إبداؤه لولد الزوج[٣].

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: المؤمنات، فإن الكوافر لا يتحرجن أن يصفنهن للرجال، فهن في إبداء الزينة كالرجال الأجانب، وإلى هذا ذهب أكثرُ السلف، وقد منع النبيُّ ﷺ المرأةَ أن تصفَ لزوجها مفاتن غيرها من النساء[٤].

---

(١) فتح الباري: ٨/ ٤٩٠.
(٢) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٧٠.
(٣) تفسير القرطبي: ١٢/ ٢٣٢.
(٤) فتح الباري: ٩/ ٣٣٨.

ففي الحديث الشريف: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه: أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لا تباشِرُ المرأةُ المرأةَ فتنعتها لزوجِها، كأنّه ينظُرُ إليها**» [رواه البخاري (٥٢٤٠)].

وذهب بعضهم إلى أن المراد بقوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ جميع النساء، واحتجوا بما ورد في بعض الأحاديث الصحيحة، من دخول بعض الذميات على أمهات المؤمنين، وحملوا قول السلف على الاستحباب، وهذا القولُ أرفقُ بالناس اليومَ، فإنَّه لا يكادُ يمكن احتجاب المسلمات عن الكافرات[1].

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أي: ملكاً صحيحاً مشروعاً، فالعبدُ المملوك محرَّمٌ على سيدته، فلها أن تبدي زينتها له إذا أمنتِ الفتنةَ.

وذهب بعضهم إلى أن المراد الإماء المملوكات، أما العبيد فهم كالأجانب، وعلى المرأة أن تستترَ عنهم، ولا شكَّ أن هذا الرأي أحوط.

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ وهم الشيوخ الطاعنون في السن، الذين فنيت شهواتهم، يتبعون النساء، ويدخلون عليهن ليصيبوا من فضل الطعام، لا همة لهم إلا ذلك، ولا حاجة لهم في النساء، فإن صدر من أحدهم ما يدل على تعلُّقه بالنساء وميله إليهن، مُنِعَ من الدخول عليهنَّ، كما ورد في الحديث الشريف: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: كان يدخلُ على أزواجِ النبيِّ ﷺ مُخَنَّثٌ، فكانوا يعدُّونه من غيرِ أولي الإربةِ، قال: فدخلَ النبيُّ ﷺ يوماً وهو عندَ بعض نسائِهِ، وهو ينعتُ امرأةً، قال: إذا أقبلتْ أقبلتْ بأربعٍ، وإذا أدبرتْ أدبرتْ بثمانٍ، فقال النبيُّ ﷺ: «**ألا أرى هذا يَعْرفُ ما هاهنا، لا يدخلَنَّ عليكُنَّ**» قالت: فحجبوه. [رواه مسلم (٢١٨١)].

﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: الأطفال الصغار الذين لم يكشفوا على عورات النساء؛ لعدم بلوغهم حد الشهوة، أما إذا أصبحَ عندهم ميلٌ إلى النظر إلى عورات النساء، فالواجبُ حينئذٍ الاحتجابُ عنهم، وهذا

---

(١) روح المعاني: ١٨/ ١٤٣.

يختلف من طفل إلى طفل، ولهذا جاء التعبير عامّاً، يدل على جنس الأطفال، دون تحديد لنوع وسن.

ودل استقراء الآية لهؤلاء الأصناف من الناس، الذين يجوز أن تخالطهم المرأةُ، وتبدو بزينتها أمامهم، على أنَّ غيرهم من أبناء المجتمع لا يجوزُ أبداً أن ينظروا إلى مواضع زينة المرأة، ولا يجوز لها أيضاً أن تكشفَ زينتها لهم، وهم ممنوعون من الدخول على النساء مهما كانت قرابتهم منهن؛ لأن الفتنة من جهتهم غيرُ مأمونةٍ، بل قد تكونُ أكبرَ وأخطرَ، ولهذا قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إيَّاكُمْ والدخولَ على النساءِ**» فقال رجلٌ من الأنصارِ: أفرأيتَ الحَمْوَ؟ قال: «**الحَمْوُ الموتُ**» [رواه مسلم (٢١٧٢)].

والمراد من **الحمو**: أقاربُ الزوجِ، أخوه وأبناء عمه ونحوهم.

ومعنى «**الحمو الموت**»: أنَّ الخوفَ منه أكثر من غيره، والفتنة أكبر؛ لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة بها، من غير أن ينكرَ عليه أحدٌ، بخلاف الأجنبي، وكذلك قد تتساهلُ المرأةُ بكشف زينتها أمامه، وإبداء مفاتنها له، مما يؤدِّي إلى الفتنة والهلاك في الدين، فجعله عليه الصلاة والسلام كهلاك الموت.

ويجب على المرأةِ أيضاً أن تتجنَّب كلَّ أسباب الإثارة، التي تلفت الأنظار إلى مفاتنها وزينتها؛ ولهذا مضت الآيةُ تنهى المؤمنات عن الحركاتِ التي تعلنُ عن الزينة المستورة، وتهيِّجُ الشهوات الكامنة، قال تعالى:

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أي: ولا يضربنَ بأرجلهن الأرضَ؛ فتهتزَّ خلاخلهن، ويؤدي ذلك إلى تنبيه الرجال ليتأمَّلوا فيهن.

وكان النساءُ يضعن الخلاخلَ في أقدامهن، وقد دأبَ كثيرٌ منهنَّ على استعمالِ العطورِ والطيوبِ، ذواتِ الروائح النفاذة، التي تؤدِّي إلى جلب أنظار الرجال إليهن، ولهذا منعَ رسولُ اللهِ ﷺ المرأةَ مِنَ التطيُّبِ إذا أرادتِ الخروجَ من بيتها، فقال: «**إذا شَهِدَتْ إحْدَاكُنَّ العشاءَ، فلا تَطَّيَّب تلكَ الليلة**» وفي رواية: «**إذا شهدتْ إحداكُنَّ المسجدَ فلا تَمَسَّ طيباً**» [رواه مسلم (٤٤٣)].

وعن **أبي موسى** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**كُلُّ عَيْنٍ زانيةٌ، والمرأةُ إذا اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ بالمجلسِ كذا وكذا**» يعني زانية. [رواه أبو داود (**٤١٧٣**) والترمذي (**٢٧٨٦**) وقال: حسن صحيح].

ثم توَّج الله تعالى ذيل الآيةِ، بدعوة جميع المؤمنين والمؤمنات إلى التوبة والإنابة، مما يدركهم من ضعفٍ أمام ذلك الميل الفطري الغريزي، فقد لا يتمكَّنون من ضبطه بالضوابط الشرعية، إلا إذا استشعروا رقابة الله تعالى عليهم، ومسؤوليتهم الكاملة أمامه يوم القيامة، ذلك هو الأسلوبُ الأمثلُ لتربية النفوس وتهذيبها، وجعلها تلتزم بالأحكام الشرعية، التي توصلها إلى الفلاح في الدنيا، والبقاء في النعيم السرمدي في الآخرة:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: توبوا إلى الله جميعاً رجاءَ أن تفلحوا.

أو: توبوا إلى الله جميعاً لأجل أن تفلحوا في الدنيا وتنالوا الفلاح في الآخرة.

ومرَّ معنا أنَّ من صفات المؤمنين المفلحين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون].

- **الحث على الزواج وتحريم البغاء:**

ولمَّا كان الزواج خير وسيلة عملية لمنع الزنى، وبقاء النسل وحفظ الأنساب، شجعت الآيات عليه بقوله تعالى:

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢﴾.

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ أي: زوِّجوا من تأَيَّمَ منكم من الرجال والنساء الأحرار، **والأيامى**: جمع أيِّم، وهو غير المتزوج، ويطلق على الذكر والأنثى.

﴿وَالصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْۚ﴾ أي: وزوِّجوا أيضاً الصالحين من عبيدكم وإمائكم.

فالزواجُ حق من حقوق الإنسان، سواء كان حرّاً أو عبداً، ذكراً أو أنثى، وعلى أولياء الأمر في المجتمع أن يعملوا على تيسير وتسهيل الزواج، وإزاحة العقبات من وجه مريديه.

ولمَّا كانت العقبةُ الماديةُ هي المعوقَ الأولَ للزواج، حث سبحانه على تجاوزها وعدم اعتبارها عائقاً، فقال:

﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ أي: لا ينبغي أن يكونَ فقرُ الخاطبِ أو المخطوبةِ مانعاً من الزواج، فإن فضله تعالى واسع، وهذا وعدٌ منه تعالى بتوسعة الرزق على مريدي الزواج، وكان كثير من السلف يرونَ أنَّ الزواج من أسباب سعة الرزق والغنى.

قال **ابن عباس** رضي الله عنهما: رغَّبهم الله في التزويج، وأمر به الأحرارَ والعبيد، ووعدهم عليه الغنى.

وعن **ابن مسعود** رضي الله عنه قال: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾[١].

وقال **أبو بكر الصديق** رضي الله عنه: أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاحِ، يُنْجِزْ لكم ما وعدكم من الغنى[٢].

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**ثلاثةٌ حَقٌّ على اللهِ عونُهم: الناكِحُ يريدُ العفافَ، والمكاتِبُ يريدُ الأداءَ، والغازي في سبيلِ اللهِ**» [رواه أحمد (٢/ ٢٥١) والنسائي (٦/ ٦١) والترمذي (١٦٥٥) وابن ماجه (٢٥١٨)].

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: والله غني ذو سَعةٍ، عليمٌ بأحوال عباده، وما يصلح لهم.

---

(١) تفسير الطبري: ١٨/ ٩٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٠٣.

ثم أرشدت الآياتُ الذين لم تتيسر لهم سبل الزواج إلى الصبر والتعفف حتى ييسِّره الله سبحانه لهم:

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: ليجتهدوا في العفة وقمع الشهوة، حتى يغنيهم الله تعالى من فضله، وييسِّر لهم أسبابَ الزواج.

كما جاء في الحديث الشريف: عن **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه قال: كنا مع النبيِّ ﷺ شباباً، لا نجدُ شيئاً، فقال لنا رسولُ اللهِ ﷺ: «**يا معشرَ الشبابِ، مَنِ استطاعَ الباءةَ فليتزوَّجْ، فإنَّهُ أغضُّ للبصرِ، وأحصنُ للفرجِ، ومَنْ لم يَسْتَطِعْ فعليه بالصَّوْمِ، فإنَّه له وِجاءٌ**» [رواه البخاري (٥٠٦٦)].

ويكون الاستعفافُ أيضاً بغضِّ البصر عن المحرمات، والبُعد عن أسباب الإثارة ومواطنها، كما سبق في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾ [النور: ٣٠].

وكما شجعت الآيات على تيسير سبل الزواج لمريديه، شجعت أيضاً على تيسير سبلِ الحياة الحرة الكريمة للأرقاء الذين يتطلعون إلى الحرية، فشرعت عقدَ المكاتبةِ بين العبد وسيده، يسمحُ فيه للعبد بالاكتساب، حتى يؤدي مبلغاً معيناً لسيده، فيصبحُ بعدَه حرّاً:

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ﴾ أي: والذين يريدون الحرية من عبيدكم، فكاتبوهم إن علمتم منهم أمانة وصلاحاً.

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ أي: وأعينوهم بإعطائهم من أموال الزكاة، لوفاء ما عليهم من مال المكاتبة، فقد شرع الله تعالى في مصارف الزكاة

سهماً لفك الرقاب، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

ومهدت الآيات بهذا التحريم إلى منع استغلال العبيد والإماء، في نشر الفواحش والزنى في المجتمع، كما كان عليه الحال في الجاهلية، إذ كان بعضُهم يُكْرِه الجواري المملوكاتِ على الزنى، ليكسب من وراء ذلك المال، فأنزلَ الله قوله الكريم:

﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي: أردن تعفُّفاً عن الزنى، وإنَّما قيده بهذا الشرط؛ لأن الإكراه لا يكون إلا مع إرادة التحصن، فآمِرُ المطيعة بالبغاء لا يسمى مكرِهاً، ولا أمره إكراهاً، ولأنها نزلت على سبب فوقع النهي على تلك الصفة(١).

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لتطلبوا بذلك عرض الحياة الدنيا، من كسبهن المال.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان أهلُ الجاهلية إذا كان لأحدهم أمَة، أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سببُ نزول هذه الآية الكريمة في شأن عبد الله بن أُبي ابن سَلول، فإنَّه كان له إماء، فكان يكرههنَّ على البغاءِ، طلباً لخراجهنَّ، ورغبةً في أولادهنَّ، ورياسةً منه فيما يزعم»(٢).

فعن **جابر بن عبد الله** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ جاريةً لعبد الله بن أُبي ابن سَلول يقال لها: مُسَيكة، وأُخرى يقال لها: أُميمة، فكان يكرههما على الزنى، فشكتا ذلك إلى النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾. [رواه مسلم (**٣٠٢٩**)].

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٣٩٥.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٠٤.

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر سبحانه لهن؛ لأنهنَّ مكرهات، لا للمُكْرِه، إلا إذا تاب وأناب.

ثم عقب الله تعالى على هذه الأحكام والآداب، بقوله الكريم:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: مبينات كل ما تحتاجون إليه من الأحكام والآداب، التي تزكي نفوسَكم، وتطهر مجتمعاتكم، فالتزموا بها، ولا تنصرفوا عنها إلى غيرها، فهي أحكامٌ لازمةٌ لكم، مفروضة عليكم، كما قال تعالى في أول آيات السورة: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: وأنزلنا إليكم أيضاً قصة عجيبة، من أمثال قصص الذين من قبلكم، والمراد بها براءة السيدة عائشة رضي الله عنها ممَّا رماها به أهل الإفك، أظهر الله براءتها كما أظهر من قبلُ براءة يوسف عليه السلام، وبراءة مريم، فهذه من أمثال من قبلنا، بينما براءة السيدة عائشة من المثل الذي أنزل إلينا.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وأنزلنا موعظة ينتفع بها المتقون، وأفاد تخصيصهم بالذكر مع شمول الموعظة للكل، حث المخاطبين على الاعتناء بالتقوى، والانتظام في سلك المتقين، ببيان أنهم المغتنمون لآثار الآيات، المقتبسون من أنوارها(١).

❁ ❁ ❁

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٧٥.

الفصل الثاني

الهداية

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ

لَهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ

ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

- **النور والهداية:**

وبعد أن بينت آياتُ سورة النور هذه الأحكام، وشرعت ما مرَّ معنا من التشريعات الاجتماعية، وبيَّنت ضرورتها للناس، لتزكيةِ نفوسهم، وتطهيرِ مجتمعاتهم، أضافت بياناً آخر، يحتاجُ إليه الناس أيضاً، كحاجتهم إلى بيان الأحكام أو أشد، وهو الهداية والتوفيق إلى التزامِ هذه الأحكام وتطبيقها، على مستوى الأفراد والمجتمعات، فالمعرفة وحدَها لا تكفي، ولا بدَّ أن يكونَ معها انقياد واستسلام والتزام، ولما كانت الهداية من الأمور المعنوية غير المحسوسة، المستمدة من الله تعالى، قرَّبَتْها الآيات إلى الأذهان، فضربت لها هذا المثال الرائع، بقوله تعالى:

﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أي: الله منوِّر السماوات والأرض، نوَّرهما **بالأنوار الحسية** التي خلقها فيهما، كالأنوار الطبيعية المنبعثة من الشموس والنجوم، والأنوار الاصطناعية التي استخرجها الإنسان، بعد أن هداه الله تعالى إلى مصادرها.

ونوَّرهما أيضاً **بالأنوار المعنوية**، وهي أنوار الوحي والتشريع والعلم والمعرفة، وأنوار الهداية والتوفيق للسير على طريق الوحي والتشريع.

ونوَّرهما أيضاً **بالسنن الكونية المبثوثة فيهما**، من أصغر الذرات إلى أضخم المجرات، والتي يدبر الله تعالى بها أمر جميع المكونات، فلا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بمشيئته وقدرته جل وعلا.

قال الإمام الطبري رحمه الله: «﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هادي مَنْ في السماوات والأرض، فهم بنورِه إلى الحق يهتدون، وبهداه من حَيْرة الضلالةِ يعتصمون. وروي عن ابن عباس: أنَّه قال في تفسير الآية: هادي أهل السماوات والأرض. وقال رضي الله عنه أيضاً: مدبِّر السماوات والأرض. وروى عن أنس قال: إنَّ إلٰهي يقول: نوري هُداي»[1].

ولا شك أنَّ الهدايةَ نورٌ، وأنَّ الكفرَ ظلمةٌ، أكَّد الله عز وجل هذا في آيات كثيرة:

منها قوله الكريم: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومنها قوله الكريم: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

ومنها أيضاً: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ويؤكده أيضاً قوله تعالى الآتي: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ولما كان القرآن الكريم كتابَ تشريع وهداية، سمَّاه الله تعالى نوراً، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

---

(١) تفسير الطبري: ١٨/ ١٠٥.

وقال ﷻ أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

والنبيُّ ﷺ نورٌ أيضاً، لأنه يهدي إلى دين الله تعالى وصراطِه المستقيم، قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة].

كما أنه عليه الصلاة والسلام سراج؛ لأنه يبين دين الله تعالى، وينير للناس طريق الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب].

ومهما قلنا في النور المحسوس والمعنوي، فهو حادث مخلوق، كما قال سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

فهو غير الله تعالى، الذي وصف ذاته المقدسة بقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

لكنَّ **النورَ** اسمٌ من أسماء الله الحسنى، يدل على كماله جل وعلا، وجماله ووحدانيته، فإنَّ النورَ ظاهرٌ بذاته، مظهِرٌ لغيره، وأصل الظهور هو الوجود، كما أنَّ أصلَ الخفاءِ هو العدمُ، والله سبحانه موجود بذاته، موجد لما عداه[(١)].

ومن دعاءِ النبيِّ ﷺ وهو يتهجَّدُ بالليل: «**اللهمَّ لكَ الحمدُ أنتَ قيومُ السمواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنَّ، ولكَ الحَمْدُ لكَ مُلْكُ السمواتِ والأرضِ ومَنْ فيهنَّ، ولكَ الحَمْدُ أنتَ نورُ السمواتِ والأرضِ...**» [رواه البخاري (١١٢٠)].

وأمَّا المرادُ من قول رسولِ اللهِ ﷺ عندما سُئِل: هَلْ رأيتَ ربَّكَ؟ قال: «**نورٌ أنَّى أَرَاهُ**» [رواه مسلم (١٧٨)]، فمعناه: حجابه النور، فكيف أراه؟!.

وقد ورد هذا المعنى في حديث **أبي موسى الأشعري** ؓ قال: قام فينا

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤/٣٩٧.

رسولُ اللهِ ﷺ بخمس كلماتٍ، فقال: «**إنَّ الله ﷻ لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يخفِضُ القسطَ ويرفعُهُ، يُرْفَعُ إليه عملُ الليلِ قَبْلَ عَمَلِ النهارِ، وعَمَلُ النهارِ قبلَ عَمَلِ الليلِ، حجابُه النورُ، لو كشفَهُ لأحرقتْ سُبُحَاتُ وجهِهِ ما انتهى إليه بصرُهُ من خلقِهِ**» [رواه مسلم (١٧٩)].

ومر معنا في مواضع متعددة، أن من أساليب القرآن الكريم في التربية والتهذيب وتقريب المعاني، ضرب الأمثال، وتشبيه الأمور المعنوية غير المحسوسة، بأشياء محسوسة، ولهذا مثَّل سبحانه لأنوار هدايته المعنوية، بالأنوار المبصَرة المحسوسة، الصادرة من مثل ما كانوا يعرفون من مصادر النور والإضاءة، في زمن نزول القرآن الكريم، فقال سبحانه:

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: مثل صفة نور هداية آياته المبينات الكريمة، وأحكام دينه القويمة، كصفة مشكاة فيها مصباح.

والمشكاة: الكوةُ التي لا منفذَ لها إلا من جهة واحدة.

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ أي: المصباح موضوعٌ في داخل زجاجة؛ لتقوية النور وتصفيته، فمن المعلوم أنَّ الزجاجَ يصفِّي النور، ويزيدُ في ضيائه ولمعانه؛ ولهذا شبهه سبحانه بالكوكب المتلألئ فقال:

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أي: متلألئ، نسبةً إلى الدُّر، وهي الأحجار الكريمة المتلألئة.

ويستمدُّ هذا المصباحُ طاقته من زيتٍ، من أجودِ أنواع الزيتون:

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي: تتعرض لأشعة الشمس طول النهار، فهي في أرض ظاهرة لا يحجبها عن الشمس شرق ولا غرب.

ومن المعلوم أنَّ شجر الزيتون كلَّما كان تعرُّضه للشمس أكثر، كان زيته أجودَ وأضوأَ، ولهذا وصفه تعالى بقوله:

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: يكاد يضيء بنفسه من غير نارٍ؛ لشدَّة صفائه ولمعانه.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي: فهو نورٌ مضاعَفٌ: نور المصباح، وصفاء الزيت ولمعانه.

وهكذا هدايته ﷻ، هداية مضاعفة متوالية: **هداية الفطرة، وهداية الرسل والكتب، وهداية الدلائل والبراهين والحجج العقلية والنقلية، وهداية التوفيق والتثبيت**، وكلها من فضله تعالى وإحسانه.

﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يوفق سبحانه من يشاء من عباده لنور هدايته، وهو عليم بأحوالهم.

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ أي: ويضرب الله الأمثال المحسوسة للمعاني المجردة، لكي يتفهمها الناس وينتفعوا بها.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ولهذا فإن أمثاله تامة محكمة، لا خلل فيها ولا اضطراب.

• **المهتدون:**

ولا بدَّ بعد هذا المثال العجيب المتقن المحكم، أن يسأل سائل نفسَه: أين هؤلاء المنتفعون بهذه الأمثال، والمهتدون بما فيها من أنوار؟ وجاء الجواب من الحكيم العليم:

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي: في مساجد أمر الله تعالى ببنائها وتعظيمها وذكره فيها، بعبادته وتلاوة آياته.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ﴾ أي: يصلي لله تعالى فيها في أول النهار وآخره رجال.

وأصلُ **التسبيح**: تنزيه الله تعالى وتقديسه، ويطلقُ أيضاً على الدعاء والصلاة، والمراد هنا: الصلوات المفروضة في أول النهار وآخره.

ورَفْعُ المساجد وتعظيمُها: بعبادةِ الله تعالى فيها، وبتطهيرها من الأنجاس والأقذار، وصيانتها عن الروائح الكريهة والأقوال السيئة، وعن الأمور الدنيوية كالبيع والشراء.

ففي الحديث الشريف: عن **أنس** رضي الله عنه قال: بينما نحنُ في المسجدِ، مع رسولِ اللهِ ﷺ إذ جاء أعرابيٌّ فقامَ يبولُ في المسجدِ، فقال أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ: مَهْ مَهْ. قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا تَزْرِمُوهُ، دَعُوْهُ**» فتركوه حتى بالَ، ثم إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دعاهُ فقالَ له: «**إنَّ هذِهِ المساجِدَ لا تصلحُ لشيءٍ مِنْ هذا البولِ، ولا القذرِ، إنَّما هي لذكرِ اللهِ ﷻ والصلاةِ وقراءةِ القرآنِ**» فأمرَ رجلاً مِنَ القومِ، فجاءَ بدلوٍ من ماءٍ فشنَّهُ عليه. [رواه مسلم (٢٨٥)].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَنْ سمعَ رَجُلاً ينشِدُ ضالةً في المسجدِ فليقلْ: لا ردَّهَا اللهُ عليكَ، فإنَّ المساجِدَ لم تُبْنَ لهذا**» [رواه مسلم (٥٦٨)].

وعن **جابر** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ أكلَ من هذه البقلةِ: الثوم** - وقال مرة: **مَنْ أكلَ البصلَ والثومَ والكرَّاثَ** - **فلا يقربنَّ مسجِدَنا، فإنَّ الملائكةَ تتأذَّى ممَّا يتأذَّى منه بنو آدمَ**» [رواه مسلم (٥٦٤)].

وعن **عائشة** رضي الله عنها قالت: أمرنا رسولُ اللهِ ﷺ ببناءِ المساجدِ في الدُّورِ، وأن تنظَّفَ وتطيَّبَ. [رواه أحمد (٦/ ٢٧٩) وأبو داود (٤٥٥) والترمذي (٥٩٤) وقال: صحيح].

وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ فيه إشعارٌ بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عُمَّاراً للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وأمَّا النساءُ فصلاتهن في بيوتهن أفضل لهن[1]:

ففي الحديث الشريف: عن **ابن عمر** رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تَمْنَعُوا نساءَكُم المساجدَ، وبيوتهنَّ خيرٌ لهنَّ**» [رواه البخاري (٩٠٠) ومسلم (١٣٦)].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٠٩.

﴿لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي: لا تشغلهم عن طاعة ربهم وعبادته الأمور الدنيوية والمادية؛ لأنَّ قلوبهم استنارت بنور هدايته تعالى، فتطلَّعت إلى رضوانه وثوابه، ولهذا فإنهم يقدِّمون طاعته تعالى ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم.

وتخصيصُ التجارةِ والبيعِ بالذكر؛ لأنهما أقوى الصوارف التي تصرف الإنسان عن عبادة ربه، وتشغله عن ذكره، أكد ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أي: يصدقون بيوم القيامة، وما فيه من حساب وجزاء، فهم يخافون من هذا اليوم الذي تضطرب فيه القلوب والأبصار؛ من شدة أهواله وأفزاعه.

ودلتِ الآيةُ على أنَّ الإيمان بيوم القيامة، وما فيه من المسؤولية أمام الله تعالى، له أثر كبير في تربية الإنسان وتهذيبه، وجعله يضبط تصرفاته وسلوكه بميزان الأحكام الشرعية، فهي النور التي تضيء له الطريقَ المستقيمَ الوسط، الذي يوصله إلى الفوز برضوان الله تعالى، ويحقق له مطالبه الدنيوية المشروعة.

﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ﴾ أي: هؤلاء الذين استناروا بأنوار هدايته، هم الذين يتقبَّلُ الله يوم القيامة أعمالهم، فيثيبهم عليها ثوابَ أحسنِ عملٍ فيها، ويضاعفه لهم بفضله وإحسانه.

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: بغيرِ عَدٍّ وحد، لكمالِ جوده تعالى، وسَعةِ فضله وإحسانه.

• **الضالون:**

هؤلاء هم المهتدون بنور الله تعالى، المنتفعون بآياته، الملتزمون بأحكام شريعته، وأما الضالون المحجوبون عن أنوار هدايته، فإنَّهم يضربون في بيداء الحياة على غير نور وهدى، دون أن يدركوا حكمة وجودهم، وجوهر حياتهم، يصرفون كل طاقاتهم إلى الدنيا، منهمكين بشهواتها، فهم في عطش دائم متجدد، كُلَّما حاولوا إطفاء سُعار الشهوات المتأجج في نفوسهم، ازداد عطشُهم، واشتدَّ سُعارُهم، فيزيدون في سعيهم، ويضاعفون جهدهم، فهم طول حياتهم يركضون ويلهثون وراء بَرْقٍ خُلَّبٍ خادعٍ، وسرابٍ كاذبٍ، حتى تنتهيَ أعمارهم، وتحينَ آجالُهم، ولن تجدَ مثلاً لواقعِ هؤلاء الناس أبلغ وأحكم من قوله تعالى فيهم:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾ أي: أعمالهم في الدنيا وسعيهم لها، كسراب في أرض منبسطة مستوية.

والسرابُ: ما يراه المسافِرُ في الفلوات من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة، فيظنُّ أنَّه ماء يسرب، أي: يجري.

﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً﴾ أي: يظنه الظمآن ماء، فيسعى إليه راكضاً لاهثاً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لم يجده شيئاً مما ظنه..

فما أشدَّ حسرته! وما أعظمَ لوعته! ضاعَ سعيه، واشتد عطشه، وخسر عمره، لأنه كان يسعى على غير نور وهدى وبصيرة، وعندما يحين أجله يسقط على طريق الحيرة والضلال، لاهثاً متحسراً متعباً مكدوداً، هذا هو حال الضالين، الذين يضربون في ظلمات الشهوات والأهواء، كما قال تعالى فيهم: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف] لأنهم أعرضوا عن نور شريعة الله تعالى، فأضلَّهم وحرمهم من أنوار هدايته ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨]، خسروا حياتهم وضاع سعيهم.

وفي نهاية المطاف، لا بدَّ أن يتحملوا أمام الله تعالى مسؤولية حياتهم.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: وجدَ حسابه ومسؤوليته أمام الله تعالى يوم القيامة، ومهما عاش الإنسانُ في هذه الحياة، فإنَّ مصيره ومآله إلى الله تعالى.

﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ أي: حاسبه حساباً كاملاً وافياً، وهو الحساب العسير المؤدي إلى الهلاك، كما جاء في الحديث الشريف: «**من نُوْقِشَ الحسابَ هَلَكَ**» [رواه مسلم (٢٨٧٦)].

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لا يشغله حساب عن حساب.

أو: والله قريب حسابه، وكل آتٍ قريب.

ثم ساقت الآيات مثالاً آخر، لبيانِ شدَّة الظلمات المعنوية التي تحيطُ بعقول الضالين وقلوبهم، فتحجبهم عن رؤية أنوار الشريعة والهداية:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ أي: في بحر عميق.

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ أي: تغطيه أمواج متراكمة، فوقها سحب سود داكنة، حجبت النجوم وأنوارها.

﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أي: هو يعيشُ في ظلمات داكنة متراكمة، بعضها فوق بعض، تحجبه عن أي مصدر من مصادر النور.

﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ أي: فلا يرى أقربَ الأشياء منه، حتى أجزاءَه وأبعاضَه القريبةَ منه لا يكادُ يراها.

إنَّه مثال رائع صادق لحياة وأعمال أولئك الذين سلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، فهم يعيشون في حَيرة وقلق واضطراب، وظلمةٍ تغلِّف عقولَهم ونفوسَهم، تتقاذفهم أمواجُ شهواتهم المضطرمة في نفوسهم، إنَّ هذا المثال الرائع يبين شدة افتقار الإنسان إلى هداية الله تعالى وأحكام شريعته.

﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ أي: من لم يهده الله تعالى فلا هادي له، كما قرر ذلك في آيات كثيرة، منها قوله الكريم: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

- **تسبيح المخلوقات:**

ووضوحُ الأدلة وظهورُها لا يكفي وحده، فلا غنى للإنسان عن هداية الله تعالى بتوفيقه إلى طاعته، والحقُّ واضحٌ أبلجُ لا لبسَ فيه ولا غموضَ، ومع ذلك تجدُ أكثرَ الناس لا ينقادون للحق، ولا يذعنون له، وما أكثر الأدلة الدالة على وجوده تعالى ووحدانيته، وهي مبثوثة في كل ذرة من ذرات الوجود، وفي كل خلية من خلايا النفس البشرية، ومع ذلك ترى كثيراً من الناس يكفرون بالله تعالى، ويغفلون عن عبادته وطاعته.

ولتقرير هذه الحقيقة وتأكيدها، اتجهت آياتُ سورة النور، تعرض بعضَ هذه الدلائل بأسلوب تقريري يزيدها وضوحاً وظهوراً:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝٤١﴾.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ألم تعلم أن الله ينزِّهه ويقدِّسه ويمجِّده كل مخلوقاته السماوية والأرضية؛ لأنها تدل على كمال خالقها ووحدانيته.

وقد يكونُ المرادُ حقيقةَ التسبيح، فلكل مخلوق حاله الذي يسبح الله تعالى

فيه، كما قال سبحانه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ أي: والطير تسبح الله تعالى وتدعوه، وهي باسطةٌ أجنحتَها، طائرةٌ في جو السماء.

ولعل سبب تخصيص الطير بالذكر، وهي تطير في جو السماء؛ لشدة ظهورها ووضوح أصواتها، فالآيات تعرض الأدلة الكونية الظاهرة البارزة.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: كل مخلوق يسبِّح بحمد خالقه، ويدعوه بالطريقة التي هداه إليها، مما يدلُّ على أنَّ ما يصدر عن المخلوقات من تسبيحٍ، لا يصدرُ عنها صدوراً عفويّاً، بل بتعليم الله تعالى وهدايته.

فالإنسان ليسَ وحده في هذا الوجود، إذ معه وحوله مخلوقات كثيرة متنوعة في طبائعها وأجناسها وصورها، وكلها تسبح الله وتمجده، كما علَّمها وهداها جل وعلا.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: عليم بما يفعلون من تسبيح ودعاء وخضوع وعبادة.

وكيف لا يكونُ عليماً بهم، وهو خالقهم ومالكهم، ومصيرهم إلى حكمه ومشيئته جل وعلا؟!:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)﴾.

- **جبال في الأرض والسماء:**

ولهذا عرضت بعد ذلك أدلة كونية أخرى، أكثر وضوحاً من سابقتها:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣)﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ أي: ألم تعلم أنَّ الله يسوق سحاباً، وقد أخبرنا تعالى أنه يسوقه بواسطة الرياح، التي تحمِلُ بخار الماء إلى طبقات الجو

الباردة، حيث يتكاثف بتقدير الله تعالى ومشيئته، فالرياحُ سببٌ، والله تعالى وحده خالق الأسباب والمسببات، كما قال في **سورة الروم**: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ أي: متراكماً بعضه فوق بعض، كما هو معلوم ومشاهد من حال سحب الأمطار.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ أي: ترى المطر يخرج من السحاب نازلاً إلى الأرض.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ أي: وينزل من جهة السماء من كتل مائية كبيرة ضخمة، تشبه الجبال في أشكالها وأحجامها، فيها بَرَدٌ.

ولا يمكن لأحدٍ أن يدركَ دقَّة التعبير القرآني الكريم وموضوعيته، إلا إذا حلَّق في الطائرة فوق كتل السحاب الهائلة، سبحان الله! ما أعظم قدرة الله! لقد رأيتُها من الطائرة المحلِّقة فوق جبال الألب، كتلاً هائلة ذات قمم مرتفعة ووديان سحيقة، تشبه تماماً الكتل الجبلية الكبيرة في الأرض، ولما تجاوزتِ الطائرةُ السحاب، وانكشفتِ القممُ العالية لجبال الألب، أدركتُ التشابه الكبير بين الجبال المائية المحمولة بقدرة الله تعالى في جَوِّ السماء، وبين الجبال الراسية على الأرض، وأدركت أيضاً دقة التعبير القرآني الكريم وإعجازه.

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ﴾ مما يدل على أن إرادته تعالى تامة، نافذة في ذرات الموجودات، فما من قطرةِ ماءٍ أو حبةِ بَرَدٍ، تتحرك في جو السماء أو تنزل إلى الأرض، إلا بقدرته تعالى ومشيئته.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: يكاد ضوء برق السحاب يذهب بالأبصار، لشدته وسرعة لمعانه، كما قال سبحانه: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أي: يجعلهما يتعاقبان بنظام دقيق ثابت لا يتغير، كما في قوله سبحانه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي: إن في هذه الظواهر الكونية أدلةً قاطعةً على وجود الخالق العظيم ووحدانيته، وكمال قدرته وباهر حكمته، لأولي العقول المفكرة المبصرة، وهي البصائر، واستعيرت الأبصار للبصائر بجامع ما بينهما من الإدراك والتمييز.

• **الأصل الواحد لدواب الأرض:**

ثم أعلنتِ الآياتُ حقيقةً علميةً كبيرةً، ما كان أحدٌ يعلمُها عند نزول القرآن الكريم، فكشفتْ عن وحدةِ الأصلِ للبنية المادية، لجميع المخلوقات الحية في الأرض:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍۖ﴾ أي: الله سبحانه خلق كل المخلوقات الحية التي تدب على الأرض، من ماء.

ولم تحدد الآيةُ ماهيةَ هذا الماء، أهو الماء المعهود، أم هو ماء مخصوص، كما في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق].

ومن المعلوم أنَّ الماء الدافقَ هو ماءُ النطفةِ، وهو في الحقيقة مستخلص من الأغذية التي يتغذَّى بها الإنسان، وهي مكونة بتقديره تعالى، بسبب الماء الذي أنزله سبحانه من السحاب، فالآية تؤكد قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

فالآية تقرر أنَّ جميعَ المخلوقات التي تدبُّ على الأرض، مكونة في بنيتها المادية العضوية من أصل واحد، مع أنَّها متعددة الأجناس والأنواع والأشكال، ومختلفة اختلافاً كبيراً في الصفات والملكات والطبائع... وهذا يدل على وحدانية خالقِها، وكمالِ قدرته جل وعلا، كما قال تعالى في عالم النبات: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

ثم لفتت الآياتُ الأنظارَ إلى أوضح جانب من جوانب الاختلافات الكبيرة، الظاهرة والخفية بين هذه المخلوقات، وهو اختلافها في الصور والأشكال:

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ كالزواحف.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم والسباع.

ويدل ذلك أيضاً على كمال قدرته وطلاقة مشيئته جل وعلا.

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: مما ذكر ومما لم يذكر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فأدلة وجوده تعالى ووحدانيته، وكمال قدرته وطلاقة مشيئته، كثيرة لا تُحصى، وواضحة وقريبة من أبصار الناس وبصائرهم، ومع ذلك فإنَّ أكثرَ الناس كافرون، مما يدل على أنهم محتاجون إلى هداية من الله تعالى مخصوصة، هي هداية التوفيق، فهداية البيان والتوضيح التي قام بها الأنبياء والمرسلون، لا تكفي وحدَها للوصول إلى الإيمان، لا بدَّ أن يكون معها هداية التوفيق من الله تعالى، وهذا ما قرره تعالى في قوله في الآية التالية، معقباً على ما سبق ذكره من أمثال وأحكام وتشريع وأدلة وبراهين:

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي: موضحات للأحكام والأدلة والبراهين.

وهذه هي الآيةُ الثالثةُ في السورة، التي قرر تعالى فيها هذا المعنى، ثم ختمها بما يتناسبُ مع سياق الآيات فقال:

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، وينبغي علينا أن نتذكر هنا أنه تعالى عليم حكيم، وهو أعلم حيث يجعل هدايته، كما قال سبحانه: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

وسيأتي قريباً قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤].

ولهذا فإن على الدعاةِ إلى الله تعالى إلا ييئسوا من هداية الناس إن أعرضوا عنهم في أوَّل الأمر، بل عليهم أن يلحُّوا في الدعوة، ويكرروا عرضها بأساليب جديدة، لأنَّهم لا يعلمون متى تدركُ هؤلاء الناس رحمة الله تعالى وهدايته.

• المعرضون عن أحكام الشريعة الإسلامية:

إن كثيراً من الناس أحاطت بهم أنوارُ الهداية من كل جانب، ومع ذلك أعرضوا ولم يهتدوا؛ لأنهم حُرموا من توفيق الله تعالى وهدايته، وأوضح أنموذج واقعي لأمثال هؤلاء الناس: المنافقون، فإن من أبرز صفاتهم أنهم لا ينقادون للحق، ويرفضون تحكيم شريعة الله تعالى، ولا يرضون بأحكامها البينات، إلا إذا كان حكمها في صالحهم:

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ أي: وأطعنا الله والرسول ﷺ في كل ما شرعا من أحكام.

وهي مجرد دعوى، يعلنونها بألسنتهم، يظهر كذبها عندما يُدعون إلى تحكيم شريعة الله تعالى.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: ثم يعرض فريق منهم عن قبول حكم

الله تعالى ورسوله ﷺ، من بعد ما صدر عنهم من ادِّعاء الإيمان بالله وبالرسول ﷺ وإعلان الطاعة لهما، والانقياد لأحكامهما.

﴿وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وما أولئك المدَّعين للإيمان بالمؤمنين حقّاً.

فالآيةُ تنفي عنهم الإيمانَ نفياً قاطعاً، وهي تشيرُ إليهم بإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ للإشعار ببعد منزلتهم بالكفر، وعراقتهم فيه، فالإيمانُ لا يصحُّ إلا بالانقياد الكامل ظاهراً وباطناً لأحكام شريعة الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ثم بينت الآيات كيفية إعراضهم عن تحكيم شريعة الله تعالى، بقوله:

﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: إذا دعوا إلى تحكيم شريعته تعالى فيما شجر بينهم وبين الناس من خصومات ومنازعات، إذا فريق منهم يرفضون حكمه تعالى وحكم رسوله عليه الصلاة والسلام، إذا كان الحكم ليس لصالحهم.

وأما الفريق الآخر، فإنهم يقبلون بحكم الله ورسوله ﷺ إذا كان لمصلحتهم:

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: منقادين له، راضين به، وانقياد هذا الفريق في الحقيقة، ليس انقياداً لأحكام الشريعة الإسلامية، وإنما هو انقياد لمصالحهم، فالقومُ عبيدُ المصالح والأهواء والشهوات، جعلوها أرباباً من دون الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وقال أيضاً: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد وصفهم النبيُّ ﷺ بقوله: «**تَعِسَ عبدُ الدينارِ والدِّرْهَمِ والقَطِيْفَةِ والخَمِيْصَةِ، إنْ أُعْطِيَ رَضِي، وإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**» [رواه البخاري (٢٨٨٦)].

وتساءلت الآيات تساؤلات إنكارية توبيخية، وهي تعرض تحليلاً نفسيّاً لدخائلهم:

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ أي: أفي قلوبهم مرضٌ ملازِمٌ لها؟ أم عرض لهم شك في دين الله تعالى؟ أم يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم؟.

فحالهم لا يخرجُ عن هذه الصفات الثلاث، متفرقة أو مجتمعة، وهي تدل على كفرهم، ولهذا أضربت الآية عن هذا التقسيم والتحليل، لتقرر نتيجته:

﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: أولئك الكاملون في الظلم، العريقون فيه.

وبهذا التقرير نفت الآياتُ الظلمَ عن الله تعالى وعن رسولِ اللهِ ﷺ. والمؤمنون حقّاً هم الذين يسارعون إلى تحكيم شريعته تعالى مذعنين مستسلمين:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾ أي: سمعنا الدعوة، وبادرنا إلى الإجابة دون إبطاء ولا تردد.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: أولئك المسارعون إلى تحكيم شريعته تعالى هم الفائزون.

وعليهم حتى يتحقق فلاحهم أن يستقيموا على الطاعة، ويلتزموا بأحكامه تعالى في جميع أحوالهم وأوقاتهم:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: في الحكم.

﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ﴾ أي: في سلوكه ومعاملاته.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾.

- **طاعة المنافقين:**

ثم وجهت الآياتُ أنوارَها إلى مزاعم المنافقين وادعاءاتهم، فكشفتهم وفضحتهم وبينت حقيقتهم:

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٥٣﴾.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي: أقسموا بالله مبالغين في القسم، باذلين فيه أقصى جهدهم، فالمنافقون يحاولون ستر نفاقهم بالأيمان الكاذبة، كما قال ﷻ فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

﴿لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ أي: لئن أمرتهم بالخروجِ إلى الجهاد، ليخرجُنَّ.

﴿قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ﴾ أي: قل: لا تحلفوا، طاعتكم طاعة معروفة معلومة، إنَّما هي مجرَّدُ قولٍ لا فعلَ معه، فكلَّما حلفتم كذبتم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فلا يخفى عليه شيء من سرائركم.

وهو تعالى فاضحكم ومجازيكم على نفاقكم، إلا إذا صدقتم في إيمانكم، وأطعتم الله تعالى طاعةً حقيقيةً، وتمسكتم بسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ أي: إن تتولوا عن الطاعة فلا تضروا الرسول ﷺ؛ لأنه مسؤول فقط عما كُلِّفَ به من تبليغ الرسالة، وعليكم أنتم مسؤولية الطاعة المستمرة، والخشية والتقوى الدائمة.

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أي: إن تطيعوا الرسول عليه الصلاة والسلام تصيبوا الحقَّ والرشدَ في طاعته، أو: إن تطيعوه تُوَفَّقوا إلى الهدى، فطاعةُ الرسولِ ﷺ سببٌ للفوزِ بتوفيق الله تعالى وهدايته، كما تقدَّمَ عند قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: إلا التبليغ الواضح.

وقد بلَّغَ رسول الله ﷺ الرسالةَ على أكمل وجه وأتمه، وأشهدَ على ذلك أمته في خطبة حجة الوداع، فقال: «**إنَّ دماءَكُم وأموالَكُم عليكُم حرامٌ كحرمةِ يومِكُم هذا، في شهرِكُم هذا، في بلدِكُم هذا، إلى يومِ تلقونَ ربَّكُم، ألا هَلْ بلَّغتُ؟**» قالوا: نعم، قال: «**اللهمَّ اشْهَدْ، فليبلِّغِ الشاهِدُ الغائِبَ**» [رواه البخاري (١٧٤١)].

وإنَّما قال عليه الصلاة والسلام ذلك، لأنَّه كان فرضاً عليه أن يبلِّغَ، فأشهدَ اللهَ على أنَّه أدى ما أوجبه عليه(١).

• **أضواء على مستقبل الأمة المسلمة:**

فلاحُ الأمة المسلمة وفوزُها في الدنيا والآخرة، وانتصارُها وتمكينُها في بقاع الأرض، كُلُّ ذلك منوطٌ بطاعتها لربها، وتمسُّكِها بسنة رسولها عليه الصلاة والسلام، وتحكيمِها لشريعتها الإسلامية، قررت ذلك الآيات الكريمة، وهي توجِّهُ أنوارها إلى المستقبل القريب والبعيد للأمة المسلمة، فتكشِفُ سجفَ الزمان، وتزيحُ أستارَ الغيوب عن المستقبل القريب والبعيد، بقول علَّام الغيوب جل وعلا:

---

(١) فتح الباري: ٣/ ٥٧٦.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذا وعد من الله تعالى مؤكد بالقسم للنبي ﷺ وأمته، ليجعلهم خلفاء الأرض وحكامها، وأصحاب السلطة والقوة والعِزَّةِ فيها، كما جعل الذين من قبلهم.

والمراد من ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ الأرض على عمومها وإطلاقها، لقوله تعالى في **سورة الأنبياء**: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

وفي الحديث الشريف: عن **ثوبان** رضي الله عنه: أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «**إنَّ الله تعالى زَوَى ليَ الأرضَ، حتَّى رأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها، وإنَّ أُمتي سيبلغُ ملكُها ما زويَ لي مِنْها، وأُعطيتُ الكنزينِ الأحمرَ والأبيضَ**» [رواه مسلم (٢٨٨٩)].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ أي: وليجعلنَّ دينهم ثابتاً قويّاً محفوظاً، وهو الإسلام الذي رضيه الله تعالى لهم ديناً، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

ومعنى تمكين الدين: تطبيق الشريعة الإسلامية، وإقامة العدل بين الناس، والتعاون والتكافل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ﴾ أي: وليجعلنهم آمنين أعزاء أقوياء، بعد أن كانوا قلة خائفين من أعدائهم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وذكروا في سبب النزول: أنَّ النبيَّ ﷺ مكث عشر سنين خائفاً، يدعو إلى الله سرّاً وعلانية، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة، فمكث بها هو وأصحابه خائفين، يصبحون في السلاح، ويمسون فيه، فقال رجل: ما يأتي علينا يومٌ نأمَنُ فيه ونضعُ عنا السلاح؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**لا تُغْبِرُوْنَ إلا يسيراً، حتى يجلسَ الرجلُ مِنْكُم في الملأ العظيم، محتبياً ليسَ فيهِ حديدةٌ**» فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ. . .﴾(١).

وقد أنجز ﷻ وعدَه، ونصرَ نبيه، وأعزَّ دينه، فعن **عدي بن حاتم** قال: بينا أنا عندَ النبيِّ ﷺ، إذ أتاهُ رجلٌ فشكا إليه الفاقةَ، ثم أتاهُ آخرُ فشكا إليه قطعَ السبيلِ، فقال: «**يا عَدِيُّ، هل رأيتَ الحِيرةَ؟**».

قلتُ: لم أرها، وقد أُنبئتُ عنها.

قال: «**فإنْ طالتْ بكَ حياةٌ لترَيَنَّ الظعينةَ ترتحِلُ من الحيرةِ حتَّى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحداً إلا اللهَ** ـ قلتُ فيما بيني وبين نفسي: فأينَ دعَّارُ طيِّئ الذين قد سعَّروا البلاد؟! ـ **ولئنْ طالتْ بكَ حياةٌ لتُفْتَحَنَّ كنوزُ كِسْرَى**».

قلتُ: كسرى بن هرمز؟.

قال: «**كسرى بن هِرْمِزَ، ولئنْ طالتْ بكَ حياةٌ لترَيَنَّ الرجلَ يخرِجُ ملءَ كفِّهِ من ذَهَبٍ أو فضةٍ، يطلبُ مَنْ يقبلُه منه، فلا يجدُ أحداً يقبلُه منه. وليلقيَنَّ الله أحدكم يومَ يلقاه، وليسَ بينَه وبينه ترجمانٌ يترجِمُ له، فيقولَنَّ: ألَمْ أبعثْ إليكَ رسولاً فيبلِّغُكَ؟ فيقولُ: بلى. فيقولُ: أَلَمْ أعْطِكَ مالاً وأفضلْ عليكَ؟ فيقول: بلى. فينظرُ عَنْ يمينِهِ فلا يرى إلا جهنَّمَ، وينظرُ عن يسارِهِ فلا يرى إلا جهنَّم**».

قال عدي: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «**اتقوا النارَ ولو بشقِّ تمرةٍ، فمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّ تمرةٍ فبكلمةٍ طيبةٍ**».

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوفَ بالكعبة، لا تخافُ

---

(١) تفسير الطبري: ١٨/ ١٢٢.

إلا الله، وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياةٌ لترونَّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «**يخرج ملء كفه**» [رواه البخاري (٣٥٩٥)].

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ أي: يعبدونني وحدي، فلا يخافون أحداً غيري.

أو: يعبدونني وحدي بتحكيم ديني وشريعتي، فلا يرضون بغيرها ديناً وشريعة.

وكأنَّ قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ ورد مورد التعليل لاستخلاف المسلمين في الأرض، وإعزاز دينهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: ومن ارتد وأعرض عن الإسلام وشرعه، بعد حصول الموعود به، فأولئك المرتدون هم الفاسقون، الكاملون في الفسق ومجاوزة حدود الإسلام وأحكامه.

وهو تهديد يتضمن التحذير من زوال النعم، وحلول البلايا والنقم، بسبب الإعراض عن طاعة الله تعالى وتحكيم شريعته، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

ثم بينت الآيات أسباب الثبات على الإسلام، والوقاية من الفتن، المؤدية إلى مجاوزة أحكام الشريعة الإسلامية:

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: افعلوا ما ذُكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ بالتمسك بسنته ﷺ.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بتوفيقكم وهدايتكم، كما تقدم في قوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٤٠].

فإنَّ طاعةَ الرسول ﷺ خيرُ وسيلةٍ لاستنزال رحمته تعالى وتوفيقه ومعونته،

وسيأتي التحذيرُ من مخالفته، وما يؤدي إليه من البلاء والفتن، عند قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ثم أكدت الآيات مضمون الوعيد السابق:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: لا تحسبن الذين كفروا معجزين الله تعالى عن إهلاكهم، في أي قطر من أقطار الأرض، فهم في قبضة قدرته وتحت قهر مشيئته أينما كانوا.

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: مأواهم ومصيرهم يوم القيامة إلى النار، وبئس المآل والقرار.

- **الاستئذان داخل البيوت:**

عادت الآيات في آخر سورة النور، إلى بيان الأحكام والتشريع، فألقت أضواءً جديدةً، وشرعت أحكاماً أخرى للاستئذان داخل البيوت، لأفراد الأسرة، وأشارت الآياتُ بتأخير هذه الأحكام، إلى الاتفاق والتكامل بينها وبين ما سبق من تشريع وأحكام في صدر السورة، وبينها وبين الهداية، فالتشريع والهداية جانبان متلازمان ومتكاملان، ولا غنى للإنسان عنهما.

وهذه الأحكامُ مستثناةٌ من عموم ما سبق تقريره وبيانه في تشريع الاستئذان، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ﴾

أي: يجب على المماليك والأطفال الذين لم يصلوا إلى سن البلوغ، أن يستأذنوا عند الدخول عليكم، في ثلاثة أوقات من كل يوم، وهي:

﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ وهي الأوقات التي يتجرد الإنسان فيها عادة من ثيابه، أو يتخفف من بعضها للنوم والراحة، ولهذا وصفها تعالى بقوله:

﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ أي: هي ثلاث أوقات يختل فيها ستر عورتكم، ويمكن أن تنكشفَ فيها، ويمكن أيضاً أن يكون الزوجان فيها في حال لا يريدانِ لأحدٍ أن يراهما عليه.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: ليس عليكم ولا عليهم إثم في الدخول بغير استئذان، في غير هذه الأوقات الثلاثة؛ لأنكم جميعاً محتاجون إلى الطواف والتنقل داخل البيت، فتشريعُ الاستئذان في كل الأوقات يؤدي إلى الحرج، والإسلام دين الرحمة واليُسر، لا حرج ولا مشقة في أحكام شريعته.

وتوجيه الآية خطابها إلى المكلفين من الأحرار البالغين، يدل على أنهم مسؤولون عن هذه الأحكام، فعليهم أن يعلِّموها للخدم والصغار، ويحملوهم على تطبيقها بالتربية والتأديب.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: هكذا يبين الله لكم ما تحتاجون من أحكام وتشريعات، وهو سبحانه عليم بمصالح عباده، حكيم في كل ما يشرع لهم.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ أي: إذا أصبح الأطفال بالغين.

﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فعليهم أن يستأذنوا عند الدخول

في جميع الأوقات؛ إذا وصلوا إلى سنِّ التكليف، وأصبحوا مكلفين بجميع أحكام البالغين قبلهم، فمرحلة الطفولة تنتهي بالبلوغ، وهي مرحلة العبث واللعب والحركة الدائمة.

واتفق العلماءُ على أنَّ الصبي إذا احتلمَ، والبنتَ إذا حاضت، فقد بلغا، وإذا تأخَّرَ احتلامُ الصبي وحيض البنت، فإنهما يصبحان بالغين حكماً إذا تم لهما من العمر خمسَ عشرةَ سنة، عند جمهور العلماء.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كرره تعالى مرة ثانية، تأكيداً لهذه الأحكام، وإظهاراً لأهميتها وضرورتها.

- **حجاب العجائز:**

واستثنت الآياتُ أيضاً من وجوبِ سَتْرِ مواضع الزينة، التي سبق بيانها، النساءَ العجائز:

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: والعُجَّزُ اللواتي ضعفت حركتهن بسبب عجز الشيخوخة والهرم، واللاتي لا يطمع الرجالُ فيهنَّ، ولا رغبةَ لهن في النكاح.

وأمَّا مَنْ كانت فيها بقيةُ جمال، وهي محل شهوة، فلا تدخل في حكم الآية[1].

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: ليس عليهن إثم وذنب إذا وضعن ثيابهن الظاهرة، كالجلباب والرداء والقناع.

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ﴾ أي: بشرط ألا يقصدنَ بوضع هذه الثياب التبرُّجَ وإظهار الزينة.

---

(١) تفسير الخازن: ٤/ ١٩٧.

والتبرُّجُ: هو التكلُّفُ لإظهار ما يخفى من مواضع الزينة، يقال: سفينة بارجة: لا غطاء عليها.

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي: وخير لهن أن يطلبن العفة بالتستر، وترك وضع شيء من الثياب، فذلك أبعد عن التهمة والريبة، ولكلٍّ ساقطةٍ لاقطةٌ.

وإذا كان الاستعفاف بعدم وضع الثياب أحوط في حق العجائز، اللواتي لا زينة لهن، فكيف حالُ غيرهنَّ من النساء الكواعب والشابات؟! فالفتنةُ في النساء كبيرةٌ وعظيمةٌ، والواجبُ عليهن دفع مفسدتها بالتستر والتعفف، والبُعد عن مخالطة الرجال غير المحارم ما استطعن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**ما تركتُ بعدي فتنةً هي أضرُّ على الرجالِ مِنَ النساءِ**» [رواه مسلم (٢٧٤٠)].

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: سميع لأقوالهن، عليم بأحوالهن. ولا يخفى ما فيه من تحذير ووعيد.

• **حرمة الأموال في البيوت:**

دلت آياتُ الاستئذان على أنَّ للبيوت حرمةً لا يجوزُ انتهاكها، ولا تخلو البيوتُ عادةً من طعام وشراب، فهل تمتد هذه الحرمة إلى الطعام والشراب، فلا يجوزُ لمن دخل هذه البيوت أن يأكل مما فيها حتى يستأذن من صاحبها؟ هذا ما تكفَّلت الآية التالية ببيانه وتوضيحه:

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾.

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: لا إثم على

الأعمى والأعرج والمريض، وهم أصحابُ الأعذار الذين يجوزُ لهم التخلف عن الخروج إلى الجهاد، وكان المجاهدون إذا خرجوا إلى الجهاد، يضعون مفاتيحَ بيوتهم عند المتخلِّفين من أصحاب الأعذار، ويأذنون لهم بدخولها وتفقدها في أثناء غيابهم، فكان هؤلاء يتحرَّجون عن الأكل مما يجدون فيها من طعام، فأنزل الله هذه الآية الكريمة، رافعة للحرج عنهم.

ثم أضافت الآية إلى هؤلاء في الحكم الأقارب والأصدقاء:

﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ أي: وكما لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم، كذلك لا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوت أقاربكم المحارم، وهم الطبقة الأولى من الأقارب الذين يحرمُ الزواج منهم.

وهذه من الآيات التي استدلَّ بها الفقهاء، الذين يوجبون نفقة الأقارب بعضهم على بعض، كما هو مذهب أبي حنيفة وأحمد في المشهور عنهما[١].

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ أي: ولكم أن تأكلوا أيضاً مما ملكتم مفاتحه، كالوكيل والخازن من دون أجر، فإن كان بأجر فلا يجوز لهما الأكل إلا بإذن صريح من صاحب الطعام.

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ أي: ولكم أن تأكلوا من بيوت أصدقائكم، وإن لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية، فإنهم أرضى بالتبسط، وأسرُّ به من كثير من الأقرباء.

وهذا فيما إذا علم رضا صاحب البيت، بصريح الإذن أو بقرينة دالة عليه، ولذلك خصص هؤلاء بالذكر، لاعتيادهم التبسط فيما بينهم[٢].

إذ الأصل التحريم والمنع، وللأموال في الإسلام حرمة كحرمة الأنفس

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٦١٩.
(٢) تفسير أبي السعود: ٦/ ١٩٦.

والأعراض، وقد مرَّ قريباً قول النبيِّ ﷺ: «**فإنَّ دماءَكم وأموالَكُم عليكم حرامٌ**» [رواه البخاري (١٧٤١)].

وفي «**صحيح مسلم**» [٢٥٦٤]: أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**كُلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ: دمُهُ، ومالُه، وعِرْضُه**».

واستطردت الآية إلى بيان بعض الأحكام المناسبة لموضوعها، فرفعت حرج بعض العادات والتقاليد التي كانت سائدة بينهم:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ أي: لا حرجَ عليكم في الأكل مجتمعين أو متفرقين، وكان بعضُ أحياء العرب لا يأكل أحدهم وحده، ولا يأكل إلا مع غيره، فوسَّع الله عليهم، وأذن لهم بالأكل مجتمعين أو متفرقين.

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: فابدؤوا السلام على أهلها، الذين هم منكم ديناً وقرابة.

أو: بيوتاً فارغةً فقولوا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين(١).

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ أي: يكن سلامكم تحية ثابتة مشروعة، شرعها الله تعالى، مباركة الثواب طيبة الأثر.

ففي الحديث الشريف: عن **أنس** رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «**يا بُنَيَّ إذا دخلتَ على أهلِكَ فسلِّمْ، يكنْ بركةً عليكَ، وعلى أهل بيتِكَ**» [رواه الترمذي (٢٦٩٨) وقال: حسن صحيح غريب].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تتفهمون ما فيها من شرائع وأحكام وحِكَم، وتعملون بموجبها.

- **استئذان الرسول ﷺ وطاعته:**

توَّجَ الله تعالى خاتمة سورة النور، بتشريع الاستئذان عند الانصراف والقيام

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٤٢٠.

من المجلس، وبيَّن أهميته ودلالته على النظام والانضباط الاجتماعي، واحترام إمام المجلس وولي أمره، فقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ أي: أمر يجمعهم، فيه مصلحة عامة، كمجالس العلم والشورى.

﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أي: لم ينصرفوا حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ، أو يستأذنوا نائبه وولي أمر المجلس بعده عليه الصلاة والسلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: هم المؤمنون بالله ورسوله ﷺ حقاً.

ففي الآية ثناءٌ كبيرٌ على المؤمنين المتمسِّكين بهذا الخلق الاجتماعي الرفيع، خاصة الصحابة، الذين تأدبوا بهذا الأدب الكريم مع النبي ﷺ، فامتازوا بذلك على المنافقين، الذين كانوا ينصرفون من مجلسه ﷺ دون استئذانه، كما سيأتي.

وفوضتِ الآيةُ الإذنَ إلى رأيه عليه الصلاة والسلام، بحسب ما يرى من المصلحة والحكمة:

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ أي: بعد أن تأذن لهم، وهذا يدل على أن بقاءهم في مجلسه عليه الصلاة والسلام أفضلُ، وأنَّ انصرافهم عنه فيه شيء من المؤاخذة يستدعي طلب المغفرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وينبغي أن يكون حال المسلمين كذلك مع أئمتهم ورؤسائهم في الدين والعلم، يظاهرونهم ولا يتفرقون عنهم إلا بإذن[١].

ثم حذرتهم الآياتُ من مخالفة أمره عليه الصلاة والسلام، والإعراضِ عن تلبية دعوته:

﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ أي: لا تقيسوا دعاءه ﷺ إياكم على دعاء بعضكم بعضاً في أمر من الأمور، ومن جملتها المساهلة في تلبية الدعوة، وترك مجلسه من غير استئذان، فشأن النبيِّ ﷺ يختلفُ عن شأن غيره؛ لأن طاعته وتلبية دعوته واجبة عليكم.

ففي الحديث الشريف: عن **أبي سعيد بن المعلَّى** قال: كنتُ أصلِّي في المسجد، فدعاني رسولُ اللهِ ﷺ فلم أجبه، وفي رواية: فلم آتِهِ حتَّى صليتُ، ثم أتيتُه، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ إنِّي كنتُ أصلي، فقال: «**ألم يقل الله**: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤]؟» ثم قال لي: «**لأعلمنَّكَ سورةً هي أعظمُ السورِ في القرآنِ، قبلَ أن تخرجَ مِنَ المسجدِ**» ثم أخذ بيدي، فلمَّا أرادَ أن يخرجَ قلتُ له: ألم تقل: لأعلمنَّكَ سورة هي أعظمُ سورةٍ في القرآن؟ قال: «**الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتِيْتُه**» [رواه البخاري (٤٤٧٤)].

وذهب بعضُ المفسرين إلى أنّ المعنى المراد: لا تجعلوا نداءه ﷺ، كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت، ولكن بلقبه المعظم: يا رسول الله، يا نبي الله، مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت، كما قال تعالى:

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٤٢٢.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

لكن المعنى الأول أعم، ويدخل فيه هذا المعنى ضمناً، ويتفق أكثر مع سياق الآية، ومع قوله تعالى في سباقها.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أي: يعلم الله الذين يخرجون من مجلسه عليه الصلاة والسلام قليلاً قليلاً، على خفية، يستخفي أحدُهم بمن يجلس أمامه، حتى يخرجَ بلا إذن، وهو وعيد لمخالفي أمره ﷺ، المنصرفين عن مجلسه دون استئذانه، أكده تعالى بعد ذلك بتحذير صريح فقال:

﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: تصيبهم بسبب مخالفة أمره عليه الصلاة والسلام، محنة وبلاء في الدنيا.

فطاعته ﷺ والتمسك بسنته أمانٌ للأفراد وللأمة من الفتن والمحن والبلاء، كما دل على ذلك الحديث الشريف: عن **العرباض بن سارية** رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رسولُ اللهِ ﷺ ذاتَ يوم، ثم أقبلَ علينا بوجهِهِ، فوعظنا موعظةً بليغةً، ذرفتْ منها العيونُ، ووجِلَتْ منها القلوبُ، فقال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، كأنَّ هذه موعظةُ مودِّعٍ، فماذا تعهدُ إلينا؟ فقال: «**أوصيكُم بتقوى الله تعالى، والسمع والطاعة، وإنْ كانَ عبداً حبشيّاً، فإنَّه مَنْ يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنَّةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديين، تمسَّكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكُم ومحدثاتِ الأمور، فإنَّ كُلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ**» [رواه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وقال: حديث حسن صحيح].

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦].

وقررت آخرُ آيات السورة كمالَ علمه تعالى، وتمامَ سلطانه، لتؤكد كمالَ تشريعه، ووجوبَ التزام الناس به؛ لأنهم من خلقه وفي ملكه جل وعلا:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ٦٤﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ أي: خلقاً وملكاً وعلماً وتدبيراً، فتنويرُه تعالى للسماوات والأرض تنويرٌ محكم متقن، صادر عن علم كامل وإحاطة تامة.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: في الحال، فأحوالكم وأعمالكم معلومة لله تعالى، فاحذروا مخالفة أمره والإعراض عن شرعه.

وأفادت كلمة ﴿قَدْ﴾ تأكيد علمه سبحانه وتحققه، ويستلزم ذلك تأكيد ما تتضمن الآية من وعيد وتهديد.

﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ﴾ أي: ويومَ الحسابِ والجزاءِ ينبئهم تعالى بكل ما عملوا، لمحاسبتهم ومجازاتهم، فعليهم أن يلتزموا بأحكام شرعه، وأن يستضيئوا بأنوار هدايته، فهو الطريق الذي يوصلهم إلى السعادة في الدنيا ورضوانه يوم القيامة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأسأله تعالى أن ينوِّر عقولنا وقلوبنا بأنوار آياته، وأن يكرمنا بهدايته.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

❁ ❁ ❁



٢٥

تفسير سورة الفرقان

أَسْبَابُ الضَّلَالِ فِي سُورَةِ الفُرْقَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن السبب الأول والأساس في شقاء الناس وعنائهم وتعاستهم وآلامهم، منذ فجر وجودهم على هذه الأرض، وحتى العصر الحاضر، أنَّهم لا ينقادون للحق ولا يرضون به، مع أنهم في قرارة أنفسهم يعرفونه، ويرون معالمه ودلائله، وذلك لأسباب متعددة نابعة من داخل نفوسهم، أهمها:

١ ـ انسلاخهم عن الشعور بالمسؤولية عن حياتهم أمام خالقهم ومالكهم يوم القيامة.

٢ ـ جهلهم بحقيقة أنفسهم، ورفعها فوق حدود عبوديتها، مما أدى إلى استكبارهم وطغيانهم، وبغيهم على بعضهم وتحاسدهم.

٣ ـ انقيادهم لأهوائهم، وضعفهم أمام شهواتهم ونزواتهم.

٤ ـ تأثرهم بقرناء السوء ودعاة الشر والضلال، وسرعة استجابتهم لهم.

٥ ـ إعراضهم عن دعوة ربهم سبحانه في القرآن الكريم، الذي تكفَّل الله تعالى بحفظه، فلا يزال يُتلى عليهم في مختلف عصورهم، غضّاً طريّاً نديّاً،

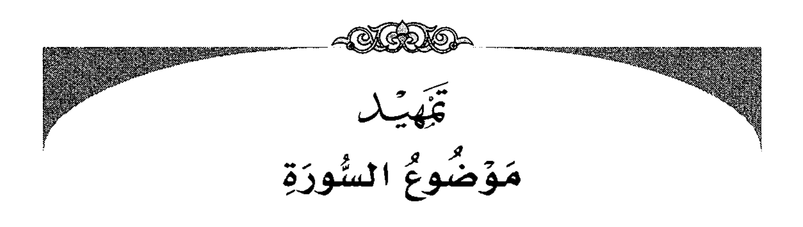
فارقاً للحق عن الباطل، يدعوهم إلى الحق، ويبين لهم أدلته وشواهده، ويحذرهم من طرق الباطل ومزالقه، ويبيِّن عواقبه ومصيره.

ففي سورة الفرقان تصوير لحقيقة الداء الكبير، الذي هو سر شقاء البشرية ومنبع آلامها، **وفيها أيضاً وصف للدواء الناجع**، الذي يبرئها من أمراضها، وينهي أسقامها، ويخلصها من عنائها وشقائها، ويأخذ بيدها إن تمسكت به إلى ساحل الأمان وبر السلام.

ذلك هو الهدف في تفسير هذه السورة، أسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون للناس منارة هدى وإرشاد إلى طريق السلام.

اللهم آمين، اللهم صلِّ على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.





تَمْهِيد
مَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحق واضح أبلج، تؤيده حجج كثيرة قاطعة، وتدل عليه دلائل كبيرة، وهو قريب من الإنسان في كل عصر ومكان، ولا يحتاج الإنسان لكي يعرفه إلا إلى جهد قليل من النظر، يراه بعد ذلك واضحاً بارزاً، ويسمعه مجلجلاً مدويّاً.

ومع ذلك يضلُّ عنه أكثر الناس، ويتغافلون عن رؤيته، فالمشكلة إذاً ليست في خفاء الحق وعدم تمكن الناس من رؤيته ومعرفته، فالله تعالى قرَّبَ الحق إليهم برسله وكتبه، وزوَّدهم بوسائل التمكين، التي تمكنهم من معرفته، زودهم بالأفئدة والسمع والأبصار، المشكلة هي في عدم قبولهم للحق ورضاهم به وانقيادهم له.

ولو فتشتَ عن قلوب أكثر المتخاصمين، الواقفين على أبواب المحاكم وفي ساحات القضاء، لوجدتهم في قرارة أنفسهم يعرفون الحق، ويرون معالمه ودلائله، ولو أنهم انقادوا له لاستراح القضاة، وتوقفت الخصومات؛ فلماذا يعرض الناس عن الحق، وينأون بأنفسهم عنه، وهو واضح بارز؟!.

لقد تكفَّلت سورة الفرقان بالإجابة على هذا السؤال، فكشفت عن أهم **أسباب الضلال**، وأبرزت صوراً من **صور ضلال الضالين**، مع بيان بعض **شواهد الحق** ودلائله، وبينت في آخرها **صفات المهتدين** المنقادين للحق والراضين به، فتمت بذلك المقابلة، واكتملت الصورة البشرية، وجاءت آيات السورة بحق فرقاناً بين الهدى والضلال، وبين المهتدين والضالين.

ولهذا كان نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ، وعموم بعثته إلى الناس كافة، من أعظم النعم وأجلها على البشرية وغيرها من العوالم والمكونات.

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الفرقان

أَسْبَابُ الضَّلَالِ فِي سُورَةِ الفُرْقَانِ

تفضُّل وإحسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾.

افتتح الله جل وعلا سورة الفرقان، بتمجيد ذاته، وبيان كمال فضله وتمام إحسانه على خلقه، بتنزيل كتابه الكريم على عبده محمد ﷺ، فقال:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ أي: تزايد خيره تعالى وعطاؤه على كل شيء، فإحسانه لم يزل ولا يزال ثابتاً في ازدياد.

ولم تُستعمَلْ كلمة ﴿تَبَارَكَ﴾ إلا لله وحده، والمستعمل منه الماضي فقط، وهو إما من البركة، وهي كثرة الخير وزيادته، وإما من البِرْكة، لدوام الماء فيها وثباته، ولهذا يقال: برك البعير، إذا جلس على الأرض[١].

ولعلَّ المعنى الأول أنسب، لقوله: ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ لكثرة ما في القرآن الكريم من خير وبركة، بينما المعنى الثاني أنسب لمثل قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] لدوام سلطانه تعالى على ملكه وثباته.

---

(١) تفسير النسفي وتفسير البيضاوي: ٤/ ٤٢٤.

والفرقان: مصدر من فرق بين الشيئين إذا فصل بينهما، سُمِّي به القرآن الكريم لفصله بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام، وأطلقه تعالى أيضاً على أنوار هدايته في قلوب عباده المتقين، التي يميزون بها بين الحق والباطل، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وأطلقه تعالى أيضاً على يوم غزوة بدر؛ لأنه أعزَّ فيه الإيمان، وأذلَّ فيه الشرك، فقال: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

وما قيل من أنَّ القرآن سُمِّي فرقاناً لكونه نزل مفرَّقاً، فيه نظر؛ لأنه تعالى أنزل التوراة جملة واحدة، وسماها فرقاناً، فقال: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ مدحٌ للنبي ﷺ، وثناءٌ عليه؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ووصفه تعالى بذلك أيضاً في مقام الدعوة إليه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩].. وفي غيرها من المقامات الشريفة للنبي ﷺ.

﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي: نزل الفرقان على عبده، ليكون لجميع عوالم الجن والإنس نذيراً وبشيراً أيضاً، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٦].

واقتصرت الآية هنا على صفة النذارة، وهي الإخبار بما فيه تخويفٌ؛ انسجاماً مع موضوع السورة الأساس، وهو **بيان أسباب ضلال الضالين، وعناد المعاندين**.

ودلت الآية على عموم رسالة النبي ﷺ، للإنس والجن، ولمن عاصره،

ومن يأتي بعدَه إلى يوم القيامة، وذلك أمر معلوم من الدين بالضرورة، ويكفُر منكِرُه، لكثرة الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ذات الدلالة القطعية عليه.

وذهب بعضهم إلى القول بعموم رسالته عليه الصلاة والسلام إلى جميع العالمين؛ لأنَّ العالم ما سوى الله تعالى، فيشمل الملائكة، وفائدة دخولهم تحت دعوته عليه الصلاة والسلام، تشرفهم بمتابعته وإذعانهم لفضله[1].

* * *

الخلق والتقدير والتدبير

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

وبعد أن بيَّن تعالى تمامَ فضله، وكمالَ إحسانه، أردفَ يبين كمال سلطانه، وتفرُّدِه وحدَه بالخلق والملك والتدبير والتقدير، فقال:

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الذي له خاصة دون غيره ملك السماوات والأرض، فهو وحدَه المتصرف فيهما خلقاً وملكاً وتدبيراً.

ثم نزه تعالى نفسه عن الولد والشريك فقال:

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ وهذا ردٌّ على زعم النصارى في المسيح عليه السلام، وعلى زعم اليهود في عُزَير، وعلى زعم بعض مشركي العرب في الملائكة.

---

(١) روح المعاني: ١٨/ ٢٣٢.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ وهذا رد على جميع المشركين من عبدة الأصنام والأوثان، ومن عبدة الشمس والقمر والنار، كالثنوية والمجوس.

ولا شكَّ أنَّ قوله هذا من لوازم ما سبق تقريره في صدر الآية: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وصرح به تعالى إظهاراً لبطلان قول القائلين بتعدد الآلهة.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي: أحدث كل مخلوق وأخرجه من العدم، فلا خالق سواه جل وعلا، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أي: خَصَّ كل مخلوق بالخصائص والصفات والأفعال اللائقة به، قدر حجمه وشكله، وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدَّر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير... وكلَّما تقدم العلم البشري، وكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبة مفرداته، اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني الهائل: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾(١).

وفيه دليل أيضاً على أن كل مخلوق مقصود بذاته،بحسب حكمة الخالق الباهرة، ومشيئته التامة النافذة، كما قال سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى].

فالخلق والتقدير والتدبير أعظم الأفعال الدالة على الألوهية، ولهذا قال تعالى:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: فكيف يملكون شيئاً منهما لغيرهم؟! فجميعُ هذه الآلهة المزعومة، عاجزةٌ عن الخلق، وهي مخلوقة حادثة سُبقت بالعدم، وكُلُّ ذلك يدلُّ على

(١) في ظلال القرآن: ٥/٢٥٤٨.

عجزها وضعفها وعدم استحقاقها صفة الألوهية، كما قال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: لا يقدرون على إماتة الأحياء، وإحياء الموتى وبعثهم من قبورهم.

هذا هو الفرقانُ بين الإلٰه الحق، وبين غيره من الآلهة المزعومة، فالإلٰهُ الحقُّ يجبُ أن يكونَ قادراً على جميع ذلك، فما أشد ضلال من يعبد غيره!.

* * *

صور من ضلال الكافرين

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾.

- **ظلم وزور:**

ثم شرعت الآيات تحكي بعض ضلالاتهم في حق النبي ﷺ، وفي حق القرآن الكريم المنزل عليه:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي: قالوا: ما هذا القرآن إلا كذب افتراه محمد، وأعانه عليه قوم آخرون.

وهذا القول من أشنع وأقبح ضلالاتهم، فالقرآن الكريم لا يمكن أبداً أن يكون مفترًى، إذ هو في نفسه يدل على أنه كلام رب العالمين، الذي قال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

ولهذا قال تعالى يصف قبح قولهم هذا:

﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي: جاؤوا ظلماً عظيماً وكذباً كبيراً؛ لأنهم جعلوا الحق الثابت الواضح إفكاً مفترى من قبل البشر.

ثم بالغوا في ظلمهم وضلالهم:

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾

أي: وقالوا: القرآن خرافات سطرها السابقون من الأمم، اكتتبها محمد لنفسه، أو طلب من يكتبها له، فهي تُلْقَى عليه كُلَّ يوم في أوله وآخره.

ولا بدّ أنهم كانوا في قرارة أنفسهم يعلمون أنهم يكذبون في قولهم هذا؛ لأنه عليه الصلاة والسلام كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ولهذا بادرتِ الآياتُ إلى الردِّ عليهم، وإظهارِ شناعةِ ضلالهم، بقوله تعالى:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي: قل لهم: أنزل القرآنَ الكريمَ عالمُ غيب السماوات والأرض، فقد أخبر فيه عن مغيَّباتٍ وأسرارٍ لا يعلمها إلا عالم غيب السماوات والأرض، وقد ثبتَ أنَّ في القرآن الكريم كثيراً من الحقائق العلمية والأخبار التاريخية، التي ما كان أحد يعلمها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: إنه تعالى يمهلهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة التي يستحقُّونها، لمكابرتهم وعنادهم، وجرأتهم على كتابه تعالى، وعلى نبيه ﷺ.

• **ضلال وفساد:**

ومن ضلالهم وعنادهم، اعتراضُهم على بشرية الرسول ﷺ، وتهكُّمهم به:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧﴾.

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ﴾ أي: قالوا: ما لهذا الرسول يأكلُ الطعامَ كما نأكل، ويمشي في الأسواق مكتسباً وملتمساً لمعاشه كما نمشي، فأنَّى له الفضلُ علينا بادِّعاء النبوة؟!.

ومن المعلوم أنَّ دخول الأسواق مباحٌ للتجارة وطلبِ المعاش، وكان عليه الصلاة والسلام يدخلها لحاجته، ولتذكرة الخلق بأمر الله تعالى ودعوته، ويعرضُ نفسَه فيها على القبائل، لعل الله أن يرجع بهم إلى الحق[(١)].

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ أي: هلا أنزل إليه مَلَكٌ يصدِّقه ويساعده في رسالته.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ۝٨﴾.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ﴾ أي: فيستغني بهذا الكنز وهذه الجنَّة، عن الاكتساب وطلب المعاش في الأسواق.

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي: وقال الظالمون بسبب ضلالهم وشركهم للمؤمنين: ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، قد سُحِرَ وغُلِبَ على عقله.

وهذه الأقوال والمقترحات واضحةُ البطلان، ظاهرةُ الفساد، تثيرُ العُجب من تفوُّههم بها، لهذا التفتت الآياتُ إلى النبيِّ ﷺ تعجِّبه منها:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ٥.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾.

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي: انظر كيف قالوا في حقك هذه الأقوال العجيبة الشاذة، واخترعوا لك تلك الصفات الغريبة البعيدة عن الواقع.

﴿فَضَلُّوا﴾ أي: عن طريق الاحتجاج بالعقل والمنطق والبرهان.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي: فلا يجدون طريقاً إلى الطعن بصحة نبوتك، وصدق رسالتك؛ لأنَّها تقومُ على الحجج والبراهين، التي تحميها من كل جانب، فلم يجدِ المبطلون، ولن يجدوا أي منفذ ينفذون بواسطته إلى النيل منها، والطعن بها، فهي في حِرْزٍ قوي حصين.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي: تزايد وتكاثر إحسانه وفضله عليك، فهو قادرٌ أن يجعل لك في هذه الدنيا خيراً من كل مقترحاتهم، فكما تبارك الذي نزل الفرقان عليك لتكون للعالمين نذيراً، فكذلك تبارك عليك فضله وإحسانه.

﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: إن شاء جعل لك جنات، لا جنة واحدة كما اقترحوا.

﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

فسعة الرزق وحصول الخيرات منوطان بمشيئة الله تعالى وقدرته، وقد عرض تعالى على نبيِّه ﷺ الدنيا بزخارفها، فأعرض عنها، كما جاء في الحديث الشريف: عن **أبي أمامة**: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**عَرَضَ علي ربي ليجعلَ لي بطحاءَ مكةَ ذهباً، قلتُ: لا يا ربِّ، ولكن أشبعُ يوماً وأجوعُ يوماً، فإن جعتُ تضرَّعتُ إليكَ وذكرتُكَ، وإن شبعتُ شكرتُك وحَمِدْتُكَ**» [رواه الترمذي (٢٣٤٧) وقال: حديث حسن].

* * *

أسباب الضلال

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا (١٥) لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا (١٦) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ (١٧) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩) وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠) ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥) ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

- **إنكار المسؤولية والجزاء:**

وتوقفت الآيات فجأة عن بيان ضلال الكافرين، وانتقلت بأسلوب الإضراب لتبين سبباً هامّاً من أسباب ضلالهم، بقوله تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ أي: كذَّبوا بيوم القيامة، وسلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، وهذا هو السبب الأول والأساس في ضلالهم، فالإنسانُ الذي لا يدرِكُ طبيعة حياته، ولا يتفهَّم جوهر وجوده، يبقى دائماً حائراً مضطرباً قلقاً تائهاً ضائعاً، شارداً عن طريق الحق، ولا يستطيعُ الإنسانُ أن يتفهَّم حقيقة حياته الدنيا، إذا لم يؤمن بحياته الثانية يوم القيامة، وما فيها من مسؤولية وحساب وجزاء، فتكذيبهم بالساعةِ هو سببُ ضلالهم.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي: هيأنا لمن كذَّب بيوم القيامة، وأنكر مسؤوليته عن أعماله، ناراً عظيمة الاشتعال والاستعار.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: إذا كانوا منها بمرأى الناظر البعيد.

﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ أي: سمعوا لها صوتاً يدلُّ على شدة غضبها وغليانها.

والغيظ: أشدُّ الغضبِ، **والتغيُّظ**: إظهار الغيظ، فيكون بصوت مسموع.

وأما **الزفير**: فهو صوت ترديد النَّفَس حين ينتفخ الصدر منه.

وتدل الآية على أنَّ جهنم يزدادُ تلهُّبُها وتسعُّرُها عند رؤيتها للكافرين، فكيف يكونُ حالُها إذا ألقوا فيها؟!:

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ أي: إذا ألقوا في مكان ضيق منها، وهم مع ذلك الضيق مقيَّدون بالسلاسل والأغلال إلى بعضهم، وهذا يدلُّ على أنَّها تضيقُ عليهم لتشديد العذاب، فإنَّ الكربَ يزدادُ مع الضيق.

﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي: دعوا في ذلك المكان على أنفسهم بالهلاك.

فيقال لهم:

﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

فعذابكم دائم متجدد لا ينقطع، فالهلاك اليوم أمنية المتمني، وهو المنفذ الوحيد للخلاص من هذا الكرب الذي لا يُطاق، ثم هاهم أولاء يسمعون جواب الدعاء، يسمعون تهكُّماً ساخراً مرّاً: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ فهلاكٌ واحدٌ لا يُجدي شيئاً، ولا يكفي شيئاً[١].

ولما وصلت الآيات إلى هذا الحد في وصف العذاب المرعب المخيف، التفتتْ إلى النبيِّ ﷺ، تأمره أن يدعوهم إلى المقارنة بين مصير المعذبين ومصير المنعَّمين:

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٥٥٥.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فلفتُ الأنظارِ إلى المقارنة بين المتضادين في الأحوال أسلوبٌ من أساليب القرآن الكريم في الدعوة والتربية.

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ يصيرون إليه. فالمقاعِدُ محجوزةٌ للقلوب المخلصة المتوجهة إلى الله.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

أي: حقيق بأن يُسأل ويُطلب.

- **المواجهة الرهيبة:**

فالضلال نابعٌ من نفس الإنسان، ومن كسبه واختياره، وليس أمراً مفروضاً عليه من الخارج، وهو وحده الذي يتحمَّلُ تبعة ضلاله، فلا يشارِكُه أحدٌ في تحملها، حتى ولا الآلهة المزعومة، التي ضلَّ عن الحق من أجلها، وعبدها من دون الله تعالى.

أبرزت الآياتُ هذه الحقيقة، من خلال عرضها لمواجهةٍ ستقع يوم القيامة، بين الضالين من جهة، وبين الآلهة المزعومة التي عبدوها من دون الله تعالى من جهة أخرى.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: اذكر يوم القيامة، عندما يجمع الله تعالى المشركين، والآلهة المزعومة التي عبدوها من دونه تعالى، كالمسيح وعُزَير والملائكة، وحتى الأصنام والأوثان، فإنّه تعالى يجمعها وينطقها في هذه المواجهة الرهيبة.

﴿فَيَقُولُ﴾ أي: الله تعالى مخاطباً المعبودين من دونه:

﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: أأنتم دعوتم عبادي هؤلاء إلى عبادتكم، أم هم ضلوا سبيل عبادتي وطاعتي باختيارهم؟.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقال أيضاً: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ].

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: تتنزَّه وتتقدَّس عن أن يشاركك أحدٌ في استحقاق العبادة والطاعة، فما صَحَّ وما استقامَ لنا أن نتولَّى أحداً غيرك، فكيف يصحُّ لنا أن ندعو غيرنا لكي يتولانا ويعبدنا من دونك؟!.

أو: ما كان لنا أن نأمرهم بعبادتنا، ونحن نعبدك وحدك.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: جعلتهم يتمتعون هم وآباؤهم من قبلهم بأنواع النعم، التي أنعمت بها عليهم، كالأموال والأولاد، وطول الأعمار، فاستغرقوا في الشهوات، وانهمكوا في الملذَّات، حتى غفلوا عن ذكرك وشكرك وعبادتك.

انشغل القوم بالنعمة عن المنعم، وهو سبب آخر من أسباب الضلال ـ ستبرزه آيات السورة فيما بعد ـ.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: وأصبحوا بسبب انهماكهم في الشهوات، قوماً لا خيرَ فيهم، كالأرض البور المعطَّلة عن الزرع، فلا خيرَ فيها، وكذلك لا خيرَ في

الإنسان إذا ما أعرض عن طاعة ربه، ولا تتحقق إنسانيته إلا إذا استسلم لله تعالى وحده، وأذعن لأمره وشرعه.

وعقَّبتِ الآياتُ على هذه المواجهة، فالتفتت التفاتةً رائعة إلى الضالين، تقيمُ عليهم الحجة بهذه المواجهة:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي: فقد كذَّبتكم معبوداتكم في قولكم: إنهم آلهة.

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي: فلا تستطيعون صرف العذاب عن أنفسكم، ولا نصر أنفسكم.

وفي قراءة ثانية: (**فما يستطيعون صرفاً ولا نصراً**) أي: فما يستطيعون صرف العذاب عنكم، ولا نصركم وتأييدكم، فالمسؤولية واقعةٌ عليكم، بسبب ظلمكم وضلالكم، النابع من أنفسكم.

ولهذا ختم سبحانه الآية بهذا التقرير الجازم:

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أي: من يظلم منكم بعبادة غير الله تعالى، نذقه عذاباً كبيراً، بالخلود في نار جهنم.

- **الابتلاء والاختبار:**

ثم أضافت الآيات بيانَ سبب آخر من أسباب الضلال، وقبل أن تصرِّحَ به، ردت اعتراضهم على بشرية النبي ﷺ، بقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: إن جميع المرسلين قبلك كانوا بشراً مثلك، يأكلون الطعام كما تأكل،

ويمشون في الأسواق لتأمين حوائجهم الدنيوية كما تمشي، فلست بِدْعاً من الأنبياء والمرسلين، فلماذا يعترضون على بشريتك، ويقولون كما تقدم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]؟.

ثم كشفت الآيةُ عن الدافع الحقيقي، الذي جعلهم يعترضون على رسالة النبي ﷺ:

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي: قدَّر تعالى بسابق علمه ومشيئته، أن يبتلي الناس بعضَهم ببعض، وذلك بما جعل بينهم من تفاوت في الخصائص والصفات والمواهب والمَلَكات والأرزاق... فقد ابتلى سبحانه الفقراء بالأغنياء، والأغنياء بالفقراء، والمرضى بالأصحاء، والخاصة بالعامة... وكذلك ابتلى الأمم بالأنبياء، والأنبياء بالأمم. وقال سبحانه:

﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أي: أتصبرون على هذا الابتلاء، وترضون بما قدر تعالى لكم، فتفوزوا وتفلحوا، أم لا تصبرون فتضلوا؟!.

فالفقير إذا رضي بما قدر له تعالى، ولم يحسد الغنيَّ، فقد فاز، ونجح في الامتحان، وأما إذا حسده، وبغى عليه، فقد ضل وخسر في الامتحان. وفي المقابل، الغني إذا عرف فضل الله تعالى عليه وشكره، وأعان الفقير، ولم يتكبر عليه، فقد فاز، وإلا فقد ضل.

وهذا أيضاً شأنُ الصحيح مع المريض، والشريف مع الوضيع، والرئيسِ مع المرؤوس.

وكذلك شأن الأُمّةِ مع نبيها، فإذا ما انقادت إليه، وصدقت بدعوته، فقد فازت، وأما إذا حسدته على ما أنعم الله عليه، واعترضت على نبوته ورسالته، فقد ضلت وخسرت.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: كان تعالى ولا يزال عالماً بحقيقة عباده، وما ابتلاهم إلا ليظهر علمَه تعالى فيهم، وليعاملهم بعملهم، ويحاسبهم عليه، لا على علمه الأزلي فيهم سبحانه.

ولا تظننَّ أنه تعالى ابتلاهم لكي يضلوا، إنما ابتلاهم تعالى، بما قدَّر بينهم من التفاوت بالأرزاق والمواهب، ليتعاونوا، ويتبادلوا المنافع والخبرات فيما بينهم، وقد صرَّح تعالى بذلك في قوله الكريم: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وليكون أيضاً هذا التفاوتُ والاختلافُ دليلاً على طلاقة مشيئته تعالى، وكمال قدرته، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

- **الاستكبار والطغيان:**

ومن أسباب الضلال أيضاً: **التكبر والتجبر ورؤية النفس والاغترار بها**، وقد أوردت الآياتُ هذا السبب، مقترناً مع إنكار الحساب والجزاء، وعدم الشعور بالمسؤولية:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يؤمنون بلقاء الله تعالى يوم القيامة، والوقوف بين يديه للحساب والجزاء.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ﴾ أي: هلا أنزل علينا الملائكة رسلاً، أو نرى ربنا فيخبرنا بصدق محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وهي مقترحات أخرى، ضمتها الآياتُ إلى ما حكته من مقترحاتهم الفاسدة في أوائل السورة، وسلكت الآياتُ في هذا مسلك الطبيبِ الحاذقِ، الذي يصفُ

المرض، ثم يبين أسبابه، فبعد أن وصفت الآيات ضلالهم، بينت بواعثه وأسبابه بقوله سبحانه:

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: استكبروا كبراً في قرارة أنفسهم، وأوصلهم هذا الكبر إلى غاية التجبر والطغيان ومجاوزة الحد.

فالعتو: أشدُّ الكفر، وأفحشُ الظلم[1].

فهم لم يجسروا على هذا القول العظيم، إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار، وأقصى العتو[2].

ثم بينت لهم الآيات متى يرون الملائكة، وتتحقق لهم هذه الأمنية:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: يرون الملائكة يوم تحينُ آجالهم، وينزل بهم الموت، وتشخص أبصارهم، فحينئذٍ يرون ملائكة العذاب رؤيةً لا بُشرى فيها للمجرمين، بل فيها العذابُ والألمُ فوقَ ما هم فيه من سكرات الموت وآلامه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وفي قوله تعالى: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ إشارة إلى أنَّ الملائكةَ تنزل بالبشرى على المؤمنين الصالحين عند الموت، وقد صرحت به الآيات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ٢٠.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٤٣٧.

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: ويقول المجرمون عند رؤية الملائكة: حجراً محجوراً، وهي كلمةُ استعاذةٍ، تدل على شدة خوفهم من رؤية الملائكة، يلتمسون فيها معاذاً يعيذهم.

وأنَّى لهم المعاذ، وليس معهم عمل صالح ينفعهم ويلوذون به:

﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾.

أي: عمدنا إلى أعمالهم التي كانوا يعملونها في الدنيا، كإغاثة الملهوف، وقري الضيف، وحفظ الجوار، فأبطلناها بالكلية؛ لأنّهم لم يعملوها تقرباً إلى الله تعالى، ورجاء ثوابه، وإنما عملوها بقصد الرياء والسمعة والمفاخرة.

والهباء المنثور: ذرَّات الغبار الصغيرة المتناثرة التي تُرى في شعاع الشمس.

وبأسلوب المقارنة الذي مر معنا في الآيات، قال تعالى:

﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

وهم المؤمنون المتقون، يستقرون يوم القيامة في أقصى ما يكون من الخير والنعيم، فالجنة لهم دار قرار ومقيل واستراحة.

وأضافت الآيات رؤية أخرى للملائكة، وهي في يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: ويرون الملائكة يومَ القيامة، عندما تشقق السماء، وتنزل الملائكة منها إلى أرض المحشر نزولاً عجيباً، مثل كتل الغمام.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ﴾ أي: الملك الحقيقي في هذا اليوم للرحمن، فلا سلطانَ لأحد سواه، وفيه ينادي جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**يطوي اللهُ ﷻ السماواتِ يومَ القيامةِ، ثم يأخذهنَّ بيدِهِ اليُمْنَى، ثم يقولُ: أنا المَلِكُ، أينَ الجبَّارونَ؟ أينَ المتكبِّرونَ؟ ثم يطوي الأرضينَ بشمالِهِ، ثم يقولُ: أنا المَلِكُ، أين الجبَّارونَ؟ أين المتكبِّرونَ؟**» [رواه مسلم (٢٧٨٨)].

وذكر سبحانه اسمه (**الرحمن**) للإيذان بأن اتصافه تعالى في هذا اليوم بغاية الرحمة، لا يهون الخطب على الكفرة؛ لعدم استحقاقهم للرحمة[١]، ولهذا قال بعده:

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: شديداً عليهم لا يُسر فيه.

● **مصاحبة الضالين:**

ومن أسباب الضلال أيضاً: **مصاحبة الضالين وقرناء السوء، ومجالستهم**، فمن جالس جانسَ، والصاحِبُ ساحبٌ، وصدق القائل:

عَنِ المَرْءِ لا تَسَلْ وسَلْ عَنْ قرينِهِ فَكُلُّ قَرِيْنٍ بالمُقَارِنِ يَقْتَدِي

وقد بينت الآيات القرآنية التالية، خطورة مصاحبة الضالين، بأسلوب غير مباشر، من خلال وصفها لمشهد من مشاهد العسر والشدة على الكافرين يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ أي: يوم يعضُّ الظالم لنفسه، المشرك بربه، على يديه؛ ندماً وأسفاً، على ما فرَّط في جنب الله، فأهلكَ نفسَه في طاعة خليله، الذي صده عن سبيل ربه، وهو:

﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ﴾ في الدنيا.

﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ إلى النجاة من عذاب الله.

قال الإمام الطبري رحمه الله: «قال بعضُهم: عَنَى بالظالم عُقْبَةَ بنَ أبي مُعَيْطٍ؛ لأنه ارتدَّ بعدَ إسلامه، طلباً منه لرضا أُبي بن خلف، ثم روى بسنده أنَّ عقبةَ بن

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/٢١٣.

أبي مُعيط وأُبي بن خلف كانا خليلين، فقال أحدُهما لصاحبه: بلغني أنك أتيتَ محمداً فاستمعتَ منه، واللهِ لا أرضى عنك حتَّى تتفلَ في وجهه وتكذِّبه، فلم يسلطه الله على ذلك، فقُتِلَ عقبةُ يومَ بدرٍ صبراً، وأمَّا أُبي بن خلفٍ فقتله النبيُّ ﷺ بيده يومَ أحد في القتالِ»[1].

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨﴾.

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ أي: يا ويلتي وهلكتي احضري، فهذا أوانك، قُلبت الياء ألفاً للندبة، فالرجلُ يندُبُ حظَّه، ويدعو بالويل والهلاك على نفسه، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ [الفرقان: ١٣].

﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ أي: ليتني لم أتخذ فلاناً الضال صديقاً وصاحباً.

وكلمة **(فلان)** يكنَّى بها عن كلِّ اسم علم، وأفاد عدمُ التصريح باسمه عمومَ الحكمِ على كُلِّ صديقين اجتمعا على ضلالةٍ ومعصيةٍ، ففي يوم القيامة تتقطَّعُ جميعُ الأواصر والصلات القائمة على غير طاعة الله تعالى، وتنقلِبُ ندماً وحسراتٍ، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾

﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ﴾ أي: لقد أبعدني عن ذكره تعالى وطاعته، بعد أن وصلني وبلغني وتمكنت منه.

وكأنه يحاول الاعتذارَ وإلقاء المسؤولية على غيره، ولكنَّ هذا لا يخلِّصه منها، ولا ينجِّيه من تبعة كسبه واختياره، فهو الذي أعرض عن دعوة النبيِّ ﷺ، وفتحَ صدره وقلبه لضلالِ صديقه، كما أنه لم يحسن اختيار صاحبه.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/٦.

وقد حذَّر النبيُّ ﷺ من سوءِ اختيارِ الصاحب والصديق، فقال: «**الرَّجُلُ على دين خليلِهِ، فلينظرْ أحدُكُم مَنْ يخالِلُ**» [رواه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨)].

وقال أيضاً: «**لا تُصاحِبْ إلا مُؤمِناً، ولا يأكلْ طعامَك إلا تقيٌّ**» [رواه أبو داود (٤٨٣٢) والترمذي (٢٣٩٥)].

وعن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنما مَثَلُ الجَلِيْسِ الصَّالحِ والجَلِيْسِ السوءِ كَحَامِلِ المِسْكِ ونافخِ الكِيْرِ، فحامِلُ المِسْكِ إمَّا أن يَحْذِيكَ (يعطيك)، وإمَّا أن تبتاعَ مِنْهُ، وإمَّا أَنْ تجدَ منه ريحاً طيبةً، ونافخُ الكِيْرِ إمَّا أن يحرِقَ ثيابَكَ، وإمَّا أَنْ تجدَ ريحاً خبيثةً**» [رواه مسلم (٢٦٢٨)].

ومن مساوئ الصاحبِ الفاسد أيضاً: أنه يخذل صاحبه عند الشدة، ويتخلَّى عنه، كما يفعل الشيطان بأتباعه وأوليائه.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ أي: يصاحبه ويواليه حتى يضله ويوصله إلى الهلاك، ثم يتخلَّى عنه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر].

- **إعراض واعتراض:**

ومن أسباب الضلال أيضاً: **الإعراضُ عن سماع القرآن الكريم**، وعن تدبُّر آياته؛ إذ جعل الله فيه أعظم أسباب الهداية، فهو الفرقان بين الهدى والضلال، والحق والباطل، كما قرر تعالى في صدر آيات السورة: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾.

وقد أدرك مشركو قريش هذه الحقيقة، وعرفوا المدى الكبير لسلطان القرآن الكريم، وهيمنته على القلوب والنفوس، ولهذا أعرضوا عنه عناداً، وبذلوا جهدهم ليصرفوا الناس عن سماعه وتدبر آياته، وسجل سبحانه وتعالى عليهم إعراضهم في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٦].

وهاهي الآيات الكريمة هنا، تحكي شكاية النبي ﷺ هجر قومه لكتاب الله تعالى، وإعراضهم عنه، بهذه الكلمات الخاشعة الضارعة، الدالة على شدة حزنه وأسفه عليه الصلاة والسلام، بسبب إعراض قومه عن دعوته، وهجرهم للقرآن الكريم:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾.

فعلى المؤمن أن يتعهدَ القرآنَ الكريم، تلاوةً وحفظاً وتدبراً، ويداوم على ذلك، فالقرآنُ الكريمُ حصنٌ حصينٌ من الضلال، ووقاية كبيرة من نزغات الشيطان ووساوسه وفتنه، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وبادرتِ الآياتُ الكريمةُ، تعزِّي النبي ﷺ وتسلِّيه، عما يلقى من إعراض قومه وضَلالهم، بقوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك، كذلك جعلنا للأنبياء قبلك أعداء من مجرمي أقوامهم، فاصبر كما صبروا.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ويكفيك أن يكون الله تعالى هادياً لك وناصراً.

ومن صور ضلالهم المتعلقة بكتاب الله: اعتراضهم على نزوله منجماً ومفرقاً:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: هلَّا نزل عليه القرآن دفعة واحدة في وقت واحد، كما نزلت التوراة والإنجيل.

وهو اعتراضٌ مدفوعٌ لا قيمةَ له؛ لأن إعجاز القرآن الكريم، وما فيه من تحدٍّ لهم، لا يختلف بنزوله جملة أو مفرقاً.

وإن لتفريق نزوله حكماً كثيرة، ذكر الله تعالى بعضها في قوله:

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ أي: كذلك أنزلناه مفرَّقاً تثبيتاً لقلبك، في مواجهة ضلال المشركين وعنادهم، فإن توالي نزول وحي الله تعالى عليه ﷺ، يقوي قلبه الشريف، ويجعله يستشعر دائماً عنايته تعالى به وتأييده له.

﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: وكذلك أيضاً رتلنا تلاوته، فقرأناه عليك مرتلاً بترسل وتثبت.

فحكمة تفريق التنزيل إذاً تثبيتُ فؤادِ النبي ﷺ، والترسل في تلاوته عليه، وليستْ كما زعمَ كثيرٌ من المفسرين، مراعاة جانب النبيِّ ﷺ، حتى يعيه ويحفظه؛ إذ أخبرنا تعالى أنه تكفَّلَ بجمعه في قلب النبيِّ ﷺ، فقال سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القِيامَة].

وقال أيضاً: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ثم أضافتِ الآياتُ بيانَ حكمة أخرى لتفريق نزول القرآن الكريم:

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: لا يأتونك بشيء يعترضون به على صحة نبوتك، إلا نزل القرآن الكريم يرد اعتراضهم، ويبين الحق أوضح بيان وأفصحه، وهذا كما قال ابن كثير رحمه الله: «اعتناء كبير وشرف للرسول ﷺ، حيث كان يأتيه الوحي من الله ﷻ بالقرآن صباحاً ومساءً، سفراً وحضراً، لا كإنزال ما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقامُ أعلى وأجلُّ وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين»[١].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٣١.

والجدير بالذكر هنا: أنّ في نزول القرآن الكريم مفرَّقاً مراعاةٌ لجانب الصحابة رضي الله عنهم أيضاً، لكي يتمكنوا من حفظه، وفهم أحكامه، والقيام بها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

• **تهديد الضالين ووعيدهم:**

ولما وصلت الآيات إلى هذا الحد في بيان ضلالهم، ورد اعتراضاتهم، ارتفعَ نبضُها، وعلا جرسها، وهي تتهددهم وتتوعدهم، وكأنها تبيِّن بهذا الأسلوب الجديد المرعب المخيف، أنه أمثل أسلوب يعالج عنادهم وضلالهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: يُسحبون يوم الحشر على وجوههم إلى جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: أولئك مكانهم شر مكان، وسبيلهم أضل سبيل، فقد بلغوا الغايةَ في الشر والضلال، فلا يُجدي معهم إلا الوعيدُ والتهديدُ، شأنهم في هذا كشأن من سبقهم من الأمم المعاندة الضالة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾.

أي: جعلنا هارون مع موسى مساعداً في أداء الرسالة.

ومع أنه تعالى أيدهما بالمعجزات الكثيرة الدالة على صدقهما، كذب القوم بها عناداً واستكباراً، وكانت النتيجة:

﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾.

أي: دمرناهم تدميراً عجيباً عظيماً لا يُدرك مداه، بعد أن أقمنا عليهم الحجة بالمعجزات الكثيرة.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ﴾ أي: جعلناهم عبرةً وعظةً لكل من جاء بعدهم من الناس.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: وهذه سنتنا في معاملة الظالمين، فقد هيأنا لهم عذاباً أليماً.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾.

أي: ودمرنا أيضاً عاداً وثمودَ وأصحابَ الرسِّ، وهم أصحابُ بئر لهم، قتلوا نبيهم، ورموه فيها، فانهارت بهم، وخسف بهم وبديارهم[(١)].

وثمَّة أممٌ كثيرة ضالة، دمرها تبارك وتعالى، لم تذكرها الآيات، واكتفت بالإشارة إليها، لا يعلمها إلا الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

ولم يهلك الله تعالى هذه الأمم الكثيرة الضالة إلا بعد أنْ أرسلَ إليهم الرسل، وألزمهم بالحجج والبراهين والبينات، وضرب لهم الأمثال:

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ﴾ أي: وضربنا الأمثال المقربة للمعاني، المبينة للحق، لكل أمة من هذه الأمم، ومع ذلك أعرضوا وكذبوا وعاندوا.

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي: أهلكناهم إهلاكاً عظيماً، كما سبق في قوله: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٦].

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٤٤٣.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ۝٤٠﴾.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ أي: ولقد مَرَّ مشركو قريش على قرية قوم لوط، التي أنزل تعالى عليها مطراً من حجارة، بعد أن جعلَ عاليها سافلها، وذلك عندما كانوا يسافرون للتجارة في بلاد الشام.

﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ أي: فيعتبروا بما حل بأهلها.

فالآياتُ تدعوهم إلى الاعتبار بمصير الأمم الهالكة قبلهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات].

وانتقلت الآيات فجأةً، من دعوتهم إلى الاعتبار بأحداث التاريخ، إلى تأكيد سبب ضلالهم الأول:

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ أي: إنَّهم ضلوا ولم يعتبروا، بسبب إنكارهم ليوم الجزاء والحساب، وهو يومُ الخروج والنشور من القبور، وهو تأكيدٌ بنفس الأسلوب الذي سبق في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١] وهذا يظهِرُ لنا شدة الاتفاق والاحتباك بين آيات السورة، في الموضوع والأسلوب.

- **عُبَّاد الأهواء والشهوات:**

ومن أسباب الضلال أيضاً: **الانهماك بشهوات الدنيا، والانشغال بالأهواء**، وسبق معنا الإشارة إلى ذلك، في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨].

وهو من أكبر أسباب الضلال، فما أكثر الذين صرعتهم شهواتهم، واستعبدتهم أهواؤهم ونزواتهم، فصرفتهم عن الحق، وأضلتهم عن الصراط المستقيم، ولهذا لم تكتفِ الآياتُ بالإشارة السابقة إليه، بل صرَّحت به هنا،

وبينت خطره وأثره، بضرب المثل له، ومهدت لذلك بإظهار صورة من صور ضلالهم وعنادهم، وكيف كانوا يواجهون النبي ﷺ ويتعاملون معه:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي: لا ينظرون إليك إلا نظر المستكبر المستهزئ.

ويضمون إلى نظرات السخرية والاستهزاء الأقوال الجارحة:

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ أي: يقولون ذلك ازدراءً لرسول الله ﷺ، واعتراضاً على الله تعالى، الذي فضله عليهم، واختاره دونهم لحمل رسالته وأداء أمانته، وهذا يدل على أنهم ما كفروا برسالته ﷺ إلا حسداً وبغياً، كما ذكر تعالى ذلك عنهم بقوله الكريم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ﴾ أي: إنَّه قاربَ أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا، لولا أنْ ثبتنا عليها، وتمسكنا بها.

وهذا اعترافٌ منهم بأنه عليه الصلاة والسلام، قد بلغ من الاجتهاد في الدعوة إلى الحق، وإقامة الحجج والبينات، إلى حيث شارفوا أن يتركوا دينهم، لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم[1].

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: وسوف يعلمون حين يشاهدون العذاب عند الموت أو يوم القيامة، من هو الضال عن سبيل الحق والهدى.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ٢٢٠.

وهذا رد لقولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾ فقد نسبوا الضلال إلى رسول الحق والهدى ﷺ، وحاشاه عن ذلك، فلا يُضِلُّ غيرَه إلا مَنْ كان ضالّاً في نفسه.

والدليل على أنَّهم هم الضالون في أنفسهم، أنهم اتخذوا أهواءهم وشهواتهم آلهة يطيعونها من دون الله تعالى، ولهذا اتجهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ، تعجّبه من شدة ضلالهم، وتعزِّيه عن جموحهم واستهزائهم:

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: أطاع هواه، وجعله إلٰهه ومعبوده، حتى أصبحَ لا يسمعُ حجةً، ولا يفهم حقيقةً.

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي: لا تكون عليه حفيظاً من الضلال؛ لأنَّه لا يسمعُ دليلاً، ولا يعقلُ حجةً.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ﴾ أي: هل تظن أنهم يسمعون دعوة الحق، ويتفهَّمون أدلتها، وهم منصرفون إلى طاعة أهوائهم، منهمكون في تحقيق شهواتهم.

وتأمَّل دقة التعبير القرآني وموضوعيته في قوله: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ لأن بعضهم أذعن للحق ودخل في الإسلام.

وهذا الانتقالُ بأسلوب الإضراب من معنى إلى آخر، أبلغُ في الذم والتقبيح، ولهذا استعملته الآية لوصفهم بغاية الضلال والعناد.

ثم خطت الآياتُ خطوةً أخرى بالأسلوب نفسه، لتقرير معنى آخر، أعمق جرحاً، وأكثر ذمّاً:

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي: ما هم إلا كالبهائم في عدم انتفاعهم بالحجج المنطقية، والبراهين العقلية، بل هم أكثر ضلالاً من

الأنعام، لأنها تعرف من يحسن إليها ممن يسيء إليها، وتطلب ما ينفعها، وتتجنب ما يضرها، وتهتدي إلى مراعيها ومشاربها، وهي تفعل ما خلقت من أجله، أما هؤلاء فقد خلقوا لعبادة ربهم وطاعته، فأعرضوا عن ذلك، وعطّلوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم عن أدلة الحق ومؤيداته، وتنكّبوا طريق الهدى، وساروا في طريق الضلال والبوار، كما وصفهم تعالى بقوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

* * *

أدلة الحق ومؤيداته

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

• **من شواهد الحق وأدلته:**

وقد يقول قائل: ما هي الحجج والبراهين التي أعرضوا عنها، ولم ينتفعوا بها؟.

وأقول: إنَّ مؤيدات الحق وأدلته وبراهينه وحججه كثيرة وكبيرة وقريبة، وهي مبثوثة في جميع المكونات، صغيرها وكبيرها، وهاهي الآيات الكريمة تذكرنا ببعضها:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ أي: ألم تنظر إلى الظل، كيف مدَّه ربك.

والمراد به: الظل الممتد قبل طلوع الشمس.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي: ولو شاء الله ﷻ لجعل الظل ثابتاً دائماً، لا يزول ولا تنسخه الشمس.

وهذا يدلُّ على أنَّ كل النظم الكونية والنواميس الفلكية، تجري بمشيئته تعالى وحدَه وقدرته، فكما أنه الخالق وحده، فالتدبير أيضاً له وحده جل وعلا، فله سبحانه الخلق والتدبير.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي: ثم جعلنا الشمس دليلاً على وجود الظل، فلا يظهر للحس حتى تطلعَ الشمس، عندئذٍ تظهر ظلال الأشياء، وتتميز عن بعضها.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

أي: ثم جعلنا الظل يتقلص ويتناقص شيئاً فشيئاً كلما ارتفعت الشمس، حتى ينتهي إلى غاية نقصانه عند الزوال، ويسمى ما يبقى منه فيء الزوال.

وقوله سبحانه: ﴿إِلَيْنَا﴾ دل على أن نقصان الظل يتم بمشيئته تعالى وقدرته وحدَه، فلا يشاركه أحدٌ في تدبير أمر هذه الظاهرة الكونية العجيبة المحكمة الدقيقة.

ومن هذه الأدلة أيضاً: تنظيم البيئة المناسبة لحياتكم، وتقسيم الزمان ليلائم حاجاتكم:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾ .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: وهو تعالى وحده الذي جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه.

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: راحة لأبدانكم، تنقطع به عن العمل.

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي: جعله ذا نشور، تنتشرون فيه لمعاشكم ومصالحكم.

هذه نِعَمٌ جليلة، ضروريةٌ لاستمرار حياة الإنسان ووجوده على هذه الأرض، تدلُّ دلالةً قاطعةً على كمال قدرته تعالى وباهر حكمته، وهي أقربُ الظواهر الكونية إلى مدارك الإنسان وأحاسيسه، تطوقه من كل جانب، فلا يستطيعُ الانفكاك عنها، بل ولا غنى له عنها أيضاً، ومع ذلك يغفل أكثر الناس عنها، ويعرضون عن التفكير في مبدعها ومدبرها ﷻ.

وانتقلت الآيات من مد الظلال وقبضها، وتقليب الليل والنهار، وما فيهما من نوم ونشور، إلى إرسال الرياح الحاملة للمطر:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: وهو سبحانه الذي أرسل الرياح، تبشِّرُ بقرب نزول المطر، وهو من رحمته تعالى لعباده.

فقدومُ الرياح الحاملةِ للسحاب، ينبئُ عن قرب نزول الأمطار، وعلماء الأرصاد الجوية الذين يرصدون حركة الرياح واتجاهاتها، ويبنون على ذلك توقعاتهم، لا يأتون بأمور مغيَّبةٍ، وإنَّما يخبرون بأمور محسوسة مشاهدة، تمكنوا من مشاهدتها بأسباب الرصد التي يستعملونها.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ أي: أنزلنا من السحاب، الذي هو في جهة السماء، ماء طاهراً في نفسه ومطهراً لغيره، وهذا يدل على أنَّ للماء وظيفةً أساسية هامة في النظافة والطهارة، فضلاً عن وظائفه الأخرى، في السقيا والخصب والنماء.

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ٤٩﴾.

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ أي: لنحيي به بلداً لا نبات فيه، فالمحيي هو الله تعالى، وماءُ المطر سببٌ لإحياء الأرض بالنبات، كما قال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥].

﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ أي: ونجعل في ماء المطر سقياً لكثير مما خلق الله تعالى من البشر والأنعام، فما أكثر الذين يعتمدون في شربهم وزراعتهم على مياه الأمطار، والناس محتاجون إليها أينما كانوا، في المدن العامرة أو في البوادي المقفرة.

- **القرآن الكريم والدعوة:**

هكذا عرضتِ الآياتُ الكريمةُ بعضَ الشواهد والأدلة على وجوده تعالى، بهذه الصور الرائعة والأساليب البديعة المعجزة، التي تدل على رحمته تعالى بعباده، وإحسانه الواسع إليهم، فقرَّب إليهم معانيَ التنزيل الحكيم، بهذا البيان الفائق، والكلم الرائق، لعلَّ صدورهم تنشرحُ له، ونفوسهم تتشوَّفُ إليه، وعقولهم تدرِكُ حقائقه، فماذا كانت النتيجة؟:

﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ٥٠﴾.

أي: ولقد كررنا عرض الأدلة والبراهين والحجج القرآنية، بأساليب مختلفة، ليتعظوا، وينتفعوا بها، فأبى أكثرُ الناس إلا جحوداً لها وتكذيباً، وهذا يدلُّ على شدَّة وكثافةِ حُجُبِ الشهوات والأهواء، التي تغلف عقولهم وقلوبهم، فتبعدهم عن الحق، وتبقيهم منغمسين في حمأة الضلال، كما سبق في وصفهم ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

فماذا يريد الضالون أكثر من ذلك؟! هل يريدون أن نرسل رسولاً لكل بلد ولكل مجتمع بشري؟! نحن قادرون على ذلك:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١﴾.

أي: رسولاً ينذر أهلها، ويحمل عن النبي الخاتم ـ الذي أُرسل للعالمين نذيراً ـ بعضَ أعباء التبليغ والنذارة.

ولكنَّا لم نشأ ذلك، وقصرنا الأمر عليك يا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فجعلناك نذيراً للعالمين، لأننا نعلمُ أنك حقيق بحمل أعباء الرسالة وتبليغها، فرسالتُكَ تغني عن كل رسالة، بسبب عمومها وشمولها، وقوة أدلتها، وسطوع حججها وبراهينها، ونذارتك تغني عن كل نذارة، لفخامتها وضخامتها، وقوة دويها وصداها في القلوب والنفوس.

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾.

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: فيما يدعونك إليه من الملاينة والمداهنة، وترك تسفيه أحلامهم، وعيب آلهتهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم].

﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي: جاهدهم بالقرآن الكريم، بقوارعه وزواجره ومواعظه، وأدلته وبراهينه، جهاداً كبيراً عظيماً، جامعاً كلَّ أنواع المجاهدة، وكلَّ أساليبها وأفانينها، بلا كلل ولا ملل ولا فتور.

فما أعظمَ رسالة النبيِّ الخاتم ﷺ! وما أثقلها! إنَّ هذه الآية الكريمة تبينُ عمقَ مدلول الآية الأولى في صدر هذه السورة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾.

وتبين أيضاً: أن القرآن الكريم هو أعظم سلاح يتسلَّح به الداعيةُ إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، ففيه من أساليب الدعوة ما يكفي ويغني كل داعية، مهما كانت ظروفُ دعوته، وطبيعةُ الناس الذين يدعوهم، وعلى الدعاة أن يتدبروا آياته، ويتفهموا أساليبه، ويحسنوا اختيارَ الأسلوب الأمثل، الذي يناسِبُ أحوال الدعوة وأطوار المدعوين، ولا يليق بالدعاة إلى الله تعالى أن يجهلوا أساليب

القرآن الكريم في الدعوة، فيؤدِّي بهم ذلك إلى الجمود على أسلوب واحد رغم اختلاف الأحوال والأزمان، وهو مع الأسف نقصٌ كبيرٌ يعاني منه كثيرٌ من الدعاة في عصرنا الحاضر، وهو من أسباب فشلهم، وضعف مردود دعوتهم.

• **الماء والحياة:**

وبعد هذه الالتفاتة القصيرة للآيات الكريمة، إلى أهمية رسالة النبي ﷺ، وأهمية التمسك بأساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى الله تعالى، استأنفت الآيات عرض مجموعة جديدة من الأدلة والبراهين، الدالة على كمال قدرته تعالى وباهر حكمته:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: خلقهما متجاورين متلاصقين. والمرادُ بالبحرين:

ـ **الماءُ الحلو**: الذي فرَّقه الله تعالى بين خلقه، لاحتياجهم إليه، أنهاراً وعيوناً وبُحيرات، في مختلف البقاع والأصقاع.

ـ **والماء المالح**: الذي جمعه سبحانه في البحار والمحيطات، لحِكَمٍ جليلة قدرها العليم الحكيم.

وقد عرف العلماء في العصر الحاضر بعض هذه الحكم، عندما اكتشفوا دورَ البحار في استمرار التوازن الدقيق في الهواء، والمحافظة على البيئة، ودفع أخطار التلوث، فضلاً عما فيه من موارد غذائية واقتصادية كبيرة للإنسان.

وبيَّن تعالى مراده من البحرين بقوله بعد ذلك:

﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: هذا شديد العذوبة، يدفع العطش من فرط عذوبته.

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: والثاني مالح شديد الملوحة.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: جعل بين الماء العذب والماء المالح حاجزاً، يدل على كمال قدرته جل وعلا.

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: ومانعاً يمنع طغيان أحدهما على الآخر، بحيث يبقى الماء العذب محافظاً على عذوبته، والماء المالح محافظاً على درجة ملوحته، مع أنه تعالى قدر لهما أن يلتقيا بشكل دائم مستمر، كما قال سبحانه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن].

فأكثر المياه العذبة، سواء منها النابعة من الأرض، أو النازلة من السماء، تذهب في نهاية رحلتها الأرضية إلى البحار، وتلتقي المياه المالحة عند مصبات الأنهار، ثم تنفصل عنها بتقديره تعالى، الذي قدر نواميس الحرارة والتبخر والتكاثف، وتحملها الرياح إلى حيث يشاء الله تعالى أن تنزلَ مرةً ثانية، وهكذا تستمر دورة هذه المياه، فما أعظم مشيئته تعالى النافذة في كل ذرة من ذرات المياه! وما أعظم علمه الذي وسع عدد قطر الأمطار ومكاييل البحار! وما أدق وأحكم هذا البرزخ، الذي جعل التوازن بين المياه العذبة والمياه المالحة دائماً ومستمرّاً، كضرورة لاستمرار الحياة على هذا الأرض!.

فللمياه دور كبير قدره العليم الحكيم لاستمرار الحياة، كما أن لها دوراً أساسيّاً كبيراً في تكاثر المخلوقات وتوالدها، وتأمل دقة وروعة التعبير القرآني واتساقه مع سباقه:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ۝٥٤﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ وهو ماء النطفة، خلق سبحانه منه إنساناً.

وقد يقول قائل: ماء النطفة يختلف عن مياه الأمطار والبحار!.

نعم، هو يختلف في الصفات والأحوال، ولكنَّه في الأصل مستمد من الماء المطلق، فماء النطفة يُستخلص من الدماء، التي تستمد قوامها من الغذاء، المتكون من مياه الأمطار الممزوجة بتراب الأرض وأملاحها، فالماء هو الأصل، كما أخبر الحق سبحانه في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهۡرًاۗ﴾ أي: جعله تعالى قسمين: ذكوراً ينسب إليهم، وإناثاً يصاهر بهن، كما قال سبحانه: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٩].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي: وكان ربك ولا يزال قديراً على خلق كل ما يريد مما سبق به علمه وتعلَّقت به مشيئته.

وعلى الرغم من ظهور هذه الأدلة، الدالة على كمال قدرته تعالى ووحدانيته، وتفرده بالخلق والتدبير، يضل كثير من الناس، فيعبدون غيره جل وعلا:

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمۡ وَلَا يَضُرُّهُمۡۗ﴾ أي: يعبدون آلهة لا تنفعهم إذا عبدوها، ولا تضرُّهم إذا تركوها، فما أجهلهم!.

﴿وَكَانَ ٱلۡكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي: مُعيناً ومساعداً للشيطان على معصية الرحمن.

• دعوة كريمة:

ومهمة النبي ﷺ لا تقتصر على النذارة، وإنما هي رحمة وبشارة، ولهذا أضافت الآيات هذا المعنى بقوله تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾.

أي: تُبَشِّر المؤمنين بفضله تعالى ورحمته، وتنذر الضالين بعذابه وسخطه، فهي مهمة كريمة، هدفها الأول سعادةُ الإنسان، والأخذُ بيده إلى طريق الفلاح، منزهة عن أي غرض دنيوي.

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ أي: ما أسألكم على تبليغ الرسالة أي أجر.

فهي دعوة منزَّهة عن أي مقصد مادي أو نفع دنيوي، وإعلام المدعوين

بذلك يقرِّبها إليهم، وهو ما فعله جميعُ الأنبياء عليهم السلام، فما من نبيٍّ إلا قال لقومه: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ أي: إلا مَنْ أرادَ أن ينفقَ ماله تقرُّباً إلى الله تعالى.

وقد يكون المعنى: إلا أن تؤمنوا بالله وتطلبوا رضوانه، فهذا هو الأجر الذي أطلبه منكم، إنه هدايتكم إلى طريق الحق، الذي يوصلكم إلى رضوانه تعالى وجنته.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي: توكل في الاستغناء عن أجورهم؛ ومواجهة ضلالهم وعنادهم؛ ودفع شرورهم؛ على الله الحي الذي لا يموتُ، ولا تتوكل على حي يموت.

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ أي: ونزهه عن صفات النقصان، مع الثناء عليه سبحانه بأوصاف الكمال.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: لا عليك إن كفروا وضلوا وأعرضوا، فإنه تعالى مطلع على جميع ذنوبهم، ومجازيهم عليها.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ أي: على الوجه اللائق بكماله وجلاله سبحانه.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أي: هو الرحمن الذي يجب التوكل عليه.

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ أي: اسأله تعالى وحده، ولا تسأل غيره، فهو المحيط بظواهر الأمور وبواطنها، فإن سألته وجدته خبيراً.

وبعد أن شدَّتِ الآياتُ من عزم النبي ﷺ للقيام بأعباء الدعوة الثقيلة التي كُلِّف بها، كشفت عن سرِّ اهتمامها وتركيزها على الاسم الكريم: **الرحمن**، من أسمائه تعالى الحسنى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: إذا قال لهم الرسول ﷺ: اسجدوا للرحمن بالانقياد له وحده، والاستسلام لأمره.

﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: قالوا بتجاهل ووقاحةٍ: لا نعرفُ الرحمنَ، كما ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] حين قال له موسى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، وهو عالم بالله ﷻ، كما يؤذن بذلك قول موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢][١].

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: أنسجدُ للذي تأمرنا أنت يا محمد؟!.

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي: زادهم الأمر بالسجود للرحمن نفوراً عن الإيمان، وزيادةً في الضلال، إذ تجاهلوا الرحمن الذي فاضت رحمته على جميع المكونات، فكلُّها أثرٌ من آثار رحمته العظمى ﷻ؛ ولهذا شرع للمؤمنين عند سماع أو تلاوة هذه الآية، أن يخالفوا المعاندين الضالين، بالسجود سجدة تلاوة لله رب العالمين.

وعرضت الآياتُ مرةً ثالثة، في مقابل عتوهم واستكبارهم ونفورهم، مجموعة أخرى من الدلائل الدالة على كمال رحمته تعالى وقدرته.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

أي: تزايد خيره وبره، وآثار رحمته، الذي أبدع هذا الكون، فجعلَ في

(١) انظر: روح المعاني: ١٩/٣٩.

السماءِ نجوماً بارزةً ظاهرة، وجعل فيها الشمس مصدراً للضوء والحرارة، وجعل فيها قمراً منيراً يعكس ضوء الشمس وينير ظلمة الليل.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يخلف كل منهما الآخر، أو اختلافاً في الزيادة والنقصان والنور والظلام.

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: لمن أراد أن يتذكَّرَ نعمه تعالى عليه، وأدلة وجوده وفضله ﷻ، ويشكره بطاعته وعبادته وحده.

فـ ﴿أَوْ﴾ هنا بمعنى الواو، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] أي: آثماً وكفوراً.

فأسباب الهداية والإيمان قريبة من كل إنسان، وهي واضحة ظاهرة ظهور الشمس والقمر والكواكب النيرات في جو السماء.

ولا يخفى ما في كلمة ﴿أَرَادَ﴾ وتكريرها، من دلالة على أن بواعث الهدى والإيمان نابعةٌ أيضاً من نفس الإنسان، ومن كسبه واختياره، كما مر معنا بالنسبة إلى أسباب الضلال، ولا بد للإنسان مع هذه البواعث، من توفيقه تعالى وهدايته ورحمته.

* * *

صفات المؤمنين المهتدين

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ

﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾

وبعد أن عرضت السورة صوراً من صور عناد الضالين وجحودهم، وأبرزت إلى جانبها بعض أدلة الحق وشواهده وبراهينه، وكشفت عن بعض أسباب ضلالهم وعنادهم، عرضت في ختام السورة صفات المؤمنين المهتدين، فإذا هي على الضد تماماً من صفات الضالين:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: يمشون بسكينة وتواضع، هينين ليني الجانب، من غير فظاظة ولا استكبار.

وهذا يدلُّ على أنهم يتصفون بصفة التواضع، فإن مِشيةَ الإنسان تعكس حقيقةَ ما تنطوي عليه نفسه من تواضع أو تكبر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وهذه صفتهم مع أنفسهم، وأما صفة تعاملهم مع غيرهم، فتظهر من قوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أي: إذا كلَّمهم السفهاء بالسوء والسفه والجهل، ردوا عليهم بالكلام الحسن الطيب، وأغلقوا على أنفسهم منفذاً من منافذ الضلال، إذ مرَّ معنا أنه تعالى جعل بعض الناس فتنة لبعض: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

فعباد الرحمن صبروا على السفهاء، واحتملوا سفاهتهم وطيشهم، ودفعوا

السيئة بالحسنة، كما قال سبحانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾.

أي: يُحيون الليل كلّاً أو جزءاً في الصلاة والدعاء، يتقربون إلى ربهم، وهذا يدل على شدة خوفهم وخشيتهم منه تعالى وتعظيمهم له، ولهذا يسألونه أن ينجيهم من عذاب جهنم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ﴾ أي: أبعد عنَّا عذاب جهنم.

فالقوم يقدِّرون مسؤوليتهم يوم القيامة، ويدركون حكمة وجودهم وجوهر حياتهم، فهم على الضد تماماً من الضالين، الذين سلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية يوم القيامة، كما مر معنا عند قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١].

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: إن عذاب جهنم كان شرّاً وهلاكاً لا بد منه.

وهذا يدل على أنهم غير معجبين بأعمالهم، يتهمون أنفسهم بالتقصير في طاعة ربهم، والقيام بأعباء عبوديتهم له ﷻ، فهم محتاجون إلى عفوه ورحمته، مشفقون من عذابه، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج].

﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

أي: إن جهنم بئست مستقرّاً ومقاماً.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ أي: يسيرون في حياتهم المعيشية ونفقاتهم سيراً معتدلاً وسطاً، من غير إسراف وتقتير وتقليل.

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أي: وكان حالهم في الإنفاق وسطاً وعدلاً بين الإسراف والتقتير، فهم ينفذون وصايا الحق تبارك وتعالى في قوله الكريم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وهذا يدل على أنهم لا يعيشون حياة المسرفين المترفين، المنهمكين في الشهوات والأهواء، والذين ضلوا بسبب ذلك، حتى أصبحوا عبيداً لأهوائهم وشهواتهم، كما مر عند قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: لا يعبدون إلا الله تعالى، ولا يشركون معه غيره، فهم على الضدِّ تماماً من الضالين، الذين وصفهم الله تعالى بقوله الكريم: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

والذين ـ كما تقدم أيضاً ـ رفضوا دعوة النبي ﷺ من أجل آلهتهم المزعومة، وقالوا: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي: يحترمون حقوق الناس، فلا يعتدون على حياتهم أو أعراضهم؛ لأنهم يشعرون بالمسؤولية عن ذلك أمام الله تعالى، ويعلمون عظم المسؤولية عن حقوق الآخرين.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي: يلق جزاء إثمه يوم القيامة، فهم على الضدِّ من عُبَّاد الأهواء والشهوات، الوالغين بدماء الناس وأعراضهم.

﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

أي: يخلد في العذاب ذليلاً، فقد جمع الله تعالى له في هذا العذاب المضاعف، الألم الحسي والمعنوي.

وقد عوَّدنا الله تعالى في كتابه الكريم على أسلوبه التربوي التهذيبي، فلا ييئس أصحاب هذه المعاصي من رحمته تعالى، لهذا فتح لهم باب التوبة والإنابة، والرجوع إلى الحياة النظيفة الفاضلة، فقال:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ أي: إلا مَنْ ترك الكفر والضلال، وآمن الإيمان الصحيح بالله الواحد الأحد، وبرسالة النبي ﷺ، وتقرَّب إليه تعالى بالأعمال الصالحة.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ أي: فأولئك التائبون يمحو الله تعالى سيئاتهم، ويثبت مكانها الحسنات، بفضله ورحمته.

وفي الحديث الشريف: عن أبي ذر رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنِّي لأعلمُ آخرَ أهلِ الجنّةِ دخولاً الجنةَ، وآخرَ أهلِ النَّارِ خروجاً منها، رجلٌ يؤتى به يوم القيامة، فيقال: اعرضوا عليه صغارَ ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فَتُعْرَضُ عليه صغارُ ذنوبِهِ، فيُقَالُ: عملتَ يومَ كذا وكذا، كذا وكذا، وعملتَ يوم كذا وكذا، كذا وكذا، فيقولُ: نعم، لا يستطيعُ أن يُنْكِرَ، وهو مشفِقٌ مِنْ كبارِ ذنوبِهِ أَنْ تعرضَ عليه، فيقالُ له: فإنَّ لكَ مكانَ كُلِّ سيئةٍ حسنةً، فيقولُ: ربِّ قد عملتُ أشياءَ لا أراها هاهنا**» فلقد رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حتَّى بدَتْ نواجِذُه. [رواه مسلم (١٩٠)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وأكدت الآيات قبوله تعالى توبة التائبين.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

أي: فإنَّ التائب المخلص في توبته يتوبُ توبةً مقبولةً، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

ومن صفات عباد الرحمن المهتدين أيضاً: أنَّهم يعرفون قيمة حياتهم، وأنَّهم مسؤولون عنها أمام الله تعالى، فلا يضيعونها في الأمور التافهة الرخيصة، كاللهو واللعب والعبث، وشأنُهم في هذا على الضد من شأن الضالين، الذين لا يعرفون قيمة حياتهم، وجوهر وجودهم؛ لأنهم سلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام ربهم جل وعلا.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون مجامع ومشاهد الكذب واللهو واللعب، فحياتهم كلها جد وعزم واجتهاد.

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ أي: وإذا مروا بأمثال هذه المجالس والمجامع، مروا معرضين عنها، ولم يلتفتوا إليها، ويهتموا بها، مكرمين أنفسهم عن التلوث بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

ومن صفاتهم أيضاً: أنَّهم يقبلون على القرآن الكريم، يتلون آياته ويتدبرون معاني كلماته، بصدور منشرحة، وعقول منفتحة، وقلوب خاشعة، فلا يهجرونه ويعرضون عن سماعه، كما يفعل الضالون المشركون، الذين شكاهم الرسول ﷺ إلى ربه، كما تقدَّم عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾.

أي: والذين إذا قُرئ عليهم القرآن أو وعظوا بآياته، لم يستقبلوا آيات القرآن بآذان صم، وقلوب عمي، بل أقبلوا عليها مستمعين متدبرين خاشعين، يتعظون بمواعظها، ويتأدَّبون بآدابها، ويلتزمون بأحكامها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وفضلاً عن كل ذلك، فهم دعاة خير وصلاح في مجتمعهم، وفي داخل أسرهم، يحرصون على صلاح أزواجهم وأولادهم، ويتوجهون إلى الله تعالى يدعونه ضارعين، يسألونه أن يصلحهم ويصلح أولادهم وأزواجهم:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي: راحة وسروراً لأعيننا، بتوفيقهم للعمل الصالح والأخلاق الكريمة، فإنَّ المؤمنَ الصالح تقرُّ عينه، ويفيض قلبه سروراً، إذا رأى زوجه وأولاده صالحين مثله، يسيرون معه على درب الانقياد والاستسلام لله تعالى وأحكام شريعته.

﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: واجعلنا أئمة صلاح وهدى، وأسوة خير ورشاد، في داخل أسرنا، وفي محيط مجتمعنا، فإنَّ الدعوة إلى الهدى والصلاح من أعظم القربات والعبادات، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ دعا إلى هُدًى كانَ له مِنَ الأجرِ مثلَ أجورِ مَنْ تَبِعَهُ لا ينقُصُ ذلكَ مِنْ أجورِهِم شيئاً، ومَنْ دَعَا إلى ضلالةٍ كانَ عليه من الإثمِ مثلَ آثامِ مَنْ تبعَه، لا ينقصُ ذلك مِنْ آثامِهِم شيئاً**» [رواه مسلم (٢٦٧٤)].

هكذا فرَّقت آيات سورة الفرقان المهتدين عن الضالين، فأبرزت صفاتِ

الضالين وأعمالهم، ثم بينت صفاتِ المهتدين وأعمالهم، وكما وصفت الآياتُ مصيرَ الضالين، بينت أيضاً هنا مصير المهتدين، بقوله تعالى:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: أولئك المتصفون بهذه الصفات الكريمة، يتفضَّل الله تعالى عليهم بالدرجة العالية في الجنة، بسبب صبرهم على أعباء ما كُلِّفوا به من العبادات والطاعات، ومجاهدتهم لأنفسهم.

والغرفة في الأصل: البناء المرتفع العالي، فهي تدل على ارتفاع مكانة سكانه، قال تعالى: ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا﴾ أي: ويلقون في الجنة التحية والسلام والإكرام والاحترام، كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وقال سبحانه: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد].

﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

أي: ماكثين فيها أبداً، لا يتحوَّلون عنها، حسنت منظراً، وطابت مقاماً ومستقرّاً ومنزلاً، نسأله تعالى أن يجعلنا من أهلها.

* * *

خاتمة السورة

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

وبعد أن فرّقتِ الآيات بين صفات الضالين وصفات المهتدين، في الحال والمآل، خُتمت السورةُ بأمر النبي ﷺ، أن يبين للناس جميعاً الضالين والمهتدين، حقيقة كبيرة، وهي أنه تعالى غنيٌّ عن طاعتهم وعبادتهم، وأنه سبحانه ما خلقهم لحاجته إلى عبادتهم:

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: ربي غني عنكم، فهو ما خلقكم إلا ليدعوكم إلى عبادته وطاعته، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي: فقد كذبتم أيها الضالون رسلي، الذين أرسلتهم ليدعوكم إلى طاعتي وعبادتي، فضللتم.

﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: فسوف يكون عذابكم أمراً ثابتاً لازماً، بسبب ضلالكم وتكذيبكم.

فالله سبحانه ما خلقنا ليعذبنا، بل خلقنا ليشرفنا بعبادته وطاعته، ويكرمنا بفضله وجنته، والضالون هم الذين عرضوا أنفسهم لسخطه وعذابه، وحرموا أنفسهم من رحمته وإحسانه، فالمسؤولية نابعةٌ من أنفسهم، من كسبهم واختيارهم، وما يترتب عليها من حساب وجزاء واقع على أنفسهم والله سبحانه ما ظلمهم، ولكن أنفسهم كانوا يظلمون.

والحمد لله أولاً وآخراً، أسأله تعالى أن يثبتنا على طريق الهدى والنور، ويجنبنا طرق الضلال ومزالق الشيطان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

❁ ❁ ❁



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

ومَوْضُوعُ السُّورَةِ

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد على آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ الله تعالى في خلقه سنناً لا تتخلَّفُ، منها معاقبة المعاندين للحق، الجاحدين له، بعد أن يبينه تعالى لهم بأدلته وبراهينه وحججه، وبعد أن يمكِّنهم أيضاً من الانقياد له، بما أعطاهم من كسبٍ واختيارٍ، وبإمهالهم وتأخير العقاب عنهم، فهو العزيز الرحيم، القوي القادر، غنيٌّ عن عبادتهم وطاعتهم، ومحسن ومتفضِّل عليهم بأسباب الهداية والسعادة.

هذا ـ فيما أرى ـ موضوع سورة الشعراء الأساس، الذي دارت في فلكه آياتها المئتان والسبع والعشرون، والتي جاءت قصيرةً قويةً متلاحقة، كأنَّها مطارق متتابعة، تهوي على رؤوس المعاندين، لعلها تَلين للحق وتُذعن له.

• أظهرت الآيات الأولى في السورة، **عناد مشركي قريش**، وإعراضهم عن المعجزة القرآنية، في مقابل **حرص النبي ﷺ على إيمانهم**، وشفقته عليهم من عاقبة عنادهم.

• ثم عرضت صوراً من **عناد بعض الأمم السالفة**، وما أدّى إليه من عقاب وهلاك، وعقبت على كل موقف بما قررته في صدر السورة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء].

• وعادت الآيات في آخر السورة إلى **عناد مشركي قريش**، فبينت شدته بإضافة أدلة جديدة إلى المعجزة القرآنية البيانية، التي جاءت تتناسب مع ما اشتهروا به من قوة العارضة، وفصاحة اللسان، والتمكن من البيان، فأكدت أنها تنزيل رب العالمين، بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام، على النبي الكريم محمد ﷺ.

• ثم **دحضت شبهاتهم** التي كانوا يسترون بها عنادهم، فبينت استحالة تنزل الشياطين بشيء من آيات القرآن الكريم، واستحالة نزولهم على النبي ﷺ، كما بينت بطلان زعمهم بأنها ضرب من ضروب الشعر، فلم يكن عليه الصلاة والسلام شاعراً، ولم يصدر عنه شيء منه، وحاله عليه الصلاة والسلام ودعوته وأتباعه وأصحابه، لا تتفق أبداً مع حال الشعراء وأتباعهم وما يصدر عنهم.

ثم توجت الآيات كل ذلك **بخاتمة فيها وعيد شديد للمعاندين**، الذي ظلموا أنفسهم، وظلموا الحقيقة بجحودهم وعنادهم، فعقابهم أمر لازم لا بد منه، ولا ينتهي هذا العقاب عند حدود الدنيا الفانية، بل يمتد إلى ما بعد الموت، حيث الخلود في العذاب: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. فالعناد يؤدي لا محالة إلى العقاب والخلود في العذاب.

أسأله تعالى أن يجعلنا من الذين ينقادون للحق ويذعنون له، وأن يثبتنا على طريقه، وأن يقينا شؤم عناد المعاندين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

❁ ❁ ❁



إِشْفَاقٌ وَإِعْرَاضٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾

بدأ الله تعالى سورة الشعراء بالحروف التالية:

﴿طسٓمٓ ۝١﴾.

سبق الحديث عن هذه الحروف في سور سابقة، ويلاحظ هنا تشابه في فواتح السور الثلاث المتوالية: (الشعراء) و(النمل) و(القصص)، لوجود حرفي الطاء والسين متواليين في فواتحها، حتى إن بعض المفسرين أطلق على هذه السور **اسم الطواسين**.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾.

أي: هذه آيات الكتاب البين إعجازه. أو: المبين للأحكام الشرعية. أو: الفارق بين الحق والباطل، كما سبق في أول سورة الفرقان.

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

أي: لعلك يا نبيَّ الله قاتلٌ نفسَك أسفاً وحسرةً، لعدم إيمان قومك بذلك الكتاب المبين.

وأصلُ **البخعِ**: أن يُبْلَغَ بالذبحِ البخاعُ، وهو عرق مستبطن الفقار، وذلك أقصى حد الذبح.

وكلمة ﴿لَعَلَّكَ﴾ للإشفاق، أي: أشفق على نفسك أن تقتلها حسرةً على ما فاتك من إسلام قومك[١].

وكان رسول الله ﷺ حريصاً على إسلام قومه، يتألَّم من إعراضهم وعنادهم، ويشفق عليهم أن يموتوا على كفرهم وشركهم، فيستحقوا الخلود في العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

ثم بيَّن تعالى أنه قادر على إجبارهم على الإيمان وإلجائهم إليه، فقال:

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾.

أي: إن نشأ إجبارهم على الإيمان، ننزل عليهم آية، فيظلوا لها منقادين خاضعين، فلا يلوي أحدهم عنقه إباءً وعناداً.

وأقحمت الأعناق لبيان موضع الخضوع، وقد يكون المراد منها رؤساءَهم وزعماء الضلال فيهم، أو جماعاتهم، يقال: جاءنا عنق من الناس؛ لفوج منهم[٢].

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ٢٣٣.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٤٦٣.

والله جل وعلا قادر على إجبارهم على الإيمان، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ولكنه تعالى قدَّر أن يكونَ للإنسان اختيار وكسب، وجعلَ هذا الاختيار والكسب أساسَ تكليفِه ومسؤوليته وجزائه يوم القيامة.

وأصر القوم باختيارهم وكسبهم على ضلالهم وكفرهم، وأعرضوا عن دعوة الحق المؤيدة بالأدلة البراهين:

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾.

فكلما جدَّد تعالى لهم بوحيه موعظةً وتذكيراً، جدَّدوا إعراضاً وعناداً وكفراً، فلقد أنزل الله تعالى عليهم آيات القرآن مفرقة منجمة، تجديداً لتذكيرهم وموعظتهم، وتنبيهاً إلى ما فيها من أدلة جديدة ملزمة وحجج بالغة، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان].

ومع ذلك أصر القوم على إعراضهم وعنادهم وتكذيبهم:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾.

أي: كذبوا بكل الآيات التي أنزلها تعالى عليهم، فسيأتيهم أخبار وعاقبة تكذيبهم واستهزائهم.

وكما أعرض القومُ عن الأدلة في الآيات القرآنية الكريمة، أعرضوا أيضاً عن الأدلة المبثوثة في المكونات والمخلوقات السماوية والأرضية، وما أكثرها:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

أي: أولم ينظروا كم أنبت الله تعالى في الأرض من أصناف كثيرة المنافع، تدل على وحدة خالقها وحكمته ورحمته وإحسانه.

فالكريم: صفة لكل ما يحمد ويرضى، وأصل **الكرم في اللغة**: الشرف والفضل، فنخلة كريمة: أي فاضلة كثيرة الثمر، ورجل كريم: شريف فاضل صفوح(١).

وتشير الآية إلى الزوجية المبثوثة في أصناف النباتات، وهي حقيقة علمية اكتشفها الإنسان المعاصر، وذكرها تعالى في مواضع متعددة من التنزيل الكريم:

منها قوله ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

ومنها قوله ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

- **العزيز الرحيم:**

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: إن في كل واحد من تلك الأصناف والأزواج آيةً عظيمةً دالةً على كمال قدرة منبتها وخالقها، وسعة علمه، وتمام حكمته، وعظيم رحمته وإحسانه، تلزم بالإيمان، ومع ذلك:

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: وما كان أكثر الناس في الحقيقة والواقع مؤمنين، مما يدل على شدة عنادهم، وغاية ضلالهم وجهلهم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف].

فالآية تقرر حقيقة واقعة مشاهدة في كل عصر ومصر، والمراد من الأكثرية أكثرية الناس مطلقاً، وليس المراد مشركي قريش وحدهم، كما ذهب بعض المفسرين، وخصوص السبب لا يعني خصوص الحكم، إذا كان اللفظ عامّاً.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٣/٩٦.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾.

أي: إنه جل وعلا الغالب القوي القاهر، القادر على الانتقام منهم، وإنه أيضاً المبالغ في الرحمة، ولذلك يمهلهم، ولا يعاجلهم بالعقوبة.

ففي هذين الاسمين الكريمين من أسمائه الحسنى ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، دلالة على غناه وكمال قدرته وقوته، مع عظيم إحسانه وفضله، وسعة كرمه وجوده، فما خلق سبحانه الخلقَ إلا بمحض مشيئته واختياره، وما كلَّفهم بطاعته وعبادته إلا ليرحمهم ويحسن إليهم، فهو غني عن عبادتهم وطاعتهم، وإعراضهم عن طاعته وعبادته، ومعاندتهم لرسله، يحرمهم من فضله تعالى وآثار رحمته، ويعرضهم لسخطه وعذابه وانتقامه.

تلك هي الأفكار الأساس الكبرى، التي تدور آياتُ السورة في فلكها، فلا عجب أن يتكرر تقرير هذه الحقائق، بعد عرض مواقف العناد والعقاب عند الأمم الماضية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشُّعَرَاء].

ولا شك أن فيها أيضاً مواساة للنبي ﷺ، وتخفيفاً لأسفه وحزنه على قومه، وشفقته عليهم أن يحل بهم عذابه تعالى وانتقامه، فسنته تعالى لا تتخلَّفُ في إهلاك الجاحدين المعاندين، كما أنَّ فيها تأكيداً لصدق رسالته، وصحة نبوته، وأن القرآن الكريم الذي ينزل عليه، إنَّما هو كلام الله تعالى المعجز، ينزل بأمره تعالى ومشيئته على النبي ﷺ.

❁ ❁ ❁

الفَصْلُ الثَّانِي

عِنَادُ بَعْضِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ وَعِقَابُهُمْ

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ

إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن
جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾
فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ
﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا
تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ
يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾
وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾
وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾
وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾
وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ
هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا
يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ

لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ
﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ
أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ
إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا
تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَـٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَـٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى
مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ
ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا
كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ
قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ
لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾
قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا

عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤) قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)﴾.

- **رسالة موسى وهارون** عليهما السلام:

بدأت الآياتُ عرضها لمواقف العناد من دعوة الأنبياء عليهم السلام، بالحديث عن موقف فرعون، ومعاندته لدعوة موسى عليه السلام، المؤيدةِ بالبراهين العقلية والمعجزات الحسية:

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)﴾.

أي: اذكر إذ نادى ربك موسى، وكلَّفه أن يذهبَ إلى القوم الظالمين.

ودلت الآيةُ على أنَّه من الواجبِ على الداعية أن يذهبَ بنفسِه إلى المَدْعُوِّين، يأتيهم في بلادهم وبيوتهم ومجتمعاتهم.

وكان النبيُّ ﷺ يفعلُ ذلك، فقد كان يطوف على القبائل في منازلهم، في الأسواق ومواسم الحج، كما كان يرسِلُ أصحابه إلى بلادهم وديارهم، ويذهب أحياناً بنفسه، كما فعل عندما سافر إلى الطائف ليبلِّغَ ثقيفاً دعوة الله تعالى.

ثم بينت الآياتُ هويةَ الظالمين الذين أرسل إليهم موسى عليه السلام:

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾.

أي: ائت قوم فرعون، وقُلْ لهم: اتقوا الله تعالى، بطاعته وعبادته وحده، وترك المعاصي والظلم والفجور.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢﴾.

أي: إني أخاف أن يبادروا إلى تكذيبي، فأصاب بضيق الصدر:

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ۝١٣﴾.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ أي: ولا أستطيع رد تكذيبهم بسبب ما يعتريني من ضيق الصدر، وبسبب خلل في نطقي وكلامي.

وكان في نطقه عليه السلام بعضُ الخلل والنقص، فسأل الله تعالى أن يزيلَه عنه، كما سأله أيضاً أن يجعل أخاه هارون مساعداً له في أداء الرسالة.

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ أي: اجعل أخي هارون رسولاً، كما في قوله تعالى في سورة طه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥﴾.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۝١٤﴾.

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾ أي: ولقوم فرعون عليَّ تبعة ذنب، وهو قتل رجل منهم، ضربه موسى دفاعاً عن رجل مظلوم، فأدى ذلك إلى موته، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أي: فأخاف أن يقتلوني لهذا السبب.

وما أراد عليه السلام بكلماته هذه إلا إظهار ضعفه، وشدة احتياجه إلى معونة ربه، ليقومَ بتبليغ الرسالة على أحسن الوجوه وأكملها.

واستجاب سبحانه لدعائه، وأرسل إلى هارون، وأمره بمعونته وتأييده، وآتاه سُؤْله:

﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: اترك هذه الظنون والمخاوف، واذهب أنت وأخوك مؤيداً بالمعجزات، إنا معكم بالمعونة والنصرة، سامعون كل ما يجري بينكما وبين فرعون، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: إنا أُرسلنا إليك من رب العالمين.

وأفرد ﴿رَسُولُ﴾ للدلالة على وحدة رسالتهما، أو لأنه مصدر بمعنى الرسالة، فيستوي بالوصف به المفرد والمثنى والجمع.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: أطلق بني إسرائيل من طغيانك وظلمك، واتركهم أحراراً ليخرجوا معنا من مصر.

وهذا دليلٌ على أنَّ مهمة موسى وهارون هي تبليغ فرعون وقومه دعوة الله تعالى، وتخليص بني إسرائيل من طغيانه وظلمه، كما قال سبحانه: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧].

وهذا يدل على أن من مقاصد دعوة الأنبياء الأساس نصرة المظلومين، وتخليصهم من طغيان الظالمين وبغيهم وفسادهم، وتدل أيضاً على أنَّ موسى

أُرْسِلَ إلى فرعون وقومه، كما أرسل إلى بني إسرائيل، وليس صحيحاً قول سيد قطب ﵀: «إنه لم يكن رسولاً إلى فرعون وقومه، ليدعوهم إلى دينه، ويأخذهم بمنهج رسالته، وإنَّما كان رسولاً إليهم ليطلبَ إطلاق بني إسرائيل، ليعبدوا ربهم كما يريدون، وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل، وهو يعقوب أبو يوسف ﵉، فبهت هذا الدينُ في نفوسهم، وفسدت عقائدُهم، فأرسل الله إليهم موسى لينقذَهم من ظلم فرعون، ويعيد تربيتهم على دين التوحيد»[1].

ولا أدري السبب الذي حمله ﵀ على حصر رسالة موسى في بني إسرائيل، وتغافله عن الآيات الكثيرة القاطعة بأنه أرسل مباشرة إلى فرعون ومَلَئِهِ، منها قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات].

ومنها قوله سبحانه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه].

• **المحاورة:**

وبعد أن بينت الآياتُ رسالةَ موسى وهارون ﵉، تجاوزت كثيراً من حلقات القصة وأحداثها، وانتقلت مباشرةً إلى وصف مواجهة موسى وهارون للطاغية، وحكاية المحاورة في هذه المواجهة بين الجانبين، فأظهرت بذلك شدَّة عناد فرعون وقومه، وجحودهم للبراهين الساطعة والحجج القاطعة، التي واجههم بها النبيان الكريمان موسى وهارون ﵉، فبعد أن أدَّى موسى لفرعونَ الرسالة، تغافل عنها فرعون، وأقبل على موسى يمنُّ عليه بما قدَّمه له عندما كان صغيراً ناشئاً في قصره.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ألم نعمل على تنشئتك وتربيتك عندما كنت حديثَ عهد بالولادة، ومكثتَ تتمتَّع برعايتنا سنين كثيرة من عمرك.

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٥٩٠.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: فقابلتَ نعمتنا عليك بالجحود والكفران، وقتلت رجلاً منا.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: قال موسى: فعلتُ ما فعلتُ وأنا حينئذٍ من الضالين البعيدين عن الرسالة والنبوة. أو: كنت من الجاهلين لعاقبة ما فعلت، فما كنتُ أحسبُ أني قاتله بمجرد وكزة واحدة.

وما أراد عليه السلام ضلال أهل الجاهلية وكفرهم، فالأنبياء محفوظون منذ صغرهم من مثل هذا الضلال.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: ففررت خوفاً من ظلمكم وبغيكم، فوهب لي ربي النبوة، وأكرمني بحمل الرسالة، وجعلني من المرسلين.

ثم ردَّ عليه السلام مِنَّة فرعون عليه بأسلوب التهكم، تقليلاً لشأنها، بالكشف عن سببها، وهو ظلم فرعون وطغيانه، فقال:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وهذه النعمة التي تمنها عليَّ ليست في الحقيقة إلا بسبب استعبادك لبني إسرائيل، عندما أمرتَ بذبح أبنائهم، واستحياء نسائهم، فلولا ذلك لكفلني أهلي، وما ألقوني في اليم، وما وصلتُ إلى قصرك ونشأتُ فيه.

هكذا بكلِّ هذا الثبات والجرأة والثقة، ردَّ موسى عليه السلام منة الطاغية الكبير عليه، مما حمله على الانتقال إلى موضوع رسالة موسى، والاعتراض عليها:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ما حقيقة رب العالمين، الذي تدَّعي أنه أرسلك.

وردّ عليه موسى ببيان بعض أفعاله تعالى وآثار قدرته، لامتناع معرفة كنه ذاته جل وعلا:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: إن كنتم موقنين بشيء قط، فربُّ السماوات والأرض وما بينهما أولى وأحق ما توقنون بأنه ربكم.

ودُهِشَ فرعون من قوة جواب موسى وظهور حجته، فالتفت إلى رجال حاشيته المحيطين به، مخاطباً لهم:

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وكأنه يطلبُ منهم إسعافه بجواب يرد به على موسى.

ولكنَّه عَلَيْهِ السَّلَامُ بادرهم بالكلام، مضيفاً دليلاً آخر بأسلوب التحدي لهم:

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

فهو تعالى ربكم ورب آبائكم الأولين شئتم أم أبيتم، فهي حقيقة لا تستطيعون تجاهلها.

ولاحظ فرعونُ أنَّ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تمكَّن من السيطرة على عقول القوم ومشاعرهم، بقوة حججه ووضوح براهينه، فحاول صرفهم عن التفكير في كلمات موسى وأدلته، فعدل إلى الاستهزاء والسخرية من موسى، واتهامه بالجنون:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾.

وسمَّاه رسولاً تهكُّماً واستهزاءً، وفطن موسى إلى مراد فرعون، فأعرض عن الرد المباشر لفريته وسخريته، وأضاف دليلاً آخر ملزماً:

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: إن كنتم حقّاً من أهل العقل والتفكير والتمييز، علمتم أن ربكم هو رب المشرق والمغرب وما بينهما.

ولا يخفى ما في كلماته عليه السلام من التعريض بوصفهم بصفة الجنون، وعدم التعقل والتمييز، إذا أعرضوا عن هذه الأدلة الباهرة القاطعة، والحجج البالغة الملزمة.

• عناد وانقياد:

ولمَّا رأى فرعون أنه وحاشيته لا حجة لهم في عقائدهم الفاسدة، لجأ إلى لغة التهديد والوعيد، شأنه في هذا شأن جميع المستبدِّين المعاندين في كل زمان ومكان:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: لأجعلنك ممن عرفت أحوالهم في سجوني الرهيبة المخيفة، وهذا يدل على غاية عناده وعتوه وطغيانه، فهو لا يريدُ من موسى أن يتخلَّى عن رسالته فقط، بل يريدُ منه أن يتخذه إلٰهاً ومعبوداً من دون الله تعالى، وقد كان يدَّعي لنفسه صفة الألوهية والربوبية، وقد حكى ذلك عنه تعالى في قوله الكريم: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وقال ﷻ: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ [النازعات].

ولم يأبه موسى لتهديده ووعيده، ورأى أنه قد حان الوقت لمواجهته بالمعجزات الإلٰهية التي أيده تعالى بها، بعد أن طوقه بحججه العقلية الفكرية:

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: بأمر واضح ظاهر، يدل على صدق رسالتي، وكمال قدرة رب العالمين الذي أرسلني.

وهو تحدٍّ جديد، لا بدَّ لفرعون أن يستجيب له أمام حاشيته وأعوانه:

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: فيما تقول وتدعي.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: فإذا هي ثعبان حقيقي ظاهر، ليس فيه تخييل ولا تزوير.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ونزع موسى يده من تحت إبطه بعد أن أدخلها فيه، فإذا هي بيضاءُ بياضاً منيراً متلألئاً، تجذب إليها أنظار الناظرين.

ولا شك أن فرعون وحاشيته قد بهروا بسلطان المعجزتين، ولكن عنادهم جعلهم يخفون تأثرهم وانفعالهم، ويظهرون غير ما يبطنون، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: قال فرعون لمن حوله: إنَّ موسى لساحر عليم بفن السحر.

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: يريد أن يستولي على سلطانكم وملككم في أرضكم بسحره، فماذا تأمرون فيه؟.

ولقد وشت كلماتُ فرعون هذه بشدَّة انفعاله، وتأثره برؤية المعجزتين، حتَّى حطَّ ذلك من كبريائه وادعائه الألوهية والربوبية، إلى مشاورة أفراد حاشيته، والائتمار بأمرهم، والاستعانة بهم على موسى، وتذكيرهم بخطره على مناصبهم ورتبهم وامتيازاتهم، وهو الأسلوب نفسُه الذي يلجأُ إليه الطغاةُ المستبدون، فإنهم يبادرون إلى اتهام كل معارض لطغيانهم واستبدادهم بالطمع بالملك والسلطان، والاستئثار به دونهم.

﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: أخِّر أمرهما، وابعث في المدن رجالاً، يجمعون لك السحرة المهرة.

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

لكي يتحدَّوا موسى، ويظهروا بطلان سحره.

﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: يوم مشهور عندهم، فقد كان يوم عيد وزينة لهم، قال تعالى: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

وقام رجال حاشية فرعون بحملة دعائية كبيرة لجمع الناس، ودسوا بينهم الدعاة يحثونهم على الاجتماع لتشجيع السحرة:

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وهذا يدل على أنهم نظموا حملة دعائية لإثارة الرأي العام ضد دعوة موسى

عليه السلام، ظناً منهم أن الحق يضيع ويضمحل أمام طوفان الباطل وصراخ رعاع الناس وغوغائهم.

وانتهز السحرةُ المناسبةَ ليحققوا لأنفسهم بعض المكاسب المادية، شأنهم في هذا شأن الانتهازيين، الذي يتملّقون الطغاة المستبدين، لتحقيق مصالحهم:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾﴾.

فما كان من فرعون إلا أن أطمعهم بالمال والمراتب، فالطغاة المستبدون لا يجدون من يؤيدهم في صفوف الأمة إلا المنافقين والمداهنين والانتهازيين.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

- **في ميدان المواجهة:**

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قال لهم ذلك بعد أن قالوا له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥].

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أي: قالوا ذلك على جهة التعظيم والقسم باسمه، ولا شك أنه نوع من التزلُّفِ له، لينالوا ما وعدهم به من الرتب والمراتب، يقابله فرعون وأمثاله بمزيد من التكبر والانتفاش.

وقد شاع ـ مع الأسف ـ في كثير من المجتمعات الإسلامية، مثل هذه الأيمان، مع أن الحلف بغير الله تعالى محرم.

ففي الحديث الشريف: عن **ابن عمر** رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أدرك عمرَ بنَ الخطَّاب في ركبٍ، وعمرُ يحلِفُ بأبيه، فناداهم رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ الله عز وجل ينهاكم أن تحلِفُوا بآبائِكم، فَمَنْ كانَ حالِفاً فليحلفْ باللهِ أو ليصمتْ**» [رواه مسلم (١٦٤٦)].

وعن **عبد الرحمن بن سمرة** رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تحلِفُوا بالطواغي ولا بآبائِكم**» [رواه مسلم (١٦٤٨)].

والطواغي: تشملُ كل من طغى وجاوز القدر المعتاد في الشر.

- **ولم يطل زهو فرعون وانتفاشه:**

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: فإذا هي تتحول بتقديره تعالى إلى حية عظيمة، تبتلع بسرعة كل آلات تزويرهم وتمويههم من حبال وعصي.

فما كان من السحرة أمامَ عظمة المعجزة وقوَّةِ برهانها إلا السجود على الأرض لله رب العالمين، معلنين إيمانهم به، وتصديقهم برسالة موسى عليه السلام.

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أي: من دون تردد ولا توقف، كأن ملقياً ألقاهم.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

وبهذا دفعوا أي توهم أنهم أرادوا فرعون، فإيمانهم برب العالمين، الذي يدعو موسى وهارون إلى عبادته وطاعته.

وتحوَّلَ زهوُ فرعون وانتفاشه إلى غضبٍ شديدٍ، صبَّه على السحرة الساجدين لرب العالمين:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ﴾ فالرجل غاضب لكبريائه المجروح، بسبب مبادرة السحرة إلى الإيمان بالله تعالى، من غير استئذانه.

وليس في قوله دلالةٌ على أنَّه يمكن أن يأذن لهم، فأمثاله من المغرورين المعاندين لا يُرجى منهم أي خير، ولا يأذنون به.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ أي: إنَّ موسى هو الذي علمكم السحر، فأنتم متآمرون معه على ذلك.

وأراد فرعون بهذا أن يضلَّ الجماهير عن الحقيقة، لئلا يتأثروا بموقف السحرة، ولهذا اتهمهم بالتآمر مع موسى، قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

وهو الأسلوب نفسه الذي اعتاد المستبدون اللجوء إليه، لقمع معارضي ظلمهم واستبدادهم.

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون وبال تآمركم.

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: لأقطعن اليد اليمنى والرجل اليسرى، ولأصلبنكم على جذوع النخل.

ولم يتأثر السحرةُ بتهديد فرعون، بعد أن أشرقت في قلوبهم جذوة الإيمان، وتذوَّقت نفوسُهم لذته وحلاوته، فردوا عليه بثبات واستعلاء:

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠﴾

أي: لا ضرر علينا في ذلك، بل لنا فيه نفع عظيم، بما يحصل لنا في الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم.

أو: لا ضيرَ علينا فيما تتوعدنا به من القتل، إنَّه لا بدَّ لنا من الانقلاب إلى ربنا بأي سبب من أسباب الموت[1].

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾.

أي: أول المصدِّقين برسالة موسى عليه السلام، فالسبق إلى الخير فضيلةٌ كبيرةٌ،

---

(١) تفسير أبي السعود: ٦/ ٢٦٣.

أكرمَ الله تعالى بها السحرة، ببركة صدقهم وإخلاصهم وانقيادهم للحق، عندما رأوا أدلته وبراهينه.

• عقاب المعاندين:

وبعد أن أظهرت الآياتُ عناد فرعون وقومه، بجانب انقياد السحرة للحق وإذعانهم له، طوت الآياتُ صفحات كثيرة من قصة موسى وفرعون، فصلتها في سورة الأعراف، وانتقلت مباشرة إلى بيان عاقبة العناد والطغيان، والعذاب الذي أنزله تعالى بهم:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: اخرج بهم ليلاً، إن فرعون سيتبعكم بجنوده.

وحدث ما أخبر تعالى، فلمَّا علم فرعون بخروج موسى مع بني إسرائيل، استنفر جنوده وجمع جيوشه:

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: أرسل الجامعين للجنود، وخطب فيهم قائلاً:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: إن بني إسرائيل لطائفة قليلة، بالنسبة لما عنده من جيوش وجنود.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: إنهم فعلوا ما أغضبنا عليهم.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: وإن من عادتنا الحذر والتيقظ، واستعمال القوة في مثل هذه الأحوال.

وعقبت الآياتُ على تصرفات فرعون وكلماته، بقوله تعالى:

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

أي: بهذا جعلناهم يخرجون من قصورهم وبساتينهم وأموالهم، وجميع ما كانوا عليه من مظاهر سرفهم وترفهم.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾

أي: جعلناهم المالكين لها بعدهم، كما قال سبحانه: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان].

فهو سبحانه مالك الملك، ينزعه ممن يشاء، ويعطيه من يشاء، وكل تحول وتغير يتم بإرادته تعالى وسابق علمه.

ثم فصَّلت الآيات تتابع الأحداث:

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: عند شروق الشمس.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾

أي: لما اقترب الجمعان من بعضهما، وأصبح كل جمع على مرأى من الآخر، غلب على بني إسرائيل الخوف والوهن، وقالوا: إنّا واقعون لا محالةَ في قبضةِ فرعون وجنوده، فالبحر أمامنا وهم خلفنا.

ولكنَّ موسى عليه السلام زجرهم عن مثل هذه الكلمات، الدالة على الخوف والجبن واليأس:

﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾.

أي: قال موسى: انزجروا عن ذلك وارتدعوا، فإنهم لا يدركونكم، لأنه تعالى معي ينصرني ويهديني إلى طريق السلامة.

ويلاحظ أنَّه عليه السلام لم يقل: إنَّ الله معنا، كما قال النبي ﷺ لأبي بكر عندما كانا في الغار، ولعلَّ السبب: أَنَّ موسى عليه السلام كان يعلمُ حقيقةَ ما تنطوي عليه قلوبُ كثير من بني إسرائيل من النوايا السيئة، وسوءِ الظنِّ بالله تعالى، التي أظهرتها بعد ذلك الأحداث اللاحقة، كعبادتهم العجل، وتخاذلهم عن تنفيذ أمر موسى بالجهاد.

وجاء الفرج من الله تعالى في اللحظة الحاسمة الحرجة:

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣﴾.

﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ أي: أمرنا موسى بواسطة الوحي أن يضرب البحر بعصاه.

﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: فضربه فانشق عن طريق يابس، وأصبح الماءُ على جانبيه كالجبل المنيف الراسخ، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

وفي الآية حذفٌ فيه إشارة إلى سرعة امتثاله عليه السلام، وسرعة ترتب الانفلاق على الضرب، وإنَّما أُمر عليه السلام بالضرب فضرب، وترتب الانفلاق عليه، إعظاماً لموسى عليه السلام، بجعل هذه المعجزة العظيمة مترتبة على فعله، ولو شاء الله لفلقه من دون ضربه بالعصا[١].

وقد تم مراده تعالى بإهلاك الطاغية وجيوشه، ونجاة موسى وبني إسرائيل:

---

(١) روح المعاني: ١٩/٨٦.

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: قربنا فرعون وجنوده من بني إسرائيل، حتى دخلوا وراءهم.

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: أنجيناهم من الهلاك في أيدي أعدائهم، ومن الغرق في البحر.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: أغرقناهم بإطباق البحر عليهم، كما قال سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

وقال أيضاً: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

واكتفتِ الآياتُ بهذا المقدار من قصة موسى، وعقبت عليها بقوله تعالى:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي: إن في هذه القصة العجيبة برهاناً واضحاً، يدل على كمال قدرة الله تعالى وتمام مشيئته، توجب الإيمان به، وتلزم بتصديق دعوة نبيه عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك:

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذا يدل على شدة عنادهم وقسوة قلوبهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: وإن ربك لهو القاهر القادر على إهلاكهم، كما أهلك فرعون وجنوده، وهو رحيم، ولهذا يؤخر عقابهم لعلهم ينقادون للإيمان ويدخلون في الإسلام.

• **انقياد إبراهيم لله رب العالمين:**

لم تلتزم الآيات في سورة الشعراء، بالتسلسل التاريخي؛ حيث عرضت أولاً مواقف العناد والعقاب في قصة موسى وفرعون، مع أنها متأخرةٌ عن غيرها، ثم ثنَّت بعرض قصة إبراهيم عليه السلام، مع أبيه وقومه، وأبرزت فيها استسلامه، وانقياده لله رب العالمين، في مقابل عناد أبيه وقومه، مع أنّ هذه القصة متقدِّمةٌ في الزمن كثيراً عن عصر موسى عليه السلام.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: اتلُ يا محمَّدُ على المعاندين من مشركي مكة، نبأ نبي الله إبراهيم.

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

وسؤاله عليه السلام لم يكن سؤالَ استعلامٍ، وإنَّما سؤالَ استنكار لعبادتهم معبوداتٍ لا تستحقُّ العبادة.

﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾

أي: فنظلُّ مقيمين على عبادتها. ولا شك أنهم قالوا ذلك افتخاراً وتبجُّحاً.

وقابل إبراهيمُ عليه السلام تبجحهم وافتخارهم بعبادة الأصنام بالهجوم عليها، وإظهار عجزِها، وعدم استحقاقها للعبادة:

﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾

وبهذا حصرهم عليه السلام بقوة حججه، وأظهر لهم عجز معبوداتهم.

فأضربوا عن إجابته إلى التصريح بأنهم يقلدون آباءهم في عبادتها:

﴿قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

فلا حجة لهم إلا تقليد آبائهم تقليداً أعمى.

ووجد ﷺ في جوابهم هذا فرصته المناسبة ليعلنَ براءته من جميع معبوداتهم، لعلَّهم يقتدون به، بعد أن أظهر لهم عجزها وعدم استحقاقها للعبادة:

﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: فكل معبوداتكم عدو لي، لكن رب العالمين هو معبودي الذي يستحق العبادة.

وأراد إبراهيم ﷺ بهذا الاستثناء أن يذكِّرهم بالمعبودِ الحقيقي، وأن يشدَّ أفكارهم وعقولهم إليه.

ثم تابع ﷺ كلامه، مبيناً فضله تعالى، وإحسانه عليه، وشدة افتقاره ﷺ إلى هذا الفضل والإحسان:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾.

فهو يهدي كل مخلوق لما خُلق له من أمور المعاش والمعاد، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣].

فهدايته تعالى مدرجةٌ من مبدأ إيجاده للمخلوق، إلى منتهى أجله، مبدؤها بالنسبة للإنسان هداية الجنين إلى امتصاص غذائه من دم الرحم، ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والنعيم(١).

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

أي: هو سبحانه الذي يمدني بأسباب الحياة من طعام وشراب.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤/٤٧٨.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾.

أي: هو وحده الذي يبرئني من مرضي ويعافيني.

وبلغ عليه السلام في هذه الكلمات غايةَ الأدب مع الله تعالى، فنسب المرضَ إلى نفسه، والشفاء إلى ربه، مع أنَّ كُلَّ شيءٍ بمشيئته تعالى وإرادته.

والإنسانُ يتسبَّبُ بسوء كسبه واختياره بخَلْق الشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فالشر منا تسبباً، ومن الله خلقاً وإيجاداً، قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وتابع عليه السلام إظهارَ شدة افتقاره إلى الله تعالى، وإعلان استسلامه له جل وعلا:

﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١﴾.

أي: بيده تعالى موتي وحياتي، وهو وحده القادر على الإماتة والإحياء، وبعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

وأكد عليه السلام هذه الحقيقة بقوله بعد ذلك:

﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾

أي: وهو الذي أرجو مغفرته يوم الحساب والجزاء.

واستغفارُ الأنبياءِ تواضعٌ منهم لربهم، وهضم لأنفسهم، وتعليم للأمم في طلب المغفرة[١].

وأكد عليه السلام شدة افتقاره واحتياجه لربه، بأن توجه إليه يدعوه بضراعة وخشوع:

---

(١) تفسير النسفي: ٤/٤٧٨.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: هب لي حكمة وحُسن فهم وتمييز، ووفقني لأسير على طريق الصالحين، لأكون يوم القيامة معهم.

وهذا تعريض بقومه، الذين عطَّلوا مداركهم وعقولهم، وقلدوا آباءهم تقليداً أعمى، وساروا وراءهم على طريق الضلال.

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾

أي: اجعل لي ثناءً حسناً، وذكراً جميلاً، في الأعقاب والأجيال المتوالية بعدي، وذلك بتوفيقي للأعمال الحسنة، التي تبقى آثارُها ومنافعُها ماثلةً في ذاكرة الأمم والشعوب.

ولا تزال أعمال إبراهيم عليه السلام الخالدة معالمَ حق وهدًى بين الأمم والشعوب، ومن أبرزها دعوة التوحيد، ورفع قواعد بيت الله الحرام، وقصة الذبح والفداء، قال تعالى تعقيباً على قصة الذبح والفداء: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [الصافات].

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: أدخلني برحمتك جنة النعيم.

وهذا يدل على أنه عليه السلام يستقلُّ عملَه في طاعة ربه، ويرى أنَّه لا يدخلُ الجنةَ بعمله، إنَّما يدخلُها بفضلِه تعالى ورحمته، كما قال نبينا عليه الصلاة والسلام: «**سَدِّدُوا وقارِبُوْا وأَبْشِروا، فإنَّه لن يُدخلَ الجنةَ أحداً عملُه**» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلا أن يتغمدَني اللهُ مِنْهُ برحمةٍ، واعلموا أنَّ أَحَبَّ العملِ إلى اللهِ أدومُهُ، وإنْ قَلَّ**» [رواه مسلم (٢٨١٨)].

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: بهدايته إلى الإيمان، وهذا قبل أن يعلمَ إصراره على الكفرِ حتَّى الموت، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: أجرني يوم القيامة من العار والفضيحة، عندما يحشر أبي في زمرة المعاندين الضالين.

وفي الحديث الشريف: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**يلقى إبراهيمُ أباه آزرَ يومَ القيامةِ، وعلى وجهِ آزرَ قترةٌ وغبرةٌ، فيقول له إبراهيمُ: ألم أقلْ لكَ: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليومَ لا أعصيكَ، فيقولُ إبراهيمُ: يا ربِّ إنَّكَ وعدتني ألا تخزيني يومَ يبعثون، فأيُّ خزيٍ أخزى من أبي الأبعد؟ فيقولُ اللهُ تعالى: إنِّي حرمتُ الجنَّةَ على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيمُ، ما تحتَ رجليكَ؟ فينظرُ، فإذا هو بذيخٍ متلطِّخٍ، فيؤخذُ بقوائمه فيلقى في النارِ**» [رواه البخاري (٣٣٥٠)] **والذيخ**: ذكر الضباع إذا كان كثير الشعر.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: يومَ القيامةِ لا ينتفع الإنسان بمال ولا أولاد.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

أي: إلَّا مَنْ أتى الله بقلب سالم من الكفر.

ويلاحظ أنَّ دعواتِ إبراهيمَ عليه السلام خاليةٌ من طلب أي عَرَضٍ من أعراض هذه الأرض، إنه دعاء يتجه إلى آفاق أعلى، تحركه مشاعر أصفى، ودعاء القلب

الذي عرف الله، فأصبح يحتقر ما عداه، والذي ذاق فهو يطلب المزيد، والذي يرجو ويخاف في حدود ما ذاق وما يريد(١).

● **تخاصم أهل النار:**

وانتقلتِ الآياتُ مباشرةً إلى يوم القيامة، بعد حكاية دعوات إبراهيم الخاشعة الضارعة، التي دلَّت على استسلامه لله تعالى، وانقياده الكامل له، فبينت مصيرَ المعاندين وعقابهم، في مقابل مصير المتقين:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

أي: قُرِّبت الجنة للمتقين تكريماً لهم، فقد أسلموا لله تعالى، وانقادوا لأمره، فأكرمهم تعالى بتقريب الجنة وما فيها من النعيم، تأتي منقادة لهم، حتى تصبح قريبة منهم، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [قٓ: ٣١].

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾.

أي: أُظهِرَتِ الجحيمُ للضالين، الذين عاندوا أدلة الحق، وساروا في طريق الغواية والضلالة.

وكشف لهم عما فيها من أنواع العذاب، قبل أن يساقوا إليها، ويقال لهم توبيخاً وتبكيتاً، وهم يسحبون إليها:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أي: هل يمنعون العذاب عنكم، أو يمنعونه عن أنفسهم، فالجميع يحشرون إلى جهنم، العباد والمعبودات من طواغيت الكفر والشرك والأوثان والأصنام، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء].

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٦٠٤.

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾.

أي: فكبوا وطرحوا جميعاً في نار جهنم، زعماء الضلال والكفر، ومن سار وراءهم من الضالين.

والكبكبةُ: تكرير الكَبِّ، كأنَّ مَنْ ألقي فيها ينكبُّ مرةً بعد أخرى، حتى يستقرَّ في قعرها(١).

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: وكبكب معهم أيضاً أعوانُ إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

أي: قال الضالون المعاندون، وهم يختصمون في النار مع معبوداتهم ورؤساء شركهم وضلالهم:

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

أي: والله إنَّا كنا في ضلال واضح ظاهر، عندما سويناكم في استحقاق الطاعة والعبادة برب العالمين.

ويدل قولهم هذا على شدة حسرتهم وندامتهم، فهم يعترفون متحسِّرين بانهماكهم في الضلال ومعاندتهم للحق.

﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

أي: ما دعانا إلى الضلال إلا المجرمون العريقون بالإجرام والظلم والضلال.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤/ ٤٨٠.

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

أي: يشفعون لنا كما للمؤمنين الذين ينتفعون بشفاعة الشافعين، من الأنبياء والصالحين، وليس لنا أيضاً صديقٌ قريبٌ، ننتفع بصداقته وقرابته.

وكأنَّهم عندما يقولون هذه الكلمات، يتلفتون حولهم بأبصارهم الزائغة، وقلوبهم الواجفة المتحسرة، فلا يجدون إلا العذاب والنكال محيطاً بهم، وأنَّى لهم ذلك بعد أن تقطَّعت الأسباب بينهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

أي: يا ليت لنا رجعة إلى الدنيا لنستدرك ما فاتنا من الإيمان.

وتتركنا الآيات مع حسرات أهل النار الحارة، وأمانيهم المستحيلة، لتذكرنا بالتعقيب الأول في السورة:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

فما أشد عناد الجاحدين، وما أقسى قلوبهم، وما أعظم رحمة الله تعالى بنا وفضله علينا.

• عناد قوم نوح وعقابهم:

وأوغلت الآيات في أعماق التاريخ البعيدة، إلى زمن قوم نوح ﷺ، فحكت لنا جزءاً من محاورته مع قومه، كشفت من خلالها عنادهم، ثم أجملت بعد ذلك عقابهم:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

أي: كذَّبوا كلَّ المرسلين، عندما كذبوا رسولهم نوحاً ﷺ، لأن رسالتهم واحدة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

أي: ألا تتقون الله تعالى بعبادته وحده، وترك عبادة الأصنام.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾.

أمينٌ على وحي الله تعالى، ومعروفٌ بينكم بالأمانة.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

أي: أطيعوني فيما أدعوكم إليه.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

فدعوة الأنبياء خالصة لله تعالى، منزهة عن أي نفع مادي، وهو ما يجبُ على الدعاة أن يبادروا إلى إعلانه، وتحقيقه في سلوكهم، حتى لا يُتَّهموا بمقاصدهم، فإنَّ ذلك يعوق الناس عن قبول دعوتهم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾.

كرر طلبه، وألحَّ فيه، إشارةً إلى أنَّ صدقه وأمانته يستدعيانِ متابعته والاستجابة لدعوته، كذلك تنزهه عن تحقيق المكاسب الدنيوية، يستدعي أيضاً طاعته والاستجابة لدعوته.

ومع ذلك أعرض قومه عن دعوته عناداً واستكباراً:

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

أي: كيف نؤمن لك، وقد اتبعك السفلة والضعفاء؟!.

وهذا من سخافة عقولهم، وقصورِ رأيهم، إذ جعلوا مبادرة الفقراء إلى اتباع

نوح مانعاً لهم عن اتباع الحق والانقياد له، وأشاروا بذلك إلى أنَّ اتباع الفقراء لنوح لم يكن عن نظرٍ وبصيرةٍ، وإنَّما هو لتوقع مال ورفعة، دل على ذلك حكاية قولهم مفصلاً في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

ولهذا رد عليه السلام عليهم:

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

أي: وما علمي بحقيقة إخلاصهم في عملهم، فهذا ليس من شأني.

والله تعالى هو الذي يعلم حقيقة أعمالهم، وهو الذي يحاسبهم عليها:

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

أي: ليتكم تدركون هذه الحقيقة وتشعرون بها.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾

وكأنَّه عليه السلام يقول لهم: لا أبالي بكم، ولا بإعراضكم، فلن أطرد المؤمنين طمعاً في إيمانكم، فمهمتي أن أنذركم وأحذركم.

وعاندَ القومُ أدلةَ الحق التي طوقهم بها عليه السلام، ولجؤوا إلى لغةِ الوعيدِ والتهديدِ كما فعل غيرهم من المعاندين:

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

أي: من المقتولين رجماً بالحجارة.

فما كان منه عليه السلام، بعد أن دعاهم زمناً طويلاً، إلا أن توجه إلى الله تعالى يستنصره عليهم:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

أي: فاحكم بيني وبينهم حكماً يؤدي إلى إهلاكهم، ونجني مع المؤمنين من شؤم عنادهم وإعراضهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾.

أي: في السفينة المملوءة بأزواج المخلوقات، التي أمره تعالى بحملها.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

أي: أغرقنا الباقين على الأرض، الذين لم يحملوا في السفينة.

وتركتنا الآيات مع صورة الهالكين بين أمواج الطوفان العاتية، لتعقب على عنادهم واستحقاقهم لما أنزل الله فيهم من عقاب:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

فما أكثر شواهد الحق ومؤيداته، المبثوثة في صفحات المكونات القريبة والبعيدة، وفي صفحات تاريخ الوجود البشري البعيد والقريب، ومع ذلك يعرض أكثر الناس عن الحق معاندين.

- **عناد عاد وعقابهم:**

ثم اختارت الآيات من قصة نبي الله هود مع قومه عاد جزءاً من محاورته معهم، وهو يدعوهم إلى الله تعالى، أظهرت من خلاله النعم الكثيرة التي أنعم الله بها عليهم، وركزت على التمكين المادي الذي كانوا عليه، وسعة أموالهم وكثرة أرزاقهم، وبينت كيف قابلوا كل ذلك بالاستكبار والطغيان والعناد:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

والتشابه ظاهرٌ بين دعوتي النبيين الكريمين نوح وهود عليهما السلام، وهي الدعوةُ

التي دعا إليها جميعُ الأنبياء، وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع، لاختلاف أزمنتهم وعصورهم، كما أنهم جميعاً منزَّهون عن المطامع الدنيوية بالكلية[١].

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾.

أي: أتبنون بكل مكان مرتفع بناءً كبيراً، لمجرد العبث والفخر؟!.

ويبدو أنهم كانوا بسبب كثرة ترفهم وبطرهم، يشيدون في الأماكن المرتفعة أبنيةً ومجسماتٍ لا فائدة منها، سوى الإشارة إلى قوتهم، كما يفعل في عصرنا الحاضر كثيرٌ من الحكام المستبدِّين، تراهم يملؤون الساحات الكبيرة والأماكن المرتفعة، بالمجسمات والتماثيل، إرضاءً لغرورهم، وتخليداً كما يزعمون لذكرهم، ينفقون عليها نفقات باهظة، ويتركون شعوبهم تعاني من الأزمات الاقتصادية الخانقة، والفقر المدقع.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

أي: وتتخذون المخازن الكبيرة، المملوءة بالأموال والطعام والمياه، كأنكم باقون أبداً، لن تموتوا.

وهذا يدل على شدة تعلُّقهم بالدنيا، وانهماكهم بشهواتها.

روي: أنَّ أبا الدرداء رضي الله عنه، لمَّا رأى ما أحدثَ المسلمونَ في الغوطة من البنيانِ ونصبِ الشجرِ، قام في مسجدهم فنادى: يا أهلَ دمشقَ. فاجتمعوا عليه، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: ألا تستحيون، تجمعونَ ما لا تأكلونَ، وتبنونَ ما لا تسكنونَ، وتأملونَ ما لا تدركونَ، إنَّه قد كانتْ قبلكم قرونٌ، يجمعونَ فيوعونَ، ويبنونَ فيوثقونَ، ويأملونَ فيطيلونَ، فأصبحَ أملُهم غروراً، وأصبحَ جمعُهم بوراً، وأصبحتْ مساكنُهم قبوراً، ألا إنَّ عاداً ملكتْ ما بيْنَ عدنَ وعُمان خيلاً وركاباً، فمن يشتري منِّي ميراثَ عادٍ بدرهمين؟![٢].

---

(١) تفسير أبي السعود ٦/ ٢٥٦.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٥٤.

ولعلَّه رضي الله عنه أنكرَ على المسلمين ما أحدثوا من البنيان ونصب الشجر، لانشغالهم به عن طاعته تعالى، وخشية الانصراف عن الجهادِ في سبيله، وإلا فهو أمرٌ مشروع وجائز، بل مندوبٌ ومستحبٌّ، إذا قصد فاعله مساعدة الناس والحيوان، وإشاعة الخير، تقرباً من الله تعالى.

ففي الحديث الشريف: عن **جابر** رضي الله عنه، قال: دخل النبيُّ ﷺ على أُمِّ مُبَشِّر الأنصارية في نخلٍ لها، فقال لها النبيُّ ﷺ: «**مَنْ غرسَ هذا النخلَ، أمسلمٌ أم كافرٌ؟**» فقالت: بل مسلمٌ، فقال: «**لا يغرسُ مسلمٌ غرساً ولا يزرعُ زرعاً، فيأكلُ منه إنسانٌ ولا دابةٌ ولا شَيْءٌ، إلا كانتْ له صدقةً**» [رواه مسلم (١٥٥٢)].

والجدير بالذكر أنَّ الإمامَ أحمد روى في «مسنده» [٦/ ٤٤٤] بإسناد حسن: أنَّ رجلاً مرَّ بأبي الدرداء وهو يغرسُ غرساً بدمشق، فقال له: أتفعلُ هذا وأنت صاحِبُ رسول الله ﷺ؟ قال: لا تعجلْ عليَّ، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**مَنْ غرسَ غرساً؛ لم يأكلْ مِنْهُ آدميٌّ ولا خَلْقٌ من خَلْقِ اللهِ، إلا كانَ لَهُ بِهِ صدقةٌ**».

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

أي: بطشتم بطشاً قويّاً شديداً، من غير رحمة ولا تسامح، مما يدل على غلظتهم وقسوتهم وجبروتهم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾.

وهذا يدل على أن بلادهم جنوب أرض العرب كانت بلاداً غنية خصبة.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾.

وهذا يدل على أنه عليه السلام كان يشفق عليهم، ويخشى نزول العذاب بهم.

ولكنَّ القوم قابلوا شفقته عليهم بالعناد والجحود:

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

أي: فإنا لن نتركَ ما نحنُ عليه. فقلوبُهم قاسية لا تلينُ، ولا تهتز لموعظة النبي الكريم.

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

أي: ما هذا الذي نحن عليه إلا عادةُ آبائنا الأولين، ونحنُ بهم مقتدون.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ﴾ أي: أهلكناهم بسبب تكذيبهم وعنادهم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ﴾ من الآيات الكثيرة البارزة في صفحات التاريخ البشري، الدالة على كمال قدرته تعالى ورحمته، ومع ذلك:

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

• عناد ثمود وعقابهم:

وكررت الآياتُ للمرَّة الثالثة، المقدمة نفسها التي ذكرتها عندما تحدَّثت عن قوم نوح وقوم هود في بداية بيان عناد ثمود وعقابهم:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

ثم أضافت الآياتُ من كلام صالح لقومه، وهو يدعوهم إلى الله تعالى،

ويذكِّرهم ببعض نعمه عليهم، ويخوفهم من زوال هذه النعم عنهم:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

وهو سؤال استنكار، معناه: لا تتركون في هذا النعيم آمنين مطمئنين، من غير تكليفٍ بطاعة المنعم وعبادته، فالله سبحانه العليم الحكيم ما خلقكم لمجرد المتاع واللهو.

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾.

أي: ثمرها الذي يطلع منها لطيف لين ناضج.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

أي: بنشاط وحذق وإتقان.

وهذا يدل على سعة عيشهم، وكثرة مزارعهم، وامتداد عمرانهم، ولا تزال آثاره باقية حتى العصر الحاضر.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

فالسرف والترف يؤديان إلى نشر الفساد في الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

أي: المخدوعين المصابين بخلل واضطراب في عقولهم.

﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾

أي: فائتِ بمعجزةٍ تدلُّ على صدق رسالتك وصحة نبوتك.

﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾.

أي: هذه ناقة معجزة في خلقها، فقد خلقها سبحانه من صخرة أمام أعينهم، وهي معجزةٌ أيضاً في شربها ولبنها، فقد كانت تشربُ ماء البئر كُلَّه، وتعطيهم لبناً يكفي جميع قبيلة ثمود، ولهذا كانت تشرب الماء يوماً، وتتركه لهم في اليوم الثاني، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر].

وأوصاهم نبيهم صالح عليه السلام، ألا يتعرضوا لهذه الناقة بشيء من الأذى فقال:

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾.

ومع ظهور المعجزة وقوة دلالتها، لم يذعنوا للحق، وقتلوا الناقة المعجزة عناداً وجحوداً.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

أي: نادمين على قتلها خوفاً من حلول العذاب لا ندم توبة.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو الذي ذكره تعالى في قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

وكررت الآيات تعقيبها على عناد ثمود وهلاكهم:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

هكذا شأن أكثر الناس، يجحدون الحق معاندين، مع كثرة شواهده ومؤيداته.

- **عناد قوم لوط وعقابهم:**

وأما قوم لوط فأضافوا إلى عنادهم الشذوذ والانحراف عن سنن الفطرة الإنسانية في علاقاتهم الجنسية، وهو ما أبرزته الآياتُ في دعوة نبيٍّ الله لوط عليه السلام، فالأنبياءُ يسعونَ إلى مقاومة الفساد في شتى صوره وأشكاله، ودفع الآفات الخبيثة عن أبناء المجتمع، وردهم إلى صفاء الفطرة التي خلقهم الله تعالى عليها:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾.

وأضاف عليه السلام بعد هذه المقدمة، التي ذكرها سلفه من الأنبياء، يستنكر شذوذهم في علاقاتهم الجنسية:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾.

أي: أنتم مختصُّون بشيوع هذه الفاحشة من بين سائر الناس.

ويبدو أنهم هم الذين استحدثوها.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

أي: وتتركون ما أحلَّ الله لكم من نسائكم، بل أنتم في هذا متجاوزون حدود الفطرة الإنسانية السوية.

وقابلَ القومُ موعظةَ نبيهم بتهديده بالطرد والتشريد عن بيته وبلده:

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾.

كما قال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

ولم يجد عليه السلام في مواجهة عنادهم، إلا أن يعلنَ براءته من عملهم، ويتوجَّهَ إلى الله تعالى يسأله النجاة من شؤمه وعذابه:

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

أي: المبغضين له غاية البغض.

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

أي: إلا امرأته بقيت مع الهالكين.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

أي: أهلكناهم بقلب بلادهم وتنكيسها، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

وهو المطر الذي قال عنه الله تعالى هنا:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾

أي: فبئس المطر الذي أنزل عليهم.

وعقَّبتِ الآياتُ على عناد قوم لوط وعقابهم، كما عقبت على من سبقهم من الأمم الهالكة:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾.

ففي عقابهم وإهلاكهم آية عظيمة داعية إلى الاعتبار والاتعاظ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات].

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر].

ولا تزال آثار غضب الله تعالى عليهم باقية حتى عصرنا الحاضر، في ما يسمى البحر الميت أو بحيرة لوط من أرض فلسطين، ومع ذلك لم يتعظ أكثر الناس ولم يعتبروا بما حدث.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

• **عناد أصحاب الأيكة وعقابهم:**

ختمت الآيات جولتها التاريخية مع بعض الأمم المعاندة للحق، بالحديث عن أمة مَدْين، قومِ نبيِّ الله شعيب عليه السلام:

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾.

أي: كذب أصحاب الشجرة الكبيرة، ذات الأغصان الكثيرة الملتفَّة، المرسلين. ويبدو أنَّهم كانوا يعبدونَ هذا الشجرة الكبيرة، ولهذا نُسبوا إليها.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

أي: قال لهم نبيُّ الله شعيب: ألا تتقونه تعالى بعبادته وحده.

وهم **أهل مدين** على الصحيح، وكان نبيُّ الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هاهنا: أخوهم شعيب؛ لأنَّهم نُسبوا إلى عبادة الأيكة، فقطعَ نسبَ الأخوَّةِ بينهم، للمعنى الذي نُسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً[1].

ورأى بعضُ المفسرين أنَّ نبيَّ الله شعيب أُرسل إلى أمتين، هما: أهل مدين، وأصحاب الأيكة، لكنَّ رأيَ ابنَ كثير هو الأوجه، ويؤكده قوله تعالى عن قوم لوط وأصحاب الأيكة: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩] أي: إنهما على طريق واضح، هو طريق القوافل الممتد بين الحجاز وبلاد الشام، والذي

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/٦٥٧.

يمرُّ أولاً ببلاد مدين، ثم يتجه إلى الشمال ماراً بفلسطين، كما أنَّ الآياتِ وصفتهم بالصفاتِ نفسها التي ذكرت لأهل مدين، وهي التلاعب بالمكاييل والموازين، وقطع الطريق، ونشر الفساد، كما سيأتي.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾.

أي: أتموا الكيل ولا تكونوا من المنقصين لحقوق الناس.

﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾.

أي: زنوا بالميزان السوي العدل.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾.

أي: لا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم، ولا تنشروا الفساد في الأرض، بالإغارة على الناس، وقطع الطريق عليهم، كما قال سبحانه في **سورة هود**: ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

وتابع عليه السلام دعوته الإصلاحية في قومه ومجتمعه، والتأكيد على تقوى الله تعالى وعبادته وحده، فإنها أساس كل صلاح:

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

أي: اتقوا الله الذي خلقكم وخلق الأمم السابقة.

وسُمُّوا جبلَّة، لأنهم جُبلوا وخُلقوا على الخصائص والطبائع، التي خصَّهم

الخالق جل وعلا بها، يقال: جُبل فلان على كذا، أي: خُلق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٩].

ولكنَّ القوم عاندوا الحق، ولم يذعنوا لدعوة الإصلاح، وردوا على نبيهم بوقاحة واستهتار:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾.

أي: من المخدوعين، الذين سُحِروا حتى أصيبوا بخلل واضطراب في عقولهم.

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾﴾.

أي: وإنا نظنك من الكاذبين في ادعاء النبوة.

ثم تمادوا في عنادهم، فسألوه متحدين أن ينزل عليهم العذاب:

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾

أي: أسقط علينا قطعاً من السماء، إنْ كنتَ من الصادقين فيما تدَّعيه.

فعنادُهم عنادُ جحودٍ واستكبارٍ، لا عنادَ جهل وغباء، وهو كعناد مشركي مكة، عندما سألوا الله تعالى قائلين: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقابل عليه السلام عنادهم واستكبارهم، باللجوء إلى الله تعالى، ليقضي بأمره فيهم:

﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

أي: من الكفر والمعاصي، وبما تستحقون من العقاب والعذاب.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ أي: تمادوا في تكذيبهم وعنادهم، فأخذهم عذاب اليوم الذي أهلكهم الله فيه.

ودلَّتِ الآياتُ على أنه تعالى أنزل بهم أكثر من عذاب واحد، كما فعل بقوم لوط، الذين أهلكهم بالصيحة، وأمطر عليهم الحجارة، وقلب الأرض بهم، كذلك فعل بهؤلاء، أرسل عليهم سحابةً أمطرت عليهم ناراً، وأرسل عليهم أيضاً الصيحة الشديدة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عظيم في شدته وهوله.

عظَّمت الآيات عقابهم، فجاء مناسباً لما سبق من عنادهم واستكبارهم.

ومع كل هذه القصص، وما فيها من عظات وعبر، فإن الناس هم الناس، لا يزال أكثرهم مصرِّين على عنادهم واستكبارهم:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

كما أخبر تعالى عنهم في أول السورة بقوله الكريم: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء].

وأتتهم الأنباء، وتوالت عليهم العبر والمواعظ، وطوَّقتهم الدلائل والبراهين، ولا زالت تتوالى على الأجيال البشرية، فإنَّ آياتِ التنزيل الحكيم محفوظةٌ بحفظ الله تعالى، لا تزالُ تُتلى على مسامع الناس، غضةً طريةً نقيةً، كأنَّها أنزلت الساعة، ويرى الناس كل يوم فيها عَلَماً من أعلام إعجازها، ومؤيداً من مؤيدات صدقها، ومع ذلك لا يزال أكثرهم معرضين عنها، مغترين بفسحة الأجل التي متعهم بها العزيز الرحيم.

❁ ❁ ❁



الفصل الثالث

دَعْوَةُ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَعِنَادُ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

- **تنزيل القرآن الكريم:**

ما إن انتهت الآيات من عرضها لبعض مواقف العناد، عند الأمم السالفة، حتى التفتت تتحدَّثُ عن القرآن الكريم، تؤكد صدقه وصحة تنزيله من رب العالمين على النبي ﷺ، وتظهر في الوقت نفسه عناد مشركي قريش، وإعراضَهم عن الإذعان له، والانقياد لدعوته.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾.

أي: وإن القرآن الكريم، منزل من رب العالمين، بأمره ومشيئته جل وعلا.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾.

أي: نزل به جبريل الأمين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

فالروحُ الأمينُ هو جبريل عليه السلام، أمين الله على وحيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير].

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾.

أي: نزل به على قلبك يا محمد مباشرة، لتكون من الرسل المنذرين.

وإنزالُ القرآنِ الكريمِ على قلبه الشريف مباشرةً، يؤكد كمال تلقيه له، وأن القرآن كان يثبت في قلبه الشريف، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام عندما سأله **الحارث بن هشام** رضي الله عنه: يا رسولَ اللهِ كيف يأتيك الوحيُ؟ فقال: «**أحياناً يأتيني مثلَ صلصلةِ الجرسِ، وهو أشدُّهُ عليَّ، فيفصِمُ عنِّي وقد وعيتُ عنه ما قالَ، وأحياناً يتمثَّلُ لي المَلَكُ رجلاً، فيكلِّمُني، فأعي ما يقولُ**» [رواه البخاري (٢)].

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

أي: أنزل تعالى القرآن الكريم بلسان عربي فصيح واضح، فلا عُذر لمشركي العرب على وجه الخصوص في جحوده وتكذيبه، ومعاندة دعوته.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

أي: وفضلاً عن ذلك، فإنَّ ذكره والتنويه به موجود في جميع كتب الأنبياء السابقين.

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾.

أي: أولم يكن تصديق علماء بني إسرائيل وشهادتهم له، دليلاً لمشركي

قريش على صدق النبي ﷺ وصحة رسالته.

قال ابن عباس: بعث أهلُ مكة إلى اليهود، يسألونهم عن محمد ﷺ، فقالوا: إنَّ هذا لزمانه، وإنَّا لنجدُ في التوراة نعته وصفته.

وعلى هذا فالمراد بعلماء بني إسرائيل، كل مَنْ كان له علم بكتبهم، أسلم أم لم يسلم، وإنَّما صارت شهادةُ أهل الكتاب حجةً على المشركين، لأنَّهم كانوا يرجعون في أشياء من أمور الدين إلى أهل الكتاب(١).

ورأى بعضُهم أنَّ المراد بعلماء بني إسرائيل، مَنْ أسلم منهم، كعبد الله بن سلام، وزيد بن سعنة، لكنَّ مكيةَ الآياتِ ترجِّحُ الرأي الأول.

• **عناد مشركي قريش:**

هكذا طوقتهم الآيات بالحجج القاطعة والأدلة الواضحة، ثم دمغتهم بطابع الجحود والعناد بقوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

أي: لو نزلنا القرآن الكريم على أعجمي لا يحسِنُ العربيةَ، فقرأه عليهم قراءةً صحيحةً معجزةً خارقةً للعادة، ما آمنوا به، وهذا يدل على شدة عنادهم وجحودهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ١٣٩.

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٢٠٠﴾.

أي: بهذا العناد والجحود أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين، وعلى مثل هذه الحال وهذه الصفة، من الكفر به والتكذيب له، وضعناه في قلوبهم[1].

وقد يكون المعنى المراد: كذلك أدخلنا تكذيبَ القرآنِ والجحودَ به في قلوب المجرمين.

ولكنَّ المعنى الأول أوجه، وأكثر انسجاماً مع سباق الآيات وسياقها، وليس فيه تشتيتٌ للضمائر، فالآياتُ تركِّز على إبراز عناد مشركي قريش، وشدة معارضتهم لدعوة القرآن الكريم.

• **التهديد بالعقاب:**

وسنة الله في عباده لا تتخلف، فبعد أن أظهرت الآيات عنادهم، أخذت تتوعدهم بالعقاب:

﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٢٠١﴾.

أي: لا يؤمنون بالقرآن الكريم حتى ينزل بهم العذاب الأليم، وإيمانهم هذا غير مقبول؛ لأنه إيمان الإلجاء واليأس، كإيمان فرعون عندما أدركه الغرق.

﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٢٠٢﴾.

أي: فيأتيهم العذابُ فجأةً وهم في حال غفلة، منهمكون في شهواتهم وأهوائهم.

﴿فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ۝٢٠٣﴾.

أي: يتمنون وقتئذ أن يؤخر العذاب عنهم قليلاً، ليستدركوا ما فاتهم من طاعة الله تعالى.

---

(١) روح المعاني: ١٩/ ١٢٩.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾.

وهو استفهام إنكار وتهديد، فإنهم كانوا قبل نزوله يستعجلونه، ويقولون ـ كما مر ـ لنبيهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧].

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

أي: أخبرني إن جعلناهم يتمتعون في الحياة الدنيا عدداً من السنين، ثم جاءهم العذاب والهلاك، فهل ينفعهم ما مضى من متاع، فإنَّ لحظةً واحدةً من العذاب تُنْسِي الإنسانَ متاعَ عمر كامل.

كما جاء في الحديث الشريف: عن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنيا مِنْ أَهْلِ النارِ يومَ القيامةِ، فَيُصْبَغُ في النارِ صبغةً** (أي: يُغْمَسُ غَمْسَةً) **ثم يقالُ: يا ابنَ آدم، هل رأيتَ خيراً قط؟ هل مرَّ بكَ نعيمٌ قط؟ فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ. ويؤتى بأشدِّ الناسِ بُؤْساً في الدُّنيا مِنْ أهلِ الجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صبغةً في الجَنَّةِ، فيُقالُ له: يا ابنَ آدمَ، هل رأيتَ بُؤْساً قط؟ هل مرَّ بكَ شدَّةٌ قط؟ فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ، ما مرَّ بي بؤسٌ قَطُّ، ولا رأيتُ شدَّةً قَطُّ**» [رواه مسلم (٢٨٠٧)].

ففي الآيات موعظةٌ بليغةٌ لمن له قلب، روي عن ميمون بن مهران: أنَّه لقي الحسنَ البصري في الطواف، وكان يتمنَّى لقاءَه، فقال له: عِظْنِي. فلم يزده عن تلاوةِ هذه الآيات، فقال له ميمون: لقد وعظتَ فأبلغتَ[1].

فمهما عاش الإنسانُ ممتَّعاً بالسلطان والأموال والأولاد، وزخارف الدنيا وزينتها، فإنَّ الموتَ نازل به، وقاطعه عن كل ما هو فيه، وحينئذ تكون حسرته أعظم، وخسارته أكبر.

---

(١) روح المعاني: ١٩/ ١٣١.

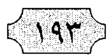
ثم أخبر تعالى عن عدله في خلقه، وأنَّه ما أنزل عقابه في الأمم الهالكة إلا بعد الإعذار والإنذار، ببعثة الرسل وإنزال الكتب وإقامة الحجج فقال:

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

أي: أرسلنا الرسل إليهم مذكرين بما أوجب سبحانه عليهم، وبمسؤوليتهم عن حياتهم، فما خلقهم تعالى للعب والعبث، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].





الفصل الرابع
دَحْضُ شُبُهَاتِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧) ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٢٢٠) هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ (٢٢٣) وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾.

● **حفظ القرآن عند تنزيله:**

وكما أكدتِ الآياتُ أنَّ القرآن الكريم تنزيلُ ربِّ العالمين، بواسطة أمين الوحي جبريلَ عليه السلام، نفت نزولَ الشياطين به، وردَّتْ مزاعمَ مشركي قريش أنَّ لمحمَّدٍ عليه الصلاة والسلام تابعاً من الجن، يخبره كما تخبر الكهنة، وأنَّ القرآنَ مما ألقاه إليه[1]، قال تعالى ينفي ذلك نفياً صريحاً قاطعاً:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ (٢١٠)﴾.

بل هو تنزيلُ الحكيم الحميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

---

(١) روح المعاني: ١٩/ ١٣٢.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾.

بيَّنت الآياتُ استحالةَ تنزل الشياطين بالقرآن الكريم من ثلاثة أوجه:

أولها: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمۡ﴾ أي: وما يصحُّ وما يستقيم لهم النزول بالقرآن الكريم؛ لأنَّ سجاياهم الفساد، وإضلال العباد، بينما القرآن نور وهدى، وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة[1].

وثانيهما: ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ أي: ولا يستطيعون أيضاً أن يأتوا بمثل سورة منه؛ لأنه كلامُ الله المعجز، الذي عجزت الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله، كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فهو كلام الحق تعالى، ويستحيل أن يكونَ مختلَقاً ومفترًى، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ٣٧].

والوجه الثالث: لاستحالة تنزل الشياطين بالقرآن الكريم:

﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

أي: إن الشياطين عن استماع الوحي لمحجوبون وممنوعون، فهم في معزل عن استماع القرآن[2].

وهم معزولون أيضاً عن النبيِّ ﷺ، فلا يدنون منه، وخاصة عند نزول الوحي عليه، بسبب الملائكة المحيطة به عند التنزيل، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن].

فالقرآنُ الكريمُ محفوظٌ في السماء، في اللوح المحفوظ، ومحفوظ عند نزوله

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٦٦٠.

(٢) المرجع السابق نفسه.

بواسطة أمين الوحي جبريل والملائكة المحيطة به، كما أنه تعالى تكفَّل بحفظه في الأرض من التغيير والتبديل، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

• **تلقي القرآن وتبليغه:**

ثم بينت الآياتُ أنَّ النبيَّ ﷺ أيضاً لا كسب له ولا اختيار في نزول القرآن الكريم عليه، وإنَّما عليه فقط واجب التلقي والتبليغ، فوجهت إليه ﷺ هذا الخطاب الحازم الجازم:

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾.

أي: أخلص في التوحيد، فالشركُ أمرٌ خطير وكبير، يُنهى عنه من لا يمكن صدوره منه، فكيفَ بمن عداه، وهذا يؤكد نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ، وأنَّه لا دخلَ له فيه سوى التلقي، فلا يعقل أبداً أن يخاطِبَ الإنسانُ نفسَه بمثل هذا الخطاب، ويتوعدها بمثل هذا الوعيد الشديد.

وقد تكرر مثل هذا المعنى في عدد من الآيات الكريمة:

ـ منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الزمر].

ـ ومنها قوله سبحانه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

ويؤكد كل ذلك: أنَّ نزول القرآن الكريم على النبي ﷺ، بأمره تعالى ومشيئته وحده، ولا دخلَ لأحدٍ فيه، وأن النبي ﷺ ليس له إلا التلقي والتبليغ، وهذا ما أمرته الآيات به:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

أي: ابدأ بإنذار الذين هم أكثر قرباً إليك من غيرهم.

والعشيرة: رهطُ الرجل الأدنَوْن، أو أهلُ الرجلِ الذين يتكثَّر بهم، أي: يصيرون له بمنزلة العدد الكامل، وهو العشرة(١).

ودلَّت الآيةُ على الاهتمام بالأقارب، والبداءة بدعوتهم، فعلى الداعية أن يبدأ بدعوة من يليه من الأقارب والجيران، ثم من بعدهم، فإذا بلغتهم الدعوة، انتشرت منهم إلى غيرهم، وإلا كانوا حجة للآخرين في الامتناع عن قبولها.

وقد بادر رسول الله ﷺ إلى القيام بما أُمر به، فعن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: لما نزلتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعدَ النبيُّ ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: «**يا بني فِهْرٍ، يا بني عَدِيٍّ**...» لبطون قريش، حتى اجتمعوا، فجعلَ الرجلُ إذا لم يستطعْ أن يخرجَ، أرسلَ رسولاً، لينظرَ ما هو، فجاء أبو لهبٍ وقريشٌ، فقال: «**أرأيتُكم لو أخبرتُكم أنَّ خيلاً بالوادي تريدُ أن تغيرَ عليكم، أكنتم مصدقيَّ؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: «**فإنِّي نذيرٌ لكم بينَ يدي عذابٍ شديدٍ**» فقال أبو لهب: تبّاً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾. [رواه البخاري (٤٧٧٠)].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قام رسولُ اللهِ ﷺ، حين أنزل الله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قال: «**يا معشرَ قريشٍ، اشتروا أنفسَكُم، لا أغني عنكم مِنَ اللهِ شيئاً، يا بني عبدِ منافٍ لا أغني عنكم مِنَ اللهِ شيئاً، يا عباسُ بنَ عبدِ المُطلبِ لا أغني عنك مِنَ اللهِ شيئاً، ويا صفيةُ عمَّةَ رسولِ اللهِ لا أغني عنكِ مِنَ الله شيئاً، ويا فاطمةُ بنتَ محمَّدٍ سليني ما شئتِ من مالي، لا أغني عنكِ من الله شيئاً**» [رواه البخاري (٤٧٧١)].

قال القرطبي رحمه الله: «في هذا الحديث والآية دليل على أن القربَ في الأنساب، لا ينفعُ مع البُعد في الأسباب، ودليل على جواز صلة المؤمن بالكافر، وإرشاده ونصيحته»(٢).

---

(١) روح المعاني: ١٩/ ١٣٤.

(٢) تفسير القرطبي: ١٣/ ١٤٤.

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

أي: ألن جانبك وتواضعْ للمؤمنين، فإنَّهم بسبب إيمانهم أهل للمودة والتكريم.

والتواضع من أخلاقه الكريمة عليه الصلاة والسلام، وشمائله الشريفة، وأمره تعالى أن يخصَّ المؤمنين بمزيد من التواضع، بياناً لكرامتهم عنده تعالى، وعند رسوله ﷺ، وإظهاراً لتميزهم بالإيمان على الكافرين، فكرامة الإيمان والدين، فوق كرامة ووجاهة الأحساب والأنساب والأموال، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

ولقد كان لأخلاقِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام الكريمة أثر كبير في نشر دعوته بين الناس وإقبالهم عليه، وخاصة خلق التواضع، ولهذا قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾.

أي: إن عصاك قومُك وعشيرتُك، وأعرضوا عن قبول دعوتك، فأعلن براءتك من كفرهم وفجورهم.

وكأنّ الآياتِ تقولُ للنبيِّ ﷺ: أنذر قومك، فإن اتبعوك، وأطاعوك، فاخفض جناحك لهم، وإن عصوك، ولم يتبعوك، فتبرأ منهم، ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره[1].

وتابعت الآياتُ ترشد النبيَّ ﷺ إلى الأسلوب الأمثل في الدعوة، وتشد من أزره، وتقوي من عزيمته:

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٤٩٦.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾.

أي: لا تتوكل على قرابة وعشيرة، بل توكل على العزيز الرحيم وحدَه، القادر على قهر أعدائه، ونصر أوليائه، فهو الذي يكفيك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم.

﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾.

أي: يراك في جوف الليل حين تقومُ إلى صلاة التهجد منفرداً.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾.

أي: ويراك أيضاً حين تصلِّي مع أصحابك، أو حين تُبَلِّغهم دعوة الله تعالى، وتُعَلِّمهم أحكام دينه.

ووصفهم بالساجدين للثناء عليهم، وبيان مكانتهم عند الله تعالى، فإنَّ حالة السجود أقرب أحوال العبد إليه تعالى، وتدل على غاية الخضوع له والاستسلام، قال عليه الصلاة والسلام: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثروا الدعاءَ**» [رواه مسلم (٤٨٢)].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

- **تمحيص الحقيقة ودفع أباطيل:**

وكما بينت الآيات استحالة تنزُّلِ الشياطين بشيء من القرآن الكريم، أضافت هنا استحالة تنزُّلهم على النبي ﷺ؛ لأنهم لا ينزلون إلا على من يلائمهم ويشاكلهم في الصفات، فبينهم وبين رسول الله ﷺ منافاة كبيرة؛ لأن الله تعالى جبله على أكرم الصفات، وأعظم الأخلاق، ولهذا قرر تعالى هذه الحقيقة بأسلوب تقريري، يفيد القطع والجزم، فقال:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾.

أي: تنزل على كل كذَّاب كثير الإثم، كالكهان والمتنبئة الكذابين.

﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾.

أي: يلقون السمع إلى الشياطين، ليتلقوا منهم ظنوناً وأوهاماً وتخيلات، وأكثرهم كاذبون فيما يلقونه إلى أوليائهم، لكثرة ما يضمُّون إليه من أكاذيب وافتراءات.

كما في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إذا قضى اللهُ الأمرَ في السماءِ، ضربتِ الملائكةُ بأجنحتِها خضعاناً لقوله، كأنَّه سلسلةٌ على صفوانٍ، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: لَلذي قالَ الحقُّ، وهو العليُّ الكبيرُ، فيسمعُها مسترقُ السمعِ، ومسترقُ السمعِ هكذا بعضُه فوقَ بعضٍ، فيسمعُ الكلمةَ، فيلقيها إلى مَنْ تحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَنْ تحته، حتى يلقيها على لسانِ الساحرِ أو الكاهن، فربَّما أدركه الشهابُ قبل أَنْ يلقيَها، وربما ألقاها قَبْلَ أن يدركَه، فيكذِبُ معها مئةَ كذبةٍ، فيقال: أليسَ قد قال لنا يومَ كذا وكذا، كذا وكذا، فيصدِّقُ بتلكَ الكلمةِ التي سمعَ من السماءِ**» [رواه البخاري (٤٨٠٠)].

وقد يكون المراد: وأكثرهم كاذبون فيما يقولونه من الأقاويل، فالأكثريةُ باعتبار أقوالهم، على معنى أنَّ هؤلاء قلَّما يَصْدُقُونَ في أقوالهم، وإنَّما هم في أكثرها كاذبون، وعلى هذا ليس معنى الأفاك من لا ينطق إلا بالإفك، حتى يمتنعَ منه الصدق، بل من يكثر الإفك، فلا ينافيه أن يصدق في بعض الأحيان(١).

ثم أضافت الآياتُ تنزيه النبيِّ ﷺ عن قول الشعر، وأبطلت مزاعم المشركين، أنَّ القرآن الكريم من قبيل الشعر، فقال تعالى:

---

(١) روح المعاني: ١٣٩/١٩.

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾.

أي: يتبعهم السفهاء الضالون، فالغاوي لا يتبعه إلا غاوٍ مثله، وأصحاب النبي ﷺ ليسوا كذلك.

ففي الآية إشارة إلى فضل أصحابه عليه الصلاة والسلام، وكريم أخلاقهم، وحُسن سجاياهم، ودلَّت أيضاً على أنَّ النبيَّ ﷺ ليس شاعراً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحاقة].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾.

أي: ألم تر أنَّ الشعراء حائرون، وعن طريق الحق حائدون.

فالهائم: الذاهب على وجهه، لا مقصد له(١).

وهو تمثيلٌ لذهابهم في كل شِعْبٍ من القول، واعتسافهم حتى يفضِّلوا أجبنَ الناس على عنترة، وأبخلهم على حاتم(٢).

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾.

أي: وأن أفعالهم تنافي أقوالهم، فهم يمدحون الجود والكرم والشجاعة ولا يفعلونها، ويهجون الناس بأدنى شيء يصدر عنهم.

ففي الآيةِ وصفٌ لهم بالكذب والخلف في الوعد، بينما كان النبي ﷺ يتَّصف بأعلى الأخلاق وأكرمها، حاز جميعَ الكمالات الخلقية ودعا إليها، وشهد الله له بذلك بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

---

(١) تفسير الخازن: ٤/ ٤٩٨.

(٢) تفسير النسفي: ٤/ ٤٩٨.

ومع أنه ﷺ كان أفصحَ الناس، وآتاه الله تعالى جوامع الكلم، ما كان شاعراً، وما صدر عنه شيء من الشعر، ولكنَّه استنشده واستشهد به أحياناً، وحسَّنَ حَسَنَه، وقبَّحَ قبيحه، فعن **أبي بن كعب** ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ مِنَ الشعرِ حكمةً**» [رواه البخاري (٦١٤٥)].

وعن **الأسود بن قيس** قال: سمعتُ جندباً يقول: بينما النبيُّ ﷺ يمشي، إذ أصابه حجرٌ، فعثر فدميتْ إصبعُه، فقال: «**هل أنت إلا إصبعٌ دميت، وفي سبيلِ اللهِ ما لقيت**» [رواه البخاري (٦١٤٦)].

وعن **أبي هريرة** ﷺ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعرُ كلمةُ لبيدٍ: ألا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ، وكاد أميةُ بنُ أبي الصلتِ أن يسلمَ**» [رواه البخاري (٦١٤٧)].

ثم استثنت الآيات الشعراء المؤمنين الصالحين، الذين يوجهون شعرهم إلى ذكر الله والدعوة إليه، والانتصار للحق والذب عنه، فقال تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ﴾ أي: انتصروا من المشركين، من بعد ما اعتدوا عليهم، وبدؤوا بهجائهم، كحسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك ﷺ، فقد صحَّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال لحسان: «**اهجُهم** ـ أو قال: هاجِهم ـ **وجبريلُ معكَ**» [رواه البخاري (٦١٥٣)].

وأنه قال له أيضاً: «**يا حسانُ، أجبْ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ، اللهمَّ أيده بروحِ القدسِ**» [رواه البخاري (٦١٥٢)].

أما قوله عليه الصلاة والسلام: «**لأنْ يمتلئَ جوفُ أحدِكُم قَيْحاً، خَيْرٌ له مِنْ أن يمتلئَ شِعْراً**» [رواه البخاري (٦١٥٤)]؛ فمحمول على مَنْ يمتلئُ قلبه من الشعر، حتى يغلبَ عليه، فيشغله عن القرآن، وعن ذكر الله.

فأما إن كان القرآن والعلم الغالبين عليه، فليس جوفه ممتلئاً من الشعر، ولهذا أورد الإمامُ البخاريُّ هذا الحديثَ بعد أن ترجمَ له بقوله: بابُ ما يكره أن يكونَ الغالبَ على الإنسانِ الشعرُ، حتى يصدَّه عن ذكر الله والعلم والقرآن.

ويؤيد ذلك وصف الشعراء المؤمنين الصالحين بقوله تعالى: ﴿وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ فدلَّ هذا الوصف على أنَّ الشعر لم يشغلهم عن ذكر الله تعالى.

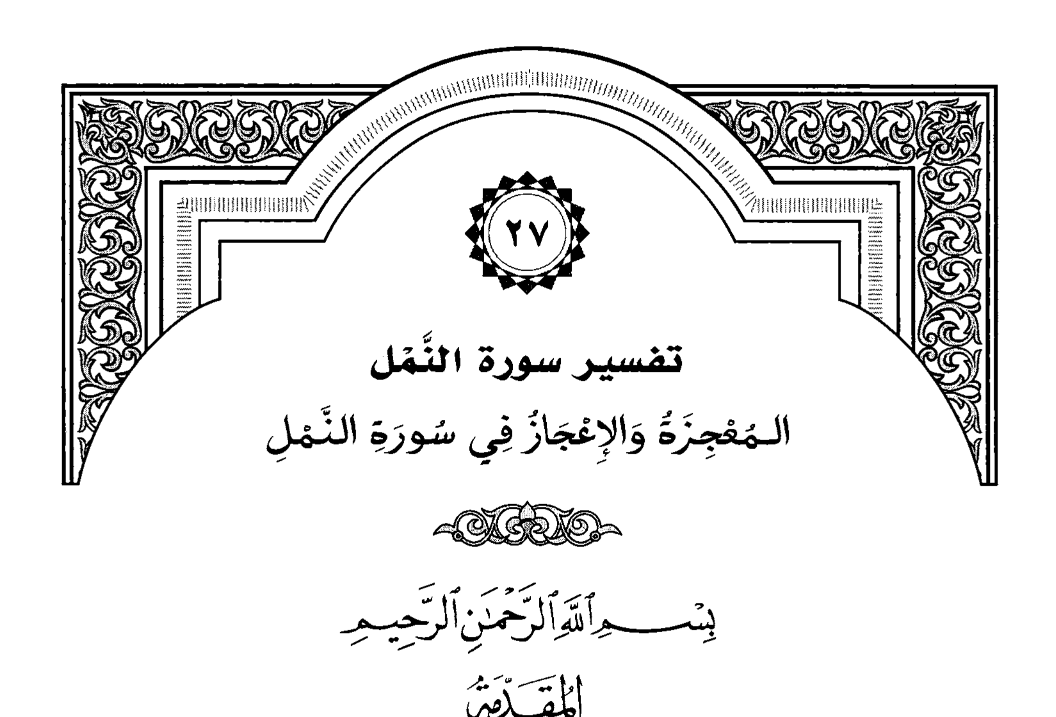
وختم الله تعالى آيات سورة الشعراء، بهذا الوعيد الشديد لكل ظالم ومعاند للحق، فقال:

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ أي: وسيعلمون أي مرجع سيرجعون إليه بعد الموت، فلا طمعَ للظالمين بالنجاة من عذاب الله تعالى وعقابه، وسيعلمونَ أنَّه ليس لهم وجه من وجوه النجاة والانفلات، وأنَّه تعالى ما خلقهم ليظلموا أنفسهم، ويظلموا غيرهم، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [صٓ: ٢٧].

وجاء ختمُ السورةِ بهذا التهديد والوعيد، يضيفُ إلى عقاب الظالمين في الدنيا، بإهلاكهم وتدميرهم، عذاب الله الذي لا ينقطع عنهم يوم القيامة، فالأمرُ خطيرٌ، والمسؤوليةُ جسيمةٌ وكبيرةٌ، والويل للذين يسلخون أنفسهم عن الشعور بهذه المسؤولية، ويعيشون حياة اللعب والعبث والظلم.

والحمد لله أولاً وآخراً.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة النَّمل

المُعْجِزَةُ وَالإِعْجَازُ فِي سُورَةِ النَّمْلِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ: فإنَّ مِنْ أعظم نعم الله تعالى على عباده المؤمنين أَنْ أبقى لهم القرآنَ الكريمَ في الأرض، وحفظه سبحانه بمشيئته وقدرته، فلا تلحقه زيادةٌ، ولا يعتريه نقصانٌ، ولا يطرأُ عليه تغييرٌ أو تبديل، فهو محفوظٌ بحفظ الله تعالى في السطور والصدور مهما تقلَّبت عليه الأزمان: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت].

وهو حجة الله سبحانه البالغة على الناس جميعاً، كما أنه حجة المسلمين الكبرى على صحة دينهم، وصدق نبيهم محمد ﷺ، وهو عصمتهم من الزلل، وأمانٌ لهم من الزَّيْغ والانحراف، يتلونه فيسعدون بأنواره، ويتدبَّرون آياته، فتنكشفُ لهم أسراره، لا تنتهي معانيه، ولا تنقضي عجائبه، ولا تنحصِرُ معجزاته بعدٍّ، ولا يقفُ إعجازه عندَ حدٍّ.

وهذا التفسير يتناول معاني آيات سورة من سُوَر القرآن الكريم، هي (سورة النمل) من خلال موضوعها الأساس الذي تدورُ في فلكه آيات السورةِ كلُّها،

وإني لأرجو الله تعالى أن أكون قد وفقتُ إلى إظهار اتِّساق آيات القرآن الكريم فيما بينها، وهو وجهٌ من وجوه إعجازه، من خلال ما أراه من موضوع أساسٍ للسورة الكريمة، بأسلوب علمي وعملي.

وأنا أسأل الله سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجنبني الزلل والخطأ، كما أسأله عزَّ شأنه أن يهديني فيه إلى طريق الرشاد والسداد.

اللهم آمين، وصلَّى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.



تمهيد (١)
في بَيَانِ المُعْجِزَةِ والإِعْجَازِ
وَبَعْضِ مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ الحِسِّيَّة

لا بدَّ لنا قبل الحديث عن موضوع (سورة النمل) من أن تتحدَّث عن معنى كلمتين لهما علاقة وثيقة بموضوع السورة؛ هما: المعجزة والإعجاز.

- **المعجزة:**

المعجزة: هي كل **أمر خارقٍ للعادة، مقرونٍ بدعوى النبوة**، وسمِّي مثل هذا الأمر معجزةً لعجز الخلق عن فعلِهِ، والقيامِ بعمل يماثله، لأنه خارقٌ للعادة، أي: مخالِفٌ للقوانين والنواميس الكونية التي أَلِفَها الناسُ، واعتادوا العيش في ظلِّها، مثل: انقلاب العصا إلى حيَّة، وخَلْق ناقة من الصخرة، وانشقاق القمر، وانفلاق البحر بضربةِ عصاً، ونبع الماء من الأصابع وغيرها.

ولا تسمَّى مثلُ هذه الأمور معجزاتٍ إلا إذا خلقها الله سبحانه على يدِ من يدَّعي أنه نبيٌّ، وهي في هذه الحالة تدلُّ على صدقه في ادِّعاء النبوة، وتقومُ مقام قول الله سبحانه: **صدق عبدي فيما يقول.** لأن مثل هذه الأعمال الخارقة لعادة الناس، وما يحيطُ بهم من قوانين ونواميس لا يعطيها الله سبحانه إلا لمن اختاره واصطفاه لمقام النبوة، وكلَّفه بحمل رسالةٍ يبلِّغها للناس، ويدعوهم للإيمان بها، فلا يُعْقَلُ أن يؤيد الله تعالى من يدَّعي النبوة كاذباً، وحاشاه سبحانه أن يؤيد كاذباً، فكيف يؤيد من يكذب عليه سبحانه؟!.

وما بعث الله مِنْ نبيٍّ ولا أرسل من رسولٍ إلا وأيده بمؤيدات تدل على صدق نبوته وصحة رسالته، وأنزل معه بيِّنات واضحاتٍ تكون له حجةً على مَنْ

بُعِثْ فيهم، وأُرسل إليهم، بحيث لا يبقى لهم عذر في تكذيبه والإعراض عن التصديق برسالته، والإيمان بدعوته، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩].

والآياتُ البينات: هي الحجج والدلائل الواضحات القاطعات، كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره.

وقال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ نبيٍّ من الأنبياءِ إلا وَقَدْ أُعْطِي مِنَ الآياتِ ما آمنَ على مثلِهِ البشرُ، وإنْ كان الذي أوتيتهُ وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أنْ أكونَ أكثرَهم تابعاً يومَ القيامةِ**» [رواه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢)].

- **الكرامة والاستدراج:**

وقد يخلق الله سبحانه أحياناً خوارقَ العاداتِ على يد غير مدَّعي النبوة، فإنْ كان هذا الإنسانُ صالحاً، كان ذلك إكراماً من الله سبحانه لهذا الإنسان الصالح، ويسمى الأمرُ الخارقُ في مثل هذه الحالة **كرامة**، وتُجْمَعُ على **كرامات**، لأنها دليل مادي يدل على إكرام الله سبحانه لمن خلق الله على يديه الأمر الخارق للعادة بسبب صلاحه وتقواه.

وأمَّا إن كان غير صالح، كأن كان فاسقاً أو كافراً، فالأمر الخارق للعادة **كيدٌ واستدراجٌ** من الله سبحانه لهذا الذي أجري على يديه بعض خوارق العادات، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ [الأعراف].

فلا يُعْرَفُ صلاح الرجل وتقواه وموالاته لله سبحانه بما يُجري الله تعالى على يديه من خوارق العادات، لأنه ﷻ يجريها على يد الصالح والطالح؛ فقد جاء في الأحاديث الصحيحة: أنَّ الدجَّالَ عندما يظهَرُ في آخرِ الزمانِ قُبيلَ قيامِ الساعةِ يُجْرِي الله على يديه كثيراً من خوارق العادات، حتى إنَّ كثيراً من الناس

يُفتنون به، ولا ينجو من فتنته إلا قلَّة من الناس. [انظر: حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في صحيح مسلم رقم (٢٩٣٧)].

فالإنسان الصالح يُعرف بتمسُّكه بالكتاب والسُّنَّة، واستقامته على أمر الله سبحانه، وتطبيقه لسنة النبي ﷺ، فقد وصف الله سبحانه في التنزيل الحكيم أولياءه بصفتين، هما: الإيمان والتقوى، فقال ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس].

ومما اشتهر على ألسنة العلماء قولهم: «لو رأيتمُ الرجلَ يمشي على الماءِ، ويطيرُ في الهواءِ، فلا تغترُّوا به حتى تنظروا كيف وقوفه عندَ الكتاب والسُّنَّة».

والفرق بين **الكرامة والاستدراج** يظهر في صاحبيهما، **فصاحِبُ الكرامة** لا يستأنسُ بها، بل عند ظهور الكرامة يصيرُ خوفُهُ من الله تعالى أشدَّ، وحذرُه من قهر الله أقوى، لأنه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج، ولهذا ترى الصالحين حقّاً يخافون من الكرامات كما يخافون من أنواع البلاء.

وأمَّا **صاحب الاستدراج**، فإنه يستأنس بما يظهر على يديه من الخوارق، ويظنُّ أنه يستحق ذلك، فيحتقِرُ غيرَه، ويتكبر عليه، ولا يخافُ سوءَ العاقبة، لما يحصل له من الأمن من مكر الله والانقطاع عن الله.

فأعظم علامات الولاية والصلاح الاستقامة على أمر الله سبحانه، فمن وفَّقه الله سبحانه للاستقامة على أمره والتمسك بسنة نبيه ﷺ فقد أكرمه أعظمَ كرامة، ولهذا قالوا: «الاستقامةُ عينُ الكرامة» ومصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

- **قدرة الله على خرق النواميس الكونية:**

وفي خرق الله سبحانه للنواميس والقوانين الكونية بخلقه لخوارق العادات من معجزات وكرامات وغيرها، دلالاتٌ كبيرةٌ وعظيمةٌ على قدرته سبحانه، فإن وجود هذه النواميس والقوانين التي ألِفَ الناسُ الحياةَ في ظلها ليس لازماً ولا واجباً،

وإنَّ خلقها وإيجادها ليس قهراً ولا جبراً، بل خلقها الله سبحانه بمحض إرادته ومشيئته، وهو سبحانه قادر على إيجادِ الخلق من دونها، أو مع نواميس وقوانين أخرى تخالف النواميس الكونية التي اعتاد الناس عليها، فقد اعتاد الناس على رؤية النار تحرِقُ الأشياءَ التي تلامسها، ولكنَّه سبحانه خرق هذا الناموس عندما جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

وهذا يدل على أنَّ النار لا تحرقُ بنفسها إلا إذا خلق الله سبحانه الإحراق فيها، وكذلك اعتاد الناس على أن الأنثى لا تلد حتى يلقِّحها الذكر، وخرق الله هذا الناموس الكوني بخَلْق عيسى عليه السلام من أم بلا أب، وخَلْق آدم بلا أم ولا أب: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وهكذا بيَّن الله سبحانه لنا بخلق خوارق العادات عظيم قدرته وبديع صنعته، كما بيَّن لنا أنَّه سبحانه وحده الخالق لهذا الكون والمدبِّر لأموره، فلا يتحركُ متحرِّكٌ، ولا يسكنُ ساكنٌ إلا بمشيئته وقدرته، وإنَّ خلقَ هذه النواميس والقوانين وجَعْلَها أسباباً لغيرها من المسببات ليس لازماً، فلا تأثيرَ للأسباب بمسبباتها إلا بقدرته سبحانه ومشيئته، فارتباط الأسباب بمسبباتها ارتباطٌ وجودي فقط، فالله سبحانه عوَّدنا على خلق المسببات عندما توجد بقدرته ومشيئته أسبابها، وهو سبحانه قادر على خلق الخلق دون ما تعوَّد الناس رؤيته من أسبابها: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: ٨٢].

- **عجز الإنسان عن خرق النواميس الكونية:**

وإنَّ عجزَ الناس عن خرق النواميس والقوانين الكونية لهذه الحياة وقدرته سبحانه على خرقها، يجعلُ الناسَ يستشعرون فقرهم واحتياجهم إليه سبحانه، فمن النواميس الكونية التي تتصل بالإنسان وحياته أنه سبحانه يخلقُ الإنسانَ في أول أمره ضعيفاً في غاية الضعف، ثم يمده بأسباب الحياة حتى يصبحَ قويّاً، ثم بعد ذلك يردُّه إلى الضعف والموت، فهل رأيتَ إنساناً يستطيعُ أن يخرقَ هذا الناموس الكوني مهما أوتي من أسباب القوة والعلم؟ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ

ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وانظر إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام كيف أقام الحجة على إنسان مغرور متكبر متجبر بسبب ما كان يملك من أسباب الملك والغنى والقوة، حتى ادَّعى لنفسه القدرةَ على التصرُّف بالحياة والموت، فما كان من إبراهيم عليه السلام إلا أن تحدَّاه أن يغيِّر ناموساً من نواميس الحياة في هذا الكون، فعرَّفه بهذا التحدِّي مقدار ضعفه، وبيَّن له ضآلة حجمه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

● **الإعجاز:**

الإعجاز: إثبات العجز، وعدم القدرة، فالعجز ضد القدرة، والإعجاز يثبت قدرة المُعْجِز، والمراد من الإعجاز في القرآن الكريم **إثباتُ عجز الخلق عن معارضة القرآن الكريم، وإظهار قدرة المعجز، وهو الله تعالى، الذي أنزل القرآن الكريم على النبي ﷺ**، وبهذا تقوم الحجةُ على المعارضين لدعوة النبيِّ ﷺ، ويكونُ القرآن الكريم معجزةَ النبيِّ ﷺ الكبرى، التي تدل على صحة نبوته، وصدق رسالته عليه الصلاة والسلام.

وقد تحدَّى القرآنُ الكريمُ الإنسَ والجنَّ تحدياً يظهرُ عجزهم عن معارضته مجتمعين، فما بالك إذا كانوا متفرقين، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وليس صحيحاً قول من يقول: إنَّ التحدي إنَّما وقع على الإنس دون الجن، لأنَّ الجنّ ليسوا من أهل اللسان العربي الذي جاء القرآن على أساليبه، وإنما ذكروا في آية التحدي تعظيماً لإعجاز القرآن، والمعنى: أنه لو فرض اجتماع الإنس والجن لعجزوا عن المعارضة، ولعلَّ صاحب هذا القول قد نسي أنَّ في الجن من يتكلَّم العربية وينطق بها، ويعرف أساليبها كالإنس، والدليل على ذلك

أنَّ فريقاً من الجن لمَّا سمعوا القرآن الكريم أنصتوا له، وأعجبوا به، وتأثروا عند سماعه، وقالوا: إنا سمعنا قرآناً عجباً، جاء ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن] إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣].

وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف].

فالتحدي في القرآن الكريم موجه للإنس والجن عموماً، وإذا أظهر التحدي عجز العرب عن معارضته ـ وهم أهل اللسان والفصاحة والبيان، وفيهم فرسان الفصاحة من شعراء وخطباء وحكماء ـ فغيرهم من الأمم الأعجمية أعجز.

ووجوه الإعجاز القرآني ليست قاصرةً على إعجازه البياني في بلاغته وفصاحته ونظمه البديع وجرسه، إنَّما للإعجاز القرآني وجوه كثيرة هي دائماً في ازدياد واضطراد مع توالي العصور وكرِّ الدهور، ففي كل عصر ينكشفُ وجه جديد لإعجاز القرآن الكريم، ويظهر للناس علَمٌ جديد من أعلام صدق معجزة النبي ﷺ وصحة رسالته، وهذا يؤكد خلود المعجزة القرآنية الكريمة، وأنها باقية أبداً تتحدَّى الإنس والجن في كل عصر ومصر.

● **الحد الأدنى المعجز من القرآن الكريم:**

وأسلوب القرآن الكريم في تحدِّي المعارضين له يدل على شدَّة عجزهم، وضعفهم عن معارضته، ويبين المقدار المعجز من القرآن الكريم، فقد تحداهم أولاً بأن يأتوا بمثله، كما مرَّ معنا في آية تحدِّي الإنس والجن، وذكر هذا التحدِّي في قوله ﷻ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور].

ولمَّا ظهر عجزهم عن معارضته بهذا المقدار تحدَّاهم بمقدار جزء منه فقال

تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود].

ولما ظهر عجزهم وضعفهم عن معارضته أيضاً تنزل في تحدِّيهم إلى مقدار سورة من سور القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس].

والجدير بالذكر أنَّ آيات التحدِّي كلها جاءت في السور المكية، ثم جاء التأكيدُ على قيام التحدي وبقائه بمقدار سورة واحدة في سورة مدنية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة].

ومع هذا التحدي جاء الإخبار عن عجزهم حاضراً ومستقبلاً، وهذا يؤكد أنَّ القرآن كلام الله سبحانه، فمثل هذه الثقة الحازمة الجازمة في الإخبار عن عجزهم أبداً مهما تقلَّبت الأيام، وتطاولت الأزمان، وامتد عمر الإنسان، وتشعبت علومه، وازدادت معارفه وفنونه، دليل قاطعٌ على أنه كلام الله، وأن الإنسان سيبقى عاجزاً عن معارضة سورة واحدة من سور القرآن الكريم، فلا قدرةَ لبشرٍ على مثل هذا، لأنه كلام الله العليم الحكيم الخبير سبحانه.

وأقصر سور القرآن الكريم: سورة الكوثر، وسورة العصر، فالحدُّ الأدنى المعجز من القرآن الكريم مقداره سورة الكوثر أو سورة العصر، ورحم الله الإمام الشافعي القائل: «لو تدبرَ الناسُ سورة العصر لكفتهم».

- **من وجوه إعجاز القرآن الكريم:**

وإعجاز القرآن الكريم ليس قاصراً على بلاغة كلامه، وفصاحة بيانه، ونظمه البديع، وأسلوبه الرفيع، وتناسق آياته وسوره، وتراكيبه وألفاظه وحروفه، وعذوبة

جرسه في الآذان، وإنما هو **معجز** في معانيه التي لا تنتهي، فلم يشبع منه العلماء حتى الآن، بل هو دائماً يانعٌ طيبٌ لا يَخْلَق على كثرة الردِّ، ولا تُحدُّ معانيه بحد.

وهو **معجز** أيضاً في إخباره عن المغيَّبات الماضية والمستقبلة، وما أكثرها فيه، وفي سموٍّ تشريعه وقوة حججه وبراهينه.

وهو **معجز** أيضاً في إشاراته العلمية التي يكتشف العلماء كل يوم دليلاً يثبت صحتها، ولا يزال الإنسانُ يزدادُ يقيناً بأنَّ القرآنَ كلامُ الله لما يرى فيه من الحقائق العلمية الباهرة والدرر اليقينية الآسرة.

وإنه **معجز** في تكامل موضوعاته وتناسقها رغم كثرتها وكثرة فروعها، فلا ترى أيَّ تعارض بين آياته وسوره وموضوعاته ومعانيه، والله سبحانه يدعو الخلق أن يتدبَّروا معاني القرآن الكريم ويتفحَّصوها ويتأملوا فيها، كأنه سبحانه يتحداهم أن يجدوا فيها أدنى تعارض، أو يلمسوا في مبانيه وتراكيبه أي انحطاط عن مرتبته العالية في البلاغة والفصاحة، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وقوله ﷻ أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

فهو كما وصفه الله تبارك وتعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وإنَّه **لمعجزٌ** أيضاً في نزوله على رسول الله ﷺ منجَّماً، ومقسَّماً بحسب وقائع النزول وأسبابها ومناسباتها، ثم في تألُّف آياته وسوره بعد ذلك، وانسجامها فيما بينها.

كما أنه **معجزٌ** في تناسق وتلاؤم مبانيه وتراكيبه مع معانيه، بحيث يدهِشُ قارئه، ويجذب سامعه، ويبهر متدبر آياته ومتفحص كلماته.

- **من معجزات النبي ﷺ الحسية:**

وليس القرآن الكريم هو وحده المعجزة التي أيد الله سبحانه بها النبي ﷺ،

فقد أجرى الله سبحانه على يد النبي ﷺ معجزات حسية كثيرة أكثر مما أعطى غيره من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.

ـ ولئن حوَّل الله سبحانه لموسى العصا إلى ثعبان، فقد حوَّل الله لنبينا ﷺ كثيراً من الجمادات إلى مخلوقات ناطقة، كَلَّمَتِ النبي ﷺ، وشهدت له بالنبوة والرسالة، **كالحجر الذي كان يسلِّم على النبي ﷺ.**

أخرج الترمذي [٣٦٢٦]: عن عليٍّ رضي الله عنه قال: **كنتُ مع رسولِ الله ﷺ بمكةَ، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجرٌ ولا جَبَلٌ إلا وهو يقولُ: السلامُ عليك يا رسولَ الله.**

وفي «صحيح مسلم» [٢٢٧٧]: أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إنَّ بمكةَ حَجَراً كان يسلِّمُ عليَّ ليالِيَ بُعثتُ، إني لأعرفُه الآنَ**».

ـ **والحصى الذي سبَّح** وهو في يديه عليه الصلاة والسلام وأيدي بعض أصحابه، والطعام الذي أسمع الله سبحانه تسبيحه الصحابة وهم يأكلونه مع النبي ﷺ.

ـ أخرج البخاري [٣٥٧٩] والترمذي [٣٦٣٣] والنسائي [٧٧]: عن ابن مسعود رضي الله عنه: كنَّا مع النبيِّ ﷺ في سفرٍ، فقلَّ الماءُ، فقال: «**اطلبوا فَضْلَةً مِنْ ماءٍ**» فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليل، فأدخلَ النبيُّ ﷺ يده فيه، ثم قال: «**حيَّ على الطهور المبارَكِ، والبركةِ مِنَ اللهِ تعالى**» **فلقد رأيتُ الماءَ ينبعُ مِنْ بين أصابعه.**

ولقد كُنَّا نسمعُ تسبيحَ الطعامِ وهو يؤكلُ. [رواه البخاري (٣٥٧٩)].

وقد رُوي هذا الحديث عن عدد كبير من الصحابة.

ـ **وجِذْعُ النخلةِ الذي حَنَّ إلى النبيِّ ﷺ**، وكان ﷺ يخطبُ إليه، فتحوَّلَ عنه إلى المنبر، الذي صُنع من أجله، فحنَّ الجِذْعُ إلى النبيِّ ﷺ بصوتٍ سمعه كلُّ مَنْ في المسجد. [رواه الترمذي (٣٦٢٧) وابن ماجه (١٤١٥)].

ـ **وكالشجرةِ التي جاءت تشقُّ الأرضَ بعروقها إلى النبي ﷺ** لتشهدَ له بالنبوة، كما جاء في «صحيح مسلم» [٤٥٠].

ـ ولئن شقَّ الله سبحانه لموسى عليه السلام البحرَ، **فقد شقَّ اللهُ لنبينا ﷺ القمرَ إلى**

فِلْقَتَيْنِ. كما شقَّ له الفضاء، وفتح له أبواب السماء، ورفعه فوق السماوات، وأدخله الجنة، وأراه النار، وكل ذلك جاء في صحيح الأخبار والآثار. [انظر: حديث الشفاعة في البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤)].

وقد بلغ أكثرُها مبلغَ التواتر الذي يفيد العلم القطعي بوقوعها، كما أنَّ بعضها ذكره القرآن الكريم صراحة، مثل: **معجزة انشقاق القمر، ومعجزة الإسراء**، وبعضها أشارت إليه الآيات الكريمة إشارة، مثل: **معجزة المعراج إلى** ما فوق السماوات العلى في الآيات الأُوَلِ من **سورة النجم**.

ـ ولئن أنبع الله سبحانه لموسى الماء من الحجر، وهو معدنه، فقد **أنبع الله سبحانه لنبينا ﷺ الماء من بين أصابعه الشريفة**، حتى شرِبَ كل من كان معه، وتوضؤوا، وملؤوا أسقيتهم وأوعيتهم.

ـ وما أكثر **المغيبات المستقبلية التي أطلع الله النبي ﷺ عليها**، وقد أخبر عنها ﷺ، ووقع كثيرٌ منها، كما أخبر عليه الصلاة والسلام.

أخرج البخاري [٣٥٩٥] :عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال:بينما أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقةَ (الفقر)، ثم أتاه آخرُ فشكا إليه قطعَ السبيلِ، فقال: «**يا عديُّ هل رأيتَ الحِيْرةَ؟**» قلت: لم أرها، وقد أُنبئت عنها، فقال: «**فإنْ طالت بكَ حياةٌ لترينَّ الظعينةَ** (المرأة المسافرة) **تَرْتَحِلُ من الحيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ، لا تخافُ أحداً إلا الله** ـ قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّار طيئ الذين سعَّروا البلاد ـ **ولئن طالتْ بك حياةٌ لَتُفْتَحَنَّ كنوزُ كسرى**» قلت: كسرى بن هِرْمِز؟ قال: «**كسرى بن هرمز، ولئن طالتْ بكَ حياةٌ لترينَّ الرجلَ يُخْرِجُ ملء كَفِّه مِنْ ذهبٍ أو فضةٍ يطلبُ مَنْ يقبلُه فلا يَجدُ أحداً يقبلُه مِنْهُ**».

قال عدي: فرأيتُ الظعينةَ ترتحلُ من الحِيْرَةِ حتى تطوفَ بالبيت لا تخافُ إلا الله، وكنتُ فيمن افتتح كنوزَ كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياةٌ لترون ما قال أبو القاسم ﷺ، يخرِجُ الرجلُ ملء كفِّه ذهباً أو فضة فلا يجدُ من يقبله.

وقد وقع هذا في خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

وإن تتابع الزمان ليزيدنا إيماناً بصحة نبوته وصدق رسالته عليه وآله الصلاة والسلام في كل ما جاء به وأخبر عنه.

ولعلَّ من أشهر المغيبات التي أخبر عنها ﷺ قتال المسلمين لليهود، فقد صحَّ الحديث عنها، وهو في البخاري [٢٩٢٦] ومسلم [٢٩٢٢] وغيرهما من كتب السنن، وهي في العصر الحاضر حقيقةٌ يستشعرها كل المسلمين.

وإنَّ كل هذه المعجزات انتهت بوفاته عليه الصلاة والسلام، وبقي القرآن الكريم بعده عليه الصلاة والسلام حجةً ناطقةً في فم الزمن، تشهد بصدق نبوته عليه الصلاة والسلام، وصحة رسالته، كما تشهد بخلودها وبقائها، وأنها الدين التي تعبَّد الله به الخلق إلى قيام الساعة، لا يقبل الله من أحد ديناً آخر غير دين الإسلام وشريعة القرآن.



تمهيد (٢)
سُورَةُ النَّمْلِ
وَالحِكْمَةُ مِنْ تَسْمِيَتِهَا بِهَذَا الاسْمِ

لم تُسمَّ السورة بهذا الاسم لمجرَّد أن ذُكر النملُ في آية من آياتها، وهي قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

فقد ذكر الله سبحانه في السورة أسماء متعددة لبعض مخلوقاته من الجن والإنس والطير، فلا بدَّ أن يكون اختيارُ اسم النمل لهذه السورة لحكم كثيرة، لا يعلمها على الحقيقة إلا الله سبحانه، وهو سبحانه أعلم بمراده، وأسرار كتابه، ولعلَّ من هذه الحكم أنَّ المتأمل للنمل يجدُ فيه دلائلَ كثيرة تدل على وجودِ اللهِ سبحانه، وتبيِّنُ عظيمَ قدرته، وباهر حكمته، وبديع صنعته.

● **هذا خلق الله:**

إنَّ أي دارس للنمل وأنواعه، وطرق معيشته، والخصائص الكثيرة والكبيرة التي جعلها الله سبحانه في هذه الحشرة الصغيرة، يقف مدهوشاً حائراً أمام قدرة الخالق العظيم وحكمته الكبيرة، إنَّ هداية الله سبحانه النملَ إلى بناء حياته الاجتماعية على أساس وطيد دقيق من التضامن والتعاون والتخصص يملأ قلبَ الإنسانِ خشوعاً وخضوعاً أمام قدرة الله الخالق البارئ سبحانه، وعظيم حكمته، وبديع صنعته: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [لقمان: ١١].

ولكي نكونَ موضوعيين وواقعيِّين علينا أن نرجعَ إلى المختصين والدارسين للنمل وخصائصه، لنقفَ على نتائج دراستهم وبحوثهم في هذا المجال.

تحدَّث محمد فريد وجدي في كتابه «دائرة معارف القرن العشرين» عن النمل فقال: «النمل لقيام أموره على الاجتماع والتضامن لا يعيشُ إلا في قرى صغيرة، وإن أعمال النمل تدلُّ على أنها متمتعة بدرجة رفيعة من العقل، وبغرائز عظيمة للاجتماع والتضامن في الحياة، ويرجِّحُ أنَّ لها لغة خاصة تتفاهم بها، وهو ما لم يشاهد مثله لغيرها من الحيوانات».

وأفاض الشيخ العلامة طنطاوي جوهري رَحِمَهُ اللهُ في الحديث عن النمل وصفاته ومزاياه، ونقل في تفسيره «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» كثيراً من ملاحظات العلماء حول النمل، والوقائع والقصص المشاهدة في عالم النمل حتى أصبح ما كتبه في تفسير سورة النمل يعدُّ شيئاً يسيراً بجانب ما كتبه عن صفات النمل وخصائصه، وفيما يلي بعض ما ذكر عن النمل.

• **تخزين الطعام:**

ومن حكمة النمل أنَّ الحبوبَ المخزونةَ عندها إذا أصيبت بماءِ المطرِ تنشرُها أيامَ الصحو، وأنها تقطعُ حبة القمح نصفين، حتى لا تنبتَ، وتقشِّر حبات الشعير والباقلاء والعدس لكي لا تنبت، وتقطعُ حبة الكزبرة أربعَ قطعٍ، لأنها إذا قُطعت قطعتين نبتت، بخلاف القمح، فكيف عرف النمل جميع هذا؟!.

• **عمل النملة في يوم:**

قضى أحد العلماء طول حياته في النظر في حال هذه الكائنات الصغيرة، فشاهد نملةً تشتغل طول يومها، فحَسَبَ ما حفرته وبنته في ذلك اليوم ونسبته إلى جسمها وإلى شغل الإنسان وجسمه، فوجد أنها لو كانت رجلاً مشتغلاً هذا الشغل لحفر خليجين كلٌّ منهما طوله اثنان وسبعون قدماً وعمقه أربعة إلى خمسة أقدام، وصنع طيناً وجعله آجرّاً، وبنى به أربعة حيطان على جوانب الخليجين ارتفاع كل منها قدمين إلى ثلاثة، وبسُمك مقداره خمس عشرة بوصة.

• **أكبر مدن النمل:**

وفي جبال بنسلفانية إحدى الولايات المتحدة الأمريكية أكبر مدن النمل في

العالم، ومعظمها مبنية تحت الأرض، وأكبرها يشغل ثلاثين فداناً حفرت فيها منازلُ النملِ تتخللها الشوارعُ والمعابرُ والطرقُ، وكل نملةٍ تعرفُ طريقها إلى بيتها بإحساس غريب.

وتشتمل كل قرية من قرى النمل على الطبقات التالية:

١ ـ باب التهوية.

٢ ـ مكان الحرس لمنع دخول الغريب.

٣ ـ أول طبقة لراحة العاملات في الصيف.

٤ ـ مخزن ادخار الأقوات.

٥ ـ مكان تناول الطعام.

٦ ـ ثكنة الجنود.

٧ ـ الغرف الملوكية حيث تبيض ملكة النمل.

٨ ـ إصطبل لبقر النمل وعلفه.

٩ ـ إصطبل آخر لحلب البقر.

١٠ ـ مكان تفقيس البيض.

١١ ـ مكان تربية صغار النمل.

١٢ ـ مشتى النمل، وفي يمينه جبانة لدفن من يموت.

١٣ ـ مشتى الملكة.

• **من معارك النمل:**

جاء في الجرائد المصرية يوم (٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦م) العنوان التالي: (حرب بين قبيلتين من النمل):

في الشهر الفائت جرت معركة هائلة بين قبيلتين من النمل في حديقة الحيوانات في لندن، اشترك فيها نحو ألف نملة من الجانبين، ودامت أربعةَ أيام، وانتهت بمئات القتلى والجرحى. وذكر صاحب المقال أنَّ سبب المعركة: أنَّ نملة دخلت في قرية مجاورة لقريتها، فأخذها الحرس فأسروها وقتلوها،

فأرسلت القرية المجاورة قبل الهجوم عشرَ نملاتٍ لاستطلاع الطريق، حتى لا يفاجَأْنَ بوجود الكمائن، ثم بعد أنْ رجعنَ إلى قريتهنَّ بدأ الهجوم، واستمر القتال أربعة أيام لم يتوقف خلالها سوى بضع ساعات، كهدنة بين الطرفين، وانتهت المعركة بانتصار القبيلة المهاجمة، واحتلالها للقرية المجاورة، وقتل وأسر كل النمل الذي فيها[١].

● **أنواع النمل ووسائل التعارف بينهم:**

وذكرت «مجلة المعرفة»: أنَّ هناك حوالي ثمانية آلاف نوع من النمل، ومن المؤكد أن النمل هو أكثر الحشرات المعروفة ذكاء، إذ توجد لديه بعضُ القدرة على التعلُّم، ويعيشُ النمل في مجتمعات كبيرة تشبه إلى حدٍّ ما البلاد أو المدن التي يقطنها الإنسان، وتعيش جميعُ أنواع النمل بهذه الطريقة، ويشاركها في هذا بعض أنواع النحل والزنابير، وتتميز النملة بوجود جهاز عصبي متميز، مكوَّن من عقد مخية في الرأس، وقد ساعد هذا أن يكون مسلكها واضح الذكاء والتعقيد، وتعتبر اللوامس أو قرون الاستشعار أكثر الأعضاء الحسية للنملة أهمية، وهي أعضاء مركبة خاصة للشم واللمس، فعندما يتقابل عدد من أفراد النمل يتفحص كل منها الآخر من خلال تلامس قرون الاستشعار، ونحن لا نعلمُ كثيراً عن القدرة السمعية للنمل، ومع هذا يمكنها التعرف على الذبذبات.

● **ماشية النمل:**

ونلاحظ قيام الشغَّالة من النمل بأعمال غاية في التخصص بطرق المعيشة الخاصة التي تحياها، فهناك نملٌ يمارسُ الزراعة، ويزرع المحاصيل، ويربي الماشية، وماشيةُ النمل نوع من الحشرات الصغيرة السوداء التي تعيش ملتصقة على أغصان الأشجار، إنَّ النمل يقوم على تربية هذه الحشرات، ويحملها شتاءً إلى مساكنه ويغذيها، ويحملها في الفصول الأخرى إلى الأشجار لتتغذى وتنمو وتفرز مادة حلوة يحبها النمل ويتغذى بها، وإذ أرادت النملةُ مِنْ حشرة من هذه

---

(١) انظر: الجواهر في تفسير القرآن الكريم.

الحشرات أن تفرز لها هذه المادة الحلوة ضربتها ضربات خاصة، فتستجيبُ لها، وتفرزُ لها ما تريد، ولم يستطعْ أحدُ العلماء أن يجعل هذه الحشرة تفرز هذه المادة بضربها بواسطة شعيرات تشبه لوامس النمل.

كما يوجد في النمل مَنْ يختزنُ الطعام، ومنه من يقوم بأعمال هندسية غاية في البراعة والذكاء؛ وإنَّ مساكن النمل وطريقةَ بنائها لتدل على ذلك، وقد شوهد في إفريقية نملٌ يصنع جسوراً لعبور السواقي والموانع المائية.

وللنمل نزعة عدوانية، فهو يميلُ إلى القتال مع أمثاله من النمل، فقد لوحظ أنه يشتبك في الحروب، ويستعبد أنواعاً من النمل، يأخذها أسرى، ويكلفها بالعمل بدلاً منها، ويكاد يكون النمل في حرب مستمرة مع أفراد العشائر الأخرى، ويتعرَّف أفراد العشيرة الواحدة على بعضهم من خلال رائحة عُشِّيَّة مميزة، وقد سبق وصف معركة من معاركه(١).

• سيريكم آياته فتعرفونها:

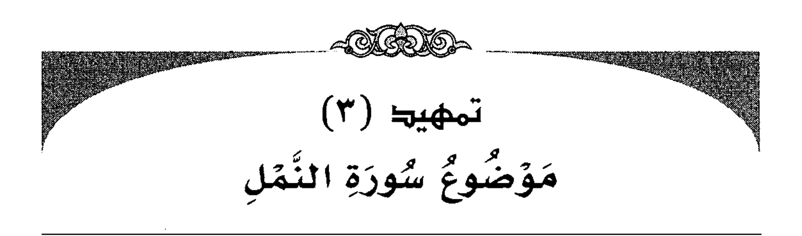
ليس عجباً بعد كل هذا أن يسمِّي الله سبحانه سورة من سور التنزيل الحكيم باسم النمل، لما جعل الله فيه من دلائل القدرة، وباهر الحكمة، وبديع الصنعة، مع العلم أنَّ الإنسان لا يزالُ في أول دروب العلم والمعرفة، وما يجهله أكثر بكثير مما يعلمه، وأن سورة النمل قد ختمها الله بقوله الكريم: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣].

ترى هل رأى الإنسان بعض آيات الله في هذه الحشرة الصغيرة التي سَمَّى الله سورة كاملة باسمها؟!.



---

(١) انظر: مجلة المعرفة، المجلد التاسع، ص١٥٦.



تمهيد (٣)
مَوْضُوعُ سُورَةِ النَّمْلِ

نزلت سورة النمل عندما كان رسول الله ﷺ في مكة قبل أن يهاجر إلى المدينة المنورة، فموضوعُها كسائر السور المكية يتناول **العقيدة**، وما يتصل بها من موضوعات الإيمان بالله سبحانه ودلائل وجوده ووحدانيته، والإيمان باليوم الآخر، وتقرير مسؤولية الإنسان المكلف عن أعماله، والرد على المشركين، وبيان بطلان عقائدهم الفاسدة.

إلا أنَّ السورة تركز على **المعجزة الكبرى** التي أيد الله سبحانه بها النبي ﷺ، وهي **القرآن الكريم** وما فيه من إعجاز، ولهذا ابتدأ الله تعالى آيات سورة النمل بقوله الكريم: ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

وأكدت بعد ذلك آيات السورة أن القرآن الكريم أُنزل على الرسول ﷺ من الله سبحانه، وأنه عليه الصلاة والسلام يتلقاه من الله العليم الحكيم الذي قال في سورة النمل: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

- **انسجام واتفاق:**

وبهذا جاءت فواتح سورة النمل منسجمةً ومتسقةً مع ما قرره الله تبارك وتعالى في خواتيم **سورة الشعراء** التي قبلها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾.

كما جاءت فواتح سورة النمل منسجمة ومؤتلفة مع ما جاء في خواتيمها من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ

أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

• من معجزات الأنبياء:

وذكرت السورة **بعض المعجزات** التي أيد الله سبحانه بها بعض الأنبياء والمرسلين على سبيل المقارنة بينها وبين المعجزة القرآنية الخالدة، فذكرت أنَّ الله سبحانه أيَّد موسى عليه السلام بالعصا، التي تتحول بقدرة الله ومشيئته إلى حيَّة، واليد التي تخرج من جيب موسى بيضاء من غير سوء، كما أشارت إلى بقية المعجزات التسع التي أعطاها الله تبارك وتعالى لنبيه موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل].

كما ذكرت بعض ما أعطى الله سبحانه نبيه سليمان عليه السلام من خوارق العادات: كتسخير الجن له، وتعليمه منطق الطير، وإسماعه حديث النمل، وغير ذلك مما سيأتي بيانه إن شاء الله سبحانه.

ثم تحدثت السورة عن آثار هذه المعجزات في الناس الذين شاهدوها، فأكثرهم جحدوها وأنكروها، مع علمهم وتيقنهم بأنها من الله سبحانه، كما فعل فرعون وجنوده، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل].

وبعض الناس انقاد للحق وأذعن له، فآمن وأسلم لله سبحانه لما رأى المعجزة، رغم ما كان عليه من القوة والملك والعزة والغنى، كملكة سبأ.

• الإعجاز العلمي في سورة النمل:

وقد بيَّنْتُ فيما سبق أن أوجه إعجاز القرآن الكريم كثيرة، ولا يزال العلماء والدارسون للقرآن الكريم يكتشفون كل يوم وجهاً جديداً من أوجه إعجاز القرآن الكريم، إلا أنَّ سورة النمل ركَّزت فيما يبدو لي على **الإعجاز العلمي**، ولقد

لاحظ سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ هذا أيضاً، فقال عندما تحدث عن سورة النمل: «والتركيز في هذه سورة على العلم، علم الله المطلق بالظاهر والباطن، وعلمه بالغيب خاصة، وآياته الكونية التي يكشفها للناس، والعلم الذي وهبه لداود وسليمان، وتعليم سليمان منطق الطير، وتنويهه بهذا التعليم، ومن ثَمَّ يجيء في مقدمة السورة: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

ويجيء التعقيب: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [النمل].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل].

ويجيء في الختام: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ﴾ [النمل: ٩٣].

ويجيء في قصة سليمان: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

وفي قول سليمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

وفي قول الهدهد: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥].

وعندما يريد سليمان استحضار عرش الملكة لا يقدر على إحضاره في غمضة عين عفريتٌ من الجن، إنما يقدر على هذه: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النمل: ٣٩]»[1].

- **القرآن وتاريخ بني إسرائيل:**

وأضيف إلى ما ذكره سيد رَحِمَهُ اللهُ ما في السورة من أخبار ماضية تتعلق بجزء هام من تاريخ بني إسرائيل، إذ يكشفُ القرآن الكريم عن كثير من الحقائق التاريخية التي

---

(١) انظر: في ظلال القرآن.

يجهلها أو يتجاهلها كثير من علمائهم وأحبارهم، ولهذا جاء قوله ﷻ في سورة النمل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

فالقرآن الكريم يعدُّ بحق أوثق المصادر العلمية لتاريخ بني إسرائيل، وقد حاول بعض أعداء الإسلام أن يشكك في صحة أخبار سورة النمل عن بني إسرائيل، محتجين بأن هذه الأخبار لم تذكر في الأسفار التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر.

إلَّا أنَّ اليهود الذين كانوا يعيشون في زمن نزول القرآن الكريم، وفي أماكن نزوله، لم يثبت عنهم لا في القرآن الكريم ولا في صحيح الأخبار أنهم أنكروا شيئاً مما جاء عنهم، وعن أخبار أنبيائهم وأجدادهم في القرآن الكريم، وقد كانوا أشدَّ الناس عداوةً للنبي ﷺ وللإسلام وللمسلمين، مكروا بالنبي عليه الصلاة والسلام عدة مرات ليقتلوه، ونقضوا عهودهم معه، وحاربوه، وألَّبوا قبائل المشركين عليه، فلو وجدوا في القرآن الكريم شيئاً يستطيعون معارضته وردَّه لفعلوا، لكن حقائق القرآن الكريم تحدَّتهم ودمغتهم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وجعلتهم بعض الآيات الكريمة شهوداً على صحة ما في القرآن الكريم، وطالبتهم بأداء شهادتهم، لأنهم أعرف الناس بصدق النبي ﷺ وصحة ما أنزل الله عليه من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

- **أخبار سليمان في الأسفار:**

وقد جاء في بعض الأسفار المتداولة بين اليهود في العصر الحاضر ما يفيد أن كثيراً من أخبار سليمان ﷺ كانت موجودة مكتوبة في الأسفار القديمة، قال الأستاذ محمد عِزة دَرْوَزة في كتابه «التفسير الحديث»: «لقد ورد في الإصحاح العاشر من سفر الملوك الأوَّل خبر زيارة ملكة سبأ لسليمان ﷺ وتنويهها بما

أوتي من حكمة، وتقديمها هدايا عظيمة إليه، أما ما عدا ذلك فلم يرد في أسفار العهد القديم المتداولة، وقد وجدَ المغرضون في ذلك فرصةً للقول باختراع ما جاء في الآيات من سور عليها طابع الإعجاز، وخرق العادة والنواميس، وبقطع النظر عن كون هذا داخلاً في نطاق قدرة الله تعالى، فإننا نقول من قبيل المساجلة: إنَّه ليس هناك ضرورةٌ فنية للاختراع، وإنَّ السياق القرآني يبقى مستقيماً من دون الزوائد لو لم تكن مستندة إلى أصل، ونحن نعتقد أنها كانت واردة في أسفار وقراطيس متداولة بأيدي اليهود في زمن النبي ﷺ ثم ضاعت، ولقد جاء في الإصحاح التاسع من سفر أخبار الأيام الثاني المتداول اليوم هذه الجملة: «وبقية أخبار سليمان الأولى والأخيرة مكتوبة في أخبار ناثان النبي ونبوة أحيا الشيلوني وعَدُّو الرائي» وهذه الأسفار ليست من الأسفار المتداولة اليوم»[١].

تلك هي أهم الأفكار والموضوعات التي ذكرت في سورة النمل، ولا يخفى على المتأمل فيها أنها جميعاً تدور في فلك موضوع أساس واحد، وهو موضوع المعجزات وبيان موقف الناس منها، وإن القرآن الكريم بما فيه من إعجاز أكبر هذه المعجزات وأعظمها.



(١) انظر: التفسير الحديث، ص١٦١، ط. البابي الحلبي.

الفَصْلُ الأوَّلُ

الحُرُوفُ المُقَطَّعَةُ وَإِعْجَازُ القُرْآنِ الكَرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

افتتح الله سورة النمل بقوله الكريم:

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ أشبهت افتتاحية **سورة النمل** افتتاحية **سورة الشعراء** التي قبلها، وافتتاحية **سورة القصص** التي بعدها، فكلا السورتين ـ **الشعراء والقصص** ـ افتتحهما الله بقوله الكريم: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾.

ولعلماء التفسير أقوال كثيرة في معاني الحروف المقطَّعة، وكثرة هذه الأقوال تدل على حقيقة هامة، هي أنَّ الإنسان مهما تدبر كلمات الله في القرآن فلن يقفَ على كل أسرارها، ولن يحيطَ بمعانيها، ولهذا ذهبَ كثير من علماء التفسير إلى القول بأن معاني هذه الحروف مما أستأثرَ الله سبحانه بها، فردوا علمها إلى الله ولم يفسِّروها.

وأما الذين فسَّروها فأكثرهم رأى أنَّها ذُكِرَتْ بياناً لإعجاز القرآن، وأنَّ الخلقَ عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنَّ القرآنَ مركبٌ من هذه الحروف التي يتخاطبون بها.

ولقد انتصر لهذا الرأي ابن كثير في تفسيره، فبعد أن ذكره وذكر العلماء

الذين ذهبوا إليه، قال رحمه الله: «ولهذا كلُّ سورةٍ افتتحت بالحروف فلا بدَّ أن يُذْكَرَ فيها انتصارٌ للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلومٌ بالاستقراء في تسع وعشرين سورة، مثل: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة]. . . وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر».

ولو أمعنا النظر كما قال ابن كثير في فواتح الشعراء والنمل والقصص، لانتصرنا أيضاً لهذا القول، وتأكدنا من قوته ووجاهته، وأنَّ هذه الحروف جاءت بياناً لإعجاز القرآن الكريم، وكررت في أوائل تسع وعشرين سورة ليكونَ أبلغَ في التحدي، كما كررت قصص كثيرة، وكما كرر التحدي الصريح في عدة آيات، والله سبحانه أعلم بمراده وأسرار كتابه.

وقد اعترض بعضُهم على استقراء ابن كثير بأنَّ هناك ثلاث سور افتتحت بالحروف المقطعة، ولم يذكر فيها الانتصار للقرآن وهي: **سورة مريم**، **وسورة العنكبوت**، وسورة **القلم**، إلا أنَّ هذا الاعتراضَ يسقط إذا تأملنا كل آيات هذه السور، ففي بعض آيات هذه السور ذكر للقرآن الكريم، وتأكيد على كونه كلام الله كقوله في **سورة مريم**: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ۝٩٧﴾.

وفي **سورة العنكبوت** [٥١]: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

وفي **سورة القلم**: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾.



الفصل الثاني

موسى عليه السلام والمعجزات التسع

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

- **رسالة موسى عليه السلام:**

بدأت رسالة موسى عليه السلام عند رجوعه من مدين على النحو الذي ذكره سبحانه وتعالى بقوله:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

وأيَّد الله سبحانه موسى عليه السلام بتسع معجزاتٍ تدلُّ على صدق رسالته وصحة نبوته، وهي: اليد، والعصا، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم.

وقد ذكر الله سبحانه منها في **سورة النمل**: معجزة اليد، ومعجزة العصا في قوله ﷻ:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾﴾.

وأشار إليها سبحانه أيضاً في **سورة الإسراء** في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾.

وذكرها سبحانه مفصَّلة في **سورة الأعراف** فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

وموقف فرعون وقومه واضحٌ من خلال هذه الآيات الكريمات، فقد كانوا معاندين للحق، ومصرِّين على الباطل، مع أنهم في قرارة قلوبهم يعلمون علماً يقينيّاً صدق موسى ﵇، لأنَّ هذه المعجزات التي أيّده الله بها لا يقدر عليها أحد غير الله سبحانه.

وقد وصف الله ﷻ موقفَ العناد والمكابرة هذا في آيتين من آيات سورة النمل، وبيَّن في هاتين الآيتين أيضاً قوة هذه المعجزات ووضوحها، والأسباب التي جعلتهم يجحدونها مع تيقنهم أنها من الله سبحانه، كما بيَّن النتائج الوخيمة التي أعقبت موقف الجحود والمكابرة لتلك المعجزات، جاء كلُّ ذلك بأسلوب قرآني معجز في قوله ﷻ:

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

وتأمل قوله تعالى في وصف هذه المعجزات: ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي بيِّنة واضحة، فهي اسم فاعل جاء في صيغة المفعول إشعاراً بقوة وضوح المعجزات، فهي لشدة وضوحها وظهورها تكاد تبصر نفسها[١].

ولهذا استيقنتها أنفسُهم، وعرفت أنها الحق لا شبهة فيها، فالحق واضح بيِّن في كل زمان ومكان، ولا يجحده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه، بل إنهم يعرفونه ويستيقنونه في قرارة نفوسهم، ولا يحملهم على جحوده إلا شعورهم وإحساسهم أنه خطر على مصالحهم وأطماعهم ومغانمهم، فألسنتهم التي قالت: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ تخالف ما استقر في نفوسهم.

وكذلك كان موقف كبار المشركين من قريش عندما يسمعون آيات التنزيل الحكيم من فم النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، كانوا يستيقنون أنه الحق، وأنه كلام الله الذي يعلو ولا يُعلَى عليه، ولكنهم يجحدونه إبقاءً على عقائدهم الفاسدة لما فيها من أوضاع تسندهم ومغانم تتوافد عليهم.

وانظر وتأمل في ختام الآية روعة الإعجاز والبيان في الالتفات إلى خطاب النبي ﷺ: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وعاقبة فرعون وقومه معروفة كشف عنها القرآن الكريم في مواضع أخرى، وجاءت الإشارةُ إليها هنا بأسلوب الالتفات إلى النبي ﷺ تهديداً ووعيداً للجاحدين والمكابرين من قومه قبل أن ينزل بهم من العذاب والهلاك مثلما نزل بفرعون وقومه، وتسليةً وتثبيتاً للنبي ﷺ، وهو يواجه عَنَت الجاحدين والمكابرين.

❁ ❁ ❁

(١) انظر: تفسير البيضاوي.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

النُّبُوَّةُ وَالعِلْمُ وَالمُلْكُ

دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عليهما السلام

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥)
وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ
الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ
النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
(١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ
لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي
بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ
(٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ
(٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (٢٦) ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧)
اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ
كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١)
قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو
بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا

أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

• **النبوة والعلم:**

النبوةُ نوعٌ من أنواع العلم، إلا أنَّ **النبوةَ علم غيرُ مُكْتَسب**، إنها علم لَدُني - من لدن الله - **يتفضل الله سبحانه به على من يشاء من عباده المُصْطَفَين لمقام النبوة الرفيع**.

ولا يقتصر علمُ النبوة على شؤون الدين من عقيدة وعبادة وتشريع وأخلاق، بل يتعدَّاها إلى علوم أخرى تتصل بكثير من حقائق الكون وأسرار الحياة، يكشفها الله سبحانه لأنبيائه دون اكتساب منهم ومعاناة لأسباب تحصيلها، فتكون هذه العلوم معجزةً لهم، وأدلةً من دلائل صدقهم، لأنَّ مثل هذه العلوم والمعارف لم تكن موجودة في زمن النبي ﷺ الذي علَّمه الله سبحانه إياها، وقد تكون علوماً عزيزة المنال حتى لمن يطلبها، ويبذل جهده من أجل اكتسابها وتحصيلها، فمعرفة النبي ﷺ بها لا بدَّ أن تكون من أدلة صدقه ومؤيدات نبوته.



• **علوم داود وسليمان عليهما السلام:**

لقد أعطى الله سبحانه داود وسليمان عليهما السلام كثيراً من العلوم إلى جانب علوم الدين، وهما نبيان كريمان أكرمهما الله بهذه العلوم إظهاراً لفضلهما وتأييداً لنبوتهما، قال تعالى في سورة النمل:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ ولم تبين الآيةُ الكريمةُ ماهية هذا العلم ونوعه، فقوله سبحانه: ﴿عِلْمًا ۖ﴾ بالتنوين إما أن يدل على النوع، أي: نوعاً من أنواع العلم، أو يدل على التعظيم لهذا الاسم، أي: علماً عظيماً.

وتصدير الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ باللام الموطئة للقسم، ونون التعظيم في ﴿ءَاتَيْنَا﴾ للدلالة على عظمة المعطي المتفضل تبارك وتعالى، وهذا يدلُّ على أنَّ الله سبحانه أعطى داود وسليمان علماً عظيماً وكبيراً، استقبلاه بحمد الله سبحانه وشكره على ماأعطاهما.

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفه بالواو، إشعاراً بأن ما قالاه بعض ما أتيا به في مقابلة نعمة الله عليهما بالعلم، فالواو تدل على فعل محذوف مقدر، كأنه قال: ففعلا شكراً له ما فعلا، وقالا: الحمد لله، فتأمَّل الإعجاز البياني الباهر في حرف واحد من حروف الآية الكريمة، وما يحمل هذا الحرف من معانٍ كبيرة وعظيمة.

وفي الآية دليلٌ على فضل العلم وشرف أهله، حيث شكر داود وسليمان الله سبحانه على العلم، وجعلاه أساس الفضل، فعلى العالِم أن يحمدَ الله سبحانه على ما آتاه من فضله، وأن يتواضعَ بأن يعتقد أنه وإن فُضِّل على كثير من العباد، فقد فضَّل الله سبحانه عليه كثيراً، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

ولهذا أمر الله نبينا صلى الله عليه وسلم أن يسأل ربه الزيادة في العلم بقوله الكريم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

• **داود عليه السلام (النبوة والملك):**

جمع الله سبحانه لداود عليه السلام النبوة والملك، فقد كان ملكاً نبيّاً، كما تفضَّل الله سبحانه عليه بما شاء من العلم الذي خصَّه به، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [البقرة].

كما أنَّ الله سبحانه أنزل على نبيه داود الزبور، وهو من الكتب السماوية التي أنزلها الله سبحانه على بعض رسله، قال ﷻ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

ومن العلوم التي تفضَّل الله سبحانه بها على داود عليه السلام تسبيحُ الجبال والطير معه، فكان عليه السلام إذا سبَّح الله سبحانه ردَّدت الجبال والطير تسبيحه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال سبحانه أيضاً: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [صٓ].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠].

وقوله ﷻ: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى﴾ أي: رجِّعي وكرِّري، لأن الأوب: الرجوع[(١)].

وتأمل فخامةَ النَّظم القرآني وجمالَه، كان الأصل أن يقول: ولقد آتينا داود منا فضلاً تأويبَ الجبال والطير، إلَّا أنَّ سياق الآياتِ التفت إلى خطابِ الجبالِ والطيرِ، فأنزلها منزلةَ العقلاء المخاطبين المكلَّفين، ليستشعر القارئُ عظمةَ الله سبحانه، وتمامَ مشيئته وإرادته النافذة في جميع المخلوقات، فالجبالُ والطيرُ منقادة لمشيئته سبحانه، نافذٌ فيها أمره وسلطانهُ، ﷻ.

---

(١) انظر: حاشية الشهاب على البيضاوي.

• **الحديد الليِّن:**

ومن العلوم التي تفضَّل الله سبحانه بها على نبيه داود ﷺ علمُ صناعةِ الدروع، التي يلبَسُها المتحاربون لحماية أجسامهم من ضربات وطعنات أعدائهم أثناء الحرب والقتال، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

ومن المعلوم أنَّ الاستفادةَ من العلم لا يستطيع الإنسان تحصيلها إلا إذا تمكن من استثمار العلم وملك القدرة على ذلك، فعلم صناعة الدروع لا يفيدُ شيئاً من دون قوة وقدرة تمكن صاحب هذا العلم من استثماره والاستفادة منه، ولهذا أعطى الله ﷻ داود ﷺ قوةً عضليةً كبيرةً، تمكن بواسطتها من الاستفادة من تعليم الله له صنعة الدروع، وبهذه القوة العضلية أصبحَ الحديدُ ليِّناً لداود ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ].

فالحديدُ في يده ﷺ كالشمع يصنعه كيف يشاء من غير نار ولا طَرْق، وهذا يدل على قوته العضلية الكبيرة التي أنعم الله عليه بها، فقد وصفه الله ﷻ بقوله: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [صَ: ١٧].

وقوله: ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: ذا القوة، فالأيد القوة، والأيدي القوى، وهي محتملة لأن تكون قوة في الجسم أو قوة في الدين، ويرجع بعض المفسرين أنَّ المراد قوة الدين، واحتجوا بقوله تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاع إلى مرضاة الله تعالى.

وقد عُرِفَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يصومُ يوماً ويفطِرُ يوماً، وهذا الصيام أشق أنواع الصيام على النفس، كما عُرف عنه أنه كان ينام نصفَ الليل، ثم يقوم ثلثه، ثم ينام سدسه الأخير، وفي هذا القيام ما فيه من شدة ومشقة، قال رسول الله ﷺ: «**أحبُّ الصيام إلى اللهِ تعالى صيامُ داودَ، وأحبُّ الصلاة إلى الله تعالى صلاةُ داودَ، كان ينامُ نصفَ الليل ويقومُ ثلثه، وينام سدسَه، وكان يصومُ يوماً ويفطِرُ يوماً**» [رواه البخاري (٣٤٢٠) ومسلم (١١٥٩/ ١٩٢)].

ولا مانع من حمل الآية على الإطلاق وأنه سبحانه أكرم داود بقوة الدين وقوة البدن، قال ابن كثير: ﴿ٱلْأَيْدِ﴾ القوة في العلم والعمل.

وكان عليه السلام يستعمِلُ قوته البدنية في جهاد أعداء الله، وقد تمكن أثناء الجهاد من قتل الطاغية المتكبر جالوت الذي اشتهر بقوة جسده وشدة بأسه، وكان ذلك سببَ وصول داود للملك، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وكان داود عليه السلام يصنعُ الدروعَ من الحديد، ويبيعها، وينفق على نفسه وعياله من عمل يده، فما كان عليه السلام يمدُّ يدَه إلى مال الأمة، مع أنه كان من أغنى الملوك وأقواهم، قال عليه الصلاة والسلام: «**ما أكلَ أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً مِنْ أنْ يأكلَ مِنْ عَمَلِ يدِهِ، وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**» [رواه البخاري (٢٠٧٢)].

فعل ذلك عليه السلام تواضعاً لله وشكراً له على ما أعطاه وأولاه من نعمة العلم في الدين والدنيا، كما قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

- **بين صورتين:**

لقد كان داود عليه السلام مثلاً طيباً للحاكم الصالح في عدله وحكمته، وجهاده وشجاعته، وعلمه وعمله، وتواضعه وعبادته، تلك هي الصورةُ الكريمةُ الوضيئةُ التي رسمتها نصوص القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الشريفة لنبي الله داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

أما صورته عند بني إسرائيل فصورةٌ قاتمةٌ مظلمةٌ، فهو في نظرهم رجل قاسٍ غليظ القلب، يحب الشهوات، ويتطلع إلى حرمات الناس، فإذا رأى امرأةً أعجبه حسنها أمر جنده بإرسالها إلى فراشه، وبعد أن يقضي وطره منها وتحمل المرأة منه، يعمل على قتل زوجها، ليضمَّها إلى نسائه وزوجاته، وزعموا أن نبيَّ الله سليمان وُلد من هذه المرأة[(١)].

إنَّ حديث التوراة التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر عن داود عليه السلام فيه

(١) انظر: كتاب: دراسات تاريخية من القرآن الكريم؛ وكتاب: قصص الأنبياء.

تناقض واضح، مما يدل دلالة قاطعة على تبديل وتغيير في نصوص التوراة، فهو فيها حامل سلاح ملك اليهود شاؤول، الذي ذكر في القرآن الكريم باسم طالوت، وهو حارسه وقاتل عدو اليهود الأكبر جالوت الجبار.

كما أنه يعمل في بلاط شاؤول مغنياً، لأنه كان يجيدُ الضرب على القيثارة، ويغني أغانيه العجيبة بصوته الرخيم، وهو أيضاً زوج ابنة شاؤول، وصديق وحبيب ابنه يوناثان، وتصوره نصوص التوراة في الوقت نفسه أنه أكبر أعداء شاؤول، حتى إنَّه ينضم إلى الفلسطينيين أعداء بني إسرائيل، ويقاتل معهم قومه من اليهود وملكهم شاؤول، كما أنه في التوراة رجل غليظ القلب، ويقتل الأسرى جملةً، يأمر بحرق المغلوبين من أعدائه، وسلخ جلودهم، ونشرهم بالمنشار، ولكنه في الوقت نفسه كان يعفو عن أعدائه[١].

وحين يطلب منه شاؤول مئة غلفةٍ[٢] من الفلسطينيين مهراً لابنته ميكال؛ يقتل داود مئتي رجل من الفلسطينين، ويقدم غلفهم مهراً لابنة شاؤول هذه[٣].

تلك هي صورة داود عليه السلام عند بني إسرائيل، فأين هذه الصورة المظلمة من الصورة الوضيئة الكريمة التي رسمتها نصوص القرآن والسُّنَّة، والتي تليق بنبي كريم اصطفاه الله واجتباه؟! والله أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يصطفي لها إلا أكرم الناس خلقاً وأطهرهم نفساً.

عن **أبي الدرداء** رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**كان مِنْ دعاءِ داودَ** عليه السلام: «**اللهمَّ إني أسألكَ حُبَّكَ، وحبَّ مَنْ يُحِبُّك، والعملَ الذي يبلِّغُني حبَّك. اللهم اجعلْ حبَّك أحبَّ إليَّ من نفسِي، وأهلي، ومالي، ومِنَ الماءِ البارِدِ**».

وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا ذكرَ داود تحدَّث عنه بقوله: «**كانَ أعبدَ البشرِ**» [رواه الترمذي (٣٤٨٥)].

---

(١) انظر: دراسات تاريخية عن صموئيل الثاني.

(٢) **الغلفة**: قطعة الجلد فوق الذَّكَر التي تُزال عند الختان.

(٣) دراسات تاريخية.

• **سليمان** عليه السلام:

انتقل الملكُ بعد موت داود عليه السلام إلى ولده سليمان عليه السلام، وأكرمه الله سبحانه بالنبوة، كما أكرم والده من قبلُ، فكان عليه السلام نبيّاً مَلِكاً، قال تعالى في سورة النمل:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ أي: أكرمه الله سبحانه بالنبوة والملك كما أكرم والده من قبل، وهذا معنى وراثة سليمان داود، فالأنبياء عليهم السلام لا يُورثون، قال رسول الله ﷺ: «**لا نُورث ما تركناه صدقة**» [رواه البخاري (٤٠٣٤) ومسلم (١٧٥٩)].

وليس من الضروري أن يكونَ أولادُ الأنبياء مثل آبائهم، فالنبوة لا تُنال بالوراثة، لكن هي محضُ فضلٍ من الله سبحانه.

وقد أعطى الله سبحانه سليمان عليه السلام كثيراً من المعجزات العلمية، فخصه بكثير من العلوم اللدنية التي لا يمكن تحصيلها بمعاناة الأسباب، وسخَّر له سبحانه من القوى والطاقات الكبيرة ما لا يمكن لأحد من البشر أن يصل إليها، وأصبحَ ملكُ سليمان ملكاً عظيماً في الأرض بسبب ما وهب الله له من العلوم وما أعطاه وسخر له من القوى والطاقات، فلم يَصِلْ إلى مثل ملكه أحدٌ قبله ولا بعده استجابةً لدعوته عليه السلام عندما سأل الله سبحانه قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

ولم يسأل سليمانُ عليه السلام هذا الملك للتفاخر به والتباهي، فهو من بيت نبوَّة ومُلْك، وهو يعلم أنَّ الدنيا فانية وزائلةٌ، ولهذا سأل الله سبحانه أولاً المغفرة، ثم أتبعها بسؤال المُلك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ليكون معجزة له يستعين به في أمر الدعوة إلى الله سبحانه، وفي قصته عليه السلام مع ملكة سبأ التي قصَّها الله علينا في سورة النمل (٢٣ ـ ٤٤) ما يؤكِّد هذه الحقيقة.

وقد استجاب الله سبحانه لدعوة نبيه سليمان فأعطاه ملكاً ما أعطى مثله أحداً بعده، قال ﷻ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [صۤ].

ولقد سخر الله سبحانه لسليمان الريح العاصفة تأتمِرُ بأمره، ويوجهها بمشيئته رخيةً لينةً حيث يريد، وأخضعَ له مَرَدَةَ الجنِّ والشياطين، يأتمرون بأمره، ويعملون له ما يشاء من الأعمال الكبيرة والمنشآت الضخمة الهائلة، وهذا يدل على أنَّ الله سبحانه مكَّنَ سليمان ﵇ من طاقات كبيرة هائلة، وسلَّطه على قوًى خفية جبارة لم يسلط عليها أحداً غيره، معجزة له ﵇ وبرهاناً على صحة نبوته وصدقه، كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ].

• الإنسان والشكر:

لقد عمل نبي الله سليمان كما أمره الله سبحانه، فكان كل عمله شكراً لربه، وتمكيناً لدينه في الأرض، ونشراً لعبادته بين الناس، فلم يُسخِّر هذه القدرات والقوى الهائلة التي أقدره الله عليها للاستبداد والظلم، والمفاخرة والمباهاة، كما هو شأن أكثر الناس عندما يغنيهم الله من فضله، ويعطيهم من كنوز جُوده وكرمه.

وما تفعله المجتمعات الغربية المعاصرة اليوم من ظلم وبغي، وطغيان واستبداد، وترف وسرف، وتسلط على الشعوب الضعيفة وإذلالها، وتسخيرها لمآرب المجتمعات الغربية ومصالحها: **خير شاهد** واقعي لصدق قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

هل شكر الإنسانُ المعاصرُ اللهَ سبحانه على ما أعطاه وأولاه عندما هداه إلى بعض أسباب القوة، ووضع يده على مفاتيح كنوز الخير والجود التي خلقها الله في هذه الأرض؟!.

هل استعمل الإنسان نعمة الله سبحانه في شكره وعبادته، فساعد الضعفاء من عباده؟ أم استعملها في التسلط والظلم والبغي، ووجَّهها إلى الحرب والقتل والتدمير، حتى أصبح أكثرُ الناس في ظل حضارة المتسلطين والباغين غير آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وأصبحت رؤوس وقلوب أكثر الناس مخازن للخوف والقلق والاضطراب؟.

إنَّ عدمَ شعور الإنسان المعاصر بالأمن والطمأنينة في العصر الحاضر أكبر المشكلات التي تواجه الإنسان، فهو دائماً في خوف وقلق واضطراب، وما أكثر الضاربينَ في جنبات الأرض بحثاً عن هذين المطلبين الهامَّين في حياة الإنسان: الأمن والطعام!.

وبينما ينفقون على السلاح ووسائل التدمير والتخريب خمسمئة ألف مليار دولار سنويّاً يموت ثلاثون ألف طفل كل يوم بسبب الجوع[1]، في ظلِّ حضارة الإنسان المعاصر التي بُنيت على العلم المجرد عن الإيمان، فقد كان هذا العلم في أغلب حالاته بعيداً عن الله سبحانه.

لقد كان سليمان عليه السلام نبيّاً ملكاً متواضعاً لله سبحانه، شاكراً له على نعمه وفضله، يتحدَّثُ دائماً عن فضل الله عليه، ويقول كما ذكر الله في سورة النمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

- **منطق الطير:**

ومن العلوم المعجزة التي منَّ الله سبحانه بها على نبيه سليمان عليه السلام علم منطق الطير، فكان عليه السلام يحاورُ الطيورَ وتحاوره، ويكلِّمها وتكلمه، وهو لا شك أمر خارق للعادة، وللمعجزة فيه وجهان:

١ ـ تكليمه عليه السلام للطير، وفهم الطير لكلامه.

---

(١) من منشورات الصحف بمناسبة يوم الجوع العالمي، لعام ١٩٨٤م.

٢ ـ وتكليم الطير له، وفهمه لمنطق الطير وكلامه.

ومنطق الطير كلامه، وفيه دليلٌ على أنَّ للطيور لغةً خاصة تتخاطبُ بها، علَّم الله هذه اللغة سليمان عليه السلام، وأظهرها سليمانُ للناس تحدُّثاً بنعمة الله سبحانه عليه، وإظهاراً للمعجزة التي خصَّه الله سبحانه بها، ولهذا قدَّمها في الذكر عندما قال:

﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أعطاه الله سبحانه كلَّ شيء تدعو إليه الحاجة كالنبوة والعلم والحكمة والمال وتسخير الجن والطير والريح.

وجاء سليمان بنون العظمة التي أراد بها نفسه، لأنه كان مطاعاً مسموع الكلمة، فلم يأتِ بها تكبُّراً ولا تجبُّراً وتعظيماً لنفسه، ولهذا ختم كلامه بما يدل على تواضعه لله سبحانه وبيان فضله عليه فقال:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

ويهتمُّ كثيرٌ من الباحثين اليوم بلغاتِ الحيوانات والطيور والحشرات كالنمل والنحل، وقد لاحظ الدارسون من العلماء لأحوال الطيور والحيوانات أنَّ أصواتها تتكيَّفُ بكيفيات مختلفة باختلاف حاجاتها ومطالبها، فمُوَاءُ الهرةِ المحبوسةِ مثلاً يختلف عن موائها عندما تطلب الطعام والماء، فلكلِّ صوتٍ كيفياتٌ ونبراتٌ ليست في الصوت الآخر، وقد كشف عالمٌ ألمانيٌّ منذ حوالي خمسين عاماً بعد ملاحظات دقيقة وصبر طويل أنَّ الطيور لا تصدحُ وتغني فقط، لكنَّها تتكلَّم، ولها مثل البشر لهجات خاصة، مثال ذلك: أنَّ الشحرور النمساوي لا يفهم لهجة الشحرور البافاريِّ، والشحرور الفرنساوي لا يفهم لهجة الشحرور الإنكليزي[1].

والعجيبُ أنَّ بعضَ الناس يقلِّدون لغة الطيور، ويجعلونها لغة التفاهم في ما بينهم أحياناً، ففي منطقة جزر الكناري الجبلية يتحدَّث الناسُ فيما بينهم بلغة تشبه لغة الطيور، ويتفاهمون عبر مسافات طويلة تفصل بينهم بالصفير الذي يشبه

---

(١) نُشر هذا الخبر في «جريدة الأهرام» في عدد يوم الأحد الموافق ٤ شباط سنة ١٩١٧م، كما في «قصص الأنبياء» للنجار.

صفير الطيور لبعضها، وبعض الصيادين في موريتانيا يعتمدون في صيدهم على الدلفين، فيضربون الماء ضربات خاصة بأصوات يستجلبون بها الدِّلفين، ليسوق إلى شباكهم سمك التيمالوس[١].

لقد جعل الله سبحانه لكلِّ أمةٍ من الأمم لغةَ تفاهم بين أفرادها.. وكان اختلافُ اللغات واللهجات تابعاً لاختلاف وتنوع الأمم والشعوب والأجناس، وهذا الاختلافُ والتنوُّعُ في الأمم والشعوب والأجناس واللغات واللهجات مظهراً من مظاهر قدرة الخالق العظيم ﷻ، ومن أدلة وجوده سبحانه، قال ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

وجعل الله ﷻ الطيور والحيوانات والحشرات أمماً، ولكلِّ أمةٍ خصائصها التي تتميز بها عن غيرها من الأمم، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فلا بد أن تكونَ لكلِّ أمة من هذه الأمم روابطُ معينةٌ تحيا بها، ووسائل تفاهم فيما بينها، وهو أمرٌ مشاهدٌ في حياة كثير من الحيوانات والطيور والحشرات، ويجتهِدُ علماءُ هذه الأنواع في إدراك شيء من لغاتها والكشف عن وسائل التفاهم فيما بينها عن طريق البحث والمراقبة والمقارنة، ويجب التنبيه إلى أنَّ ما يتوصل إليه بعضُ العلماء في هذا المجال يختلِفُ اختلافاً كبيراً عن علم منطق الطير الذي علَّمه الله سبحانه سليمان، فعلم العلماء يبقى حبيس الظن والحدس معتمداً على المراقبة والمقارنة، ولا يرقى إلى العلم اللدني القطعي الخارق لمألوف البشر الذي تفضَّل به العليم الخبير على عبده ونبيه سليمان عليه السلام.

وقد أحسن سيد قطب رحمه الله في تفسيره «في ظلال القرآن» عندما قال: «أحبُّ أن يتأكدَ هذا المعنى ويتَّضح، لأنَّ بعض المفسرين المحدثين ممَّن تبهرهم انتصاراتُ العلم الحديث، يحاولون تفسير ما قصَّه القرآن عن سليمان عليه السلام في

---

(١) نُشر هذا في برنامج علمي يدعى «أسرار البحار» عرضه رائي المملكة العربية السعودية.

هذا الشأن بأنه نوعٌ من إدراكِ لغاتِ الطير والحيوان والحشرات على طريقة المحاولات العلمية الحديثة، وهذا إخراجٌ للخارقة عن طبيعتها، وأثر من آثار الهزيمة والانبهار بالعلم البشري القليل.

وإنَّه لأيْسرُ وأهونُ شيءٍ على الله أن يعلِّم عبداً من عباده لغاتِ الطير والحيوانِ والحشراتِ هبةً لدنيةً منه بلا محاولة ولا اجتهاد، وإن هي إلا إزاحةٌ لحاجز النوع التي أقامها الله بين الأنواع وهو خالق هذه الأنواع»[1].

ومن قبلِ سليمان عليه السلام علَّم الله سبحانه آدمَ عليه السلام كل الأسماء لكل الأشياء في كل اللغات، إظهاراً لعظيم قدرته سبحانه وفضله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة].

وإنَّ في محاولاتِ العلماء اليوم لمعرفة لغات الحيوانات والطير والحشرات، واجتهادهم في الكشف عن وسائل التفاهم فيما بينهم، تصديقاً لما قرره الله سبحانه في كتابه الكريم، وإظهاراً لوجه من وجوه إعجازه العلمي، يزيد المؤمنين إيماناً بصدق كلام الله تعالى وصحة رسالة النبي ﷺ، فيحمدون الله سبحانه على ما تفضَّل به عليهم وعلى الناس جميعاً بحفظ القرآن الكريم، وإبقاء آياته في الأرض أعلاماً للإسلام، وشواهد حقٍّ تبقى على الدوام، فله سبحانه الحمد أولاً وآخراً، كما أخبر في آخر **سورة النمل**: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

- **جنود سليمان:**

وفي جنود سليمان معجزات كبيرة خارقة للعادة، أخضع الله سبحانه له الجنَّ ليكونوا من جنوده، وسخَّر له الطير ليكونوا في عداد جيشه كما قال تعالى:

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٩/١٣٨.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وإن كلمة ﴿حُشِرَ﴾ تدل على كثرة جنوده وقوتهم وكثرة عددهم، ومع هذا فالذي يبدو لنا أنَّ الله سبحانه سخر لسليمان طائفةً من الجنِّ، وطائفةً من الطير، كما سخَّر له طائفة من الإنس، لأن ملك سليمان كما يذكر المؤرخون لم يمتد إلى جميع الأرض، فقد كان ممتداً في حدود بلاد الشام إلى صنعاء والفرات، ويؤكد هذا قوله تعالى في سورة سبأ [١٢]: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ وكلمة ﴿مِن﴾ تدل على التبعيض، فكما أنَّ جميع الإنس لم يكونوا في عداد جيش سليمان، كذلك لم يكن جميعُ الجن والطير في عداد جيشه، ولو كان جميعُ الطيور في عداد جيشه لما استطاع معرفة غياب واحد من الطير وهو الهدهد، عندما تفقَّد سليمان الطير كما حكى الله عنه في **سورة النمل**: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾﴾، مما يدل على أن هدهداً خاصّاً من أمة الهداهد كان في عداد جيش سليمان، ومهما قلَّلنا في عدد المسخَّرين لسليمان عليه السلام من الجن والطير، وحشرهم في عداد جيشه، فإنَّ تسخيرَهم له أمر خارق للعادة ومعجزات كبيرة تفضل الله سبحانه بها على نبيه سليمان عليه السلام.

وقول الله سبحانه في وصف جنود سليمان: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، وتفقُّد سليمان عليه السلام للطير يدل على أنه كان ضابطاً شؤون جنوده رغم كثرة عددهم، وتنوُّع أجناسهم واختلافهم، لأنَّ معنى ﴿يُوزَعُونَ﴾ يُكفون ويُمنعون من الفوضى والاختلاف، فلكلِّ طائفةٍ منهم وازعٌ يزعهم، ويكفُّهم ويضبطهم، وسليمان عليه السلام يسيطر عليهم جميعاً، ويراقبهم ويتفقدهم، والآية الكريمة: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، وتدل على أنَّ جيش سليمان كان يتَّصفُ بالقوة والنظام، كما يدل على أنه عليه السلام كان يتَّصفُ بكمال اليقظة والحزم في قيادته لمثل هذا الجيش الذي ما عُرف مثله بين الجيوش على مدى الدهور والأزمان.

- **الموكب العظيم:**

ويسير سليمان عليه السلام على رأس جنوده في موكبه العظيم، ويسير في ركابه الجن والإنس والطير، ويظهر هذا من قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾.

ويظهر من قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ أنَّ سليمان وجنوده كانوا يسيرون على الأرض، ويستعملون في سفرهم وسيرهم وسائل الانتقال المعروفة لدى الإنسان في ذلك الزمان، إلا أنه لا بدَّ أن تكونَ هذه الوسائلُ أضخمَ وأفخم من غيرها، لتتناسب مع قوة جيش سليمان، ومع الإمكانات الصناعية الضخمة والقوى الهائلة التي أنعم الله بها على سليمان عندما سخَّر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب، وقدور راسيات.

والمحاريب: أماكنُ للعبادة، **والتماثيلُ**: الصورُ المجسَّمة للأشياء، **وليس فيه دليل على جواز صنع التماثيل والمجسَّمات للمخلوقات الحية في شرعنا الإسلامي**، لأنه يمكن أن تكون التماثيل والمجسَّمات لغير المخلوقات الحية، وعلى كلٍّ فهو شرع من قبلنا، والشريعة الإسلامية تنهى عن صنع التماثيل والمجسمات والصور للمخلوقات الحية، ثبت النهي في عدة أحاديث نبوية شريفة صريحة وصحيحة:

منها: ما رواه مسلم في «صحيحه» [٢١٠٩]: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أشدُّ الناس عذاباً يومَ القيامةِ المصوِّرون**».

وقال أيضاً [٢١١٠]: «**مَنْ صوَّر صورةً في الدنيا كُلِّفَ أن ينفخَ فيها الروحَ يوم القيامة، وليس بنافخ**».

وقال أيضاً [٢١٠٨]: «**الذين يصنعونَ الصُّوَرَ يعذَّبون يومَ القيامة ـ يقال لهم: أحيُوا ما خلقتم**».

وأما **الجفان والجواب والقدور الراسيات**: فهي أواني الطعام والشراب الكبيرة الضخمة التي كان سليمانُ يستعملها لإطعام جيشه الكبير العدد والمتنوع في الأجناس.

ويؤكد أن سليمان وجنوده كانوا يسافرون سائرين على الأرض، لا طائرين فوق متن الريح في الجو، ما عُرف عنه ﷺ من محبته للخيل، وعنايته بها، لأنَّها عدَّةُ الجهادِ التي يعتمد عليها في الحرب، وبلغَ من عنايته بها وشغفه بها، أنه كان يستعرضُها ويمسحُ بيده سوقها وأعناقها، جاء هذا في قوله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [صٓ].

• **هل استعمل سليمان بساط الريح؟:**

وقصة بساط الريح الذي ذكره كثير من المفسرين، وأنَّ سليمان ﷺ كان يستعمله في أسفاره ورحلاته ليس له ذكر في القرآن الكريم، ولا في أيِّ أثر صحيح، والمذكور في القرآن الكريم أن الله سبحانه سخَّر الريح لسليمان، وجاء وصفها في **سورة الأنبياء** بأنها ريح عاصفة، وبأنها تجري بأمر سليمان ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

بينما جاء وصفها في **سورة صٓ** بأنها تجري رُخاء، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾.

فهل كان تسخير الريح لسليمان أنها تتحول بأمر سليمان ومشيئته من ريح عاصفة مدمِّرة إلى ريح رخية طيبة، تبشر بقدوم الخيرات ونزول البركات وتدفع السفن الجاريات في أعماق البحار؟ وهذا من أعظم فوائد الرياح الرخية، فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

ولا بدَّ أنه كان لسليمان ﷺ أسطول بحري من السفن، فمملكته تطل على سواحل طويلة في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وقد عرف عن أهل هذه البلاد قديماً تمرُّسهم بركوب البحر، وخبرتهم في بناء السفن.

وقد نبَّه علماء التفسير إلى الاختلاف في وصف الريح المسخَّرة لسليمان

ففي **سورة الأنبياء** وصفت أنها عاصفة، وفي **سورة صٓ** وصفت أنها تجري بأمره رُخاء، والعاصفة غير التي تجري رخاءً، وقد أجابوا للتوفيق بينهما بجوابين:

أولهما: أنها عاصفة في بعض الأوقات، ولينة رخية في بعضها الآخر، بحسب الحاجة.

الثاني: أنها رُخاء في نفسها، وعاصفة في عملها، مع طاعتها لسليمان وهبوبها على حسب ما يريد(١).

إلا أنَّ هاتين الإجابتين لا تنسجمان مع وصف الله سبحانه للريح العاصف بأنها الريح المهلكة المدمرة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

ومع هذا فنحن لا ننكِرُ إمكانية وجود بساط الريح وجلوس سليمان عليه مع حاشيته وجنوده، وحمل الريح له إلى حيث يريد، فالله سبحانه قادِرٌ على كل شيء، ونحن نشاهدُ كيف تمكَّن الإنسان في العصر الحاضر من ركوب الطائرات بسبب ما فتح الله عليه من أنواع العلوم والمعارف في مجالات الطيران وعلوم الفضاء، ولكن ذلك لم يثبت بنص من القرآن والسُّنَّة، والنص القرآني يقرر كما مرَّ معنا تسخير الريح وهي عاصفة لسليمان تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها، وهي في الغالب بلاد الشام، لسبق الإشارة إليها بهذه الصفة في قصة إبراهيم عليه السلام.

إنَّ تسخير الريح لنبي الله سليمان عليه السلام وتحويلها من ريح عاصفةٍ مدمرة إلى رياح رخية طيبة معجزة كبرى، وآية عظمى، خارقة للعادة، صحيحٌ أنَّ الإنسان استفادَ قديماً من قوة الرياح في تسيير السفن في البحر،واستفاد حديثاً من قوة الهواء في تطيير الطائرات؛ إلا أنه لم يستطعْ أن يُخْضِعَ الرياحَ لمشيئته، وأن يجعلها تتوجه حسب إرادته، بل إن الإنسان ليعجزُ عن حماية نفسه من سطوة الريح العاصفة وتدميرها، ولا يزال يعاني ما يعاني من أعاصيرها المدمرة، وفي

---

(١) انظر: أضواء البيان: ٤/ ٦٧٦.

كلِّ يوم تطالعنا الأخبار عن الفواجع والنكبات التي تتركها الأعاصير المدمرة في كل بلد تمر عليه.

- **كلام النمل:**

إنَّ قوله تبارك وتعالى:

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ يثبت وجود لغة للنمل يتخاطبون بها فيما بينهم.

وسبق أن ذكرت في بداية تفسير هذه السورة أنَّ النمل يعيش في مجتمعات كبيرة ومنظمة، تفوق في نظامها ودقتها النظام الاجتماعي لكثير من المجتمعات البشرية، فلا بدَّ أن يكون لأفراد المجتمع لغة تفاهم وتعارف فيما بينهم، والنص القرآني الكريم يؤكد وجود لغة التفاهم هذه في كلام النملة، فالقول بأنَّ النملَ يتعارفون فيما بينهم باللوامس الطويلة التي خلقها الله في أجسامهم، أو برائحة عُشِّيَّة خاصة، يتعارض مع ما ذكر في القرآن الكريم من كلام النملة الذي سمعه نبيُّ الله سليمان بقدرة الله سبحانه.

إنَّ سماعَ كلامِ النملة معجزةٌ لسليمان عليه السلام قابلها بالتبسم من قولها، وبالاعتراف بفضل الله عليه وبشكره والضراعة إليه سبحانه:

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

وقوله عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ معناه: اجمعني كلي واجمع طاقاتي كلها أولها على آخرها، وهو المدلول اللغوي لكلمة ﴿أَوْزِعْنِىٓ﴾ لتكون كلها في شكر نعمتك[1].

وهذا التعبير يؤكد أن سماع سليمان لكلام النملة قد مسَّ قلبه، وهز

---

(١) انظر: في ظلال القرآن.

وجدانه، وهو يعيش حقيقة المعجزة الكبرى التي أكرمه الله سبحانه بها عندما أسمعه كلام النملة.

وقد أثبت العلمُ حديثاً ـ كما سبق وذكرتُ ـ أنَّ النملَ يمكنه أن يتعرف على بعض الذبذبات، فلماذا لا تكونُ هذه الذبذبات هي الذبذبات الصوتية الناتجة عن كلام النمل، وأنَّ الله سبحانه أقدرَ سليمان على أن يسمع هذه الذبذبات ويفهم مضمون كلام النمل فيها.

• **حكمة نملة:**

ونقف عند سماع سليمان عليه السلام لكلام النملة أمام عددٍ من المعجزات الكبيرة:

أولها: معجزةُ سماع سليمان كلام النملة.

وثانيها: إدراكُ النملةِ أنَّ السائرين في وادي النمل هم سليمان وجنوده.

وثالثها: ما تضمَّنه كلام النملة من الحكمة والتعقُّل والتبصُّر بعواقب الأمور.

ورابعها: معرفةُ النملة لسليمان، وأنَّه نبيٌّ كريمٌ، لا يقصد أحداً بالأذى، حتى لو كان نملةً صغيرةً، ولهذا قالت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

إنَّ كل معجزة من هذه المعجزات أكبرُ من سابقتها:

فالمعجزة الأولى: ممَّا علمه الله سبحانه لسليمان، وهو إنسانٌ ونبي قابلٌ للعلم والمعرفة.

وأما **المعجزة الثانية**: فهي في تعليم الله سبحانه لهذه الحشرة الصغيرة ما علمها، حتى أدركت أنَّ القادمين هم سليمان وجنوده.

وأما **المعجزة الثالثة**: فما تضمنه كلامُ النملةِ من حكمة وتعقل وتبصر وتقدير للنتائج، ممَّا لا نرى مثله عند كثير من الناس، الذين زودهم الله سبحانه بوسائل الإدراك من عقل وسمع وبصر، ومكنهم من التعلم والتفكر والاعتبار، ولكنهم مع الأسف لم يعتبروا ولم يتفكروا.

أدركت النملةُ الخطر، وعرفت مصدره، كما أدركتْ أنَّه لا يمكن لمثل

النمل أن يتصدَّى لهذا الخطر ويواجهه، وعرفتْ أنَّ خيرَ وسيلةٍ للنجاة والسلامةِ عدمُ مواجهته، والانسحاب من وجهه إلى مكان آمن حتى يزولَ، ولهذا أمرت النملَ أن يدخلوا مساكنهم، وهكذا تمكنت هذه النملةُ بحكمتها وتبصُّرها بعواقب الأمور أن تنقذَ نفسَها وأمتها من الخطر.

إنها عرفت حدود إمكاناتها، كما عرفت مدى الخطر الذي يواجهها، فوقفت عند حدها، رغم النزعة العدوانية القتالية المعروفة لدى النمل، ورحم الله امرأً عرف حدَّه كما عرفته هذه النملة الحكيمة، وعرف مدى القوة التي يواجهها كما عرفت هذه النملة الحكيمة، واتخذ قراره بحزم وقوة ووضوح وسرعة كما فعلت هذه النملة الحكيمة، ولقد جاء قرارُها في وقته المناسب حكيماً وسريعاً، فدرأت به المخاطر عن مجتمعها وأمتها.

فمتى يكون لنا حكمةُ هذه النملة؟ متى نتدبر آيات الله سبحانه في كتابه الكريم حق التدبُّر، وندرك عمق ما فيها من حكم وأحكام تأخذ بأيدينا إن أحسنَّا تطبيقها إلى الأمن والعزة والسلام؟ متى نعرف حقيقة ما يدور حولنا، وحجم القوى الخفية التي تتصارع من حولنا، وتتكالب علينا، ونعرف حجمنا بالنسبة لها، فلا نغتر ولا نجهل؟!.

وإنَّها لنملةٌ مخلصةٌ لأمتها ولأبناء مجتمعها، فلم تبادر إلى تأمين نفسها والانسحاب من وجه الخطر دون أمتها وإخوتها، بل وقفت في وجه الخطر تنصحهم، وتبين لهم طريق السلامة وأسباب تحصيل العافية.

- **هدهد سليمان:**

اتصف النبي الملك سليمان عليه السلام بصفات اليقظة والدقة والحزم في إدارة شؤون مملكته، فهو يتفقد جنده، ولا يغفل عن جندي واحد منهم رغم كثرة عددهم واختلاف أجناسهم وأنواعهم:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠﴾.

ولما لم يرَ الهدهدَ تساءل قائلاً: ﴿مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؟! وهو يظنُّ أنَّ

الهدهدَ حاضرٌ، ولكنه لا يراه بسبب ساتر أو غيره، ولما تبيَّن أنه غائب أضرب عن كلامه الأول، وقرر أنه من الغائبين، ولا بدَّ من الحزم في مثل هذه الحالة حتى لا تكون سابقة سيئة لغيره من الجنود، ومن ثَمَّ أعلن سليمان أنه سيعاقبه عقاباً شديداً:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾، ولا بد أيضاً في مثل هذه الحالة أن تظهر صفة النبيِّ الملك العادل عند سليمان ﷺ، فهو ليسَ مَلِكاً جباراً في الأرض، ولم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائيّاً، ولهذا ختم تهديده بقوله:

﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة واضحة قوية تبرر سبب غيابه، وتبين عذره في ذلك.

ولم ينتظر سليمان طويلاً حتى جاء الهدهد الذي كان يعرف حزم الملك وشدته، فبدأ حديثه بمفاجأة كبيرة، أظهر فيها سبباً وجيهاً لغيابه:

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾.

والمتأمل لكلام الهدهد يجد نفسَه أمام هدهدٍ أريبٍ عجيبٍ، صاحب إدراك وفهم وإيمان، فهو يدرك أنَّ هذه ملكة، وأن من حولها رعية لها، ويدرك أنهم يسجدون للشمس من دون الله، ويعرف أن السجود لا ينبغي إلَّا لله، الذي يخرج الخبْءَ في السماوات والأرض، وأنه سبحانه هو رب العرش العظيم!.

• **الإدراك عند الحيوان:**

فهل لجميع الطيور والهداهد مثل هذا الإدراك والفهم والإيمان؟ أم أنَّ هدهدَ سليمان هدهدٌ خاص آتاه الله سبحانه هذا الإدراك الخاص على سبيل المعجزة الخارقة للعادة تكريماً لنبيه سليمان عليه السلام؟.

ذهب سيد قطب رحمه الله إلى أنَّ هدهدَ سليمان قد وُهِبَ إدراكاً خاصّاً، لا يرقى إليه إدراك سائر الهداهد والطير بصفة عامة، ولا بدَّ أن هذه الهبة كانت للطائفةِ الخاصةِ التي سُخِّرتْ لسليمان، لا لجميع الهداهد وجميع الطيور، فإنَّ نوع الإدراك الذي ظهر من ذلك الهدهد الخاص في مستوى يعادل مستوى العقلاء الأذكياء الأتقياء من الناس[1].

لكنِّي لا أرى مانعاً أن يكون إدراك هدهد سليمان هذا ومعرفته بالله سبحانه وإنكاره على من يعبدُ غيرَ الله عامّاً عند جميع الهداهد والطيور، ولا أرى ثمَّةَ دليلاً يخصُّ هدهدَ سليمان بهذا الإدراك، وهذه المعرفة، وينفيهما عن بقية أفراد جنسه ونوعه، صحيحٌ أنَّ إدراك الطير والحيوان لا يصل في كثير من الأمور إلى مستوى إدراك الإنسان، لكنه في أمر معرفة الخالق العظيم سبحانه قد يصلُ إلى مستوى الإنسان، بل قد يفوقه في بعض الأحيان، فإننا نشاهدُ أكثر الناس مع ما لديهم من ذكاء وإدراك رفيع المستوى، يعرضون عن الله سبحانه، فلا يؤمنون به الإيمان الحق، ولا يعبدونه العبادة الصحيحة، وينحطون بذلك إلى رتبة أدنى وأحط من مراتب الطير والحيوان، وتصديق ذلك في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان].

وقد مرَّ معنا من قريب حديث النملة، وإدراكها وحكمتها، فقد رأينا كيف عرفت هذه الحشرة الصغيرة أن القادمين هم سليمان وجنوده، وأن ما يمكن أن

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٩/ ١٤٥.

يصيبهم منهم ليس مقصوداً، لأنَّ سليمان نبيٌّ معصوم، فلا يقصد أي مخلوق بضرر أو ظلم ولو كان نملة صغيرة، ولهذا قالت كما مرَّ معنا: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] فهل كان هذا الإدراك خاصّاً بهذه النملة، أم أنه إدراك عام يشترك فيه جميع أفراد نوعها وجنسها من النمل؟.

• **التسبيح بحمد الله:**

لقد أثبتت النصوص القرآنية الكريمة أنَّ جميعَ المخلوقات تسبِّح بحمدِ خالقها وتمجده، ولكنَّ الإنسانَ محجوبٌ عن سماع هذا التسبيح والتمجيد، كي يكونَ إيمان المؤمنين من الناس إيماناً بالغيب، قائماً على تصديق الخبر الصادق، الذي جاء به الرسل والأنبياء ﷷ، قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقد أخبر ربنا سبحانه في القرآن الكريم أنَّ للطيور صلاتها الخاصة بها إلى جانب تسبيحها وتمجيدها لخالقها العظيم ﷻ، فقال جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وجاء في كثير من الأحاديث الصحيحة: أنَّ بعضَ الجمادات من أحجار وجبال وأشجارٍ كانت تسلِّمُ على رسولِ الله ﷺ، فعن **علي** ﷺ قال: «**كنتُ مع رسولِ اللهِ ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله شجرٌ ولا جبلٌ إلا وهو يقول: السلامُ عليك يا رسول الله**» [رواه الترمذي (٣٦٢٦)].

وعن **جابر بن سمرة** ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ بمكة حجراً كان يسلِّمُ عليَّ ليالي بُعِثْتُ، إنِّي لأعرفُه الآن**» [رواه مسلم (٢٢٧٧)].

وعن **أنس بن مالك** ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ كان يَخْطِبُ إلى جذْعٍ، فلمَّا اتخذَ المِنبرَ، فحنَّ الجذْعُ، فأتاه فاحتضنَهُ فسَكَنَ، فقال: «**لَوْ لَمْ أحتضِنْهُ لَحَنَّ إلى يوم القيامة**» [أخرجه الترمذي (٣٦٢٧) وابن ماجه (١٤١٥) وله طرق كثيرة عن عدد كبير من الصحابة].

كل ذلك يؤكد لنا أنَّ إدراك هدهدِ سليمانَ أنَّ الله وحدهَ سبحانه الذي

يستحق أن يُعبد، وإنكاره على عُبَّادِ الشمس مِنْ دون الله، ليس إدراكاً خاصّاً به، بل يجوزُ أن تشاركَهُ فيه جميعُ الهداهد والطير والحيوان، إنها تعرف بالفطرة التي خلقها الله فيها أنَّ لها خالقاً ورازقاً تتجه إليه بفطرتها، مسبِّحةً وممجدة بحمده سبحانه، اقرأ جواب موسى ﷺ لفرعون عندما سأل موسى قائلاً: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه].

وهذه الفطرةُ هي نفسُ الفطرةِ التي خلق الله سبحانه الناس عليها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

لأنهم ينحرفون عن أصل الفطرة التي خُلقوا عليها بسبب الاختيار والكسب الذي جعله الله في الإنسان ليكون مخلوقاً مكلفاً ومسؤولاً، فكان بهذا الانحراف عن أصل الفطرة وعبادته لغير الله سبحانه إنساناً ظلوماً جهولاً: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢][1].

- **الكتاب الكريم:**

وعندما سمع سليمان ﷺ كلام الهدهد وما فيه من التعريض بقصور علم سليمان ومحدوديته مع أنه نبي وملك: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ لم ينزعج من هذا التعريض، ولم يجعله يغضب على الهدهد شأن المعجبين بعلمهم، المغرورين بسلطانهم وملكهم، فهو نبيٌّ موصولُ القلب بالله سبحانه، يعلم أنَّ الله سبحانه ألهمَ الهدهدَ أن يخاطبه بهذا الخطاب، ابتلاءً منه ﷻ، لتتحاقرَ عنده نفسُه، ويتصاغر لديه علمُه أمام مخلوقٍ صغيرٍ من مخلوقات الله سبحانه، أحاط علماً بما لم يحط به سليمان ﷺ، فلا ينبغي لعالمٍ مهما بلغ علمُه أن يعجبَ به، فثمة

---

(١) انظر: تفسير سورة الأحزاب، المسمَّى في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب).

علوم كثيرة يجهلُها، وما يجهلُه أكثر بكثير مما يعلمه، وكثيراً ما تجد عند بعض الحيوانات علماً لا يوجد مثله عند كثير من الناس.

وما أكثر ما تعلَّم الإنسان من ملاحظته للحيوان، وفي آيات الله سبحانه في التنزيل الحكيم شواهد عديدة للاعتبار، اقرأ قصة أول جريمة قتلٍ في الأرض عندما قتل إنسان أخاه الإنسان، وقف متحيراً لا يدري ما يصنع بجسد أخيه المقتول، حتى بعث الله غراباً يبحث في الأرض ليعلمه كيف يصنع: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ [المائدة].

وكان تعليق سليمان عليه السلام على كلام الهدهد أنْ قال:

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم كتب عليه السلام كتاباً، وأمر الهدهدَ أن يذهب به إلى ملكتهم:

﴿ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

لقد كان الكتابُ كريماً، كما وصفته الملكةُ لرجال دولتها عندما جمعتهم لتشاورهم في شأنه:

﴿قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

ولا شك أنَّ الكتابَ كريمٌ لكرم مرسله، أو لكرم مضمونه، أو لهما معاً:

أما كرم **مرسله** فواضح؛ فلا بدَّ أن تكون ملكةُ سبأ قد سمعت عن سليمان وقوته وسعة مملكته، ولهذا لمَّا تحدثت عن مرسل الكتاب قالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ﴾ ولم تزد أكثر من ذلك في التعريف بمرسله، وهذا دليل على أن سليمان

عليه السلام كان معروفاً عندها وعند قادتها ووزرائها ومستشاريها، إلا أن معرفتهم له أنه ملك فقط، وما كانوا يعلمون شيئاً عن أمر نبوته ورسالته ودعوته إلى عبادة الله وحده والخضوع لدينه وشرعه.

وأما **كرم مضمون الكتاب** فقد كان في غاية الوجازة، مع كمال الدلالة على المقصود، لتضمنه معاني كثيرة في ألفاظ قليلة، ولاشتماله على البسملة الدالة على الخالق العظيم سبحانه وعلى صفاته، كما أنَّ فيه أيضاً النهي عن الترفع والتكبر، الذي يصرف الإنسان عن معرفة الحقيقة والانقياد لها، والأمر بالإسلام والاستسلام لله رب العالمين، إنها دعوة النبوة وأكرِمْ بها من دعوة، لا دعوة الملك والسلطنة والسيطرة.

- **الهديةُ الرشوة:**

استشارت الملكةُ رجالَ دولتها في أمر كتاب سليمان عليه السلام:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾.

وبعد أن سمعت رأيهم وقولهم:

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

قررت أن ترسل إلى سليمان هدية ثمينة:

﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

وظهر في قرارها دهاءُ المرأة وكيدها واحتيالها، فقد أرادت أن تحقق بهذه الهدية عِدَّة مآرب: فبها تتعرف على مدى صدق سليمان في دعوته إلى عبادة الواحد الأحد الرحمن الرحيم، كما أرادت أن تصانِعَه وتداهِنَه وتشتريَ بهذه

الهدية مودته وصداقته، وتبعدَ خطره عن مملكتها وبلادها، فقد سبق أن: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

ولكن كيدها لم ينجح، ومكرها لم يفلح، فقد رجعَ رسلُها بهديتها خائبين، وهم يحملون مع الهدية تهديدَ سليمان ووعيده:

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

إنها إذن دعوة النبوة المنزهة عن كل أغراض الدنيا، المستعلية على أموال الأرض وكنوزها، المبرأة من شهوات النفس وميولها، المخلصة والخالصة لله سبحانه، فلا دورَ للمال في مجال النبوة، ولا عمل له معها، ولهذا قال نبي الله سليمان لرسول الملكة ومن معه من حاملي الهدية: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾.

فالذين يفرحون بالهدية هم طلاب الدنيا وعبيد الدرهم والدينار، أولئك الذين ينشغلون بالنعمة عن المنعم، أما الأنبياء عليهم السلام ومن سار على طريقهم، واقتفى آثارهم، فقلوبهم متعلقة بالمنعم، بالله سبحانه؛ وإذا وصلتهم نعمة منه سبحانه كان فرحهم بالمنعم لا بالنعمة، وجعلوا من النعمة وسيلةً يتقرَّبون بها إلى الله سبحانه عبادةً وشكراً.

وقد يقال: أليس من شأن الأنبياء أن يقبلوا الهدية؟ فقد كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقبل الهدية ويكافئ عليها.

وأقول: الأنبياء عليهم السلام يقبلون الهدايا إذا كانت هدايا، أما إذا كانت رشاوى، فهم صلوات الله وسلامه عليهم أبعد الناس عنها، وأطهر الناس منها، وكان نبينا ﷺ يقبل الهدية، ويأكل منها، ويكافئ عليها، كما ذكرت **عائشة** رضي الله عنها فقد قالت: **كان رسولُ اللهِ ﷺ يَقْبَلُ الهديةَ، ويثيبُ عليها**. [رواه البخاري (٢٥٢٨)].

وكان ﷺ يقول: «**تهادُوا، إنَّ الهديةَ تُذهِبُ وَحَرَ الصَّدْر**» [رواه الترمذي (٢١٣٠)] وقوله: «**وحر الصدر**» أي: غشه ووساوسه.

ولكنه ﷺ في الوقت نفسِه كان يحذِّرِ من الرشوة التي تسمَّى زوراً وكذباً هدية ويقول: «**خُذوا العطاءَ ما دامَ عطاءً، فإذا صارَ رشوةً على الدينِ فلا تأخذوه**» [رواه الطبراني من حديث معاذٍ رضي الله عنه].

وكان رسول الله ﷺ يرى أيضاً أنَّ الهدايا التي تقدَّمُ لأصحاب المراتب والمناصب من أجل ما هُمْ فيه من الرتبة والمنصب رشاوى، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**هدايا العُمَّالِ غلول**» [رواه أحمد في المسند (٥/ ٤٢٥)].

ولمَّا استعمل النبيُّ ﷺ رجلاً ليجمعَ مال الصدقة، وجاء الرجلُ بالمالِ، فدفعه إلى النبيِّ ﷺ فقال: هذا لكم، وهذا أُهْدِيَ لي، قامَ رسولُ الله ﷺ على المنْبَرِ، فحمدَ الله، وأثنى عليه، وقال: «**ما بالُ عاملٍ أبعثُهُ فيقولُ: هذا لكُمْ، وهذا أُهديَ لِيْ! أفلا قَعَدَ في بيتِ أبيه، أو في بيتِ أُمِّهِ حتَّى ينظرَ أيُهدى إليه أم لا! والذي نَفْسُ محمَّدٍ بيدِهِ، لا ينالُ أحدٌ منكم منها شيئاً إلا جاءَ بِهِ يومَ القيامةِ يحملُه على عُنُقِهِ، بعيرٌ له رُغاءٌ أو بقرةٌ لها خوارٌ، أو شاةٌ تَيْعَرُ** (تصيح)» ثم رفعَ يديه حتى رأينا عَفْرتي إبطيه (بياض إبطيه) ثم قال: «**اللهمَّ هل بلغتُ**» مرتين. [رواه البخاري (٧١٩٧) ومسلم (١٨٣٢)].

- **عرش بلقيس:**

لما رأت الملكةُ بلقيس هداياها تعودُ إليها، وسمعت تهديدَ سليمان ووعيده، عرفت أنها لا طاقة لها بمحاربته، ولا قوة لها على مدافعته، فقوتها على شدتها وبأسها لا تكافئ قوته، فقررت أن تذهب إليه كما أمرها طائعة صاغرة.

وأراد سليمان عليه السلام أن يظهر لملكة سبأ ما سخَّر الله سبحانه له من القوى، وما وهب له من الملك، لتعلم صدق دعوته، وصحة نبوته، فتسلم لله تعالى، وتدخل في دينه، فجمع كبار رجال مملكته وقادة جنده ووزاءه وقال لهم:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾.

وكلمة (**عفريتٌ**) تعني الذي يغلِبُ مَنْ يصارعه، ويعفِّره بالتراب، أي: يمرغه بالتراب، فهي لا تختصُّ بالجن، ولهذا بيَّن القرآن الكريم أنه عفريت من الجن.

وقوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ﴾ أي: قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه. وكان سليمان عليه السلام يجلس لتدبير شؤون مملكته إلى نصف النهار.

ويبدو أنَّ سليمان عليه السلام أستبطأ إتيان العرش بهذه المدة التي عرضها عفريت الجن، وعندئذ:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ﴾ والمعنى: أنك ترسلُ نظرك نحو شيءٍ فقبل أن تردَّه إليك أحضر عرشها بين يديك.

وهذا غاية في السرعة، لأن ردَّ الطرف مثل لمح البصر في السرعة، ولهذا أخبر الله سبحانه عن إتيان العرش بعد انتهاء كلامه مباشرة دون أن يكون ثمة أدنى فاصل زمني، فقال تعالى بعد ذلك:

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾.

تُرى مَنْ هذا الذي عنده علم من الكتاب، والذي أقدره الله سبحانه على هذا الأمر الخارق المعجز؟.

لم تكشف الآياتُ هويته، ولم تذكر اسمه، إلا أنَّ الآيات دلَّت على أنه من حاشية سليمان عليه السلام، فهو من الملأ الذين خاطبهم سليمان عندما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: ٣٨]، وكان فيهم من الإنس والجن والطير كما سبق بيانه في الحديث عن جنود سليمان، وهو حتماً ليس من الجن، لأنه لو كان منهم لبينته الآيات، كما بينت حال العفريت، كما أنَّ وصف الله سبحانه له بأنه عنده علم من الكتاب يخرجه عن دائرة الطير، فلا بدَّ إذن أن يكون من الإنس.

وقد ذهب بعضُ المفسرين إلى أنه سليمان نفسه، وجاء وصف الله سبحانه له: ﴿ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ للدلالة على شرف العلم، ويقول أصحاب هذا الرأي: إنَّ صيغة الخطاب في قوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ﴾ لا ترده، لأنه من كلام سليمان للعفريت، لكنه قولٌ لا يخلو من تكلُّف، لأنَّ سياق الآيات يدل على أنَّ الذي عنده علم من الكتاب غير سليمان عليه السلام، إنه كما قال سيد قطب رحمه الله: «رجلٌ مؤمنٌ على اتصال بالله، موهوب سرّاً من الله؛ يستمد منه القوة الكبرى التي لا تقف لها الحواجز والأبعاد»[1].

• **الخصوصية لا تقتضي الأفضلية:**

ولا يقال: كيف يخلقُ الله سبحانه هذا الخارقَ الكبيرَ المعجز على يد رجلٍ من حاشية سليمان عليه السلام ولا يخلقه على يد سليمان نفسه؟!.

لأننا نقول: الخصوصية لا تقتضي الأفضلية، فالله سبحانه يخص من يشاء بما يشاء ولما يشاء قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ثم إنَّ خلق هذا الأمر المعجز الخارق على يد رجل من حاشية سليمان، أجراه الله وخلقه من أجل سليمان وبطلب منه، فهو وإنْ كانَ كرامةً لهذا الرجل فهو في الحقيقة معجزةٌ للنبيِّ سليمان عليه السلام، ولهذا لما حدثت المعجزةُ ورأى العرش مستقرّاً عنده قال عليه السلام: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ وهذا دليل على أن سليمان عليه السلام عرف أنه هو المقصود بهذه المعجزة الكبرى والنعمة العظمى، فانتفضَ قلبه أمام عظمة

---

(١) انظر: الظلال: ١٩/١٤٨.

المنعم الذي تفضَّل عليه بهذه النعمة، واهتزت مشاعرُه وهو يستشعر أن النعمة على هذا النحو المعجز ابتلاء كبير ومخيف، ويحتاج إلى الإقرار بفضل المنعم وبشكره على ما أنعم حتى يستطيع اجتياز الابتلاء بنجاح.

- **فلما رآه مستقرّاً عنده:**

لقد أثبتَ العلمُ الحديثُ إمكانية تحويل الأجسام المادية إلى قوة وطاقة إشعاعية، وذلك بتفتيت ذراتها، كما أثبت أيضاً إمكانية إعادتها إلى حالتها المادية السابقة، فهل تمَّ نقل عرش بلقيس بهذه الوسيلة؟! وهل تمَّ تحويل العرش بقدرة الله تعالى إلى طاقة إشعاعية بتفتيت ذراته، ونُقل بسرعة الضوء التي تبلغ (١٨٠) ألف ميل في الثانية، ثم أُعيد إلى صورته المادية المحسوسة؟ وهل كلمة (**مستقِرّاً**) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ تشير إلى ذلك؟.

لقد رأى بعض المفسرين القدامى أن كلمة (**مستقِرّاً**) زائدة واجبة الحذفِ عند النحاة يغني عنها كلمة (**عنده**)، ولهذا فسروا معنى كلمة (**مستقِرّاً**) بكلمة: حاصلاً، أو بكلمة: ساكناً غير متحرك[١].

وعلى كلٍّ لا نستطيعُ الجزمَ بالطريقة التي تمَّ بها إحضار عرش ملكة سبأ من اليمن إلى فلسطين في زمن يسير أقل من زمن ارتداد الطرف، ولا يسعنا إلا أن نقولَ: إنَّه أمر معجز خارق للعادة، أجراه الله تبارك وتعالى الذي: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: ٨٢].

وإن ما يتوصل إليه الإنسان من الحقائق العلمية يجعلنا نزداد يقيناً بصدق آيات الله، ومرة أخرى أذكِّر القارئ بقول الله سبحانه في آخر **سورة النمل**: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

- **تنكير العرش:**

وأراد سليمان عليه السلام أن يختبر ذكاء الملكة بعد إحضار عرشها، فأمر بتغيير معالم العرش ليرى مدى فراستها وفطنتها:

---

(١) انظر: حاشية الشهاب على البيضاوي.

﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِيٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾.

ولا شكَّ أنَّ رؤيةَ الملكةِ لعرشها عند سليمان مفاجأةٌ ضخمةٌ لها، لا تخطر على بالها، فعرشُها في قصرها في عاصمة ملكها، وعليه أقفالها وحراسها، فكيف جيء به؟! ومن الذي جاء به؟! ولكنَّه عرشها رغم التغيير والتنكير!.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

وكان جوابُها لمَّا عُرض عليها العرش وسئلت: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِۖ﴾ دليلاً على شدة ذكائها، وسرعة بديهتها، وقوة فراستها؛ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ﴾ ولم تقل: هو، لاحتمال أن يكونَ مثله لا عينه، فأتت بكلمة **(كأن)** التي تدل على غلبة الظن لجواز أن يكون عرشها، مع قيام الشك في أن يكون عرشاً آخر غير عرشها، ثم بينت أنها عرفت صحة نبوة سليمان قبل معجزة إحضار العرش فقالت: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

ولكن الذي صدَّها عن الإسلام وقبولها دعوة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في أول الأمر، عبادتها لغير الله سبحانه، أو كونها نشأت بين قوم كافرين:

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

• **خضوع وانقياد:**

ومعرفة المعجزة والعلمُ بصدق النبيِّ لا يكفي للإيمان، فلا بدَّ مع المعرفة والعلم من الإذعان والخضوع والانقياد لله تبارك وتعالى، والمظهر العلمي للإذعان والخضوع لله سبحانه عبادته وحده، والانقياد لأمره وشرعه، ولهذا أعدَّ سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مفاجأة أخرى للملكة تحملها على الانقياد والخضوع والاستسلام، فأمرَ ببناء قصر من زجاج، وأجرى الماء تحته، بحيث يظهر للرائي كأنَّه لجة، ودعا الملكة إلى هذا القصر:

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾، عندها أعلنت إسلامها وإيمانها واستسلامها المطلق لله سبحانه، وتصديقها بنبوة سليمان عليه السلام، كما أقرت بأنها ظالمة لنفسها بسبب كفرها:

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهكذا كان إسلامها وخضوعها لله رب العالمين لا لسليمان عليه السلام، وقد جعلها إسلامها لله وخضوعها له في صف واحد مع سليمان، فالإسلام يجعل المغلوبين في صف الغالبين حتى يصبح الغالب والمغلوب أخوين في الله، متساويين أمام شرع الله ربِّ العالمين.

آمنت ملكة سبأ، وأسلمت لله سبحانه بعد أن أراها سليمانُ عليه السلام بعضَ ما آتاه الله سبحانه من البينات الواضحات، والدلائل القاطعات، التي تدل على صدق نبوته، وصحة رسالته، فظهرَ بذلك أنها كانت تريدُ الحقَّ وتنقاد له، مع ما كانت عليه من أبهةِ المُلْكِ وقوة السلطان.



الفصل الرابع

الحَقُّ والإنسَانُ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَـٰهَا مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

والانقيادُ للحق والإذعان له بعد معرفته من السمات الطيبة والخصال المحمودة التي لا يتصف بها إلا الصفوة الممتازة من الناس، ولهذا ترى أكثر الناس كافرين كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وذلك لأنهم لا ينقادون للحق، ولا يقبلون به، على الرغم من وضوح دلائله، وظهور معالمه، فمعرفة الحق ليست مشكلة الإنسان، فالحق واضحٌ ظاهرٌ في كل زمان ومكان، ولكن المشكلة الكبرى للإنسان أنه يضعف أمام أهواء نفسه وشهواته، فينقاد لها، ويستسلم لأمرها، ويعرض عن الحق، ويصدُّ عنه:

إما عناداً وتكبراً وتجبراً، كما هو حال ثمود قوم صالح الذين أراهم الله الآية الواضحة المبصرة، فلم ينقادوا للحق، بل ازدادوا عتوّاً وتكبراً، وقتلوا الناقة المعجزة، ثم ائتمروا بنبي الله صالح وحاولوا قتله، ولكن الله ﷻ أبطل مكرهم وأحبط كيدهم وأهلكهم بصيحة واحدة، كما أخبر سبحانه في **سورة النمل** فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

وإما ينصرفون عن الحق بسبب استيلاء الشهوة على قلوبهم، وسيطرتها على نفوسهم، فلا يبصرون إلا مِنْ منظار الشهوة التي أعمت أبصارهم وبصائرهم عن رؤية الحق ومعرفة الحقيقة، فكيف ينقادون للحق وقد سيطرت عليهم شهواتهم، وغلبت على قلوبهم أهواؤهم ونزواتُهم! وإذا ما ذكَّرهم نبيُّهم بالحق، ودعاهم إلى الإذعان له، وقبَّح لهم حالهم، وقال لهم كما كان نبي الله لوط عليه السلام يقول لقومه الذين غلبت على قلوبهم شهواتهم وأهواؤهم:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

فكان جوابهم كما قال الله تعالى:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

• اختلال القيم وانعكاس الموازين:

لقد اختلت القيم عندهم، وانعكست الموازين الأخلاقية لديهم، حتى أصبح الشذوذ عن الفطرة أصلاً عندهم، وقيمة أخلاقية شائعة بينهم، وأصبح المتمسكون بأصل الفطرة أناساً منبوذين ومحتقرين ومطاردين في مثل هذا المجتمع الفاسد، فكانت النتيجة أن أهلكهم الله سبحانه بعد أن نجَّى لوطاً والقلة القليلة المؤمنة:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

• وأمطرت أحجاراً:

ولا تحسبنَّ المطر الذي أهلكهم الله به مطراً معهوداً، بل كان مطراً من حجارة يتناسب مع الحالة الشاذة غير المعهودة، ومع القلوب القاسية المنتكسة إلى درك الشهوات الشاذة، ولقد أخطأ سيد قطب رحمه الله في فهم هذه الآية عندما رأى أنَّ المراد منها هو المطر المعهود، فقد وصف تعالى هذا المطر في عدة مواضع في كتابه الكريم؛ منها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود].

ومنها قوله تعالى أيضاً: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

فالقرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، وحاشا لكلام الله أن يتعارض أو يختلف.

• الصالحون في الناس قليل:

كان قوم صالح وقوم لوط المثال الفاسد للذين لا ينقادون للحق،

ولا يذعنون له، بينما كانت ملكةُ سبأ المثالَ الصالحَ الطيِّبَ للإنسان الذي يقبل بالحق، ويذعن له، عندما يستبينُ له، ويتعرف عليه، ومثال هذا الإنسان كان فرداً واحداً هو هذه المرأة الملكة التي أوتيت من كل شيء من أسباب الملك والسلطان وذات العرش العظيم، بينما جاء مثال الإنسان الذي لا يرضى بالحق ولا يذعن له في أمتين كبيرتين من الأمم التي بلغت الغاية في العناد والفساد.

وبهذا بيَّن الله لنا أنَّ الذين يرضون بالحق وينقادون له في الناس قليل، بل وقليل جدّاً، وهذا هو الواقع المشاهد بين الناس في كل زمان ومكان، وخاصة في العصور المتأخرة القريبة من يوم القيامة عندما تغلب الأمم المفسدة، وصدق رسول الله ﷺ الذي قال: «**يقول الله ﷻ: يا آدمُ، فيقولُ: لبيكَ وسعديكَ والخيرُ في يديكَ، قال: يقولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ. قال: وما بَعْثُ النَّارِ؟ قال: مِنْ كُلِّ ألفٍ تسعُمئةٍ وتسعةٌ وتسعون. قال: فذاكَ حِيْنَ يشيبُ الصغيرُ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حملَها، وترى الناسَ سُكارى، وما هم بسُكارى، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديد...**» [رواه البخاري (٦٥٣٠) ومسلم (٢٢٢)].

وجاء في حديث آخر أنه ﷺ قال: «**ما المسلمون في الكفَّارِ إلا كشعرةٍ بيضاءَ في ثورٍ أسودَ، أو كشعرةٍ سوداءَ في ثورٍ أبيضَ**» [رواه مسلم (٢٢٢)].

وصدق الله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

- **حمد وسلام:**

فالحمد لله سبحانه الذي يهلك المعاندين المستكبرين والمفسدين مع كثرتهم، وسلام على عباده المصطفين الأخيار، الذين ينقادون للحق، ويُذعنون له عندما يبصرون أعلامه، وتشرق عليهم أنواره:

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ ذكر جمهور المفسرين أنَّ

المراد من قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ الرسل والأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام.

وذهبَ بعضُهم إلى أن المراد منهم أصحاب محمد ﷺ، وقد أخرج ابن أبي شيبة والبزار وابن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال: هم أصحابُ محمد ﷺ اصطفاهم الله لنبيه. وقد ذهبتُ إلى هذا الرأي، لأنه يتناسَبُ مع موضوع السورة أكثر من الرأي الأول، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

فأصحاب محمد ﷺ هم الصفوة الممتازة من البشر بعد الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، الذين صدَّقوا برسالة الإسلام، وآمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، ولم يروا عصا موسى التي تتحوَّل بإذن الله إلى ثعبان، ولا ناقة صالح التي كانت أوضحَ برهان، ولا نارَ إبراهيمَ التي جعلها الله سبحانه برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، سمعوا فقط آياتِ التنزيلِ الحكيمِ يتلوها النبيُّ الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فاقشعرت من عظمتها جلودُهم، ثم لانت لها نفوسُهم، وذلت وخضعت قلوبُهم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

أولئك هم الصدِّيقون الذين بادروا إلى التصديق برسالة الإسلام عندما قرعت أسماعَهم وقلوبَهم آياتُ القرآن الكريم والتنزيلُ الحكيم، فاكتفوا بها عن كل معجزة لأنهم رأوها أعظم معجزة وأكبر بينة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فلم يسألوا رسولهم ﷺ معجزةً ثانيةً بعد أن سمعوا القرآن الكريم، كما فعل من كان من قبلهم من أتباع الأنبياء السابقين: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

وكلما أنزل الله سبحانه على رسوله ﷺ آية أو سورة ازدادوا إيماناً مع إيمانهم وتصديقاً مع تصديقهم: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ

إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة].

- **الصِّدِّيق الأول:**

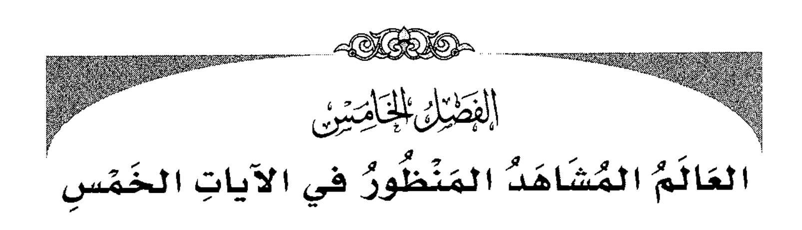
وكان الصدِّيقُ الأول فيهم أبا بكر رضي الله عنه، لأنه كان أسرعهم، وأكثرهم تصديقاً، كما قال رسول الله ﷺ: «**ما لأحد عندنا يدٌ إلا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر، فإنَّ له عندنا يداً يكافيه اللهُ تعالى بها يومُ القيامة. وما نفعني مالُ أحدٍ قط ما نفعني مالُ أبي بكر، وما عرضتُ الإسلامَ على أحدٍ إلا كانتْ له كبْوةٌ إلا أبا بكر، فإنَّه لم يتلعثمْ** (يتردد)**، ولو كنتُ متخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً، ألا وإنَّ صاحبَكم خليلُ اللهِ تعالى**» [رواه الترمذي (٣٦٦٢)].

فالحمد لله سبحانه الذي أنزل القرآن، وسلام على عباده الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، الذين بادروا إلى الإيمان بالقرآن، ورأوا به أعظم برهان، وأكمل بيان، سلام عليهم من السلام الذي شرفهم بالإسلام، ويدخلهم يوم القيامة برحمته وفضله دار السلام، اللهم اجعلنا من التابعين لهم بإحسان.

ختم الله سبحانه آية الثناء على ذاته المقدَّسة والسلام على عباده المصطفين الأخيار بالحديث عن المشركين الأشرار، فقال جلَّ شأنه:

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهامٌ جمعَ الله سبحانه فيه بين التقرير والاستنكار، قرر الله فيه أنه سبحانه وحده المعبود بحق، لأنه سبحانه مبدأ كل خير ومصدره، واستنكر أن يكون له سبحانه شريك، وتهكَّم بحال المشركين لأنهم أشركوا معه سبحانه غيره.





الفَصْلُ الخَامِسُ

العَالَمُ المُشَاهَدُ المَنْظُورُ في الآياتِ الخَمْسِ

• **الآيات الخمس:**

بعد هذا الاستفهام المعجز الذي بلغ الغاية في الإيجاز والإعجاز ذكر الله سبحانه في **سورة النمل** خمس آيات كريمات جاءت متسقة ومتفقة مع ما سبقها من قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهذه الآيات هي:

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

والمتأمل لهذه الآيات يجدها متفقة بطبيعة موضوعاتها، فكلُّها تعرض بعض الأدلة والبراهين الدالة على وحدانية الله سبحانه، وأنه وحده الخالق والمدبر لشؤون الخلق، فلا يستحق العبادة سواه، كما تذكِّر الإنسانَ ببعض المظاهر التي تدل على عظيم قدرته سبحانه وبديع صنعته، وباهر حكمته، وتبيِّنُ في الوقت نفسه فضل الله سبحانه على الإنسان بذكر بعض ما منَّ عليه من جلائل النعم.

كما أنَّ هذه الآيات الخمس تتفق بأسلوب العرض، فقد استعملت كلها أسلوب الاستفهام التقريري المنسجم مع ما سبقها في قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وفي هذا الأسلوب ما فيه من تأكيد للحقيقة وجزم بها، وقد استعملت الآيات كلها أداة استفهام واحدة ﴿أَمَّنْ﴾ كأنها تشير بذلك إلى هدفها الواحد المشترك، وهو تقرير وحدة الخالق سبحانه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ﴿أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

وجاء في الآيات كلها الاستفهام الإنكاري ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟! ليربط الآيات كلها بموضوعها الأساس الواحد، وهو تقرير أنَّ الإلٰه واحد، وليربطها جميعاً مع ما سبقها من قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقد أعطى كل ذلك الآيات الخمس إيقاعاً وجَرْساً خاصّاً في الآذان والقلوب.

- **تقرير وبرهان:**

ويلاحظ المتدبِّر لخواتيم هذه الآيات الخمس أنها ختمت بتراكيب وجمل مختلفة في مبانيها وألفاظها: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

إلا أنها جميعها متفقة مع الموضوع الأساس للآيات، وهو موضوع التوحيد، كما أن هذه النهايات منسجمةٌ فيما بينها انسجاماً رائعاً معجزاً، فكل آية ختمت بخاتمة بحيث تكون تقريراً وبرهاناً لخاتمة الآية التي قبلها، فقد جاء قوله تعالى في خاتمة الآية الأولى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ببيان سبب شرك المشركين الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فإذا ما سأل أحد: لماذا أشرك المشركون؟.

كان **الجواب**: لأنهم قوم يعدلون عن عبادة الله سبحانه إلى عبادة غيره، أو لأنهم يعدلون مع الله سبحانه غيره من المخلوقات، بوصفها بصفة من صفات الله

لا يتصف بها أحد غيره، أو بأن ينسبوا إلى هذه المخلوقات بعض الأفعال التي لا يقدر عليها إلا الله.

ولماذا يعدلون عن عبادة الله أو يعدلون مع الله غيره؟.

الجواب في خاتمة الآية التي بعدها في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ تأمَّل دقة التعبير القرآني ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ لأنَّ بعضَهم قد يضلُّ عن علمٍ، ويكفر جحوداً واستكباراً.

ولماذا لا يعلمون حقائق التوحيد، وأدلته وبراهينه كثيرة وواضحة وقريبة؟!.

الجواب في خاتمة الآية التي بعدها في قوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، فالقوم لم يستعملوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم التي تمكنهم من معرفة وحدانية الخالق سبحانه، ولهذا لم يتذكروا.

• **هاتوا برهانكم:**

إن جهل الإنسان بوحدانية الخالق سبحانه ليس عذراً مقبولاً يوم القيامة يخلِّصه من مسؤوليته أمام ربه وخالقه عن شركه وكفره به، لأنه سبحانه أعطى كل إنسان مكلَّف وسائل التمكين التي تمكنه من معرفة وحدانية خالقه ورازقه، وهي: العقل، والسمع، والبصر، التي كثيراً ما ذُكرت في آيات القرآن الكريم مجتمعة في معرض امتنان الله على الإنسان بها، فتعطيل الإنسان لهذه الوسائل، وعدم تفكيره ونظره فيما حوله من أدلة كثيرة وقريبة تبيِّن له وحدانية خالقه سبحانه، يجعله مسؤولاً يوم القيامة عن شركه وكفره.

إنك تجد عند أكثر المشركين قناعة كاملة بصحة العقائد الفاسدة الضالة التي يؤمنون بها، ولقد تكوَّنت هذه القناعةُ لديهم نتيجة تأثرهم الطويل بالبيئة الفاسدة المحيطة بهم أو بنوعية الثقافات المنحرفة التي تُقَدَّم لهم، وهذه القناعة تقف حاجزاً يحجزهم عن عقيدة التوحيد الحقة، وعن الإسلام والاستسلام لله سبحانه وحده، ولو أنَّهم أعملوا عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، ولو شيئاً قليلاً، لعرفوا فساد ما هم عليه من عقائد متعارضة ومتناقضة فيما بينهم وغير متفقة مع بدهيات العقل ونوازع

الفطرة السليمة التي فطرهم الله سبحانه عليها، فلا عذر لهم بجهلهم الناتج عن قصورهم في استعمال عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، لا عذرَ لهم وقد قصروا استعمالَ مواهبهم وملكاتهم الفكرية على تحقيق مطالبهم الجسدية، فانصرفوا بذلك عن أعظم الحقائق وأهمها التي تتصل بوجودهم ومصيرهم، وصدق الله سبحانه القائل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

قد يُعْذَرُ الإنسان الذي يعيش في بلد كافر بجهله ببعض فروع الشريعة حتى يتعلَّمها، أو تُتاح له فرصة تعلمها بانتقاله إلى بلد مسلم، أما جهله بأصل العقيدة القائمة على توحيد الخالق، فلا يعذر الإنسان به ما دام يملك أهلية التفكير والنظر ومعرفة الحقيقة.

فالخالق واحد أحد، وهو وحده المستحق للعبادة والطاعة والخضوع والإذعان، ويتنزَّه عن كل مظاهر الشرك مهما كان لونها أو شكلها، ولهذا خُتمت الآية الرابعة بقوله جلَّ شأنه: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

وليس ثمة أدنى دليل يسندُ عقائد الشرك والكفر بالله وحده، الأدلة العلمية والبراهين القطعية تشهدُ كلُّها للتوحيد، وهي تتحدَّى المشركين في كل زمان ومكان، وتقول لهم كما جاء في خاتمة الآية الخامسة: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

ونجد هذا الإحكام المعجز والتناسق الباهر أيضاً بين كلمات وجمل الآية الواحدة، فلو تأملنا كل آية على حِدة لوجدنا فيها إحكاماً مدهشاً، واتساقاً كاملاً بين صدرها وذيلها، **ففي الآية الأولى** [٦٠] عرض الله سبحانه بعض الأدلة الدالة على وجوده ووحدانيته، فهو الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء، فأنبت به حدائق ذات بهجة، وعَدَل بقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ من الغيبة إلى التكلم ليؤكد اختصاص الفعل به سبحانه، فلا يقدر عليه غيره، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ فكيف تشركون مع الله إلٰهاً آخر ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؟!.

ومع وضوح هذه الأدلة وقوتها فالقوم يعدلون مع الله غيره، فيعبدون غيره

سبحانه، ويجعلون له شريكاً بوصفه بصفة من صفات الله التي لا يتصف بها أحد غير الله، أو ينسبون له فعلاً من أفعال الله التي لا يقدر عليها غيره سبحانه، لأنه وحده الخالق والمدبر.

• **الأرض والإنسان:**

وبيَّن الله سبحانه في **الآية الثانية** [٦١] بعض الأدلة الأرضية القريبة من الإنسان والتي تتوقف على وجودها حياة الإنسان واستمرارها على الأرض، فهو سبحانه الذي جعل الأرض قراراً ليتمكنَ الإنسانُ من العيش عليها، فجعلها مكاناً صالحاً لاستقرار الإنسان، ولقد سَبَر الإنسان في العصر الحاضر أحوال كثير من الأجرام والنجوم القريبة من الأرض والبعيدة عنها بواسطة المركبات الفضائية والأقمار الصناعية وما اكتشف من آلات حديثة، فعرف نتيجةَ ذلك استحالةَ حياته على غير الأرض، بسبب عدم توفر أدنى أسباب الحياة الإنسانية في هذه النجوم والأجرام، فبعضُها لا يزال كتلةً ناريةً ملتهبة، وبعضها الآخر يسير في فضاء لا هواء فيه ولا ماء، وبعضها تغلِّفه وتحيط به أطواق الجليد وجبال البَرَد، وبعضها لا يزال رتقاً لا تمطر سماؤه، ولا تنبت أرضه.

وهذه المعرفة جعلت الإنسان يتمسَّك بجرم الأرض أكثر من ذي قبل، ويدرك شدة حاجته إليها، واستحالة عيشه على غيرها، وظهر بذلك عمق معنى قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

كما ظهرت حكمة تكرار هذا المعنى في آيات كثيرة في معرض بيان فضل الله على الإنسان كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقوله أيضاً: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

مرة أخرى أذكِّر القارئ الكريم بقوله تعالى آخر سورة النمل: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

• **حاجز بين البحرين:**

كما بيَّن الله تعالى في هذه الآية [٦١] أنه جعل في الأرض الأنهار الموزعة في جنباتها ونواحيها، وهي تحمل للإنسان ما تحمل من أسباب الخير والخصب والحياة.

وأشارت الآية بعد ذلك إلى ما للجبال الرواسي من دور كبير في توازن الأرض، واستقرارها بجانب الأنهار الجارية المتفجرة من سفوحها.

ثم ذكرت الآية أنَّ الله تبارك وتعالى جعل في الأرض بحرين من الماء، وأنه سبحانه بقدرته وحكمته جعل بين هذين البحرين حاجزاً: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾.

والبحران هما: الماء العذب، والماء الملح، لأنه سبحانه قال في **سورة فاطر**: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وقال سبحانه أيضاً: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

فما أعظم قدرة الله سبحانه الذي فصل بين الماء العذب في الأنهار، وبين الماء المالح في البحار! ـ مع أنهما يختلطان ويمتزجان ـ إذ من المعروف أنَّ معظم الأنهار تصبُّ في البحار، ومع ذلك يبقى ماء الأنهار عذباً فراتاً سائغاً شرابه، ويبقى ماء البحار ملحاً أجاجاً، فلا يطغى ماء الأنهار العذب على ماء البحار الملح، ولا يؤثر أيضاً على نسبة ملوحته مع أنه يختلط به، وكذلك لا تطغى مياه البحار المالحة على المياه العذبة، ولا تؤثر في عذوبتها.

وقد أصبح من الثابت علميّاً أن استمرار الحياة على الأرض متوقف على بقاء واستمرار وجود هذا الحاجز الذي أقامه الله سبحانه بين البحرين، فلو فقدت مياه البحر ملوحتها، أو فقدت المياه العذبة عذوبتها، لاختل نظام الحياة

على وجه الأرض، وتعذرت الحياة عليها، فثمة توازن دقيق أقامته القدرة الإلٰهية في الأرض بين المياه العذبة والمياه المالحة، وجعلته المشيئة الإلٰهية والحكمة الربانية سبباً من أسباب استمرار الحياة على الأرض وضرورة من ضرورات العيش عليها، وإن أخشى ما يخشاه أنصار المحافظة على البيئة من أخطار التلوث أن يؤدي التلوث الناتج عن سوء استعمال الإنسان المعاصر لما استحدثه من وسائل حديثة إلى اختلال التوازن الدقيق الذي جعله الله سبحانه في الأرض.

إن الإنسان لا يرى الحاجز الذي أقامته القدرة الإلٰهية بين البحرين، ولكنه يحس بوجوده، ويستشعر آثاره في كل قطرة ماء عذبة ومالحة، فما أعظم نعم الله سبحانه على الإنسان؟! وإن هذا البرزخ من أكبر الأدلة الدالة على عظمة الله وكمال قدرته وعلمه وحكمته، كما أنه من أكبر الأدلة الدالة على وحدانيته سبحانه، فلا عجبَ أن يذكره الله سبحانه في عدة مواضع من التنزيل الحكيم تنويهاً بفضله العظيم على الإنسان، ودليلاً من أدلة وجوده سبحانه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن].

• **التفكر والتذكر:**

وبعد أن ختم الله تعالى الآية الثانية [٦١] بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بيَّن في **الآية الثالثة** [٦٢] سببَ جهلهم بسبب قلة تذكرهم، والتذكر لا يكونُ إلا بالتفكر، فالقومُ لا يتذكرون، لأنهم أعرضوا عن كل شيء يذكرهم بالله سبحانه، فلا يذكرونه إلا إذا استشعروا ضعفهم، واضطرهم البلاء والضعف والافتقار إلى اللجوء إليه سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

فعندما يستشعر الإنسان الصحة والقوة والغنى يبتعد عن الله، وينسى فضله عليه، ولا يذكره إلا عندما يشعر بضعفه وفقره إليه سبحانه.

وقد واجهنا الله تعالى بهذه الحقيقة في أكثر من موضع في القرآن الكريم، وضرب الأمثلة العلمية لتقريب هذه الحقيقة إلينا، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس].

- **أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر:**

وذكَّر الله الإنسان في الآية الرابعة [٦٣] ببعض حالات البلاء والضعف التي تضطره إلى اللجوء إلى الله سبحانه، كأنْ يتعرض إلى خطر الضياع في أعماق البحر أو البر، أو يتعرض لخطر الجدب والجوع في حال انقطاع الأمطار: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾.

وفي هذه الحالات ينسى كثيرٌ من الناس فضلَ الله عليهم في هدايتهم إلى أسبابَ السلامة والنجاة عندما يضلُّون في أعماق البر والبحر، فينسبون الهدايةَ إلى غيره ﷻ من مخلوقاته التي خلقها، وينسون فضل الخالق، فبعضهم يرد فضل الهداية إلى النجوم، وبعضُهم يردها إلى الآلات المستحدثة، وكل ذلك من مظاهر الشرك بالله سبحانه، الذي خلق النجوم ليهتدي بها الإنسان في البر والبحر، والذي أبدعَ النواميس والقوانين التي تمكن الإنسان بواسطتها من صنع أسباب وآلات الهداية المختلفة، فالفضل لله سبحانه أولاً وآخراً، كما أنَّ بعضَهم ينسى فضل الله عليه بإنزال المطر، فينسب إنزاله إلى الأنواء، وتغير اتجاه الرياح، مع أنه سبحانه هو الذي يصرِّف الرياحَ، ويخلقُ الأنواء، فلا تنزل قطرة ماء إلا بمشيئته وقدرته، ولهذا ختم الله تبارك وتعالى هذه الآية بقوله: ﴿أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

وجاء في الحديث القدسي الذي رواه **زيد بن خالد الجهني** قال: صلَّى بنا رسولُ اللهِ صلاةَ الصبحِ بالحديبيةِ في إثر السماء (المطر) كانتْ من الليل، فلمَّا انصرفَ أقبلَ على الناسِ فقال: «**هل تدرونَ ماذا قالَ ربُّكم؟**» قالوا: اللهُ ورسولُه

أعلمُ، قالَ: «قال: **أصبحَ من عبادي مؤمنٌ بي وكافِرٌ، فأما مَنْ قال: مُطِرنا بفضلِ اللهِ ورحمتِهِ فذلكَ مؤمنٌ بي، كافِرٌ بالكوكبِ، وأمَّا مَنْ قال: مُطِرْنا بنوْءِ كذا وكذا، فذلك كافِرٌ بي مؤمنٌ بالكوكبِ**» [رواه البخاري (٨٤٦) ومسلم (٧١)].

وفي الآية الخامسة [٦٤] يتحدَّى الله تبارك وتعالى المشركين فيطالبهم بدليل واحد يدل على صدقهم في كفرهم وشركهم، بعد أن يذكرهم بأنه سبحانه قادر على بدء الخلق وإعادته مرة ثانية بعد الموت، وأنه سبحانه وحده الذي يرزقهم من السماء والأرض: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

- **تنبيه:**

وأختم الحديثَ عن هذه الآيات الخمس بتنبيه القارئ الكريم **إلى دِقَّة** كلماتِ الآياتِ، وشدة تلاؤمها وانسجامها مع معانيها.

فقد خصَّص الله تبارك وتعالى **الآية الأولى والثانية** للحديث عن خلق الكون وتهيئته لحياة الإنسان، وقد تمَّ الخلق، واكتمل الإعداد، فجاء التعبير عن هذا المعنى في الآيتين بصيغة الفعل الماضي: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾، ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾، ﴿جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

بينما جاءت **الآيات الثلاث الأخيرة** لتتحدَّث عن فضل الله سبحانه المستمر على الإنسان بإمداده بأسباب استمرار حياته، ووجوده على الأرض، والإمداد كان ولا يزال، ولمَّا ينقطع بعدُ أو يتوقف، فانقطاعه أو توقفه يؤدي إلى انقطاع وتوقف حياة الإنسان على الأرض، فجاء الحديثُ عن هذا المعنى المتجدِّد والمستمر بصيغة توافقُ حال التجدد والاستمرار، وهي صيغة الفعل المضارع: ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾، ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾، ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

وبدء الخلق وإعادته كان ولا يزال متجدداً ومستمرّاً في بنية الإنسان الجسدية، وفي عالم النبات المحيط بالإنسان في كل مكان.

❁ ❁ ❁

الفصل السادس

عَالَمُ الغَيْبِ المَسْتُور

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَاءَ

بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾

إن ابتداء الخلق دليلٌ على القدرة على إعادته، وفي الآية الكريمة: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ تمهيدٌ للانتقال بآيات السورة من الحديث عن العالم المشاهد المنظور إلى الحديث عن العالم المغيَّب المستور، عالم الحياة الثانية يوم القيامة وإعادة الخلق بعد الموت، وهو ما استأثر الله سبحانه بعلمه مما يدل على كمال علمه سبحانه:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

إنَّ بعث الناس من قبورهم بعد موتهم، وإعادة الحياة إليهم يوم القيامة للحساب والجزاء أعظمُ قضايا عالم الغيب المستور، وأشدُّها ارتباطاً بحياة الإنسان في عالم الشهادة المنظور.

- **تناقض وتعارض:**

وبعد أن تقرر الآيات الكريمات اختصاصَ الله سبحانه بعلم الغيب، وأنه سبحانه وحده الذي يعلم وقت البعث والنشور: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥] تبيِّنُ التعارض والتناقض في موقف الكافرين بيوم القيامة، فهم يكثرون السؤال عنها، ويلحُّون لمعرفة وقتها، وفي الوقت نفسه يشكُّون في حقيقتها وينشغلون عن الاستعداد لها:

﴿بَلِ ادَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْأَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

وأصل كلمة ﴿ادَّٰرَكَ﴾ تدارك، أدغمت التاء في الدال، وجيء بهمزة الوصل ليمكن الابتداء بالساكن، ومعنى **تدارك**: تتابع وتلاحق.

ومع تتابع علمهم وتلاحقه بسبب كثرة سؤالهم عن وقت قيام الساعة فقد

ضلَّ علمهم وغاب في الآخرة، فليس لهم فيها علم، لأن معرفة وقت قيام الساعة مما استأثر الله سبحانه به، ولهذا صُدِّرت الآية بحرف الإضراب (**بل**) ثم صُدِّرت به الجملة الثانية في الآية ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ لتبين تناقضهم وتعارضهم، فهم لا يؤمنون بيوم القيامة، ويشكون في وقوعها، فلماذا يسألون عن وقتها؟! ثم جاءت بحرف الإضراب مرة ثالثة ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ **وعمون**: جمع عَمٍ، وهو مَنْ كان أعمى القلب، والمراد بيان جهلهم بيوم القيامة على وجه لا يهتدون إلى شيء من دلائلها، لانصرافهم التام إلى الاستغراق في شؤون الدنيا، وتحقيق شهواتهم وأهوائهم فيها، كما مر معنا في قوله ﷻ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

وقوله سبحانه أيضاً: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة].

- **مكابرة وعناد:**

وقد عانَى رسول الله ﷺ معاناة شديدة وكبيرة من أجل تقرير قضية البعث والجزاء وتقريبها إلى قلوب الناس وأفكارهم، ليصدِّقوا بها، ويؤمنوا بحتمية حدوثها ووقوعها، فعندما كان ﷺ يحدِّثُ المشركين عن يوم القيامة، وما سيكون فيه، ويدعوهم إلى الإيمان به، والإذعان بحقائقه، كان المشركون يزدادون غلظة إلى غلظتهم، وخشونة إلى خشونتهم، فيغلِظون للنبي ﷺ القول، ويردون عليه بعناد ومكابرة وخشونة وجفوة، وقد تبلَّدت أحاسيسهم الفكرية، وتسعَّرت أحقادهم النفسية:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

ويطالبون النبي ﷺ أن يأتيهم بهذا الذي يعدهم به:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

وهم غافلون عن فضل الله عليهم بتأخير العقاب عنهم لعل رحمة الله أن تدركهم فتلين قلوبهم وتنقاد وتذعن لله رب العالمين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

- **تثبت ومواساة:**

وعندما تتحدث الآيات الكريمات عن موضوعات يوم القيامة، وتصور عناد المشركين ومكابرتهم، تلتفت الآيات التفاتات رائعة لطيفة ورقيقة بأسلوب معجز مدهش إلى النبي ﷺ، تثبِّته في وجه عنادهم ومكابرتهم، وتواسيه بسبب ما يلقى منهم:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

ثم قال تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

لقد صُمَّت آذانهم عن سماع الحق، وعميت بصائرهم عن إدراك الحقيقة، حتى كان شأنهم شأن الموتى، فكيف يسمعون كلام النبيِّ ﷺ سماعَ إجابةٍ، وإن ذلك يظهِرُ فضل الذين استجابوا لدعوة رسول الله ﷺ وآمنوا بآيات الله تبارك وتعالى، وانقادوا لدينه وشرعه، فهم بهذا مسلمون، وهم الذين تفضَّل الله عليهم بالسلام، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

وإنَّ القارئ الكريم للآيات التي تثبِّت النبي ﷺ وتواسيه لا يستشعر عند قراءتها أي تغير في الموضوع، ولا يفطن إلى أي استطراد وخروج عنه، بل إنه على العكس يستشعر عند قراءته لهذه الآيات الكريمات المخصوصات بخطاب النبي ﷺ أنها جزء من الموضوع، وضرورة من ضروراته، وكل ذلك بسبب الأسلوب المعجز المدهش الذي تفرَّد به كلام الله تبارك وتعالى.

• **أشراط يوم القيامة:**

إنَّ وقت قيام الساعة مما استأثر الله بعلمه، فلم يُطْلع عليه مَلكاً مقرَّباً ولا نبيّاً مرسلاً، فهو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه، والذي ذكره الله في آية **سورة النمل** التي سبق ذكرها ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

فقد انتهى علم وقت الساعة إلى الله وحده: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات].

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب].

لكنَّه سبحانه جعل ليوم القيامة ووقت الساعة أشراطاً وعلامات تتقدم عليها كما قال عزّ شأنه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن كثير من علامات الساعة وأشراطها، ووقعت أكثرُ علاماتها الصغرى تماماً كما أخبر ﷺ، إلا أنَّ علاماتها الكبرى التي تكون بين يدي الساعة وقريباً منها لم يقع شيء منها بعد.

وقد جاء ذكر بعض علامات الساعة الكبرى في القرآن الكريم، تارةً تصريحاً، وتارةً أخرى إشارة وتلميحاً، وفي سورة النمل جاء ذكر إحدى

علامات الساعة تصريحاً؛ وذلك في سياق الآيات التي تتحدث عن عالم الغيب المستور، قال تعالى:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

• **إغلاق باب التوبة:**

إنّ علامات الساعة الكبرى أحداثٌ كبيرة وعظيمةٌ وخارقةٌ لعادات الناس ونواميس الكون في الحياة الدنيا، لأنها تأتي مقدِّمةً لأعظم الأحداث الكونية وأشدها هولاً، ألا وهو قيامُ الساعةِ، فعندما تقوم الساعةُ تتغيَّر النظم والنواميس الكونية كلها، الأرضية والسماوية، فالسماواتُ تتشقق وتطوى، والنجوم تنكدر، وتزول عن مواقعها، والأرض تتغير معالمها، فتُنسف جبالها، وتمتلئ وديانها ووهادها، والشمس تُكوَّر أشعتها، ويزول ضوءها، ومبدأ هذا التغيير الكلي لجميع النظم الكونية يكون في حدوث علامات الساعة الكبرى، إنَّ هذه العلامات تغيير جزئي في النظم والنواميس الكونية، يؤذن بقرب حدوث التغيير الكلي للنظم والنواميس الكونية.

وعندما يقع الخلل في النظم والنواميس الكونية، ويحدث التغيير الجزئي، وتقع العلامات الكبرى ليوم القيامة، ينكشف الغيب المستور لجميع الناس، فيسارع الكفار والمشركون إلى التصديق والإذعان والإيمان، ولكنَّ إيمانهم هذا جاء متأخِّراً عن وقته، فلا يقبله الله سبحانه، لأنه سبحانه قدر بحكمته ومشيئته أن يغلقَ باب التوبة والإيمان عندما يبدأ الغيب المستور في الانكشاف والظهور، لأن إيمان الناس في ذلك الوقت سيُبنى على الأمور المكشوفة المشاهدة، وهو غيرُ مقبولٍ عند الله، لأنه يشبه إيمان الجاحدين والمكابرين يوم القيامة عندما يعرضون على النار: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام].

وقد جاء التصريح بعدم قبول إيمان من يؤمن بهذا الوقت في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وما ذكر في أول الآية سيكون يوم القيامة، وما ذكر بعد ذلك سيكون من علامات القيامة الكبرى وبين يديها، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسير هذه الآية: «يقول تعالى متوعِّداً للكافرين والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادين عن سبيله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وذلك كائن يوم القيامة، ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وذلك كائن قبل يوم القيامة من أمارات الساعة وأشراطها، حين يرون شيئاً من أشراط الساعة، كما قال البخاري [٤٦٣٥] في تفسير الآية: **عن أبي هريرة** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللهِ ﷺ: «**لا تقومُ الساعةُ حتَّى تطلعَ الشمسُ منْ مغربِها، فإذا طلعتْ؛ ورآها الناسُ آمنوا أجمعون، وذلك حينَ لا ينفعُ نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ**» ثم قرأ هذه الآية».

وجاء في الحديث الشريف أيضاً: عن **أبي موسى الأشعري** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَه بالليلِ ليتوبَ مُسِيْءُ النهارِ، ويبسُطُ يدَهُ بالنهارِ ليتوبَ مُسِيْءُ الليلِ، حتَّى تطلُعَ الشمسُ من مغربِها**» [رواه مسلم (٢٧٥٩)].

● **دابة الأرض:**

إن خروج الشمس من مغربها آيةٌ كبرى من آيات الله سبحانه تدل على عظيم قدرته، كما تدل على أنَّ هذه النواميس والقوانين الكونية ليست أمراً لازماً ومحتماً، فالله سبحانه الذي جعلها في هذا الكون قادر على إبطالها ومخالفتها، وتدلُّ هذه الآية أيضاً على صحة رسالة النبي ﷺ وصدقه في كل ما أخبر عنه، وهي آيةٌ صامتةٌ تأتي بعدها في اليوم نفسه ـ والناس لمَّا يفيقوا بعدُ من دهشتهم وحيرتهم وخوفهم، وهم يشاهدون أمراً جسيماً عظيماً ـ الآية الناطقة، تلك هي دابة الأرض التي تكلِّمُ الناس بأفصح لسان، وأكمل بيان، لتكشفَ لهم ما يخفونه في قرارةِ نفوسهم، وخبيئة ضمائرهم وصدورهم، فتجلو وجهَ المؤمن وتقول له: أنتَ مؤمنٌ، وتطبعُ على وجهِ الكافرِ بخاتمِ الكفرِ وتقول له: أنتَ كافرٌ، حتى إن الناس ينادي بعضهم بعضاً بصفة الإيمان وبصفة الكفر، وهي الدابة التي أخبر الله سبحانه عنها في آية سورة النمل التي ذكرتها سابقاً: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

والمراد من قوله: ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ وجب القول، والقول: الكلام المقول، أطلق المصدر على المفعول، وهو ما نطق به القرآن الكريم من أمر يوم القيامة وما فيها، وجواب الشرط ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

وقد أخبر النبي ﷺ عن دابة الأرض في عَدَّةِ أحاديث:

منها ما أخرجه مسلم في «صحيحه» [٢٩٤١]: عن **عبد الله بن عمرو** رضي الله عنهما قال: حفظتُ مِنْ رسولِ الله ﷺ حديثاً لم أنسَهُ بعدُ، سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**إنَّ أولَ الآياتِ خروجاً طلوعُ الشمسِ من مغربها، وخروجُ الدابَّةِ على الناسِ ضحًى، أيُّهما كانتْ قبلَ صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً**».

ولعلَّ مرادَ النبي ﷺ أن أول الآيات الكبرى التي يبدأ بها التغير والخلل في النظم والنواميس الكونية هي خروج الشمس من مغربها، ودابة الأرض، ولا شك أنهما من الآيات العظمى، وسيراهما الناس ويعرفونهما، كما قال جلَّ وعلا في آخر آيات سورة النمل: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تخرجُ دابةُ الأرضِ، ومعها عصا موسى، وخاتم سليمانَ، فتجلو وَجْهَ المؤمنِ بالخاتم، وتخطمُ أنفَ الكافرِ بالعصا، حتى يجتمعَ الناسُ على الخوانِ ويُعْرَفُ المؤمنُ من الكافرِ**» [رواه الترمذي (٣١٨٧) وابن ماجه (٤٠٦٦) وغيرهما].

وعن **حذيفة بن أسيد الغفاري** قال: اطَّلعَ النبيُّ ﷺ علينا ونحنُ نتذاكرُ، فقال: «**ما تذاكرون؟**» قالوا: نتذاكرُ الساعةَ، قال: «**إنَّها لَنْ تقومَ حتى تكونَ قبلَها عشرُ آياتٍ، فذكر: الدخانَ، والدجالَ، والدابةَ، وطلوعَ الشمس من مغربِها، ونزولَ عيسى ابن مريم، ويأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةَ خسوفٍ: خسف بالمشرق، وخسف بالمَغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخرُ ذلك نارٌ تخرجُ من اليمنِ، تطردُ الناسَ إلى محشرهم**» [رواه مسلم (٢٩٠١)].

والجدير بالذكر هنا أنَّ بعض الكُتَّاب المعاصرين ذهبوا إلى تأويل كلمة (دابة) الواردة في هذه النصوص، وصرفوها عن معناها الحقيقي إلى معان بعيدة غير مرادة ولا محتملة، فقالوا: المقصود بالدابة هذه بعض المخترعات التي

توصَّل إليها الإنسان حديثاً كالصواريخ والأقمار الصناعية أو أجهزة التسجيل الصوتية وأجهزة الرائي والتصوير!.

وقد سبق لسيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله أنْ ردَّ مثل هذه التأويلات، فكتب ردّاً على أصحابها فقال: «أمّا أنَّ الدابةَ التي ذكر القرآن خروجها قرب قيام الساعة هي هذه الصواريخ والأقمار، فأمرٌ لا يسلَّمُ لقائله، ذلك أن الحقيقة الشرعية لا تُترك إلى المجاز إلا لصارف يقيني قطعي، يضطر الناظر فيها إلى التأويل، وما لم يوجد هذا الصارف فالحقيقة هي المعتمدةُ، وهي المأخوذُ بها في الفهم، ولا يصحُّ العدولُ عنها، و إلا لبطلت المعاني الشرعية الحقيقية بالمجازات، وهذا معناه إلغاء النصوص بالجملة.

والدابةُ في لغة العرب: هي الحيوانُ الذي يدبُّ على قوائمه، وهذا الاصطلاح العرفي الحقيقي، تضمحل أمامه التأويلات الأخرى، ويستحيل أن تفوتَ النبيَّ وأصحابه وتابعيهم عليه وعليهم الصلاة والسلام ما ليست حقيقة من الفهم، أو أن يفهموا الآيات خطأً، أو أن يتصوروا منها غلطاً»[1].

• مشاهد من يوم القيامة:

وعرضت آياتُ سورة النمل في ختام السورة بعض مشاهد يوم القيامة، ففيه يجمع الله سبحانه المكذبين بآياته أفواجاً، ويساقون إلى الحساب، ليواجهوا جريمتهم الكبرى، وهي مسارعتهم إلى تكذيب آيات الله سبحانه قبل أن يتأملوا فيها، ويتدبروا معانيها، ويحيطوا بها علماً، ليروا ما فيها من دلائل قدرة الله وعظمته:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

وكيف ينطقون وقد قامت حجة الله البالغة عليهم، فقد جحدوا كل آياته وأدلة وحدانيته وقدرته؟!.

---

(١) ردود على أباطيل، للشيخ محمد الحامد رحمه الله، ص١٤٥.

ولعلَّ من أكثر هذه الآيات وضوحاً ومن أعظمها دلالة آية الليل والنهار، وما فيها من نظام محكمٍ ظاهرٍ يستطيع كل إنسان بأدنى نظر وأقل تفكير وتأمل أن يستدلَّ به على وحدانية الخالق سبحانه:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

ويوم القيامة هو يوم الفزع الأكبر، وخاصة عندما ينفخ في الصور، وتسيرُ الجبال، وتُزالُ عن مواقعها، حتى إنَّ الناظرَ إليها يحسبها لصلابتها وضخامتها ثابتة جامدة، وهي في الحقيقة تسيرُ سيرَ السحاب في جو السماء:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ولا يستشعر الأمنَ من الفزع الأكبر في هذا اليوم إلا مَنْ كان مؤمناً صالحاً، عاملاً بالطاعات مجتنباً المعاصي والسيئات:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

ذلك هو ميزان الفضل الإلـٰهي الذي قال الله عنه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وأما ميزان العدل الإلـٰهي فهو للمشركين والكافرين:

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

وهو الذي قال الله ﷻ عنه أيضاً: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

❁ ❁ ❁



الخاتمة

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

وعندما يصل الحديثُ إلى ميزان الفضل والعدل الإلٰهي تتجه الآيات الكريمة لتتكلّم على لسان رسول الله ﷺ كأنه عليه الصلاة والسلام أُمِرَ أن يقول لهم ذلك بعدما بيَّن المبدأ والمعاد وشرح أحوال يوم القيامة، إشعاراً بأنه عليه الصلاة والسلام قد أتمَّ الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وما عليه بعد ذلك إلا أن يستغرق في عبادة ربه:

﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

وما دام رسول الله ﷺ أمر بعبادة الله تبارك وتعالى الذي حرَّم مكة وشرَّفها وعظَّمها، والذي له كل شيء خلقاً وملكاً وتدبيراً، فغيرُ النبيِّ ﷺ أولى أن يكون مأموراً بهذا، فكل المكلفين مخاطبون بما أُمِرَ به رسول الله ﷺ، وكلهم مأمورون بعبادة الله، والمواظبة على تلاوة القرآن الكريم، مع تدبر آياته، وتأمل معانيه، حتى تنكشفَ لهم حقائقه، وتظهر لهم أدلة صدق رسول الله ﷺ، فالتكليفُ بعبادة الله تبارك وتعالى والإذعان لدينه وشرعه لا يسقط عن أحد من

الناس، فهم مكلفون بعبادة الله وطاعته حتى ينزل بهم الموت، ومخاطبون بما خوطب به ﷺ.

والقول بسقوط التكليف عن بعض الناس لعلوِّ مكانتهم وسمو منزلتهم زندقة وكفر.

والقرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، منذ أن بدأ نزوله على النبي ﷺ في البلد الحرام، وسيبقى أيضاً معجزة خالدة لدين الإسلام على الدوام، يؤيد صدقه، ويحفظ أصوله، يهدي إليه الحائرين، ويستضيء بنوره السائرون على درب أكرم النبيين وخاتم المرسلين عليه أفضلُ الصلاة وأتم التسليم.

فلا عجبَ أن يكون التركيز في ختام سورة النمل على تلاوة القرآن الكريم ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩٢] لأنها سورة المعجزة والإعجاز.

ولا عجبَ أن يكونَ النبيُّ ﷺ أول المخاطبين المكلفين بتلاوة القرآن الكريم، مع أنَّ قلبه الشريف كان أول مصحف للقرآن الكريم في الأرض ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء].

ومن فمه الشريف ﷺ سمعَ الناسُ القرآن الكريم، وتلقوا رسالة رب العالمين، ومع كل هذا أُمر ﷺ بتلاوة القرآن الكريم، لأنَّه المعجزة الكبرى التي أيده الله سبحانه بها.

اقرأ يا أخي المسلم القرآن الكريم، وتدبر آياته، فهو معجزة لنبيك ﷺ كبرى، وكرامة لك عظمى، أكرمك الله سبحانه بها، اتل القرآن الكريم دائماً لتفوز بالكرامة في يوم القيامة.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وأصحابه، وعباده المصطفين الأخيار وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله أولاً وآخراً.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة القصص

عَاقِبَةُ الطُّغْيَانِ وَالفَسَادِ فِي سُورَةِ القَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَمْهِيد

مَوْضُوعُ السُّورَةِ

أبرزتْ سورةُ القَصَص من خلال القصتين اللتين عرضتهما ـ قصة موسى وفرعون، وقصة قارون ـ ضرورةَ الرسالاتِ الإلٰهية لتصحيح المسيرة البشرية، كلَّما انحرفت عن الحق، وتسلَّط عليها الطغاة والمستبدون.

فالله سبحانه برحمته وحكمته، لا يتركُ المجتمعاتِ البشرية، رازحةً تحت وطأة وتسلُّط الظالمين، إنَّه تعالى يُمْلي لهم، ثم ينزل بهم عقابه، وأليم عذابه، ذلك هو الموضوع الأساس لسورة القصص، المقرَّر في صدر السورة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾.

وفي قوله الكريم في آخر السورة: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

وقوله تعالى بعد ذلك في الآية الكريمة التي أنزلها على النبي ﷺ وهو في

طريق الهجرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾ [القصص].

لقد انحرفت المجتمعات البشرية المعاصرة انحرافاً كبيراً عن الحقِّ، وتسلَّط على كثير منها الطغاةُ المستبدون، وتحكَّم بخيراتها وأرزاقها حفنةٌ قليلةٌ من أصحاب الثروات الكبيرة الجشعين، من أمثال فرعون وقارون، وآن لها أن تصحِّحَ مسيرتها، وترجع إلى شريعة ربها، شريعة العدل والرحمة والسلام والإسلام، آن لها أن تتدبَّر آياتِ سورة القصص، وتأخذ بما فيها من دُروس وعِبَر، لتقودها بإذن الله إلى بَرِّ الأمان وساحل السلام، وتخلِّصها من آلامها وعنائها.

اللَّهمَّ هَيِّئ للمستضعفين من عبادك من أمرهم رشداً، ومَكِّن لهم دينهم الذي ارتضيته لهم، اللهم آمين.

وصلِّ اللهم وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان.



الفصل الأول

قِصَّةُ مُوسَى عليه السلام مَعَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ

ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا

ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

- **منة الله الكبرى على المستضعفين:**

بدأ سبحانه سورة القصص كما بدأ سورة الشعراء، بقوله:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾.

وهو ثناء على آيات القرآن الكريم الظاهر إعجازه، أتبعه تعالى بمخاطبة النبي الكريم ﷺ:

﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾.

أي: نقرأ عليك في هذه السورة خبراً حقيقيّاً واقعيّاً، عن قصة موسى وفرعون، يعتبر به المؤمنون وينتفعون.

وقد ذكر تعالى في سورة القصص أحداثاً ووقائعَ من قصةِ موسى وفرعون، لم تُذْكَرْ في غيرها من السور:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصر التي كانت تحت سلطانه.

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فرقاً، يفرّق بينهم في المعاملة، يُكرم بعضهم، ويظلم الآخرين.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ وهذه الطائفة هم بنو إسرائيل، يعمل على إضعافهم وإذلالهم وقهرهم، بتذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: العريقين في الإفساد وظلم العباد، الراسخين فيه.

ولكنَّ الله تعالى رحيمٌ بعباده، قدَّر بسابق علمه ومشيئته ألا يستمرَّ طغيانُ الجبابرة المستبدين وفسادهم، فلا بدَّ أن يقصمهم، ويخلِّص الناس من طغيانهم وظلمهم.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ونريد أن نتفضَّل بمنتنا الكبرى على الشعوب الضعيفة المظلومة، فنخلِّصهم من ظلم الظالمين، واستبداد المستبدين. فهذا من نعمه تعالى الكبرى.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي: ونجعلهم ملوكاً وحكَّاماً، بعد أن كانوا محكومين مقهورين.

فالأيامُ دُوَلٌ بين الناس، والمسيرة البشرية لا تستمرُّ على طريقة واحدة، والله تعالى هو مالك الملك، يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

والأيام دُوَلٌ، يوم لك ويوم عليك، كما قال سبحانه: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ

مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ورحم الله أبا الفتح البُستي القائل:

هِيَ الأيامُ كما شاهدتُها دُولٌ مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتْهُ أَزْمَانُ

﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي: ونجعلهم الوارثين لسلطان فرعون وملكه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ونجعل لهم القوة والغلبة في الأرض التي كان يحكمها الطاغية المستبد.

﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ أي: ونري فرعون ووزيره الأول هامان، وجنودهما، من المظلومين المقهورين.

﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ ما كانوا يخافون حدوثه، ويجتهدون في دفعه، من أن هلاكهم وانتهاء سلطانهم سيكون على يد مولودٍ من بني إسرائيل.

فلا ينفع حَذَرٌ من قَدَرٍ، وإرادته تعالى هي النافذة الغالبة، وما نفعهم مكرهم وكيدهم، وتذبيحهم أطفال بني إسرائيل، فهو تعالى الفعَّال لما يريد، فقدر أن يبعث رسولاً يصحِّح ببعثته مسيرة البشرية، ويخلِّصها من الظلم والفساد، ويأخذ بيدها إلى طريق العدل والرشاد.

إن بعثة الأنبياء والمرسلين أمرٌ ضروري للبشرية، ومن دونها تضل وتتيه في بيداء الظلم والقهر والاستبداد.

ودلت الآيةُ على تحريم مساعدة الظالمين، والدخول عليهم، والميل إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

وفي الحديث الشريف: أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «**إنَّه سيكونُ بعدي أمراءُ، فمَنْ دخلَ عليهم فصدَّقَهُم بِكَذِبِهم، وأعانَهُم على ظُلْمِهِم، فليسَ مني ولستُ منه، وليسَ بواردٍ عليَّ الحوضَ**» [رواه الترمذي (٢٢٥٩) وقال: غريب صحيح].

والظلم لا يُرفع بمثله، إنما يُرفع بالعدل والحق، ولا حق ولا عدل إلا في شريعته تعالى.

• **صندوق في اليم:**

وقدَّر الله تعالى لأحداث هذه الحياة أسباباً، وجعلها مرتبطةً بنظم ونواميس تعلّقت بها إرادته، وسبق بها علمه، يدبر بها أمر مخلوقاته، مع قدرته تعالى على خلق المسببات من غير أسباب، كما تقدم في موضوع **سورة الرعد**(١).

وجعل سبحانه في دعوة الأنبياء والمرسلين ﷺ الأسباب المؤدية إلى زلزلة عروش المستبدين، وإزاحة سلطانهم عن صدور المستضعفين والمضطهدين، ولهذا قال تعالى بعد أن أعلن عن إرادته في إهلاك فرعون وجنوده:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ﴾ هكذا بدأ تعالى القصة من أولها، فبين لنا كيف تجري الأسباب بمشيئته، وتتتابع الأحداث بقدرته، حتى يتمَّ مرادهُ **جل وعلا**، وتتحقق مقدوراته.

وضعتْ أم موسى ولدها في جو مكروب خانق، يخيم عليه الظلم والطغيان، فطغى على فرحتها بوليدها خوفها عليه من سكاكين الذبَّاحين، فتحيرت، ولم تدرِ ما تصنع، وكيف تتصرف؟!.

---

(١) انظر: تفسير سورة الرعد، أو (الأسباب والمسببات في سورة الرعد) كما هو اسمه في هذا التفسير الموضوعي الكبير.

ويبدو أن الحَيْرة أذهلتها عن إرضاعه، فأدركتها ألطاف الحق ورحماته في ساعتها العصيبة هذه، فأوحى تعالى إليها بإلهام أو بمَلَك من ملائكته هتف بها: ضميه إلى صدرك وأرضعيه.

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ أي: فإذا أحسست بالخطر عليه فألقيه في البحر، والمراد نهر النيل الكبير.

وقد فصلت الآيات في **سورة طه** كيفية إلقائه، بقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ (٣٩)﴾.

وأيُّ أمٍّ يطاوِعُها قلبها على إلقاء وليدها في البحر، كيف تنزعه من حضنها، وتنزع ثديها من فمه لتلقيه في اليم؟!.

وثبَّتها الحقُّ سبحانه، فأوحى إليها يطمئنها عليه، ويبشرها بسلامته، ويكشفُ لها عن مكانته التي قدرها لهذا الوليد:

﴿وَلَا تَخَافِي﴾ أي: لا تخافي عليه من المخاطر، فهو في رعايتنا.

﴿وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ ولا تحزني على فراقه، فلن يطول فراقك له، وسنرده قريباً إليك.

﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ونجعله من زمرة المرسلين.

وحملت المياه الصندوقَ، وألقته الأمواجُ على ساحل قصر فرعون:

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ (٨)﴾.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ هكذا هيأ الله تعالى الأسباب ليلتقط آل فرعون موسى.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ويصير بعد ذلك عدوّاً لهم، وسبباً لغمهم وحزنهم وزوال سلطانهم وعزهم.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ أي: كانوا آثمين مذنبين، عاقبهم الله تعالى، فجعلهم يربُّون عدوهم، ومن قُدِّرَ أن يكون سبب هلاكهم.

ولما حملوه إلى فرعون أمر بقتله، ولكنَّ الله تعالى حماه بالحب، فألقى محبته في قلب امرأة فرعون، كما مر معنا في قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩].

ويبدو أنها كانت محرومةً من الولد، فَسُرَّتْ بموسى وأحبته:

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ﴾ أي: هو قرة عين لي ولك.

قالت ذلك استرضاءً لفرعون، وهي تعلمُ أنَّ فرعون ما أحبه، ولا قرَّتْ عينُه به، بل أمرَ بقتله، ولهذا أضافت قائلة بلهجة الاستعطاف والرجاء:

﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ وهذا يدل على صدق فراستها؛ إذ توسمت فيه علامات النجابة، ومخايلَ اليُمْنِ، وقد نفعها الله تعالى به بعد ذلك، فصدَّقتْ برسالته، وآمنت بدعوته، وجعلها تعالى مثلاً طيباً للنساء المؤمنات الطيبات الصالحات، فقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

واستجابَ فرعونُ لرجائها، فأمر أن يُربَّى في قصره، وأن ينشأ في رعاية زوجته.

وهكذا تربَّى موسى في قصر فرعون، ونشأ بين أعوانه وحشمه وخدمه، فالكل يسعى في خدمته، ويسارع إلى تأمين حاجته.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه سبب إهلاكهم وعذابهم عندما يُعْرِضون عن دعوته، ويستكبرون عن الإذعان لرسالته.

- **في قصر فرعون:**

وتناقل الناسُ خبرَ الصندوق والوليد الذي فيه، ووصلت أخباره إلى مسامع أم موسى، فازدادَ خوفُها عليه، ألقته في اليمِّ لتبعدَه عنهم، وإذا به يقع بين أيديهم:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ أي: أصبح قلبها خالياً من العقل، إلا مِنْ ذكر موسى وخوفها عليه، طارَ عقلُها من فرطِ القلقِ والهمِّ، وسيطرت عليها مشاعِرُ الأمومةِ الثائرةِ في صدرها.

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ حتى كادتْ أن تظهِرَ أمره، وتصيح: هو ابني وأنا أمه.

﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ولكن رحمة الله تعالى أدركتها، فربط سبحانه على قلبها وثبتها.

﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدِّقين بوعده: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وحتى لا يُفْتَضَحَ أمرُها، ولا تنمَّ عنها ملامحُ وجهها، كلَّفت أخته أن تتبع أثره لتعلم خبره:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾.

فقصَّت أخته أثره، وراقبته من بعيد، أو نظرت إليه متظاهرةً بعدم الاهتمام به، فلم يشعروا بأمرها ولم يعرفوا ويكتشفوا حقيقتها.

والتمس القومُ لموسى مرضعاً بين نساء القصر، فأبى، فطلبوا له المراضعَ من خارجه، وأسرعتِ النساءُ المراضعُ إلى القصر، فكانت كل واحدة منهنَّ تضمُّ موسى إلى صدرها، وتلقمه ثديها، فيأباه، ويعرض عنه صارخاً باكياً، ومن المعلوم أنَّ الطفل الرضيعَ يقبل أي ثدي، ولو كان اصطناعيّاً عندما يشتدُّ به الجوع، ولكنَّ موسى ـ بمشيئة الله تعالى النافذة في ذرات الموجودات ـ أعرضَ عن كل المراضع:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ أي: منعناه من قبول المراضع من قبل أن نردَّه إلى أمه، فالتحريم تحريمُ منعٍ لا تحريمُ شرعٍ، فكان لا يقبل ثدي مرضع، حتى أهمهم ذلك[1].

وتسللت أخته إلى داخل القصر بين المراضع:

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ أي: يضمنون لكم إرضاعه والعناية به.

﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ أي: لا يقصرون في خدمته ورعايته.

وسكتتِ الآياتُ عن تفصيل ما حدث بعد ذلك، وأخبرت بالنتيجة:

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ أي: فأرجعناه إلى أمه.

﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ كي تسر عينها.

﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ ويذهب حزنها.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ولتعلم أن وعده تعالى حق لا خُلْفَ فيه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الأحداث تجري بمشيئته تعالى وقدرته، وأنه سبحانه وحده مدبر الأسباب والمسببات.

ومرت الأعوامُ على موسى، وهو يتقلَّب بين حِجْرِ أمه وقصر فرعون، ترعاه في الحقيقةِ عنايةُ الله تعالى، وتكلؤه عينه، وشبَّ ونما، وآتاه الله تعالى كمال الخَلْق والخُلُق:

---

(١) تفسير النسفي: ٤/ ٥٥٢.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ أي: ولما بلغ سن الشباب والرجولة، واكتملت بنيته الجسدية.

﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ آتاه الله تعالى أيضاً الكمال في نفسه وفكره فأصبح قويّاً في جسده وعقله.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: وهذا الذي تفضل الله تعالى به على موسى من العناية والرعاية والنجاة من المخاطر، يتفضَّل به أيضاً على كل من يحسن في عبادته وطاعته.

- **مع المظلوم الأحمق:**

نشأ موسى في قصر فرعون، وشاهد صور الظلم والطغيان تجري أمامه، وكان يسمع عندما يذهب إلى أمه أنَّاتِ المظلومين، وشكاياتِ المضطهدين، فتثورُ ثائرته، وتضطرمُ في صدره مشاعِرُ السخط، فنفسه نفسُ نبيٍّ كريمٍ، تنفعِلُ وتتأثَّرُ مما تسمَعُ وتشاهد، خاصةً وأنَّ الظلم والطغيان موجَّهٌ بشكل رئيسٍ إلى قومه.

وما كان عليه السلام يجدُ متنفساً لمشاعره الثائرة، كان عليه أن يكبتها، ويبقيها حبيسة في صدره وبين ضلوعه، وأورثه هذا حِدَّةً في طبعه، وقوةً في عواطفه ومشاعره، ودل قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ على أنَّه تعالى حفظَ موسى من التأثر بحياة القصور، وأجوائها المترفة الفاسدة.

ولقد أخطأ سيد قطب رحمه الله، عندما قال: «فشاءت القدرةُ التي تنقل خطا موسى عليه السلام، أن تخفض ما اعتادته نفسه من تلك الحياة، وأن تزجَّ به في مجتمع الرعاة، وأن تجعلَه يستشعِرُ النعمةَ في أن يكون راعي غنم، يجد القوت والمأوى، بعد الخوف والمطاردة والمشقة والجوع، وأن ينزع من روحه روحَ الاشمئزاز من الفقر والفقراء، وروح التأفف من عاداتهم وأخلاقهم وخشونتهم وسذاجتهم، وروح الاستعلاء على جهلهم وفقرهم ورثاثة هيئتهم»[1].

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٦٩١.

وكأنّه رَحِمَهُ اللهُ عندما كتب هذه الكلمات، لم يتدبَّر مدلول قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وقوله أيضاً في **سورة طه**: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾، ولم يستشعر نبلَ عواطف موسى، عندما سارع إلى نصرةِ المظلوم، فقد وجد عَلَيْهِ السَّلَامُ في أحد الأيام متنفَّساً لمشاعره الثائرة المكبوتة، فخرج من منطقة القصور:

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: في وقت القائلة عندما تخلو الشوارع بسبب الحر الشديد.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أحدهما من شيعته المقهورة المظلومة، والآخر من قوم فرعون المعتدين الظالمين.

وكان الإسرائيلي المقهورُ المظلومُ يتلفَّتُ حوله، باحثاً عمن يستغيثُ به، ويخلِّصه من ظالمه، ولمَّا رأى موسى صرخ مستغيثاً به:

﴿فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

ولم يستطع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يتجاهل صرخات المظلوم المقهور، فانفجرت براكينُ الغضب المحبوسة في صدره، وأقبل على الرجل الظالم:

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: ضربه بجُمْعِ كفِّه، فقتله، غير قاصد قتله.

وندم عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما رأى الرجل ممدداً بين يديه قد فارق الحياة.

﴿قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ أي: من تزيينه وتسويله.

﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: إنه ظاهر العداوة والإضلال.

ثم توجه إلى الله تعالى تائباً مستغفراً:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ أي: ظلمت نفسي بالمبادرة إلى وكزه

وترك التثبت والتأني.

فالقتلُ كانَ خطأً، والخطأ لا يخلو من المؤاخذةِ والذنبِ؛ لكونه وقعَ بسببِ ترك التثبت والتأني، مع أنَّه كان لنصرةِ المظلوم، ويمكن أن يصدرَ مثل هذا عن الأنبياء عليهم السلام، قبلَ أن يكرِمَهم الله تعالى بالنبوة، ويشرفهم بعصمتها.

أو ظلم نفسه ـ كما قال سيد قطب رحمه الله ـ لأنَّه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان، والله يريدُ أن يكونَ الخلاص الشامل بالطريقة التي قضاها، حيث لا تُجدي تلك الاشتباكات الفردية الجانبية في تغيير الأوضاع، كما كَفَّ الله المسلمين في مكة عن الاشتباك حتى جاء الأوان[١].

﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وعرف موسى عليه السلام نتيجةَ ما حدث، أنَّ الله قد أنعم عليه بقوة كبيرة في جسده، فشكره على هذه النعمة، وعاهده ألا يستعملها في مساعدة المجرمين الظالمين:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٧﴾.

أي: بحق إنعامك عليَّ، فلن أكون معيناً للمجرمين على إجرامهم وطغيانهم، وسأستعمل هذه النعمة في مساعدة أوليائك لا أعدائك.

وخشي عليه السلام أن يُفتضح أمره، ويعلم جنود فرعون بأنه هو القاتل:

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ۝١٨﴾.

﴿فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾ أي: صار يمشي في المدينة خائفاً حذراً، يراقِبُ كل ما يجري حوله، كأنه يتوقع الشر والأذى.

﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ﴾ أي: فوجئ بالإسرائيلي الذي استنصره

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٦٨٤.

بالأمس، يستنصر به مرة ثانية، ويطلب مساعدته في خصومة ثانية له مع رجل فرعوني آخر.

فأقبل عليه موسى مؤنِّباً وموبِّخاً:

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي: إنك ظاهر الغواية، لا تتصرَّفُ بحكمة، ولا تحسن التصرف والتدبر.

ومع ذلك أراد موسى أن يساعده، ويخلصه من ظالمه الفرعوني، لأنه عاهد الله من قبلُ ألا يكون ظهيراً للمجرمين:

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ أي: ولما أن أراد أن يضربَ الرجل الفرعوني المعادي لهما، ظنَّ الإسرائيليُّ بسبب ما سمع من توبيخ موسى له وتأنيبه أنه يريدُ أن يبطشَ به.

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ وهكذا كشفَ هذا الإسرائيليُّ أمرَ موسى عليه السلام بحماقته وطيشه، وسمع الفرعونيُّ كلماتِهِ، فتركَ مكان الخصومة، وانسل مسرعاً إلى الجند الموكلين بالبحث عن القاتل.

ولم يكتفِ هذا الأحمق الطائش بما قال، بل أخذ يعظُ موسى عليه السلام، ويعرِّض بلومه وتأنيبه له:

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما تريد بعملك هذا إلا الظهور بمظهر المتكبر المتجبر بين الناس.

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ وما تريد أن تكون من المتواضعين المصلحين.

هكذا لبس الإسرائيليُّ الأحمقُ لباسَ النسَّاك الوعَّاظ، واتهم موسى عليه السلام بحب الرياء والسمعة والتكبر والتجبر، بدل أن يشكره على مساعدته، وتخليصه



من عدوه. **ودلتِ الآياتُ على أنَّ قتل بعض أعوان الظلمة أمرٌ غيرُ محمودٍ، يؤدِّي إلى زيادة ظلمهم، واستفحال شرهم.**

- **لقاء على ماء مدين:**

أدركَ موسى عليه السلام أنَّه أصبحَ في خطر، وأنَّ جنود فرعون يلاحقونه ويبحثون عنه، وأنَّ زوجة فرعون التي خلصته من الذبح عندما كان صغيراً، لن تستطيعَ هذه المرة مساعدته، فأخذَ يفكِّرُ في وسيلةٍ للنجاة، وقطعَ عليه تفكيرَه صوتُ رجلٍ مقبلٍ بسرعة نحوه:

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ ويبدو أنَّه رجل من آل فرعون المقرَّبين منه، كان يخفي في نفسه كره فرعون، لِمَا يرى من ظلمه وطغيانه، وذكر بعض المفسرين أنَّه مؤمنُ آلِ فرعونَ، الذي كان يكتمُ إيمانه، ودل مجيئه من أقصى المدينة على أنَّه كان متلهِّفاً على رؤية موسى، فانطلق باحثاً عنه من أقصى أطرافها.

﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي: إنَّ كبار رجال الدولة يتشاورون فيما بينهم ليقتلوك.

﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ أي: اخرج قبل أن يظفروا بك؛ إني لك من المخلِصين فيما أشير عليك به.

وأحسَّ موسى بإخلاص الرجل وصدقه، فأخذ بنصيحته، وبادر إلى الخروج من أرض مصر، من غير زادٍ ولا دليلٍ:

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: خرج منها حذراً يتلفَّت خلفه خوفاً من لحوق الطالبين، سائلاً ربه سبحانه وتعالى أن ينجيَهُ من القوم الظالمين.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ توجه إلى مدين، أقرب بلد من مصر، لا تخضع لسلطان فرعون، توجَّه إليها، وهو لا يعرفُ الطريقَ القاصِدَ:

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: أرجو أن يهديني ربي إلى الطريق القاصد الصحيح.

ونفعه حُسْنُ ظنه بالله تعالى، فهداه، وتولاه برعايته، وأحاطه بعنايته، حتى وصل مدين، وصلها مجهوداً مكدوداً، يعاني ظمأً وجوعاً، فقصد ماءها:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ فوجئ عليه السلام عندما ورد ماء مدين بمنظر يتنافى مع مروءته وشهامته وأخلاقه الكريمة، أثار مشاعره فنسي ظمأه وجوعه.

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ أي: رأى جماعة كبيرة من الرعاة يسقون مواشيهم، بينما تقف امرأتان في مكان منعزل مع قطيع من الغنم، وهما تحبسان الغنم العطشى عن التقدم نحو الماء، فدنا منهما عليه السلام وسألهما متعجِّباً:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما؟ لماذا لا تباشِرانِ السقيَ وتنصرفان؟.

والخطب: الأمرُ الخطيرُ الجَلَلُ، فوقوف المرأتين بهذا الشكل تنتظران أمر خطير في نظر موسى عليه السلام، يتنافى مع الشهامة والمروءة.

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أي: لا نستطيعُ أن نسقيَ لأننا لا نخالِطُ الرجال، ولا قدرةَ لنا على مزاحمتهم، فنحن ننتظر حتى ينتهي الرعاةُ، ويرجعوا بأغنامهم عن الماء.

ثم كشفتا له عن السببِ الملجِئِ لهما للقيام بعمل هو من أعمال الرجال:

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: كبيرٌ في السن، غلب عليه ضعفُ الشيخوخةِ، فلا يستطيعُ أن يباشرَ أمر مواشيه بنفسه.

ورأى أكثر المفسرين أنَّ هذا الرجلَ هو نبي الله شعيب، الذي أُرسِلَ إلى أهل مدين، لكنَّ عصر موسى متأخِّرٌ عن عصر شعيب، فقد أشارت إحدى الآيات القرآنية إلى أنه كان قريباً من عصر إبراهيم ولوط عليهما السلام، ففيها حكى الله من كلام نبي الله شعيب وهو يعظ قومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

ولهذا نقل ابن كثير رحمه الله عن بعض المفسرين أن شعيباً كان قبل موسى عليه السلام بمدة طويلة[١].

ثم لو كان هذا الرجلُ نبيَّ الله شعيباً حقّاً، لعرف الرعاة فضله، وأسرعوا إلى سقايةِ غنمه؛ لأنهم لا بد أن يكونوا من البقية المؤمنة الصالحة، التي نجّاها الله من العذاب معه.

ولا حاجة بنا إلى التكلف في معرفة اسم الرجل وهويته، والأَوْلى أن نقولَ كما قال ابن جرير الطبري: «وهذا ممَّا لا يدركُ علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته»[٢].

ودلت الآياتُ على أنَّه كان رجلاً كريماً صالحاً، ألجأته الضرورة إلى إخراج ابنتيه لكي تعملا خارجَ البيت في رعاية غنمه وسقيها، وهذا أمرٌ في نفسه ليس بمحظور، والدين لا يأباه، وأمَّا المروءة فعادات الناس في ذلك متباينة[٣].

وبادر موسى عليه السلام، رغم ما به من تعب وجوع، إلى مساعدتهما:

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ١٠.
(٢) جامع البيان: ٢٠/ ٤٠.
(٣) تفسير النسفي: ٤/ ٥٥٨.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ أي: ثم انصرف ليستريحَ في الظل، مما يدل على أنه سقى لهما في حر الشمس، ولما أحسَّ بشدة الجوع، توجه إلى الله تعالى داعياً.

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: إنني محتاجٌ إلى أيِّ شيءٍ قَلَّ أو كثر، تنزله إليَّ من خزائن كرمك ورحمتك.

وتصريحه بشدة افتقاره إلى معونة ربه، أدبٌ من آداب الدعاء، اتصف به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ودل دعاؤه على أنه كان محتاجاً إلى أي شيء يسد به رمقه.

• **الراعي القوي الأمين:**

ويبدو أنه لم يطل به المقام والانتظار، فبعد أن عادت الفتاتان إلى أبيهما، تعجَّب من عودتهما مبكرتين على خلاف عادتهما، فسألهما عن السبب، فأخبرتاه خبر موسى، وسقيه لهما، فأرسل إحداهما تدعوه:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي: جاءته مستحيية في مشيتها وفي مجيئها إليه، من غير تبذُّلٍ ولا تبرُّجٍ.

والحياءُ من أنبل أخلاق المرأة، يدل على شرف معدنها، وطهارة أخلاقها، ورغم حيائها لم تضطربْ، ولم تتلجلج عندما كلمته، مما يدل على ثقتها بطهارتها واستقامتها.

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ﴾ أي: إن أبي يدعوك ليكافئك على سقيك لنا.

فمكافأةُ صاحبِ المعروفِ من الأخلاق الكريمة، والخصالِ الحميدةِ، ولهذا حَثَّ عليها النبيُّ ﷺ؛ فعن **عبد الله بن عمرو** رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَنِ استعاذَ باللهِ فأعيذوه، ومَنْ سألَكُمْ باللهِ فأعطوه، ومَنِ استجارَ باللهِ فأجيروه، ومَنْ أتى إليكُم معروفاً فكافئوهُ، فإن لم تَجِدُوا فادعوا له، حتَّى تعلموا أَنْ قد كافأتموه**» [رواه أبو داود (١٦٧٢) والنسائي (٥/ ٨٢) واللفظ له].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا يَشْكُر الله مَنْ لا يشكر الناسَ**» [رواه أبو داود (٤٨١١) والترمذي (١٩٥٤) وصححه].

ويلاحظ أنها أسندتِ الدعوةَ إلى أبيها، وعللتها بالجزاءِ؛ لئلا يوهمَ كلامُها ريبةً، وفيه من الدلالة على كمالِ العقلِ والحياءِ والعفَّةِ ما لا يخفى[1].

وقَبِل عليه السلام الدعوةَ؛ لأنها دعوةُ رجلٍ كريمٍ، وهو في أمَسِّ الحاجة إليها.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أي: لما أخبره موسى بقصته وما حدث له، بادر الرجل إلى تسكينه وتطمينه.

﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلا سلطانَ لفرعونَ وملئه على أرض مدين.

واقترحت إحدى الفتاتين على أبيها أن يستأجر موسى للعمل عنده في رعاية الغنم، وأيَّدت اقتراحها فشهدت بقوة موسى وأمانته:

﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

قالت ذلك من غير تلعثم ولا اضطراب؛ لأنها فيما يبدو كانت تعلمُ أنَّ أباها يبحثُ عن أجيرٍ يثقُ بأمانته، وحفظه وقوته.

ودل قولُها على رجاحة عقلها، فأفضلُ ما ينبغي أن يتَّصفَ به العامل المستأجَرُ: القدرة على أداء العمل المستأجر له، والأمانةُ التي تحمله على الإخلاص في عمله، وحفظ ما يؤتمن عليه من مال رب العمل.

---

(١) روح المعاني: ٢٠/ ٦٥.

كما دل قولها أيضاً على سرعة فطانتها، وقوة ملاحظتها، وحُسْنِ فراستها، فقد عرفت قوته عليه السلام عندما سقى لهما بمفرده، مع أنه كان في غاية الإجهاد والجوع، وعرفت أمانته ومروءته عندما لاحظت عفته، فقد سار معها إلى بيت أبيها من غير أن يرفعَ طَرْفَهُ إليها، وهو أمرٌ على خلاف ما هو معهود من الرجال، عندما يلقون النساء.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أفرسُ الناس ثلاثةٌ: أبو بكر حين تفرَّس في عمر، وصاحِبُ يوسف حين قال: أكرمي مثواه، وصاحبةُ موسى حين قالت: يا أبتِ استأجره إنَّ خيرَ من استأجرت القوي الأمين»[١].

وأُعْجِبَ الرجل الصالح بمشورة ابنته ورأيها، فأخذ به، وعرض على موسى العمل عنده، وعرض عليه أيضاً أن يزوجه إحدى ابنتيه، مما يدل على ثقة الرجل بابنته وصلاحها، وثقته أيضاً بموسى.

ودلَّتِ الآيةُ على جواز الأخذ برأي المرأة، ولو كانت فتاةً في ريعانِ شبابها، وربيع حياتها، فقد تفطنُ المرأةُ إلى ما لا يفطنُ له الرجل، وقد يجعل الله في رأيها خيراً كثيراً، أو يدفعُ به شرّاً خطيراً، ولهذا كان رسول الله ﷺ يستشيرُ أحياناً أمهاتِ المؤمنين، ويأخذُ برأيهنَّ فيما يعرِضُ له، فعندما أراد عليه الصلاة والسلام أن ينصرفَ من الحديبيةِ مع أصحابه، أمرهم أن يذبحوا هديهم، ويتحللوا من إحرامهم، للعودة إلى المدينة، ولكنَّ عواطفَ الصحابةِ الثائرةَ في ذلك الوقت غلبتْ عليهم، فلم يبادروا إلى تنفيذ أمره عليه الصلاة والسلام، فما قامَ منهم رجلٌ، فدخل على أمِّ سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقيَ من الناس، فقالت: يا نبيَّ الله أتحبُّ ذلك؟ اخرجْ ثم لا تكلِّمْ أحداً منهم كلمةً، حتى تنحرَ بُدْنَكَ، وتدعو حالِقَكَ فيحلقكَ.

فخرجَ عليه الصلاة والسلام فلم يكلِّمْ أحداً منهم حتى فعلَ ذلك، نحر

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ١١.

بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلمَّا رأَوْا ذلكَ قاموا فنحروا، وجعلَ بعضُهم يحلِقُ بعضاً، حتى كادَ بعضُهم يقتلُ بعضاً غمّاً. [رواه البخاري (٢٧٣١)].

قال ابن حجر رَحَمَهُ ٱللَّهُ: «وفيه فضلُ المشورةِ، وأنَّ الفعلَ إذا انضمَّ إلى القول كان أبلغَ من القول المجرد، وجواز مشاورة المرأة الفاضلة، وفضل أُمِّ سلمة، ووفورِ عقلها، حتى قال إمامُ الحرمين: لا نعلمُ امرأةً أشارت برأي فأصابت إلا أُمُّ سلمة. كذا قال. وقد استدرك بعضهم عليه بنتَ شعيبٍ في أمر موسى»[1].

- **العمل والزواج:**

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ أي: أريد أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ على أن تكون لي أجيراً ثماني سنين.

وقوله: ﴿هَٰتَيۡنِ﴾ يدل على أن له غيرهما، وقوله عَرْضٌ لا عقد؛ لأنه لو كان عقداً لعيَّنَ المعقودَ عليها له؛ لأنَّ العلماء وإن كانوا قد اختلفوا في جواز البيع، إذا قال: بعتُك أحد عبدي هذين بثمن كذا، فإنهم اتفقوا على أن ذلك لا يجوز في النكاح[2].

ويبدو أنه أراد أن يزوِّجه البنتَ التي أرسلها لدعوته، وهي التي اقترحت على أبيها أن يستأجره.

ودلت الآية على جوازِ عرضِ الرجل ابنتَه أو أخته على أهل الخير، وقد جعل الإمامُ البخاريُّ هذا باباً في «صحيحه»، روى فيه بسنده: أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حين تأيَّمتْ حفصةُ بنتُ عمر من خنيس بن حذافة السهمي، وكان

---

(١) فتح الباري: ٥/ ٣٤٧.

(٢) تفسير القرطبي: ١٣/ ٢٧٢.

من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ، فتوفي بالمدينة، فقال عمر: أتيتُ عثمانَ بنَ عفّان فعرضتُ عليه حفصةَ، فقال: سأنظرُ في أمري، فلبثتُ لياليَ، ثم لقيني فقال: قد بدا لي ألا أتزوَّجَ يومي هذا. قال عمر: فلقيتُ أبا بكرٍ الصديق فقلتُ: إن شئتَ زوجتُكَ حفصةَ بنت عمرَ، فصمتَ أبو بكرٍ، فلم يرجعْ إليَّ شيئاً، وكنتُ أوجدَ عليه منِّي على عثمان، فلبثتُ لياليَ، ثم خطبها رسولُ اللهِ ﷺ، فأنكحتُها إيَّاه. [رواه البخاري (٥١٢٢)].

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ أي: إن أتممت في العمل عشر سنين فذلك فضلٌ منك، وليس واجباً عليك.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ بإلزامك أبعد الأجلين، أو بتكليفك عملاً يشق عليك القيام به.

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في حسن المعاملة والوفاء بالعقد.

وهذا من الأخلاق الكريمة التي حضَّ الإسلامُ عليها، وأمر النبيُّ ﷺ أربابَ العملِ أن يحسنوا معاملة مَنْ يعملُ عندهم.

ففي الحديث الشريف: قال عليه الصلاة والسلام: «**إخوانُكم خَوَلُكم، جعلهم الله تحتَ أيديكم، فمَنْ كانَ أخوه تحتَ يدِهِ فليُطْعِمْهُ مما يأكلُ، وليلبِسْهُ مما يَلْبَسُ، ولا تكلِّفوهم ما يغلبُهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم**» [رواه البخاري (٣٠)].

وقَبِلَ موسى عرض الرجل الصالح، فقد يسَّرَ الله له في هذا العرض الأمنَ والمأوى والعملَ الكريم، والسكنَ النفسيَّ إلى زوجة صالحة، وكل ذلك من فضله تعالى عليه.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: ذلك الذي عرضته عليَّ قائمٌ بيننا، لا يخرجُ عنه واحد منا، فكل طرفٍ يؤدِّي ما عليه.

﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾ أي: فلا حرجَ عليَّ، ولا مشقة في الثماني أو العشر.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ شاهد وحافظ.

وهذا الذي جرى بينهما لم يكن سوى اتفاق على إنشاء عقد النكاح وعقد الإجارة فهو عرض لا عقد، وقد سكتت الآيات عن تعيين المنكوحة، وبيان مقدار المهر والأجرة، كما سكتت عن تفصيل ما حدث لموسى بعد ذلك في مدين، فإن من عادة القرآن الكريم ألا يهتمَّ بذكر دقائقِ التفاصيل، التي لا يترتَّب على ذكرها عبرة.

- **النداء والرسالة:**

وانتقلت الآيات مباشرةً تصفُ ما حدث لموسى عليه السلام، وهو في طريق عودته إلى مصر:

﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ أي: لما أمضى الأجل الأوفى، وهو عشر سنين.

﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ عائداً إلى مصر.

فعن سعيد بن جبير قال: قال يهوديٌّ بالكوفة وأنا أتجهَّز للحج: أخبرني أيُّ الأجلين قضى موسى؟ قلتُ: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حَبْرِ العربِ ـ يعني ابنَ عباس ـ فسألتُه عن ذلك، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما؛ إنَّ النبيَّ إذا وعدَ لم يُخْلِفْ[(١)].

وفي طريق العودة أكرمه الله تعالى بالنبوة، وكلَّفه بحمل الرسالة:

﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ

---

(١) جامع البيان: ٢٠/ ٤٤.

أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: لعلّي آتيكم بخبر عن الطريق، أو آتيكم بقطعة حطبٍ ملتهبةٍ تستدفئون بنارها.

ودلَّت كلماته على أنه قد ضلَّ عن الطريق في الصحراء في ليلة باردة.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي: لما أتى النارَ أتاه النداء الإلٰهي من شاطئ الواد الأيمن بالنسبة له ﷺ، في بقعة من الأرض مباركة، فيها شجرة تحيط بها النار.

وهذا الوادي هو وادي طوى، الذي يقع في الجانب الغربي من جبل الطور، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا هو مضمون النداء الإلٰهي الذي نودي به موسى ﷺ، أجملته الآية هنا، وسبق تفصيله في قوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه].

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي: تتحرك حركة سريعة كأنَّها من الجنِّ، بعد أنْ حوَّلها تعالى إلى حية ضخمة.

﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي: ولَّى موسى منهزماً، ولم يلتفت، حتى ناداه الحق تعالى:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ أي: إنك من الرسل الآمنين، كما

سبق في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

فرجع عليه السلام فأمسكها فعادت عصا كما كانت. ثم أراه الله تعالى معجزة ثانية:

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي: أدخل يدك في فتحة ثوبك من جهة الصدر، تخرج بيضاء تتلألأ من غير عيب.

ثم أمره تعالى بالتجلد والثبات والاستعداد لتحمل أعباء الرسالة:

﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي: من الخوف والاضطراب الذي أصابك من رؤية معجزة العصا.

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي: فهذا الذي رأيت برهانان أيدك الله بهما، يدلان على صدق رسالتك إلى فرعون وملئه.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ إنهم كانوا متجاوزين الحدود في ظلمهم وطغيانهم.

عرف موسى عليه السلام طبيعة المهمة الثقيلة التي كلَّفه الحق بها، فأراد أن يستزيدَ من تأييده تعالى، فأظهرَ ضعفه، وشدة افتقاره إلى معونة ربه:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: أخاف أن يقتلوني قبل أن أبلغهم الرسالة، وقد مر معنا وصف حادثة القتل وظروفها.

﴿وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: أرسله معي معيناً ومساعداً في تصديق رسالتي وتقوية حجتي.

واستجاب الله تعالى دعوته، وآتاه سُؤْلَهُ، وتفضَّلَ عليه بأكثر مما سأل، وبشره بالنصر والغلبة:

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: سنقويك بأخيك، فشدُّ العضدِ تمثيلٌ؛ لأن قوة اليد بالعضد، وهو العظم الواقع بين الكتف والمرفق، يقال في دعاء الخير: شدَّ الله عضدك. وفي ضده: فَتَّ الله في عضدك.

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: ونجعل لكما هيبة في قلوب الأعداء، فلا يصلون إليكما بقتل أو سوء، بسبب آياتنا ومعجزاتنا التي نؤيدكما بها.

﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي: الغالبون لفرعون وملئه وجنوده، والمنتصرون عليهم.

- **الطاغية المتألِّه وعاقبته:**

سكتت الآيات عن تفصيل المواجهة بين النبيين الكريمين من جهة، وبين فرعون وملئه من جهة أخرى، فقد أوردت تفصيلها في سور سابقة، **كسورتي طه والشعراء**، واقتصرت هنا على بيان غرور فرعون واستبداده، وكيف أنزل الله به العذاب فأهلكه مع جنوده:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ أي: مختلق مكذوب.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وكذَّبوا بقولهم هذا، فالله سبحانه أرسل رسله إلى جميع الأمم، وأخبار نبي الله يوسف، الذي كان يعيشُ بينهم،

لا يزالون يتناقلونها، وقد ذكَّرهم بها مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: ربي أعلم بمن بعثه بالهدى نبيّاً، ووعده حسن العاقبة في الدنيا والآخرة، ولو كنتُ كما تزعمون ساحراً مفترياً، ما أرسلني؛ لأنه عليم حكيم، لا يفلح عنده الظالمون.

وحمى الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام من بطش فرعون وطغيانه ـ كما وعده ـ فلم يجرؤ فرعون على توجيه أي أذًى لهما، ولم يتمكن هو وجنوده وأعوانه من اختراق سلطان الله تعالى، الذي جعله لهما، وما كان منه ـ ليستر شعوره بضعفه وعجزه ـ إلا التظاهر أمام أعوانه وجنوده بمزيد من الاستكبار والطغيان، فادَّعى لنفسه صفة الألوهية، وكلَّفهم ببناء الصروح العالية الكبيرة، التي ظنَّ أنها تبهرُ عامة الناس وتدهشهم، وتجعلهم يصدقون ادعاءه، ويشعرون بالخوف والرهبة من قوته وبطشه، وهو شأن الفراعنة المستبدين في كل مكان وزمان، يرهقون شعوبهم بإقامة الصروح الكبيرة الضخمة، التي لا تحتاجُ إليها الأمة، والتي تستهلك طاقاتها، وتستنزف خيراتها؛ إرضاء لغرورهم وتكبرهم.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ هكذا ادعى لنفسه صفة الألوهية، ونفاها عن غيره، وهذا يدل على استكباره وغروره أولاً، ويدل

ثانياً على استخفافه لعقول قومه، كما في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

ولا بد أن فرعون يعلم في قرارة نفسه أنه يكذِبُ على قومه، وأنَّ كثيراً منهم لا يصدقونه، فأراد التظاهر أمامهم بمظهر الباحث عن الحقيقة، فأصدر أمره إلى وزيره الأول هامان، لينشئ له صرحاً كبيراً مرتفعاً، يصعد فيه باحثاً عن الإلٰه الذي يدعو إليه موسى.

﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: اصنع الآجر من الطين المشوي في النار، وابْنِ لي صرحاً.

والصرح: هو البناء المكشوف العالي، من: صرح الشيءُ إذا ظهر، ويطلق على القصر الكبير، كما في قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَۗ﴾ [النمل: ٤٣].

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: وهم لا يستحقُّون الاستكبار، فالاستكبار بالحق لله تعالى وحده، فهو المتكبر في الحقيقة، وكل مستكبر سواه استكباره بغير الحق[1]، قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧].

ومن أسمائه الحسنى: المتكبر، أي: العظيم ذو الكبرياء، المتعالي عن صفات الخلق، أو المتكبر على الطغاة المتكبرين من خلقه.

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: للحساب والجزاء، وهذا يدل على أنَّ انسلاخ الإنسان عن الشعور بمسؤوليته أمام الله تعالى، يؤدي إلى طغيانه وفساده وضلاله، كما تقدم تفصيل ذلك في سورة الفرقان.

ثم أجملت الآيات بيان عاقبة الاستكبار والاستبداد والطغيان:

---

(١) التفسير الكبير: ٢٤/ ٢٥٣.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي: ألقيناهم في البحر وأغرقناهم فيه.

والنبذُ: إلقاء الشيءِ الحقير وطرحه، لقلة الاعتداد به، وفيه فخامةِ وتعظيم لشأن الآخذ، واستحقار للمأخوذين[١]، فما أهونهم على الله تعالى!.

هكذا باختصار حاسم: أخذٌ شديد، ونبذ في اليم كما تُنبذ الحصاة، أو كما يُرمى الحجر في اليم الذي ألقي في مثله موسى الطفل الرضيع، فكان مأمناً وملجأً له، بينما جعله الله هلاكاً وعذاباً للطاغية وأعوانه وجنوده.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: انظر نظر المعتبر، وبيِّنْه للناس ليعتبروا ويتعظوا.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: وجعلنا فرعون وكبار أعوانه وحاشيته، رؤساء ضلال وقادة كفر، يضلون الناس ويوصلونهم إلى النار، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يمنعون من العذاب.

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: لعنة تلازمهم، فكلما ذكرهم الناس، تذكروا ظلمهم وبغيهم فلعنوهم.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي: من الذين يقبِّحُ الله وجوههم ويسوِّدها.

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤/ ٥٦٧.

هكذا كانت عاقبةُ الطاغية المتجبِّر المتألِّه، أما نبي الله موسى عليه السلام، فقد تتابعت عليه رحماتُ الحقِّ جل وعلا، وتوالت عليه أفضاله ونعمه:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة التي نزلها الله عليه مكتوبة في الألواح.

﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: من بعد ما أهلكنا المكذبين من الأمم والأجيال السابقة، تبصِّرُ الناس بالحق، وتميزه عن الباطل.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: وجعلنا فيها أسباب الهداية ونزول الرحمة، لعلَّهم ينتفعون بها، ويتعظون بأحكامها.

وهذا يدل على حاجة المؤمنين الناجين من الهلاك إلى التشريع الإلٰهي؛ ليبنوا حياتهم على أساسه القوي المتين، ويسيروا على ضوء منهجه المستقيم، فلا يكفي التخلُّص من الطغاة الظلمة، لا بدَّ أيضاً أن يتخلَّصوا من قوانينهم الجائرة الفاسدة، والشريعة الإلٰهية هي وحدها التي تأخذ بيد البشرية، لتعمر الأرض بالعدل والحق، وهي وحدها التي تصحح المسيرة البشرية، بعد أن انحرفت على يد الطغاة والظلمة إلى سبل الهلاك والدمار.



الفَصْلُ الثَّانِي

التَّعْقِيبَاتُ عَلَى قِصَّةِ مُوسَى عليه السلام وَفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ (٤٤) وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦) وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (٤٩) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (٥٠) ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ (٥٥) إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ

عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

- **ضرورة البعثة المحمدية:**

شرعت الآيات بالتعقيبات بعد أن ختمت قصة موسى وفرعون، وبيان الدروس والعبر المستفادة منها، وجاء أول تعقيب يبيِّن صدق النبي ﷺ، وصحة رسالته، من خلال توجيه الخطاب إليه مباشرة:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: ما كنت بالجانب الغربي من جبل الطور عندما أوحينا إلى موسى،

وما كنت أيضاً من الشاهدين؛ فتشاهد ما جرى لموسى، وكيف ناداه الله تعالى، وكلَّفه بحمل الرسالة.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُۚ﴾ أي: ولكنا أنشأنا أجيالاً بعد موسى، مَرَّ عليهم زمن طويل، اندرست في أثنائه الشريعة الإلٰهية، وتغيَّرت أحكامها، وابتعد الناس عن ذكر الله وطاعته، واحتاجوا إلى رسولٍ يدعوهم إلى الله تعالى، ويصحح مسيرتهم، فأوحينا إليك، وأعلمناك ببعض قصص الأنبياء وأخبارهم، ومنها قصة موسى عليه السلام.

فكأنَّه سبحانه قال: وما كنتَ شاهداً لموسى وما جرى عليه، ولكنَّا أوحيناه إليك، فذكر سبب الوحي الذي هو إطالة الفترة، ودل به على المسبَّب اختصاراً، فإذا هذا الاستدراك شبيه ما سيأتي بعده، وهذا تنبيه على المعجز، كأنه قال: إن في إخبارك عن هذه الأشياء من غير حضور ولا مشاهدة، ولا تعلُّم من أهله، **دلالة ظاهرة على نبوتك**[1].

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: وما كنت مقيماً في أهل مدين ورسولاً إليهم، تتلو عليهم آيات الكتاب، ولكنَّا كما كنا مرسلين في كلِّ زمانٍ رسولاً، أرسلناك للناس كافة عندما أصبحوا في أمَسِّ الحاجة إلى رسالتك.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ أي: عندما نادينا موسى.

---

(١) التفسير الكبير: ٢٤/٢٥٧.

﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: ولكن أرسلناك للرحمة، فالله تعالى أراد رحمة عباده فأرسلك إليهم، كما في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فهذه الاستدراكات الثلاثة المتوالية في الآيات، اتجهت كلها لتأكيد صدق رسالة النبي ﷺ، وحاجة الناس إليها:

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أتاهم من نبي قبلك منذ زمن عيسى، لعلَّهم يتعظون ويهتدون.

فمن المعلوم أنَّ رسالته عليه الصلاة والسلام جاءت بعد فترة انقطاع وتوقف للوحي، دامت زهاء ستة قرون، ضلَّت في خلالها البشرية ضلالاً كبيراً، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [المائدة: ١٩].

فببعثته ﷺ انقطعت الأعذار، وأقيمت الحجج على الناس، فإذا ما أنزل الله بهم عقوبة ونقمة بسبب ضلالهم وكفرهم، لا يستطيعون الاحتجاج والاعتذار بجهلهم للحق، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: هلا أرسلت إلينا رسولاً قبل أن تعذِّبنا على كفرنا، يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين بها.

فـ ﴿لَوۡلَآ﴾ الأولى امتناعية، والثانيةُ تحضيضيةٌ واقعة في سياقها، والمعنى: لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم: ﴿رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ما أرسلناك، إنما أرسلناك قطعاً لعذرهم وإلزاماً للحجة عليهم(١).

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤/ ٥٧٠.

والآياتُ في هذا المعنى كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

• تعنُّتٌ وعناد:

وبعد أن أكدت الآياتُ صدقَ النبيِّ ﷺ، وضرورة بعثته، وحاجة الناس إلى رسالته، أظهرت عناد المعاندين لرسالته وبعثته بقوله سبحانه:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ أي: فلمَّا بُعِث محمد عليه الصلاة والسلام، قال المعاندون: هلا أوتي من المعجزات ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ كالعصا واليد البيضاء.

وردَّ الله تعالى عليهم فقال:

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: أَوَلَمْ يكفر هؤلاء المعاندون المقترحون للمعجزات بما أُعطي موسى من قبل؟!.

ولا شكَّ أنَّ الذين اقترحوا المعجزات هم كفَّار مكة، والذين كفروا بموسى هم الذين كانوا في زمانه، إلا أنه تعالى جعلهم كالشيء الواحد؛ لأنهم في الكفر والتعنت كالشيء الواحد، وقد يكون المراد كفار قريش، إذ كانوا منكرين لجميع النبوات، ولا غرضَ لهم من طلب المعجزات إلا التعنت والعناد[1].

﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ أي: قال الجاحدون لرسالتي موسى ومحمد عليهما السلام: هما سحران تعاونا بتصديق أحدهما الآخر. وقرئ: **(ساحران تظاهرا)**.

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي: بكلٍّ منهما كافرون.

---

(١) التفسير الكبير: ٢٤/ ٢٦١.

وردَّ الله تعالى عليهم بأسلوب التحدي الذي يتناسب مع عنادهم وتعنتهم، فقال:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: إن كنتم صادقين في ادعائكم أنهما ساحران.

وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين التوراة والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ [الأنعام].

وقد عُلم بالضرورة لذوي الألباب، أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء، فيما أُنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام، وهو القرآن الكريم، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى عليه السلام(١).

وعجزوا عن الاستجابة للتحدي الذي لا يزال قائماً، ولا يزال المعاندون لرسالة القرآن الكريم عاجزين أيضاً عن تحديه، وسجَّل الله تعالى عجزهم، وكشف معه سبب عنادهم وتعنتهم فقال:

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ﴾ فأهواؤهم شهواتهم، وهي التي تقودهم إلى سبل الضلالة، وتجعلهم يعاندون الحق ويعرضون عنه.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۚ﴾ أي: ولا أضل ممن اتبع هواه، وانهمك بشهواته، معرضاً عن دلائل الهدى التي أنزلها الله.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ١٧.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم في اتباع أهوائهم، وأعرضوا عن الآيات الهادية إلى الحق المبين.

فضلالهم نابعٌ من أنفسهم، ومن اختيارهم وكسبهم، لا من غموض في الرسالة، أو قصور في التبليغ، فلقد وصلتهم رسالته تعالى، وهي ظاهرة مفصَّلة في أدلتها وأحكامها:

﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١﴾.

أي: وصَّلنا لهم آيات القرآن الكريم، وبلغتهم متتابعة متواصلة، في وعدها ووعيدها، وحججها وبراهينها، لعلَّهم يتعظون بها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤١].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٨٩].

- **المؤمنون من أهل الكتاب:**

ولا تخلو البشريةُ في أجيالها المختلفة، من عناصر خَيِّرة كريمة، تنقاد للحق وتُذعن له، أولئك الذين يعمرون الأرض بطاعة الله تعالى وعبادته، ويحققون حكمته في خلق المكونات، وإبداع الموجودات، وقد تحدثت الآياتُ عن هؤلاء المؤمنين، أتباع الأنبياء والمرسلين:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾.

أي: هم بالقرآن يصدِّقون، فهم الصالحون من بقايا أهل الكتاب، الذين ظلوا متمسِّكين بتعاليم الأنبياء السابقين، فلم يغيِّروا، ولم يبدلوا، وبادروا عند بعثة النبي ﷺ إلى تصديقه والإيمان به، كالنجاشيِّ ومن أسلم معه من نصارى الحبشة، وعبد الله بن سلام، وزيد بن سعنة، من أحبار يهود المدينة، وسلمان الفارسي.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: إنا كنا من قبل نزول القرآن مسلمين لله تعالى، ننتظر بعثة خاتم الأنبياء، الذي بشَّر به جميع الأنبياء والمرسلين.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: أولئك الموصوفون بهذه الصفات، يؤتون أجرهم مرتين، بسبب ثباتهم على الإيمان الصحيح، مرةً على إيمانهم بكتابهم، ومرةً على إيمانهم بالقرآن الكريم.

وفي الحديث: عن **أبي موسى الأشعري** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**ثلاثةٌ يؤتَوْنَ أجرَهُم مرَّتينِ: رجلٌ من أهلِ الكتابِ آمنَ بنبيِّه، وأدركَ النبيَّ فآمنَ بهِ، واتبعَهُ وصدَّقه، فله أجرانِ، وعبدٌ مملوكٌ أدّى حَقَّ اللهِ تعالى وحَقَّ سيدِهِ، فله أجرانِ، ورجلٌ كانت له أَمَةٌ فغذاها فأحسنَ غذاءَها، ثم أدَّبَها فأحسنَ أدبَها، ثم أعتقَها وتزوَّجَها، فله أجرانِ**» [رواه مسلم (١٥٤)].

ومن الصفات الكريمة التي يتصفون بها:

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: ويعفون عن المسيء إليهم، ويقابلون إساءته بالإحسان.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: في مختلف وجوه الخير والبر المشروعة.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ أي: فهم لا يخالطون أهل الباطل واللهو والعبث، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

﴿وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ أي: قالوا لمن يكلِّمهم

كلاماً قبيحاً كلاماً حسناً طيباً، يدل على المسامحة والمتاركة والإعراض عن مخالطة الجاهلين.

ورأى بعضهم أن هذه الآيات نزلت في وفد من نصارى الحبشة، قدموا على النبي عليه الصلاة والسلام في مكة، فسمعوا القرآن الكريم منه، واستجابوا لله، وآمنوا به، فلمَّا قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام ونفرٌ معه، فقالوا لهم: خيَّبكم اللهُ مِنْ ركبٍ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئنَّ مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه بما قال، ما نرى ركباً أحمقَ منكم. فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحنُ عليه، ولكم ما أنتم عليه[1].

• **هداية التوفيق وهداية البيان:**

ومن المعلوم أنَّ أشدَّ الناس عناداً لدعوته عليه الصلاة والسلام وإعراضاً عنها، كانوا من قبيلته وعشيرته في مكة المكرمة، وكان عليه الصلاة والسلام حريصاً حرصاً شديداً على هدايتهم، يتألَّم من إعراضهم، ويأسفُ لعنادِهم، فأنزل سبحانه عليه:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أي: إنك لا تهدي هداية التوفيق إلى الإسلام مَنْ أحببتَ من الناسِ، أو مَنْ أحببتَ هدايته، ولا شك أنه عليه الصلاة والسلام يحبُّ هدايةَ الناس جميعاً، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: من يشاء هدايته، فيشرح صدره للإسلام، ويوفقه للدخول فيه.

فهدايةُ البيانِ والتبليغِ للنبيِّ ﷺ، وأما هدايةُ التوفيقِ فللَّهِ تعالى، ومنوطة

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٩.

بمشيئته، كما قال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

فلا منافاة بين هذه الآية، وبين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] لأنَّ التي نفاها هداية التوفيق وشرح الصدر، والتي أثبتها هداية الدعوة والبيان[1].

والله سبحانه عليم حكيم، يعلم أين يجعل هدايته وتوفيقه، ولهذا ختم الآية بقوله:

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أي: المستعدين للهداية، وسبق أن مر معنا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

واتفقت الروايات على أنَّ هذه الآية ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ نزلت في أبي طالب عَمِّ رسول الله ﷺ، قال ابن حجر رحمه الله: «لم تختلف النقلة في أنَّها نزلتْ في أبي طالب»[2].

فعن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: لمَّا حضرتْ أبا طالبٍ الوفاةُ، جاءه رسولُ اللهِ ﷺ، فوجد عنده أبا جهل وعبدَ الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال: «**أيْ عَمِّ، قُلْ: لا إلـٰه إلا الله، كلمة أحاجُّ لكَ بها عندَ اللهِ**» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغبُ عن ملَّةِ عبد المطلب؟ فلم يزل رسولُ اللهِ ﷺ يعرضُها عليه، ويعيدانه بتلك المقالةِ، حتى قال أبو طالب آخرَ ما كلَّمهم: على ملَّةِ عبد المطلب، وأبى أَنْ يقولَ: لا إلـٰه إلا الله، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**لأستغفرنَّ لكَ ما لَمْ أُنْهَ عنكَ**» فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. [رواه البخاري (٤٧٧٢)].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لعمِّه: «**قُلْ: لا إلـٰهَ إلَّا الله،**

---

(١) غرائب القرآن: ٢٠/٥٨.

(٢) فتح الباري: ٨/٥٠٦.

أشهدُ لكَ بها يومَ القيامةَ» قال: لولا أن تعيِّرني قريشٌ، يقولون: إنَّما حمله على ذلك الجزعُ، لأقررتُ بها عينَكَ، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾. [رواه مسلم (٢٥)].

• **شبهة مردودة:**

ومن الشبهات التي كان مشركو مكة يتشبثون بها ستراً لعنادهم وتعنتهم ما حكاه الله تعالى عنهم بقوله:

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ أي: إن اتبعناك نخرج من أرضنا، ونشرد عن بلدنا؛ لأن العرب تغزونا وتتألَّب علينا.

وهذه الشبهة يرددها في العصر الحاضر أيضاً المعارضون لتطبيق الشريعة الإسلامية، فهم يخافون من غضب الدول الكافرة عليهم، ومقاطعتهم اقتصاديّاً، ومنع المساعدات وما يسمونه التقنية الحديثة عنهم، مع أنَّهم في الحقيقة يحتاجون إلينا أكثر مما نحتاج إليهم، يحتاجون إلى المعادن والكنوز التي جعلها الله في بلادنا، كما يحتاجون إلى تصريف بضائعهم في أسواقنا، ولكنَّه الخَوَرُ والعجز والتقليد الأعمى لهم، وقد رد سبحانه عليهم بتذكيرهم بفضله، وأن الأمن والرزق والقوة كلها منوطة بمشيئته تعالى وقدرته:

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: ألم نجعلهم يسكنون في حرم الله الآمن، الذي تُجْلَبُ إليه الأطعمة والبضائع من كل أرض وبلد؟! وكل ذلك بتيسير الله تعالى لتكونَ رزقاً لهم، فقد كان العرب في الجاهلية يغزو بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، بينما كان أهل مكة يعيشون آمنين بجوار بيت الله الحرام، يتمتعون بالرزق الوفير، والمال الكثير، الذي تدرّه عليهم تجارتهم في أسواق الحرم الآمنة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ولكنَّ أكثرهم جهلة، لا يتفطَّنون لفضله تعالى عليهم، فكأنَّه تعالى يقول لهم: أفيعقلُ أن أمنع عنكم الأمن والرزق إن عبدتموني وأطعتموني، وأنا أؤمنكم وأرزقكم وأنتم مشركون بي؛ لأنَّكم تقيمون في جوار بيتي؟! وهو المعنى الذي ذكرهم به مباشرة بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش].

وقوله أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

واستمرار تمتعهم بالأمن والرزق، منوطٌ بشكرهم لله تعالى وعبادته وحده، لا بكفرهم وفجورهم، وما أكثر الشواهد والوقائع المؤكدة لهذه الحقيقة، وهو ما ذكَّرتهم بها الآية الكريمة:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۝٥٨﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ﴾ أي: ما أكثر الأمم التي كانت تتمتع بالأمن والرزق، كفرت بنعم الله تعالى عليها، وطغت وبغت، فدمرها الله تعالى.

﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ أي: وهذه مساكنهم لا تزال آثارُها باقية، لم يسكنها أحد بعدهم، إلا المارة والمسافرون.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: فلم يتركوا بعدهم وارثاً يرث ديارهم وأموالهم، مما يدلُّ على أن الله أنزل بهم عذاباً استأصلهم وقطع دابرهم.

- **أعقل الناس:**

ومن سننه سبحانه في خلقه، ألا يهلك أمة حتى يرسل إليها رسولاً، يدعوها إلى طاعته، ويحذِّرها من نقمته، كما أرسل موسى إلى فرعون وقومه:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: حتى يبعثَ رسولاً في المدينة المركزية التي تتصل بها المدن الأخرى وترجع إليها.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أي: مستحقون للإهلاك بسبب ظلمهم وطغيانهم وإعراضهم عن دعوة رسولهم.

وتدلُّ الآيةُ على عموم رسالة نبينا ﷺ، الذي بُعث في أم القرى مكة المكرمة، التي هي أُمُّ جميع القرى ومركزها، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

فهي بلد الله الحرام، سرة الأرض ومركزها، وقد ثبت علميّاً أنها تقع في وسط الأرض اليابسة على سطح الكرة الأرضية(١).

ثم توجهت الآيات تخاطب المعرضين عن رسالة النبي ﷺ مباشرة، تزهِّدهم بالدنيا، وتبيِّن لهم حقارتها، بالنسبة لما أعد الله تعالى للمستجيبين لدعوته من النعيم المقيم:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ أي: وما أوتيتم من أي شيء دنيوي فهو حقير زائل، تتمتعون به، وتتزينون بزينته زمناً يسيراً.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: وما عنده تعالى في الآخرة من أنواع

---

(١) انظر: (بصائر الحق في سورة الأنعام) وهو ما سُمِّي به تفسير سورة الأنعام في تفسيرنا الموضوعي هذا.

النعيم خيرٌ في نفسه؛ لأنَّه خالصٌ من أي كدر، وهو أبقى لا يزول ولا يفنى، أفلا تعقلون؟.

ورحم الله الإمام الشافعي حيث قال: مَنْ أوصى بثلثِ ماله لأعقلِ الناسِ، صُرف إلى المشتغلين بطاعة الله تعالى؛ لأنَّ أعقلَ الناسِ مَنْ أَعطى القليلَ، وأخذَ الكثيرَ[١].

وأضافتِ الآياتُ بعد هذه المقارنة بين الأشياء مقارنةً أخرى بين الأشخاص:

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: وعدناه الجنة ونعيمها؛ بسبب إيمانه وصلاحه.

﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ أي: فهو مدركه لا محالة؛ لاستحالة الخُلْفِ في وعده تعالى، ولهذا جيء بالجملة الاسمية المفيدة لتحققه البتة، وعطفت بالفاء المنبئة عن السببية[٢].

﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أي: كمن متعناه المتاع الدنيوي الحقير الزائل، المشوب بالمنغصات والأكدار، ثم نجعله يوم القيامة من المحضرين في العذاب.

وفي كلمة ﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ ما يشعر بالإكراه والإلزام، ولهذا كرر في عدد من الآيات بالنسبة للمعذبين في جهنم، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧].

وقوله سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧].

- **براءة وحسرة:**

وعندما يُحضرون في العذاب، يقرَّعون ويوبَّخون بنداءات توجَّه إليهم:

---

(١) التفسير الكبير: ٢٥/ ٧.

(٢) روح المعاني: ٢٠/ ٩٩.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي في الألوهية واستحقاق الطاعة والعبادة.

ويسارعُ رؤساء الكفر والضلال إلى الجواب؛ لتفطنهم إلى أن السؤال عنهم:

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: تحقق عليهم القول باستحقاق العذاب، وتحقق مؤداه وثبت.

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي: هؤلاء الذين دعوناهم إلى الضلال وزيناه لهم.

﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي: أضللناهم باختيارهم وكسبهم، كما ضللنا نحن باختيارنا وكسبنا، فما أجبرناهم وما قهرناهم.

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: مما اختاروه من الضلال والكفر.

﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي: ما كانوا في الحقيقة يعبدوننا ويطيعوننا، إنما كانوا يعبدون أهواءهم وشهواتهم.

هكذا يعلن رؤساء الضلال والكفر يوم القيامة براءتهم من أتباعهم، ويلقون بالتبعة عليهم، فيزداد الأتباع حسرة وألماً.

وهذا ما يفعله الشيطان رأسُ رؤساء الضلال والكفر أيضاً، عندما يخطب في أهل النار: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ويتكرر نداء التقريع والتبكيت كلما زيد في عذابهم، وصب عليهم لون جديد من ألوان العذاب:

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ﴾ أي: فدعوهم مرة ثانية رغم ما سمعوا من براءة الشركاء منهم، فالقوم في حيرة وذهول من شدة العذاب.

﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ لانشغالهم بعذابهم وآلامهم، وعندئذ يرجعون إلى أنفسهم لائمين متحسِّرين، وهم يرون العذاب يصب عليهم.

﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: يا ليتهم كانوا في الدنيا يهتدون، فما أشدَّ حسرتهم! حقّاً إنَّ يوم القيامة هو يوم الحسرة والندامة.

ويتكرر نداء التوبيخ والتقريع مرة ثالثة، ويسألون في هذه المرة عن دعوة المرسلين وموقفهم منها:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: خفيت عليهم الأخبار من الهول والفزع، فلم يتمكنوا من استحضارها وتذكُّرها، أو صارت الأنباءُ كالعمى عليهم، لا تهتدي إليهم.

وأصله: **فعُموا عن الأنباء**، لكنّه عُكس مبالغةً، ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يفيض ويرد عليه من خارج، فإذا أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره[١].

فلا يَسْأل بعضُهم بعضاً؛ لأنهم متساوون في الذهول والحيرة والعجز عن الجواب.

ولما فرغت الآياتُ من تهديد الكفار ووعيدهم، ألحقت به ذكر المؤمنين التائبين؛ لتتم المقابلة والمقارنة:

---

(١) تفسير البيضاوي: ٤/ ٥٧٧.

﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝٦٧﴾.

أي: فعسى أن يفوز بالفلاح والخلود في جنات النعيم.

ومر معنا أن (عسى) من الكريم، تفيدُ التحقيق، ففي الآية بشارةٌ كبيرة للمؤمنين، وحَثٌّ على التوبة والإنابة والعمل الصالح.

• طلاقة مشيئته تعالى وكمالها:

ثم أخبرتِ الآياتُ عن كمال إرادته ﷻ وطلاقة مشيئته:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٨﴾.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ أي: وربك يخلق ما يشاء خلقه باختياره، فلا يخلق شيئاً بغير اختيار، فإرادته جل وعلا طليقة.

﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي: ليس لهم أن يختاروا على الله شيئاً، وله الخيرة عليهم. فالخيرةُ بمعنى التخير، كالطيرة بمعنى التطير، ولم يدخل العاطف في ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ لأنه بيان لقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ إذ المعنى: أن الخيرة لله، وهو أعلم بوجوه الحكمة في أفعاله، فليس لأحدٍ من خلقه أن يختار عليه(١).

فما عليهم إلا الرضا بحكمه القَدَري، والإذعان لأمره التشريعي، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولا شك أن الخير فيما يختاره الله تعالى، فهو العليم الحكيم، يدبر أمر مخلوقاته على أكمل الوجوه وأدق الحكم، وقد أكدت هذه الآية ما سبق تقريره ضمناً في أول السورة: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

---

(١) تفسير النسفي: ٤/٥٧٨.

فلقد تمت إرادته تعالى، وتحققت مشيئته بإهلاك فرعون، وإزاحته عن سلطانه عندما تعلقت إرادته بذلك.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: يتنزَّه عن أن يكون لأحد عليه اختيارٌ أو اعتراض، ويتعالى عن شرك المشركين، وتألُّهِ الطغاة المستبدين.

وأفادت الآيةُ أنَّ على العبد أن يردَّ الأمورَ كلها إلى الله، ويتبرَّأَ من كل حول وقوة، ويسأل ربه التوفيق والسداد في جميع أموره.

ولهذا علَّم النبيُّ ﷺ أصحابه الاستخارة، ففي الحديث: عن **جابر** رضي الله عنه قال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يعلِّمُنا الاستخارةَ في الأمورِ كلِّها كما يعلِّمنا السورةَ من القرآن يقول: «**إذا هَمَّ أحدُكُم بالأمرِ، فليركعْ ركعتينِ من غيرِ الفريضةِ، ثم ليقل: اللهمَّ إنِّي أستخِيْرُكَ بعلمِكَ، وأستقدِرُكَ بقدرَتِكَ، وأسألُكَ مِنْ فضلِكَ العظيمِ، فإنَّكَ تقدِرُ ولا أقدِرُ، وتَعْلَمُ ولا أَعلَمُ، وأنتَ علَّامُ الغيوبِ، اللهمَّ إن كنتَ تعلَمُ أنَّ هذا الأمر خيرٌ لي في ديني ومعاشِي وعاقبةِ أمري** ـ أو قال: **في عاجلِ أمري وآجلِه ـ فاقدِرْهُ لي ويسِّرْه لي، ثم بارِكْ لي فيه. وإنْ كنتَ تعلمُ أنَّ هذا الأمرَ شرٌّ لي في ديني ومعاشِي وعاقبةِ أمري** ـ أو قال: **في عاجلِ أمري وآجلِه ـ فاصرفْهُ عنِّي، واصرفْني عنه، واقدرْ ليَ الخيرَ حيثُ كان، ثم رضِّني به**» قال: «**ويسمِّي حاجتَهُ**» [رواه البخاري (٦٣٨٢)].

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: يعلم ما تخفي صدورهم من خواطرَ وأفكارٍ وما يظهرون، فله تعالى كمال العلم، وله تعالى الاختيارُ لكمالِ علمه وقدرته، وليس لهم أن يختاروا عليه؛ لضعفهم وجهلهم.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: وهو اللهُ المستحقُّ

للعبادة وحدَه، وله الحمد في الدنيا والآخرة؛ لأنه هو الفاعل والمختار، المتصف بصفات الكمال والجلال، المستحق للحمد الدائم المستمر أزلاً وأبداً.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي: وله أيضاً القضاء النافِذُ في كل شيء، فهو الفعَّال لما يريد، مشيئته تامة نافذة في ذرات الموجودات، وله الأمر والتشريع، كما قال سبحانه: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال أيضاً: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وإلى حكمه وقضائه ترجعون يوم البعث والنشور.

• **من آثار رحمته تعالى:**

ثم عرضت الآياتُ ظاهرةً كونية، تدلُّ على كمال قدرته تعالى، وتمام حكمته، وطلاقة إرادته، وتدل أيضاً على شدة حاجة العباد إلى فضله تعالى ورحمته، وشدة افتقارهم إلى تدبيره واختياره، ولهذا سلكت أسلوب الاستفهام التقريري:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: أخبروني إن جعل الله عليكم الليل دائماً إلى يوم القيامة.

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ أي: سماع فهم واتعاظ وتذكر.

فالذي أبدع وأحكم نواميس تقلُّب الليل والنهار، قادر على تغييرها، وجعلها ليلاً دائماً، كما أنه قادر على جعلها نهاراً دائماً أيضاً، فإرادته جل وعلا طليقة، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: أفلا تبصرون ما أنتم عليه من ضلال وجحود، فتستدركوا ما يجب

عليكم استدراكه، وتبادروا إلى التصديق والإذعان.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لتناموا في الليل، ولتبتغوا من فضله تعالى في النهار.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لعلَّكم تدركون أنَّ هذه النواميس الكونية، أثر من آثار رحمته تعالى بكم، فتشكرونه تعالى على نعمه وإحسانه، وتُقْبِلون على طاعته وعبادته وحده.

وتَنْقُلهم الآياتُ فجأةً من تخيُّل هول اضطراب النواميس الكونية في الدنيا، وما يحلُّ بهم لو استمرَّ الليلُ بظلامه، أو النهار بضيائه، إلى مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

وهي المرة الرابعة التي تحكي الآياتُ فيها مثلَ هذا النداء، فالإشراك باللهِ أخطرُ أنواعِ الكفرِ والجحودِ.

وأضافتِ الآياتُ إلى هذا النداء هنا، شهادة كل نبيٍّ على أمته يوم القيامة بأنه بلغها الرسالة، وأقام عليها الحجة:

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي: نبياً يشهدُ على أمته، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحة ما كنتم عليه من طغيان وشرك وفساد.

﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: فعلموا حينئذٍ أنَّ الحقَّ

للهِ وحدَه، فهو سبحانه الحق، ودينه دينُ الحق، وغاب عنهم ما كانوا يفترون في الدنيا من الضلال والكذب.

وبهذا التقرير الصريح، ختمت الآياتُ تعقيباتها على قصة موسى وفرعون، ولا يخفى على القارئ شدَّةَ تناسقها، مع الدعوى الكبيرة في ضلالها، الصادرة عن فرعون وجنوده، والتي كانت أساس علوه وطغيانه واستكباره، حتى مَنَّ الله تعالى على المستضعفين المظلومين بموسى وأخيه هارون عليهما السلام، ممَّا يدل على أنَّ رسالات الأنبياء، كانت ولا تزالُ كهفَ البشرية، الذي يحميها من ظلم الظالمين واستبداد المستبدين، وطغيان الفراعنة المتألِّهين.





الفَصْلُ الثَّالِثُ

قِصَّةُ قَارُونَ

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

- **كنوز قارون:**

ولما فرغت الآيات من التعقيبات على قصة موسى وفرعون، باشرت عرض قصة أخرى لنوع آخر من الطغيان، وهو طغيان المال وما يؤدي إليه من ظلم وفساد واستبداد.

وقعت أحداث هذه القصة في المجتمع الإسرائيلي، على عهد موسى عليه السلام، فقد ذكر تعالى قارون مع فرعون في آية واحدة، فقال سبحانه: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

فبين القصتين اتصالٌ وثيق في الزمان والمكان، وبينهما أيضاً تقارب وتشابه في الموضوع وكثير من الأفكار.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ ۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ۝٧٦﴾.

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: ظلمهم واستطال عليهم، وبغيُ الأقاربِ بعضهم على بعض كثيرُ الوقوع، وينشأ أكثرُه من الحسد، وكلمةُ البغي شديدةُ الصلةِ بالحسد.

أخرج ابن أبي حاتم بإسنادٍ صحيح: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما قال: كان موسى يقول لبني إسرائيل: إنَّ الله يأمركُم بكذا، حتَّى دخلَ عليهم في أموالِهم، فشقَّ ذلك على قارونَ، فقال لبني إسرائيلَ: إنَّ موسى يقولُ: مَنْ زنى رُجِمَ، فتعالَوْا نجعل لبَغِيٍّ شيئاً، حتى تقولَ: إنَّ موسى فعلَ بها، فيُرجَمُ فنستريح منه. ففعلوا ذلكَ، فلمَّا خطبهم موسى قالوا له: وإنْ كنتَ أنتَ؟ قال: وإنْ كنتُ أنا، فقالوا: فقد زنيتَ! فجزِعَ، فأرسلوا إلى المرأةِ، فلمَّا جاءتْ عَظُم عليها موسى، وسألها بالذي فلقَ البحرَ لبني إسرائيل إلَّا صدقتْ، فأقرَّتْ بالحقِّ، فخرَّ موسى ساجداً يبكي، فأوحى الله إليه: إنِّي أمرتُ الأرضَ أن تطيعَكَ، فَأْمُرْها بما شئتَ، فَأَمَرَها فخسفت بقارونَ ومَنْ معه(١).

ويبدو أنَّ قارون حسد موسى وهارون عليهما السلام على منزلتهما الرفيعة في بني إسرائيل، فكان يتمنَّى أن تكون له هذه المنزلة، واستعان بأمواله الطائلة لتحقيق

---

(١) فتح الباري: ٦/٤٤٨.

هذه الأمنية، فأحاط نفسه بالخدم والحشم، واتخذ أنواع الزينة الفاخرة الكثيرة، ليدير أعناق الناس إليه، ويصبح محط أنظارهم، وموضع إعجابهم وتقديرهم، ولا شك أنَّ كثرة الأموال تدفع أصحابها إلى طلب الوجاهة والظهور في مجتمعاتهم، وقد أعطى الله قارون أموالاً كثيرة، حتى قال في بيان كثرتها:

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ أي: وأعطيناه من الأموالِ المدخرة ما إنْ مفاتحها لتثقلُ الجماعة الأقوياء من الرجال، وهذا يدلُّ على كثرةِ هذه الأموال وتنوعها.

• **الوسيلة والغاية:**

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ أي: اذكر إذ قال لقارون الناصحون من قومه، ولا شكَّ أنَّهم موسى وهارون، ومن معهما من أهل الصلاح والتقوى في المجتمع الإسرائيلي.

﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي: لا تفرح فرح البطر والكبر، فرح الذي يستخفه المال فيجعله يتكبر على عباد الله، إنَّ الله لا يحبُّ المتكبرين البطرين، فلا يفرح بالدنيا إلا من اغتر بزخارفها وزينتها، ورضي بها واطمأن إليها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس].

وعدم محبته تعالى كافٍ في الزجر عما نهى عنه، فالفرح بالدنيا مذموم شرعاً ما دام يبعِدُ الإنسانَ عن الله تعالى، ويشغله عن ذكره وطاعته.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: اطلب بما أعطاك الله، الفوز في الدار الآخرة.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ولا تترك نصيبك من الدنيا، الذي أحلَّه الله تعالى، من المآكل والمشارب والملابس، وسائر أنواع المتاع الحلال،

فالدنيا مزرعة الآخرة، وممر إليها، ولهذا أحل الله تعالى للإنسان أن يتمتَّع بها كوسيلة إلى الآخرة، فهي ليست مقصودةً بذاتها، كما قال عليه الصلاة والسلام **لعبد الله بن عمر** ﷺ: «**كُنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ**».

وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيتَ فلا تنتظرِ الصباحَ، وإذا أصبحتَ فلا تنتظرِ المساءَ، وخُذْ مِنْ صحَّتِكَ لمرضِكَ، ومن حياتِكَ لموتِكَ. [رواه البخاري (٦٤١٦)].

﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: وأحسن في عبادة ربك وطاعته، كما أحسن إليك بما أعطاك وأنعم عليك، وذلك بأن تقر بفضله، وتشكره على إحسانه، وتحسن به على عباده.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا تقصد نشر الفساد في الأرض، وتستعمل المال في غير طاعة الله تعالى، فالمال من أخطر وسائل الفساد والإفساد إذا ما أسيء استعماله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بل يمقتهم ويبغضهم.

هكذا رسمت الآيات لأصحاب الأموال المنهجَ القويم الذي يجبُ عليهم أن يلتزموا به، فالمالُ في الحقيقةِ مالُ الله تعالى، وعليهم أن يستعملوه في طاعته، ضمن الحدودِ التي شرعها لهم، والتي تكفَّلت ببيان وظيفته الأساس، كوسيلة لاستمرار الحياة وعمرانها، وإن أي مجاوزةٍ للحدود المشروعة، يخرج المال عن وظيفته الأساس، ويجعله وسيلة هدم للحياة وإفساد لها.

- **غرور واستكبار:**

ويبدو أنَّ كثرةَ المال أعمت قارون عن رؤية الحقيقة، والاعتراف بفضل الله تعالى عليه:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ قال: إنما أعطيتُ هذا المال على علم عندي بطرق اكتسابه وتنميته واستثماره.

وكأنّ قوله هذا جاء ردّاً على قول الناصحين: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] فلم يعترفْ بأنَّ لله تعالى فضلاً عليه في تحصيل هذا المال، مما يدل على شدَّة غروره واستكباره.

ولم يكن قارونُ بِدْعاً في هذا بين أصحاب الأموال والثروات الكبيرة، فأكثرهم ينسَوْنَ فضل الله تعالى عليهم، كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

وما دامت نظرته إلى ما عنده من أموال هكذا، فهو يرى أنه غير ملزم بأي منهج يقيد حرية تصرفه بماله، فلا يحق لأحد أن يملي عليه كيف يتصرف بماله، وهي الفكرة نفسُها التي تَغْلِبُ على عقول كثير من أصحاب الأموال في عصرنا الحاضر، فقارون نموذج مكرر في البشرية، فكم من الناس من يظنُّ أنَّ علمه وكده هما وحدهما سبب غناه، ومن ثَمَّ فهو غير مسؤول عما يُنفق وما يُمسك، غيرُ محاسب عما يفسد بالمال وما يصلح، غير حاسب لله حساباً، ولا ناظر إلى غضبه ورضاه[1].

وقد يكونُ مرادُ قارون من قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ أنَّه يرى لنفسه سابقة استحقاق لهذا المال، وأن الله ما أعطاه هذا المال إلا لعلمه باستحقاقه.

وغفل عن الحقيقة الكبيرة، وهي أنَّه عبدٌ لله تعالى، وأنه ليس لأحد من عبيده سبحانه سابقة استحقاق عليه، وأن كل نعمة ينعم بها الله سبحانه على أحد من خلقه، إنَّما هي بمحض مشيئته وفضله وإحسانه، فسعة المالِ وكثرته ليست دليلَ الفضلِ؛ لأنه تعالى يعطي الدنيا لمن يحبُّ ولمن لا يحبُّ، كما قال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وقال أيضاً يرد على المغرورين من أمثال قارون: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون].

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧١٢.

وردَّ الله تعالى عليه هنا بتذكيره بهوانه وضعفه وعجزه، وأنَّه مهما ملك من الأموال فهو في قبضة قدرته تعالى ومشيئته.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ﴾ وهو سؤالُ تعجيبٍ وتوبيخٍ، بسبب اغتراره بقوته وكثرة ماله، مع علمه أنه تعالى أهلك من الأمم السابقة من هم أقوى منه وأكثر مالاً.

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ لأنه تعالى يأخذهم بغتة، قبل أن يسألهم عن ذنوبهم، لهوانهم عليه، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ [الفرقان: ٧٧].

وقد يكون المعنى المراد نفي السؤال في الآخرة، إذ يُساقون إلى العذاب في جهنم من غير سؤال، لكثرة ذنوبهم وجرائمهم، يُعرفون بسيماهم، من اسوداد الوجوه، وزرقة العيون، قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

أو لا يُسألون يوم القيامة سؤال استعلام، فالله عليم بأحوالهم.

ومهما قيل في معنى الآية، فهي لا تتعارض مع الآيات المخبرة عن السؤال يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

وقوله أيضاً: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر].

فقد يكون المراد منه سؤال التوبيخ والتقريع، أو يكون نفي السؤال وإثباته في موقفين، والمواقف يوم القيامة كثيرة، واليوم طويل، فلا تناقض[1].

• **موكب قارون:**

وبينما كان الرجل في أعلى درجات غروره واستكباره، بين خدمه وحشمه وفي زينته، أنزل الله تعالى به عذابه:

---

(١) روح المعاني: ٢٠/ ١٢١.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ أي: خرج على قومه بموكب كبير حافل، تحيط به بهارجُ الدنيا وزخارفها، من خدم، وحشم، ومراكب فارهة، وثياب فاخرة، وحلي ورايات وزينات.

ومن الطبيعي أن يتجمَّعَ عامة الناس ليشاهدوا مثل هذا الموكب، ولا بد أن يتمنى كثير منهم أن يكون لهم مثل ما عند قارون، من متاع وأموال وزينة، ولهذا أرشدنا النبي ﷺ في مثل هذه الأحوال، فقال: «**إذا نظرَ أحدُكُم إلى مَنْ فُضِّلَ عليه في المالِ والخَلْقِ فلينظرْ إلى مَنْ هُوَ أسفلَ منه ممَّن فُضِّلَ عليه**» [رواه البخاري (٦٤٩٠) ومسلم (٢٩٦٣)].

وزاد مسلم: «**ولا تنظروا إلى مَنْ هو فوقكم، فهو أجدرُ ألا تَزْدَرُوْا نعمةَ اللهِ عليكم**».

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: قال الذين هَمُّهم في الحياة الدنيا وزينتها:

﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: إنه ذو نصيبٍ في الدنيا كبير، فهو رجل محظوظ.

هذه هي أمنيةُ المتعلِّقين بالدنيا، الذين قصروا هممهم عليها، فلم ينظروا إلى ما وراءها، وهي المقولة نفسُها التي يردد أمثالها في عصرنا الحاضر المبهورون بزينة الحضارة المادية الغربية.

وأما القلَّةُ الصالحةُ المؤمنة، فلم ينظروا إلى زينة قارون، ولم يأبهوا بها، ولكنَّهم عندما سمعوا مقالة المفتونينَ بها، توجَّهوا إلى وعظهم، وتصحيح نظرتهم، وبيانِ حقيقة ما عند قارون في نظر الإنسان المؤمن:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: علموا حقيقة الحياة الدنيا والآخرة، وأنَّ الدنيا مطية إلى الآخرة، وأنها دار اختبار وابتلاء، وليست دار نعيم وبقاء، وهذه حقيقة لا يعلمها إلا المؤمنون الصالحون:

﴿وَيْلَكُمْ﴾ وهي كلمةُ دعاءٍ بالهلاك، ثم شاع استعمالها للزجر.

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: لا تتمنوا أن يكون لكم مثل ما لقارون، فثواب الله في الآخرة للمؤمن الصالح خيرٌ مما تتمنونه، فهذا عَرَضٌ زائل، لا يخلو من كدر وهمٍّ وعناء، ويعرِّض صاحبه لمسؤولية جسيمة يوم القيامة، فهو مسؤول عن اكتسابه وإنفاقه.

ففي الحديث الشريف: عن **أبي بَرْزَةَ الأسْلَمي**: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتَّى يُسْأَلَ عن عُمُرِهِ فيم أفناه، وعن عِلْمِهِ فيم فَعَلَ فيه، وعَنْ مَالِهِ مِنْ أينَ اكتسبَهُ وفِيْمَ أَنْفَقَهُ، وعَنْ جِسْمِهِ فيم أبلاهُ**» [رواه الترمذي (٢٤١٧) وقال: حسن صحيح].

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي: ولا ينال ثوابَ الله وما يؤدي إليه من الوصول إلى المرتبة الرفيعة في الجنة إلا الصابرون على الطاعات وترك الشهوات.

- **هلاك قارون:**

وأكدت الآياتُ صدقَ مقولةِ أهل العلم، فبادرت بعدها مباشرةً إلى الحديث عن إهلاكِ الله تعالى لقارون وأمواله وزينته، أنزل الله عليه العذابَ، وهو في موكبه أمام الناس، وصُدِّر الكلامُ بحرف الفاء التي أفادت العطف على جملة ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩]، وأفادت أيضاً التعقيب:

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: جعلنا الأرضَ تغور به وبداره، حتى انطبقت عليهم.

هكذا في زمنٍ يسير أهلك الله قارون، وغاب في طيات الأرض هو وأمواله وزينته.

والجدير بالذكر أنه جاء في الحديث الشريف: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**بينما رجلٌ يمشي قد أعجبتْهُ جُمَّتُهُ وبُرْدَاهُ، إذ خُسِفَ به الأرضُ، فهو يَتَجَلْجَلُ في الأرضِ حتَّى تقومَ الساعةُ**» [رواه مسلم (٢٠٨٨)].

ترى هل هو قارون الذي تحدَّثت عنه الآيات؟ أم هو رجل آخر؟ الله سبحانه أعلم، لكنَّ الآياتِ الكريمةَ والحديثَ الشريفَ دلت دلالةً واضحةً على أنَّ الذي يمشي مِشية المختال المتكبر، وهو معجب بثيابه وزينته، يمكن أن يخسف الله به الأرض، والجزاء من جنس العمل.

ولا بدَّ أن قارون عندما شعر بأن الأرض تغور تحت قدميه، أخذ يصيح ويستغيث، ويتوسل إلى الناس، ليبادروا إلى مساعدته ونجدته، ولا بد أنه أطمعهم بأمواله وكنوزه، وعرضها عليهم في مقابل معونته، ولكن أحداً لم يستجب له، ولم يجرؤ على الاقتراب منه، حتى أعوانه وخدمه وحشمه تَخلَّوا عنه خشيةَ أن يغيبوا معه في طيات الأرض، وهذا ما أفادته الآية الكريمة، في أوَّلِ تعقيبٍ لها على هلاك قارون:

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: ما كان له من جماعة يمنعون عنه عذاب الله تعالى، وما كان بنفسه من الممتنعين.

وهكذا رأى الناس درساً بليغاً عملياً، وموعظة كبيرة مؤثرة، في هلاك قارون وأمواله، وخاصَّةً للذين تمنوا أن يكون لهم مثل ما كان له من مال، فقد ظهرت لهم الحقيقة كاملة، وهي أنَّ الرزق بيد الله تعالى، وأن سعته وقلته

بمشيئته وحده، وأن كثرة الرزق ليست دليلَ الفضل عنده تعالى، وأنَّ قلته ليستْ دليلَ الهوان عليه تعالى، وأن القوة الحقيقية للإنسان ليست بكثرة ماله، إنَّما قوته الحقيقية بإيمانه بالله تعالى، ولقد رأينا منذُ عهد قريب كيف انهارت القوة المادية الكبيرة التي أقامها الشيوعيون في جزء كبير من الأرض.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: صار الذي تمنوا مكانة قارون منذ زمن قريب، يعترفون بخطئهم.

﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يبسط سبحانه الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء.

وكلمة (وي) تدل على التندُّمِ والتعجُّبِ، يستعملها النادم لإظهار ندامته، والمتعجب لإظهار تعجبه.

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ وفي قراءة (**لَخُسِفَ بنا**) أي: لولا أنه تعالى أنعم علينا بالسلامة والعافية، لخسف بنا كما خسف بقارون؛ لأننا تمنينا أن نكونَ مثله.

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: لا يفلح الجاحدون نعمَ الله تعالى عليهم، فالبغي عاقبته وخيمةٌ في الأفراد والجماعات.

- **الحقيقة الكبرى:**

ثم قررت الآيات في ختام السورة، الحقيقة الكبرى التي برزت من قصة موسى مع فرعون، وقصة قارون مع كنوزه:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ فالدار الآخرة

هي المقصودة بذاتها، وهي الهدف الأساس، أما الدنيا فهي وسيلة إليها، فهي زائلة ومنتهية.

ولقد جعل الله الدار الآخرة للذين لا يريدون علوّاً في الدنيا ولا فساداً، فالله ما خلق الخلق ليظلمَ بعضُهم بعضاً، وينشروا الفساد في البلاد وبين العباد، فالله العليم الحكيم أعلى وأجلُّ من ذلك، فلم يخلق الخلق عبثاً وباطلاً ولعباً، ولهذا جعل الفوز بالحياة الآخرة المقصودة بذاتها مرتبطاً بما يريده الإنسان في حياته الأرضية الأولى، فكل من أراد العلو والاستكبار والطغيان، والانحراف عن أصل الحكمة التي خُلق من أجلها، لا فوز له في الحياة الآخرة، فلا فوز لفرعون وأمثاله من الطغاة المستبدين؛ لأنَّه كما مرَّ معنا في أول السورة [٤]: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، ولا فوز أيضاً لقارون وأمثاله، من أصحاب الكنوز المكدَّسة في بيوت الربا؛ لأنه بغى بأمواله على الناس، ونشر فيها الفساد.

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: والعاقبة الطيبة المحمودة في الدارين، للذين يخشون الله تعالى، ويلتزمون بشريعته وأحكام دينه.

ويُظْهِرُ الله تعالى في الدار الآخرة عدلَه وفضلَه؛ أما **فضله**:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أي: فله خير منها في ذاتها وفي وصفها وفي قدرها. وأما **عدله** تعالى:

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلا مثل ما كانوا يعملون في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عباس** رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ

اللهَ كتبَ الحسناتِ والسيئاتِ، ثم بيَّنَ ذلك، فمَنْ هَمَّ بحسنةٍ فلم يَعْمَلْها، كتبها اللهُ عندَه حسنةً كاملةً، وإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَها، كتبها اللهُ ﷻ عندَه عشرَ حسناتٍ إلى سبعمئةِ ضعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وإنْ هَمَّ بسيئةٍ فلم يَعْمَلْها، كتبَها اللهُ عندَهُ حسنةً كاملةً، وإنْ هَمَّ بها فَعَمِلَها، كتبَها اللهُ سيئةً واحدةً» [رواه مسلم (١٣١)].





الخاتمة

الغَايَةُ وَالأَمَلُ

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

وتوجت الآياتُ خاتمةَ السورة بمخاطبة النبي ﷺ، تبشره بالظهور على أعدائه، وعودته إلى مكة المكرمة منتصراً مظفراً:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾.

وقد ذكر بعضُ المفسرين أنَّ هذه الآية نزلت على النبي ﷺ بعد خروجه من مكة مهاجراً إلى المدينة، روى ابن كثير عن الضحَّاك قال: لما خرجَ النبيُّ ﷺ من مكة فبلغ الجُحْفَةَ، اشتاقَ إلى مكة، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾[1].

وفي «صحيح البخاري» [٤٧٧٣]: أن **ابن عباس** قال: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إلى مكة.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٦.

فالآيةُ نزلتْ على النبيِّ ﷺ، وهو مغلوبٌ مهاجِرٌ من بلده، تبشره بالعودة إليها عزيزاً منتصراً، فلن يترك الله تعالى مشركي مكة في بغيهم واستكبارهم، وكما منَّ تعالى على المستضعفين في عهد موسى عليه السلام، وخلَّصهم من ظلم فرعون وطغيانه، كذلك سَيَمُنُّ تعالى على النبي ﷺ، والمستضعفين من المؤمنين، ويخلِّصهم من ظلم الطغاة المستكبرين في مكة المكرمة، وبهذا يظهر لنا الاتِّساقُ والاحتباكُ بين قوله تعالى في صدر السورة: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾، وبين قوله في ختامها [٨٥]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: إن الله تعالى الذي أنزل عليك القرآن، من غير أن يكون لك إرادة وكسب واختيار في نزوله، لرادك إلى بلدك التي أخرجتك، عزيزاً منتصراً، فمكة المكرمة هي المعاد، التي اعتادها النبي ﷺ، وألفها واشتاق العودة إليها، ولا شك أنَّ هذه البشارة تخفِّفُ من معاناته عليه الصلاة والسلام، وهو في طريق هجرته، وتقوي عزمه وتصميمه على متابعة الدعوة.

والتغيير الذي أخبر الله عنه، مبني على علمه الكامل وحكمته التامة:

﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وأنت يا محمد الذي جاء بالهدى؛ لأن الله تعالى أنزل عليك القرآن الكريم، واختارك لحمل رسالته إلى الناس، من غير توقع منك وتطلع إلى أن تكون نبيّاً ورسولاً:

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ ۝٨٦﴾.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ﴾ أي: ولكن الله ألقاه إليك، لأنه أراد أن يرحمَ بك عباده، ويخلِّصهم من ظلم الظالمين وفساد المفسدين، وهو تأكيد لما سبق من قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: فلا تكونن مُعيناً للكافرين، فقد أرسلت حرباً عليهم لا معيناً لهم.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ﴾ أي: لا تمنعنك الموانع والعقبات عن تبليغ آيات الله تعالى المنزلة عليك، فعليك أن تتجاوزَ جميعَ العقبات والموانع التي تواجهك، فطريق الدعوة مليء بالصعاب والأشواك.

﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: استمر في طريق الدعوة، ودُم عليه، وادع إلى طاعة ربك وحده، واحذر أن تكون من المشركين، فخطرهم كبير، ومكرهم شديد، ولا ينجيك منه إلا الثباتُ على طريق الدعوة لله تعالى، والإخلاص له وحده.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ أي: اجعل دعوتك خالصة لله تعالى وحده، فلا يستحق العبادة والطاعة إلا هو.

﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ﴾ أي: كل شيء مصيره ومآله إلى الزوال والهلاك، سواء كان من الطغاة المستبدين، أو من غيرهم، فلا يبقى إلا الحي القيوم، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن].

﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: له جل وعلا القضاء النافذ في جميع المكوّنات، وإليه يوم القيامة ترجعون للمسؤولية والجزاء.

هكذا ختم الله تعالى آيات سورة القصص بهذه الوصايا الخالدة، الموجهة مباشرة للنبي ﷺ، تثبته على طريق الدعوة، فهي الكفيلة بإزاحة الطغاة

والمستبدين، وهي وحدها التي يزلزل الله بها عروشهم، وبها يزيلُ فسادَهم وإفسادَهم، ويخلِّص الناس من ظلمهم وبغيهم، وما على الدعاة إلا أن يقتدوا برسول الله ﷺ، ويستمروا في طريق الدعوة إلى الله تعالى وحده، دون يأس أو كلل أو فتور، فهي الغاية والأمل.

ومهما كانت العقبات التي يقيمها في وجوههم الطغاة والمستبدون كبيرة، فالعاقبة للمتقين، وعليهم أن يتذكروا دائماً قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

وقوله أيضاً: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.





تفسير سورة العنكبوت

الابْتِلَاءُ وَالوَلَاءُ فِي سُورَةِ العَنْكَبُوتِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فلم يخلق الله تعالى المكونات عبثاً ولعباً وباطلاً، بل خلقها لحكمة، فقدر أن تكونَ الدنيا دارَ ابتلاء واختبار، وأن تكون الآخرةُ دارَ حساب وجزاء، وجعل سبحانه الابتلاء بالتكليف والمسؤولية، ويتوقف نجاح المكلفين على مدى التزامهم بالتكاليف الشرعية، وولائهم لخالقهم جل وعلا.

وإنَّ اختلافَ الناس في الاختيار والالتزام، يبعث بينهم اختلافاً وصراعاً، يؤدي إلى ظهور أشكال وصور أخرى للابتلاء في الحياة الدنيا.

- ويتحمَّلُ الأنبياءُ عليهم السلام والصالحون من المؤمنين أكبرَ قسط من **مشقات الابتلاء**، وهو ما أبرزته آيات سورة العنكبوت في أولها: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

- كما أبرزت بعد ذلك **شدة معاناة بعض الأنبياء** عليهم السلام، وهم يقومون بواجبهم في تبليغ رسالة ربهم.

• **والفائزون في الابتلاء**، هم الثابتون على ولائهم لله تعالى وحده، والمخلصون بطاعته وعبادته، أولئك الذين يسدِّدهم الله تعالى ويوفقهم، ويهديهم السبل الموصلة إلى رحمته وفضله، والفوز بجنته: ﴿وَالَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت].

• أما **الخاسرون في الابتلاء**، فهم المُعْرِضون عن رسالة ربهم، الجاحدون لفضله وإحسانه، الموالون لغيره تعالى، فشأنهم في هذا كشأن العنكبوت: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت].

تلك هي الأفكار الأساس في سورة العنكبوت، وهي تتجه جميعاً إلى إبراز الحياة الدنيا وجوهرها، من خلال ما فيها من ابتلاء وولاء.

ماذا يبقى للإنسان في حياته إذا ما جعل ولاءه لغير خالقه ورازقه، وسلخ نفسه عن الشعور بالمسؤولية أمامه يوم القيامة؟! ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت].



الفَصْلُ الأَوَّلُ

ابْتِلاءُ المُؤْمِنِينَ وَوَلاؤُهُمْ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾

- **ابتلاء المؤمنين:**

﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾.

سبق الحديث على الفواتح الحرفية لبعض السور القرآنية.

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾.

أي: أَظَنَّ الناس أن يتركوا أن يقولوا: آمنا. من غير ابتلاء واختبار.

والاستفهام للإنكار، ويفيدُ في الوقتِ نفسِه تقرير الابتلاء للمؤمنين، فالإيمانُ ليس مجرَّدَ دعوى يدَّعيها الإنسان، فهو انقيادٌ وإذعانٌ لله تعالى، يظهر أثرُ ذلك الانقيادِ بالقيام بالتكاليف الشرعية التي شرعها الحق سبحانه؛ فالإيمانُ حقيقةٌ ذاتُ تكاليف، وأمانةٌ ذاتُ أعباء، وجهادٌ يحتاجُ إلى صبر، وجهدٌ يحتاج إلى احتمال(١).

ويبدو أنَّ فواتح سورة العنكبوت، نزلت على النبيِّ ﷺ، تثبيتاً للصحابة ﭫ، عندما كانوا يتعرَّضون لأشدِّ أنواع أذى المشركين في مكة المكرمة، حتى إنَّ بعضَهم كان يأتي إلى النبيِّ ﷺ يشكو إليه ما يلقَى من المشركين.

فعن **خباب بن الأرت** ﭬ قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظلِّ الكعبةِ، قلنا له: ألا تَسْتَنْصِر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال ﷺ: **«كانَ الرجلُ فِيْمَنْ قبلَكم يُحْفَرُ له في الأرضِ، فيُجْعَلُ فيهِ، فيُجَاءُ بالمنشارِ، فيوضَعُ على رأسِهِ، فيُشَقُّ باثنتينِ، وما يصدُّه ذلكَ عن دينِهِ، ويمشَّطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لحمِهِ من عظمٍ أو عَصَبٍ، وما يصدّه ذلكَ عَنْ دينهِ، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموت، لا يخافُ إلا اللهَ أو الذئبَ على غنمِهِ، ولكنَّكم تستعجلونَ»** [رواه البخاري (٣٦١٢)].

- **التمييز بين الخبيث والطيب:**

والابتلاء سنة قديمة من سنن الله تعالى، جارية بمشيئته على جميع الناس، ولهذا قال تعالى بأسلوب التقرير والتأكيد:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ﴾ أي: ابتلينا الأمم السابقة.

---

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٢٠.

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: ابتليناهم لنبيِّن المخلصين من المنافقين، ونميِّزَ الصادقين عن الكاذبين.

فمن شكرَ في أيام الرخاء، وصبر في أيام البلاء، فهو من الصادقين، ومن بطرَ في أيام الرخاء، وجَزِعَ في أيام البلاء، فهو من الكاذبين[١].

فالابتلاءُ تمحيصٌ للمؤمنين، وله سبحانه كمالُ العلم، يعلم ما كان وما يكون، ولا يحاسِبُ الناس على حسب ما سبق به علمه، بل يحاسبهم على حسب أعمالهم الصادرة عنهم، وكما علم سبحانه صدق الصادقين، وكذب الكاذبين قبل وقوعه، علمه أيضاً واقعاً كائناً عند حدوثه، فالتجدُّدُ في المعلومِ لا في العلم، ولهذا قال بعضهم: فليعلمنه علماً شهوديّاً، كما كان يعلم ذلك علماً غيبيّاً[٢].

وقد أكد سبحانه هذا المعنى في آيات كثيرة:

منها قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

ومنها قوله سبحانه: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وكما أنه سبحانه لا يتركُ المؤمنينَ دونَ ابتلاءٍ واختبار، كذلك لا يتركُ الكافرين دون جزاء وعقاب، وهذا ما قررته الآياتُ بالأسلوب السابق أيضاً، وهو أسلوبُ الاستفهام الإنكاري، وصدَّره هنا بحرف الإضراب (أم) ليدلَّ على أنَّ هذا الحسبان أبطل من الأول[٣].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ﴾ أي: أظن الذين يعملون السيئات

---

(١) تفسير النسفي: ٥/٣.

(٢) نظم الدرر: ١٤/ ٣٩٠.

(٣) تفسير البيضاوي: ٥/ ٤.

ـ كالكفر والمعاصي ـ أن يفوتونا، ويفلتوا من حسابنا وجزائنا؟!.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: بئس ما يحكمون ويظنون، فلا فواتَ لهم من عذاب الله تعالى، والجميع في قبضة قدرته ﷻ، وتحت قهر مشيئته، في الحياة وبعد الممات، المسؤولية وما يترتب عليها من حساب وجزاء، أمر مقدر كائن لا محالة.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: من كان يؤمن بيوم القيامة، ويرجو ثواب الله ورحمته في هذا اليوم.

﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ﴾ أي: فإنّ الوقتَ المقدّرِ للقائه لآتٍ وقادم، وإذا كان وقتُ اللقاءِ آتياً، كان اللقاءُ كائناً لا محالةَ، فعلى الإنسان أن يبادِرَ إلى ما يحقق أمله، ويصدق رجاءه، فيصبر على ابتلائه سبحانه، ويرضى بقضائه، ويتمسك بعبادته وطاعته.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: وهو سبحانه السميع لأقوال الصادقين والكاذبين، العليم بنياتهم وطوياتهم وحقيقة أعمالهم.

• **التحذير من العُجْب والغرور:**

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ﴾ أي: من جاهد نفسه في طاعة الله تعالى، فحملها على القيام بالعبادات، وكفَّها عن الشهوات، فإنَّ جهاده في الحقيقة من أجلِ نفسه؛ لأنَّ منفعتَه ترجعُ إليها، وفائدته تعود عليها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إنه تعالى غنيٌّ عن طاعتهم وجهادهم، فلا تنفعه طاعتهم، ولا يضرُّه كفرهم ومعاصيهم، وما كلَّفهم بعبادته وطاعته إلا رحمة بهم، فإنَّ صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، في طاعة ربهم، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٥].

فلا ينبغي لأحدٍ أن يغترَّ بعمله، ويعجب به، ويمنَّ به على الله تعالى، فالفضل له أولاً وآخراً، وله الحمد بدءاً وختاماً، ولقد قال تعالى لخيرته من خلقه، سيد العباد والمجاهدين، سيدنا محمد ﷺ، في بواكير ما أنزل عليه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

وفي الحديث القدسي الشريف: «**يا عبادي إنَّكم لَنْ تبلغوا ضُرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكُم وجنَّكُم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما زادَ ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أنَّ أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم، ما نقصَ ذلك من ملكي شيئاً**» [رواه مسلم (٢٥٧٧)].

ولا ينبغي للإنسان المعافى أيضاً أن يتمنَّى البلاء، فقد يكون ذلك بسبب اغتراره بنفسه، وإعجابه بعمله، وهو لا يعلمُ ما يؤول إليه أمره، وقد يضعفُ عند نزول البلاء ولا يصبر، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه مؤدِّباً ومرشداً: «**لا تَمَنَّوا لقاءَ العدوِّ، وسلوا اللهَ العافيةَ، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أنَّ الجنةَ تحتَ ظلالِ السيوفِ**» [رواه البخاري (٣٠٢٥)].

قال **ابن بطَّال**: حكمةُ النهي أنَّ المرءَ لا يعلمُ ما يؤول إليه الأمر، وهو نظيرُ سؤال العافية من الفتن، وقد قال **الصدِّيق** رضي الله عنه: لأن أعافى فأشكرَ أحبُّ إليَّ مِنْ أن أُبتلَى فأصبر. وقال **غيره**: إنَّما نهى عن تمنِّي لقاء العدو، لما فيه من صورة الإعجاب، والاتكال على النفوس، والوثوق بالقوة، وقلَّة الاهتمام بالعدو(١).

وكثيراً ما رغَّب النبي ﷺ في سؤال العافية، فعن **أنس** رضي الله عنه: أن رجلاً جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ أيُّ الدعاءِ أفضلُ؟ قال: «**سَلْ ربَّكَ العافيةَ والمعافاةَ في الدُّنيا والآخرةِ**» ثم أتاه في اليوم الثاني فقال: يا رسولَ الله أيُّ الدعاءِ أفضلُ؟ فقال له مثلَ ذلك، ثم أتاه في اليوم الثالث، فقال له مثلَ ذلكَ،

---

(١) فتح الباري: ٦/١٥٦.

قال: «**فإذا أُعطيتَ العافيةَ في الدنيا، وأُعطيتَها في الآخرةِ فقد أفلحتَ**» [رواه الترمذي (٣٥١٢) وقال: حديث حسن].

وكان عليه الصلاة والسلام يتعوَّذُ من كثير من أنواع البلاء، فعن **عائشة** رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «**اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من الكَسَلِ والهَرَمِ، والمأثَمِ والمَغْرَمِ، ومن فتنةِ القَبْرِ وعذابِ القبرِ، وَمِنْ فتنةِ النَّارِ وعذابِ النَّارِ، ومن شرِّ فتنةِ الغِنَى، وأعوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الفَقْرِ، وأعوذُ بكَ من فتنةِ المسيحِ الدجَّالِ**» [رواه البخاري (٦٣٦٨)].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: **كان النبيُّ ﷺ يتعوَّذُ مِنْ جَهْدِ البلاءِ، ودَرْكِ الشقاءِ، وسُوْءِ القضاءِ، وشماتةِ الأعداءِ**. [رواه البخاري (٦٣٤٧)].

ويمتدُّ فضله تعالى على عباده من الدنيا إلى الآخرة، فكما وفقهم في الدنيا إلى طاعته، وأعانهم على عبادته، يتفضَّل عليهم في الآخرة، فيتجاوزُ عن سيئاتهم، ويضاعِفُ ثوابَ حسناتهم:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

أي: لنجزينَّهم جزاءَ أحسنِ أعمالهم.

- **الابتلاء بمعارضة الوالدين:**

وقد يُبتلى الإنسانُ ويختَبَرُ بأحب الناس إليه وأقربهم منه، فماذا يفعل؟ وكيف يتصرَّف لكي ينجحَ في مثل هذا الاختبار؟.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أي: وصيناه بوالديه إيصاءً حسناً، فأمرناه برعايتهما وبرهما والإحسان إليهما، ولو كانا كافرين، فالإسلام دينُ التواصل والتراحم والوفاء.

وفي الحديث الشريف: عن **أسماء** رضي الله عنها قالت: قَدِمَتْ أمي وهي مشركةٌ ـ في عهدِ قريش ومُدَّتهم إذ عاهَدُوا النبيَّ ﷺ ـ مع أبيها، فاستفتيتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ: إنَّ أمي قدمتْ وهي راغبةٌ، قال: «**نعم، صِلِي أمَّكِ**» [رواه البخاري (٥٩٧٩)].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ أي: إن طلبا منك طلباً لازماً أن تشرِكَ بي إلٰهاً، لا علم لك أنَّه إلٰه يستحق العبادة، فلا تطعهما، فلا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق.

ودلَّت الآيةُ على أنَّ الشرك بالله تعالى يتنافى مع العلم، وأنَّ طلب الوالدين من ولدهما الشرك لا يستند إلا للتقليد الأعمى، فهما يحرصان على أن يقلِّدهما ولدهما تقليداً أعمى، من غير تفكر واستبصار.

وإذا لم تجزْ طاعةُ الأبوين في هذا المطلب، مع المجاهدة منهما له، فعدم جوازها مع مجرد الطلب من دون مجاهدة منهما أولى، ويلحق بطلب الشرك منهما سائر معاصي الله سبحانه، فلا طاعةَ لهما فيما هو معصية لله(١).

وقد روي في سبب نزول هذه الآية: عن **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه: أنه نزلتْ فيه آياتٌ من القرآنِ، قال: حلفتْ أمُّ سعدٍ ألا تكلِّمه أبداً، حتى يَكْفُرَ بدينه، ولا تأكلَ ولا تشربَ، قالت: زعمتَ أنَّ اللهَ وصَّاك بوالديك وأنا أمُّكَ، وأنا آمرُكَ بهذا، قال: مكثتْ ثلاثاً حتَّى غُشِيَ عليها من الجهدِ، فقامَ ابنٌ لها يقالُ لَهُ: عُمارة، فسقاها، فجعلتْ تدعو على سعدٍ، فأنزل الله ﷻ في القرآنِ هذه الآية. [رواه مسلم (١٧٤٨)].

وزادت روايةٌ ثانيةٌ: أنَّ سعداً قال لأمه: يا أمَّاه، لو كانت لكِ مئةُ نفسٍ، فخرجتْ نفساً نفساً، ما تركتُ ديني هذا، فإن شئتِ فكلي، وإن شئتِ فلا تأكلي. فلمَّا رأتْ ذلكَ أكلتْ(٢).

وأنزل الله فيه أيضاً: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾

---

(١) فتح القدير: ٤/ ١٩٣.

(٢) تفسير القرطبي: ١٣/ ٣٢٨.

وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: فأجازيكم على أعمالكم.

وفي ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك، وحث على الثبات والاستقامة في الدين[1].

وأتبع سبحانه الوعيد بالترغيب فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾.

أي: لندخلنهم يوم القيامة في جملة الصالحين، أو: مع الصالحين لا مع آبائهم المشركين.

وهذه أمنيةُ الأنبياءِ والأولياءِ، قال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

- **المذبذبون بين الإيمان والكفر:**

ثم عرضت الآيات أنموذجاً لضعاف الإيمان، وبينت كيف ينتكسون إلى الكفر، إذا ما ابتلوا وامتحنوا بتسلط عدوهم عليهم:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: وبعض الناس من يعلن بلسانه فقط كلمة الإيمان، من غير أن ينشرحَ لها صدره، فهو كالأعراب الذين قال الله فيهم:

---

(١) تفسير النسفي: ٥/٦.

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: فإذا عذب بسبب إعلانه الإيمان بالله، لم يحتمل الأذى، وجزع منه، ولم يصبر عليه، وجعل عذاب ما يصيبه من أذى الكفار، كعذاب الله يوم القيامة في النار، فكفر ورجع مرتدّاً.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي: وإذا ما نصر الله تعالى المؤمنين، وأعزَّ دينهم، عاد أولئك المرتدون إلى الإيمان، وقالوا للمؤمنين: إنا كنا مؤمنين معكم، فاجعلوا لنا نصيباً في الغنيمة، وأشركونا في السلطان والدولة، والرتب والمراتب.

ورد عليهم سبحانه مكذباً لهم بقوله:

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: هو عليم بما في صدور العالمين من إيمان أو نفاق.

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

وهو تأكيد لما سبق تقريره في قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت].

- **حاملو الأوزار:**

ولم يقتصر الكفَّارُ وهم يفتنونَ المؤمنين عن دينهم على أسلوب التعذيب والأذى، بل أضافوا إليه أساليبَ الترغيب والاحتيال والمراوغة، وهو ما حكاه تعالى عنهم بقوله:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي: سيروا

معنا في طريق الشرك والكفر، ونحن نتحمَّل عنكم آثام ذنوبكم، إن كان ثَمَّة حساب وجزاء كما تقولون.

ويدل هذا على اغترارهم بأنفسهم، وجهلهم بحقيقة الحساب والجزاء يوم القيامة، فالمسؤولية في هذا اليوم شخصيةٌ، وكل أحد يحمل أوزاره الخاصة به، وقد بيَّن تعالى هذا المبدأ الأساس في الحساب والجزاء الأخروي بآيات كثيرة:

منها قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

وإلى جانب هذا المبدأ، فالعذاب في هذا اليوم شديد، حتى يتمنى الإنسان النجاة منه، ولو على حساب أحب الناس إليه في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ [المعارج].

وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس].

فما أجهل هؤلاء القائلين هذه المقولة، وما أعظم غرورهم! وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله:

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: لكاذبون في مقالتهم هذه؛ لأنها تخالِفُ الحقيقة مخالفةً كاملةً.

نعم سيتحمَّلون أوزاراً إضافية فوق أوزار كفرهم وفجورهم، وهذه الأوزارُ الإضافية ليست أوزار أحد من الناس، بل هي أوزار نشرهم للكفر والضلال:

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ لأنهم كانوا رؤساء كفر ودعاة ضلال،

فهم الذين قال الله عنهم في **سورة النحل**: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وقد بيَّنَ النبيُّ ﷺ ذلك بقوله: «**مَنْ دعا إلى هُدًى كانَ لَهُ مِنَ الأجرِ مثلُ أجورِ مَنْ تبعه، لا ينقصُ ذلك من أجورِهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالةٍ كانَ عليه من الإثمِ مثلُ آثامِ مَنْ تبعه، لا ينقصُ ذلك من آثامهم شيئاً**» [رواه مسلم (٢٦٧٤)].

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من أمثال هذه الأباطيل والأضاليل، وهو سؤال تقريع وتوبيخ، لا سؤال استعلام؛ لأنه تعالى عليم بأقوالهم وأفعالهم.



الفَصْلُ الثَّانِي
ابْتِلاءُ الأنْبِيَاءِ وَوَلاؤُهُمْ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن

كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ويتفاوت الابتلاء بحسب تفاوت مراتب المؤمنين، ولهذا كان ابتلاءُ الأنبياءِ أعظمَ من غيرهم، ففي الحديث الشريف: عن **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه قال: قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ قال: «**الأنبياءُ، ثُمَّ الأمثلُ فالأمثل**» [أخرجه النسائي في الكبرى (٧٤٣٩)، والترمذي (٢٣٩٨) وصححه، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والدارمي (٢٨١٧)، انظر: فتح الباري: ١٠/ ١١١].

وقد بينتِ الآياتُ هذه الحقيقة من خلال عرضها السريع، لمحن بعض الأنبياء، وشدةِ معاناتهم، وهم يقومون بأعباء الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالته.

- **ابتلاء نوح** عليه السلام:

وكان ابتلاءُ نوح عليه السلام أطولَ ابتلاءٍ، إذ استمرَّ يعاني من أذى قومه، وهو يدعوهم إلى الله، ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً:

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ وتحمَّل عليه السلام أذى قومه وغلظتهم طول هذه المدة، حتى جاءه نصر الله تعالى، وأهلك قومه بالطوفان.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: وهم مصرُّون على كفرهم وظلمهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي: أنجيناه من الغرق مع المؤمنين الذين حملهم معه في السفينة ـ وقد تقدَّم بيان ذلك في سور سابقة، كسورتي هود والمؤمنون ـ.

﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وجعلنا حادثةَ الطوفانِ الذي عمَّ الأرض كلها، ونجاة أصحاب السفينة عبرةً كبيرةً، وموعظة جليلة لجميع العالمين.

• **ابتلاء إبراهيم عليه السلام:**

وكان ابتلاء إبراهيم عليه السلام قاسياً وشديداً أيضاً، فبعد أن دعا قومه إلى عبادة الله الواحد، وجاهد بأقصى ما يستطيع من أجل إنقاذهم من عبادة الأصنام، والعقائد الباطلة الفاسدة، ما لقي منهم إلا العناد والكفران، وإلقائه في النيران:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: اعبدوا الله وحده، واتقوا أن تشركوا به شيئاً، فهذا خير لكم من عبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، إن كنتم حقّاً من أهل العلم والفهم والتمييز.

ثم بيَّن لهم عليه السلام بعد هذه الدعوة الصريحة، بطلان عقائدهم ومعبوداتهم، فقال:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أي: ما تعبدون من دونه تعالى إلا مجرد أوثان، هي في الحقيقة والواقع تماثيل مصنوعة بأيديكم.

فالأوثان: هي الأصنام، وبعضهم قال: هي الأصنام المصنوعة من جص أو حجارة[١].

ولا يخفى ما في أسلوب كلامه عليه السلام من تحقير أصنامهم وتهوين شأنها.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ٣٢٥.

﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي: وتصوِّرون بأيديكم شيئاً مصروفاً عن وجهه وحقيقته، وتكذبون كذباً بتسميتها آلهة.

أو: وتصنعون كذباً، فهي عين الكذب وحقيقته، قال بعضهم: الأظهر كون ﴿إِفْكًا﴾ مفعول به؛ والمراد به نفس الأوثان، وجعلها كذباً مبالغة، والإفك هو المأفوك المصروف عما هو عليه، وإطلاقه على الأوثان؛ لأنها مصنوعة، وهم يجعلونها صانعاً[1].

ويؤيده قراءة (**تُخَلِّقون**) بالتشديد، للتكثير، من: خلَّق، وقراءة (**تَخَلَّقون**) من: تخلَّق، بمعنى تكذَّب وتخرَّص[2].

وكلُّها تفيد تشنيعَ كذبهم، والمبالغةَ في تقبيح عبادتهم للأصنام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: اطلبوا الرزق من الله تعالى، لا من هذه الأصنام، التي لا تملك لكم رزقاً، ولا تجلبُ لكم نفعاً، ولا تدفع عنكم ضرراً.

قال ذلك ﵇ لأنَّه يعلمُ أنَّ قومه كانوا يعتقدون أنَّ عبادة الأصنام تجلب لهم الرزق، وتدفع عنهم الضرر؛ ولهذا عمد إلى تكسير أصنامهم، كما تقدم في **سورة الأنبياء**؛ ليبين لهم عجزها عن جلب نفع أو دفع ضرر: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: اجعلوا عبادتكم وشكركم له سبحانه وحده، فإنه هو الذي يرزقكم، وأنتم راجعون إليه يوم القيامة، ومسؤولون عن أعمالكم.

وقابلوا دعوته بالإعراض، وحكموا عليه بالتحريق بالنار، فما كان منه ﵇ إلا أن قابل تهديدَهم بتهديد أكبر، ووعيد أعظم، مذكراً لهم بمصير الأمم المكذبة قبلهم:

---

(١) روح المعاني: ٢٠/ ١٤٤.

(٢) تفسير القرطبي: ١٣/ ٣٢٥.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي: فأهلكهم الله تعالى بسبب تكذيبهم، وإعراضهم عن دعوة رسلهم.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ما على الرسول إلا واجب البلاغ الواضح، الذي لا شك فيه، وقد بلغتكم الرسالة، وأقمت عليكم الحجة.

• **النشأتان:**

ويبدو أن الآيات توقفت عن حكاية كلام إبراهيم ﷺ واستأنفت كلاماً مسوقاً من جهته تعالى، يبيِّنُ فيه كمال قدرته، ويردُّ فيه على منكري البعث يوم القيامة، من كفَّار قريش، الذين كذَّبوا النبيَّ ﷺ، ومن قوم إبراهيم، الذين كذبوا إبراهيم عليه السلام.

ويحتمل أن تكون الآياتُ تحكي تتمَّةَ كلامِ إبراهيم، ويقوِّي هذا الاحتمالَ قراءةُ صيغة الخطاب: ﴿تروا﴾:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: أَوَلَمْ يعلموا كيف بدأ اللهُ الخلقَ، وأخرجه من العدم، فكلُّ المخلوقاتِ مسبوقةٌ بالعدم، ثم أوجدها الله تعالى.

والاستفهام للإنكار والتقرير في آن واحد، ينكر عليهم تكذيبهم، ويقرر حقيقة مسلَّمةً واقعةً لا شك فيها، فكأنه يقول لهم: قد رأيتم ذلك وعلمتموه.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ أي: ثم هو قادر على إعادته، فمن خلق المخلوقات وأخرجها من العدم، قادِرٌ على إعادتها مرة ثانية بعد موتها وفنائها.

وقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ ليس معطوفاً على ﴿يُبْدِئُ﴾، والرؤية ليست واقعة عليه، وإنَّما هو كلام مستأنف، يقرر قدرته تعالى على الإعادة بعد الموت، ولا شك أنه أمر منطقي مُسَلَّم، أكده تعالى بعد ذلك بقوله:

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إن إعادة الخلق أمر يسير على الله، كما كان بدء الخلق أمراً يسيراً عليه.

وقضيةُ الإيمانِ بيوم القيامة، من أكبر القضايا التي اهتمَّ بها القرآن الكريم؛ لاتصالها الوثيق بكماله تعالى وحكمته، وتمام مشيئته وقدرته وعلمه، ولهذا ذُكِرَتْ في سورٍ كثيرة، واتَّبعت الآيات الأسلوب العقلاني المنطقي نفسَه في ردِّها على مُنْكري هذا اليوم، وسيأتي في السور القادمة إن شاء الله، ما يؤكد ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

ثم أمرت الآياتُ النبيَّ عليه الصلاة والسلام أن يقول لمنكري يوم القيامة متحدياً:

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: انظروا فيها نظر المتفكر المُتَدَبِّر، وتأملوا الأطوار التي تمرُّ بها من بداية وجودها، لتدركوا عظمةَ مكوِّنها، وقدرة مدبِّرها جَلَّ جَلَالُهُ، وأنه قادر على إنشائها مرة ثانية بعد موتها وفنائها.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: بعد النشأة الأولى التي تشاهدونها.

وفي التصريح بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى أنه وحده القادر على هذه النشأة، فلا يقدر عليها غيره، وأفاد التعبير عن الإعادة بالنشأة، على أنهما نشأتان لا فرق بينهما، فكلاهما اختراع وإيجاد، وهما شأنٌ واحدٌ من شؤونه تعالى، لا فرق بينهما إلا بالأولية والآخرية(١)، وهما اللتان يقرُّ بهما المعذبون في النار يوم القيامة، وهم يسألون الله الخروج منها: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

---

(١) تفسير أبي السعود: ٧/ ٣٥.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وكما أنه تعالى يتصف بكمال القدرة، فهو يتصف أيضاً بطلاقة المشيئة وتمام الإرادة، فهو الفعال لما يريد:

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بعدله تعالى؛ لأنه عليم حكيم.

﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ بفضله تعالى؛ لأنه رحيم كريم.

﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي: وإليه سبحانه وحده، لا إلى غيره، تردون.

وأفادت الآية أنَّ التعذيبَ والرحمةَ قد يكونان عاجلين، وكأنه قال: وإن تأخر ثوابكم وعقابكم فإن إلينا إيابكم، فهما مُدَّخران لكم، فلا تظنوا فواتهما.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ولا خروجَ لكم من قبضة قدرته تعالى، في أي مكان كنتم، في الأرض أو في السماء.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: وما لكم غير الله ولي يتولاكم، ولا نصير ينصركم، فاجعلوا ولاءَكم للهِ وحدَه، وفرُّوا إليه، والجؤوا إلى ظلِّه وجواره، فلا ظِلَّ إلا ظله، ولا أمنَ إلا في حماه وجواره.

وبهذا تكون الآيات قد بدأت تتحدَّث عن الولاء، إلى جانب ما سبق من حديثها عن الابتلاء، ولا شك أنَّ المبتلَى يستشعر ضعفه وحاجته إلى مولى يواليه ويلجأ إليه، ويستنصر به، والمؤمن يلجأ إلى الله، يتولاه ويدعوه ويتوكل عليه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى﴾ أي: في يوم القيامة،

لأنهم محجوبون عنها، محرومون منها؛ لأنهم جعلوا ولاءهم لغير الله تعالى.

وهي رحمة عظيمة، عظَّمها الحق، فأضافها إلى ذاته المقدسة، والكافر لا يوصف باليأس من رحمته في الدنيا؛ لأنه لا رجاء له، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق[١].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: ولهم أيضاً مع اليأس من رحمته تعالى، عذاب أليم مستمر، لا أمل لهم بالنجاة منه.

- **نجاة إبراهيم عليه الصلاة والسلام:**

وعادت الآياتُ إلى الحديث عن ابتلاء إبراهيم عليه السلام، فوصفت لنا كيف أدركته رحمة الله تعالى وحفَّت به ألطافه، وهو في قمة المحنة والابتلاء؛ لأنَّه جعل ولاءه لله وحده، والله سبحانه لا يتخلَّى عن أصفيائه وأوليائه، ولا يخذلهم:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ أي: ما كان جواب قومه على حججه وبراهينه القاطعة الملزمة، إلا أن قال بعضهم لبعض: اقتلوه أو حرِّقوه، فقد عرفوا قوة حججه، وشعروا بخطره على عقائدهم وضلالاتهم، حتى إنَّهم أقروا له بذلك، واعترفوا أمامه بظلمهم لأنفسهم بعبادة غير الله تعالى، كما تقدَّم في **سورة الأنبياء**: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ﴾ أي: بعد أن ألقوه فيها، فما أصاب إبراهيمَ عليه السلام شيءٌ من حرها، بل كانت برداً وسلاماً عليه، كما تقدم تفصيل ذلك في **سورة الأنبياء**، عند قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) روح المعاني: ٢٠/١٤٩.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في إنجاء إبراهيم عليه السلام من النار دروساً وعبراً عجيبة ظاهرة، تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلى صدق إبراهيم عليه السلام، وموالاته لربه، وأنه تعالى لا يتخلَّى عمن يلجأ إليه ويواليه، وخَصَّ المؤمنين بالذكر، لأنهم هم المنتفعون بهذه الآيات، المستفيدون بما فيها من عبر ودروس وعظات.

- **الغربة في الوطن:**

وظلَّ قومُ إبراهيم متمسِّكين بعقائدهم الفاسدة، موالين لأصنامهم وأوثانهم، عاكفينَ على عبادتها، رغم وضوح المعجزة وقوة دلالتها، ولا شك أنَّه ابتلاءٌ آخر ابتلي به إبراهيم عليه السلام، ومحنة ثانية امتُحن بها، جعلته يشعر بالغربة، وهو في وطنه، وبين أهله وقومه، فأيُّ صلةٍ تربطه بهم، وهم يوالون الأصنام والأوثان، بينما هو يوالي الرحمن، وأيُّ خيرٍ يُرجى من مثل هذا المجتمع الوثني الفاسد، وكيف يعيش بينهم بعد أن ألقوه في نار عظيمة، ساهموا كلهم في جمع حطبها وإذكاء لهبها؟!.

وقرر عليه السلام أن يهجرَ أهله وقومه ووطنه، لعلَّ الله تعالى أن يهديه إلى أرضٍ يستأنس فيها بعبادة ربه، ويعمرها بطاعته، وقبل أن يباشر الرحيل، وجَّه إلى قومه كلماته الأخيرة، أودعَ فيها كلَّ ما يحمل في نفسه وقلبه من مرارة غربته بينهم، كما أعلن فيها براءته من شركهم وكفرهم:

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: إنما واليْتُم هذه الأوثان، وعبدتم هذه الأصنام، لتتوادوا فيما بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها، واتفاقكم عليها.

أو: إنَّ مودة بعضكم بعضاً هي التي دعتكم إلى اتخاذها، بأن رأيتم بعض من تودونه اتخذها، فاتخذتموها موافقة له لمودتكم إياه[1].

فأصنامكم هذه ليست إلا رموزاً، تتعصَّبون لها تعصباً عاطفيّاً أعمى، لا يستند إلى دليل وبرهان، فهي لا تستحق أن تُعْبَدَ وتُعَظَّمَ وتُوالى، وهذه ظاهرة لا تزال ـ مع الأسف ـ موجودة عند كثير من الأمم والشعوب.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: وفي يوم القيامة تتغير الأحوال، وتنقطع بينكم الصلات، وتنقلب المودة إلى بُغض وعداء؛ لأنها قامت على أساس فاسد باطل، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ أي: ومأواكم النار أبداً، وما لكم أولياء ينجونكم منها، كما نجاني ربي من النار التي ألقيتموني فيها.

• **الأنس في الهجرة:**

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ أي: صدَّق إبراهيمَ عليه السلام لوطٌ.

وكأنه تعالى بهذا الخبر أراد أن يبيِّنَ لنا شدَّةَ فساد هذا المجتمع، فلم يستجب لدعوة إبراهيم إلا رجلٌ واحد فقط، فما أشدَّ غربته عليه السلام، وهو في وطنه وبين أهله وقومه! وهذا ما جعله يعزم على الرحيل والهجرة.

﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ أي: إني مهاجر إلى حيث أعبد ربي بحرية، وأستأنس بطاعته، فلا أستوحشُ برؤية أصنامكم وأوثانكم، ولا أعاني من أذاكم.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: إنه هو الغالب الذي يمنعني ويحميني،

(١) روح المعاني: ٢٠/ ١٥٠.

الحكيم فيما يهديني إليه ويختاره لي، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

وهداه تعالى إلى أرض الشام المباركة، فخرج مهاجراً إليها مع لوط عليه السلام، وحطَّ رحاله فيها، كما قال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء].

وآنسه سبحانه في غربته، ورزقه الذرية الطيبة الصالحة، بعد أن تقدَّمَ به العمر:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ فعاش حتى قرت عينه برؤية حفيده يعقوب بن إسحاق، كما وهب له سبحانه إسماعيل أيضاً، من هاجر المصرية، ويبدو أنَّ الآياتِ سكتت عن ذكره هنا؛ لأنَّه عاش مع أمه هاجر منذ كان رضيعاً في أرض الحرم، بعيداً عن إبراهيم عليه السلام، فما استأنس إبراهيمُ في العيش معه، كما استأنس بإسحاق ويعقوب، وقد تقدَّم ذكر خبره في **سورة البقرة**.

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: جعل الله تعالى في ذرية إبراهيم شرف النبوة، وحمل رسالة الكتب المنزلة، فما نبَّأ الله تعالى نبيّاً بعده إلا من ذريته، ولا أنزل كتاباً إلا عليهم، فهو أصل شجرة الأنبياء بعده، وهذا من تكريم الله له عليه السلام، ومن آثار ولايته إياه فهو يتولى الصالحين.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: جمعنا له خيري الدنيا والآخرة، فآتاه الله في الدنيا الرزق الواسع الهنيء، والمنزل الرحب والمورد العذب، والزوجة الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، فكل أحدٍ يحبّه ويتولّاه، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه[١].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٥.

وكل ذلك بسبب صبره عليه السلام على الابتلاء والمحنة، وإخلاصه في عبادة الله والدعوة إلى توحيده وموالاته.

● **ابتلاء لوط عليه السلام:**

أرسلَ الله لوطاً عليه السلام إلى مجتمع فاسد، انتشرت فيه آفات اجتماعية خطيرة، أبرزها وأخطرها الشذوذ الجنسي، وكان على لوط عليه السلام أن يواجه هذه الآفات ويسعى إلى تطهير المجتمع منها:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: إنَّكم لتأتون الفعلة المتناهية في القبح؛ وهي تتنافى مع أصل الفطرة الإنسانية، فما كانت منتشرةً بين الناس، ويبدو أنَّ قوم لوط هم الذين ابتدعوها، وانتشرت فيهم مع آفات أخرى، نبَّه عليه السلام عليها بقوله:

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ أي: كيف تأتون الرجال، وتقطعون السبيل على المسافرين، وتفعلون المنكرات في مجلسكم الجامع الذي تجتمعون فيه؟!.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي: فما كان جواب قومه إلا أن قالوا بعناد ووقاحة: ائتنا بعذاب الله الذي تتوعدنا به، وكان عليه السلام قد حذَّرهم من عذاب الله تعالى وسطوته وانتقامه.

وقد أجملتِ الآياتُ هنا الحديث عن الحوار الذي قام بين لوط وبين قومه، وأبرزت استنصاره بالله، للدلالة على شدة معاناته منهم:

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ۝٣٠﴾.

أي: انصرني على القوم الذين بلغوا الغاية في الفساد، حتى أصبحوا عريقين فيه، لا يُرجى صلاحهم.

واستجاب الله تعالى لدعوةِ لوط ﷺ، وأرسلَ ملائكةً لتُنْزِلَ العذاب عليهم، وأمرهم تعالى أن يذهبوا أولاً إلى إبراهيم يبشرونه بالولد، ويخبرونه بالمهمة التي كلفوا بها:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝٣١﴾.

وهي بلدة سَدُوْم، التي أرسل إليها لوط.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝٣٢﴾.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ أي: قال إبراهيم ﷺ: إنَّ فيها لوطاً فكيف تهلكونها؟! وهذا يدل على أن وجود الصالح بين القوم الفاسدين، يدفع عنهم البلاء ويؤخر العذاب.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: من الهالكين؛ لأنها كانت مثلهم في الكفر والظلم.

وازدادت معاناةُ نبيِّ الله لوط من فساد قومه، عندما جاءه الملائكة بهيئة شبان حِسَان، فخاف عليهم من فجور قومه وشذوذهم، قبل أن يعرفهم:

﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝٣٣﴾.

﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: اعتراه الهم

والحزن، وضاق ذرعه بشأن حمايتهم من شرور قومه.

ويرادُ **بالذرع** المقدرة والطاقة؛ وذلك لأنَّ طويلَ الذراعِ ينال ما لا يناله قصير الذراع.

وقد فصَّلت الآيات ما أجملته هنا في عدة مواضع؛ منها قوله تعالى في **سورة هود**: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝٨٠﴾ [هود].

ومنها قوله سبحانه في **سورة الحجر**: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٦٧ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ۝٦٨ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝٦٩ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٠ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝٧١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾.

وعندما اشتد الأمر على لوط عليه السلام، وبلغ الغاية في الضيق والكرب، كشف الملائكة أمرهم له:

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٣٤﴾.

أي: منزلون عليهم عذاباً من السماء، بسبب فسقهم وخروجهم على سنن الفطرة، وهو مطر الحجارة الذي ذكره الله تعالى بقوله في **سورة هود**: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢﴾.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٣٥﴾.

أي: ولقد تركنا من هذه القصة عبرة واضحة لمن يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار، ولا يزال موضعها إلى الآن في أرض منخفضة، تسمى: **البحر الميت**، أو **بحيرة لوط**.

❁ ❁ ❁

الفَصْلُ الثَّالِثُ

الفَائِزُونَ والخَاسِرُونَ في الابْتِلاءِ وَالوَلاءِ

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾

أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

- **إهلاك المستكبرين:**

وانتقلت الآياتُ إلى التذكير السريع بنبيِّ الله شعيب عليه السلام، وما ابتلي به من عناد قومه وتكذيبهم وفسادهم:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: لا تعملوا على نشر الفساد في الأرض، وكانوا أهل طمع وجشع، انتشر بينهم الغش والتلاعب بالمقاييس والمكاييل، وقطع الطريق على المسافرين.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: أخذتهم الصيحة الشديدة التي زلزلتهم، فأصبحوا في دورهم وبيوتهم باركين على ركبهم ميتين.

وهكذا كما قدر تعالى الابتلاء والاختبار للمؤمنين، قدر الجزاء والهلاك للكافرين، كما تقدم في صدر السورة، وقد أكدته هذه الآيات وما بعدها وهي تذكرنا تذكيراً سريعاً مجملاً ببعض الأمم الهالكة، ورؤوس الضلال والكفر فيها، وبصنوف العقاب والعذاب الذي أنزله الله عليهم:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ﴾ أي: وأهلكنا عاداً وثمود، ولا تزال آثار هلاكهم ظاهرة في أطلال مساكنهم، في الشمال من أرض العرب وفي جنوبها.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي: حبب إليهم الشيطان الكفر والمعاصي، فأبعدهم عن سبيل الحق الذي دعتهم إليه أنبياؤهم، وفعلوا ذلك باختيارهم وكسبهم، فقد كانوا متمكنين من النظر والتفكر والاستبصار:

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ﴾ أي: وأهلكنا قارون الذي تكبَّر وطغى بسبب كثرة ماله، كما مرَّ في **سورة القصص**، وأهلكنا أيضاً فرعون ووزيره هامان.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ أي: قابلوا رسالة موسى عليه السلام ومعجزاته بالاستكبار والطغيان، وما كانوا رغم قوتهم وسلطانهم فائتين ناجين من عذاب الله تعالى.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي: عاقبناه بجنايته وجريمته.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ كقوم لوط، الذين أمطر الله عليهم الحجارة، وعادٍ الذين أرسل الله عليهم الريحَ الشديدة، تحصبهم بالحجارة، والعربُ تسمِّي الريحَ العاصف التي فيها الحصى الصغار أو الثلج أو البرد والجليد حاصباً[1].

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كثمود قوم صالح، ومدين قوم شعيب.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارون الذي خسف الله به وبداره الأرض.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقوم نوح، وفرعون وجنوده.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بسبب إصرارهم على الكفر والفساد والطغيان.

- **بيت العنكبوت:**

مهَّد الله بهذا العرض السريع لبعض المعذبين الهالكين من الأمم السالفة، لهذا المثال الرائع، الذي سُميت السورة كلها باسمه، لمثل بيت العنكبوت.

فقد اعتمد هؤلاء الظلمة من الأمم والأفراد على غير اللهِ تعالى، اعتمدوا على أوثانهم وأصنامهم، وعلى جنودهم وأعوانهم، وعلى أموالهم، فجعلوا ولاءهم لها، وظنُّوا أنها تحميهم وتمنعهم، فخاب ظنُّهم، وانقطع رجاؤهم، فلم

---

(١) تفسير الطبري: ١٠/٩٦.

يفلتوا من عذاب الله تعالى، ولم تمنعهم أوثانهم وجنودهم وأموالهم من بأسه تعالى وانتقامه، فكان مثلهم كما قال الحق جل وعلا:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: اتخذوا غير الله أنصاراً ينتصرون بهم ويعتمدون عليهم.

﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أي: كمثل هذه الحشرة الصغيرة الضعيفة، اتخذت بيتاً لتحتمي به وتأوي إليه.

فما أهونهم على الله تعالى، فهم لا يزيدون عن مقدار حشرة صغيرة، رغم ما كانوا عليه من قوة التمكن والسلطان والطغيان، وما أضعف الأولياء الذين امتنعوا بهم واعتمدوا عليهم!.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وإنَّ أضعف البيوت هو بيت العنكبوت، فبيتها في غاية الضعف؛ لا يمنعها ولا يحميها، بل يصير سبباً لهلاكها؛ إذ يبادر الناس عادة إلى تنظيف بيوتهم منها عند مشاهدتهم لبيوت العنكبوت.

وكذلك حال هؤلاء الذين لجؤوا إلى غير الله تعالى، فما أجهلهم! لم يعلموا ضعف وعجز أوليائهم مع أنَّه بيِّن ظاهر، ولم يعلموا أيضاً أن امتناعهم بغيره تعالى يعرِّضهم لبأسه وانتقامه، لقد أُتي القوم من قبل أوليائهم العُجَّز وبيوتهم الواهنة، كما قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ أي: إن الله يعلم أن أولياءهم

الذين يعتمدون عليهم، ويستنصرون بهم، ليسوا شيئاً يُعبأ به، فهو تأكيد لجهلهم، وتحقير لأوليائهم، ولهذا جاءت الآية بصيغة الخبر المؤكد، المقرر لصحة المثل المضروب.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: وهو تعالى القادر القاهر الذي لا يُغلب، الحكيم في أفعاله وأقواله.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: وهذا المثل ونظائره من الأمثال المحكمة المتقنة في القرآن الكريم، يضربها الله بفضله ورحمته للناس، ليقرِّب لهم المعاني، لعلهم يعقلونها وينتفعون بما فيها.

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: وما يتفهمها وينتفع بما فيها إلا أصحاب العلم والفهم.

وهو تعريض بجهل مشركي قريش، الذين اعترضوا على ضرب الأمثال بالذباب والبعوض والعنكبوت، وأعرضوا عن تَدَبُّرها وفهم معانيها، فهم الذين يتحسرون يوم القيامة على ما فاتهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

فالمثل وسيلة إلى تقريب المعاني الدقيقة، فلا يعقله إلا العالم، لافتقار المثل في إدراك صحته وحسن موقعه إلى أمور سابقة ولاحقة، يُعرف بها تناسب مورده ومضربه وفائدة إيراده(١).

وفي الآية دليل على فضل العلم وأهله، وهم الذين عقلوا عن الله تعالى، فعملوا بطاعته، واجتنبوا معاصيه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**» [رواه البخاري (٢٠)].

---

(١) تفسير النيسابوري: ٢١/ ٥٠.

- **الابتلاء بالتكليف:**

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: خلقهما تعالى محقّاً بحكمة، ولم يخلقهما باطلاً، فلا بدَّ من الابتلاء بالتكليف، لتظهر حكمته تعالى في خلقه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن في خلق السماوات والأرض بإحكام وإتقان، دليلاً على حكمته تعالى الباهرة.

وخُصَّ المؤمنون بالذكر؛ لأنهم المصدقون بكمال قدرته، وباهر حكمته، ويدركون جوهر وجودهم، وحكمة خلقهم، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

بينما الكفار تختلف نظرتهم إلى الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [صٓ: ٢٧].

إن ابتلاء الإنسان بالتكليف وشعوره بالمسؤولية، وما يترتَّب على ذلك من حساب وجزاء، يجعل الإنسان المؤمن يدرك قيمة حياته وجوهر وجوده، ويقبل على طاعة ربه وعبادته بعزم وحزم، غير غافل ولا لاهٍ ولا لاعب، ولهذا توجَّهت الآيات بالخطاب إلى النبيِّ ﷺ، تأمره بالقيام بما كلفه الله تعالى من تبليغ كتابه وعبادته وذكره، تحقيقاً لحكمته سبحانه في خلقه:

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اتلوه تلاوة تتقرَّب بها إلى الله تعالى، وتبلغه للناس، وتبين لهم ما فيه من تكليف.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ أي: دُمْ على

إقامة الصلاة؛ فإن للصلاة المستقيمة الكاملة دوراً كبيراً في استقامة سلوك المصلي، فهي تقمع النفس وتزجرها عن فعل الفواحش والمنكرات؛ لأنها تذكر المصلي بربه، وتربي في نفسه الشعور بمراقبته وخشيته جل وعلا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

وقال ﷻ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

فالصلاةُ بنفسها لا تنهى عن الفواحش والمنكرات، ولكنَّها سبب الانتهاء؛ لأنها تتضمن صنوف العبادة، من التكبير، والتسبيح، وتلاوة القرآن، والركوع، والسجود، فكأنها تقول للمصلي: لا تفعل الفواحش والمنكرات، وأطع ربك الذي تقف بين يديه خاشعاً تناجيه وتدعوه.

وبهذا ينحلُّ الإشكال المشهور، وهو أنَّا نرى أناساً كثيرين، من المرتكبين للفحشاء والمنكر، يصلون ولا ينتهون عن ذلك، فإنَّ نهيها إياهم عن الفحشاء والمنكر لا يستلزم انتهاءهم، ألا ترى أن الله تعالى ينهى عن ذلك أيضاً، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] والناس لا ينتهون[1]، وذلك بسبب ضعفهم أمام شهواتهم، وغفلتهم عن ربهم.

﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ أي: ولذكر الله عند التعرض لفعل الفواحش والمنكرات، والخشية من حسابه وعقابه، أكبر في زجر الإنسان ونهيه عن مقارفة الفواحش والمنكرات، من نهي الصلاة وزجرها، فذكره تعالى في هذه المواطن، التي يكون الإنسان في أثنائها في غاية الغفلة عن ربه، دليل على الفوز والنجاح والخروج من الابتلاء سالماً معافى.

ولا شك أن ذكره تعالى في مثل هذه المواطن، يحفظ الذاكر من لوث المعصية، ودنس الخطيئة، كما عصم يوسف عليه السلام، فخرج من محنته مع امرأة

(١) روح المعاني: ٢٠/ ١٦٣.

العزيز طاهر القلب والنفس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

وهو الذي يؤدي أيضاً إلى الفوز برضوانه تعالى وجنته: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات].

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال عليه الصلاة والسلام، في حديث السبعة الذين يظلهم الله تعالى في ظله: «**ورجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ، فقال: إنِّي أخافُ الله**» [رواه البخاري (١٤٢٣)].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أي: ما تصنعون من خير وشر، ففيها حث على الإكثار من ذكره تعالى، وعلى الشعور الدائم بمراقبته.

فالآية تدلنا على أعظم وسيلة نستعين بها للنجاح فيما نواجه من بلاء ومحن، وهي ذكره سبحانه، الذي أمرنا بالإكثار منه في آيات كثيرة، فمن كان ذاكراً لله تعالى، كان الله معه يؤيده ويسدده: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وفي الحديث القدسي الشريف: «**أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حينَ يذكُرني، فإنْ ذكرَني في نفسِهِ، ذكرتُه في نفسِي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأٍ خير منه، وإن اقتربَ إليَّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً، وإن اقتربَ إليَّ ذراعاً اقتربتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيتُه هرولةً**» [رواه مسلم (٢٦٧٥)].

- **الابتلاء بأهل الكتاب:**

ابتليت الأمة المسلمة منذ فجر وجودها بالمواجهة مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، كما تقدَّم في موضوع **سورة آل عمران**، وها هي الآياتُ في **سورة العنكبوت** تبيِّن للمسلمينَ أحسنَ الطرق التي ينبغي عليهم التزامها في مواجهتهم لأهل الكتاب:

﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾.

﴿وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: إلا بأحسن طرق المجادلة، كمقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح، بأسلوب لا يدل على الضعف، ولا يؤدي إلى الظهور بمظهر الذلّة، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ أي: إلا الذي أفرطوا في الفساد، وكانت لهم قوة وشوكة، فهؤلاء أمرنا بجهادهم وقتالهم، حتى يخضعوا لأحكام دين الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي: قولوا لهم ذلك في أثناء المجادلة، إظهاراً لامتيازكم عليهم، فأنتم تؤمنون بكل الكتب المنزلة، وهم لا يؤمنون بكتابكم.

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي: وقولوا لهم أيضاً: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾، ونحن الخاضعون له المستسلمون لدينه.

وهذا تعريض بهم؛ لأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، كما قال سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ أي: وكما أنزلنا إليهم الكتاب، أنزلنا إليك

الكتاب، وهو القرآن الكريم.

﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: كانوا يصدِّقون به قبل نزوله؛ لأن الله تعالى قد بشَّر به في الكتب السابقة، حتى كان أهل الكتاب من اليهود في المدينة المنورة، يستنصرون به على أعدائهم، كما تقدم في **سورة البقرة**، عند قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِۦ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: ومن أهل مكة من يؤمن به أيضاً، بعد أن دعاهم الرسول ﷺ إلى الإيمان به.

ويمكن أن يكون المراد بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين أسلموا وصدقوا برسالة النبي ﷺ.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ أي: وما ينكر آياتنا مع ظهورها وارتفاع شأنها، إلا المتوغلون في الكفر المصرون عليه.

ومن المعلوم أن الجحود يكون بعد المعرفة، وهذا يدل على أنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أن آيات القرآن الكريم هي كلام الله المنزل على رسوله ﷺ، فشأنهم في هذا كشأن فرعون وملئه الذين جحدوا معجزات موسى عليه السلام مع ظهورها ووضوحها، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

- **حفظ القرآن الكريم:**

ومن أدلة صدقه عليه الصلاة والسلام وصحة رسالته، وأنَّ القرآن الكريم منزل عليه، أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَابٍ﴾ أي: ما كنتَ قبلَ تنزيل القرآن عليك، تتلو أي كتاب.

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ أي: وما كنت أيضاً قادراً على أن تخطه بيمينك.

﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: لو كنت ممن يقدر على التلاوة، والخط، لارتاب بصدق نبوتك وصحة رسالتك المبطلون، وقالوا: لعلَّه اقتبسه وأخذه من كتب الأوائل.

هكذا قطع الله تعالى الطريق على المبطلين، ورد شبهاتهم قبل حدوثها، وهذا يؤكد أنَّ القرآن كلام العليم الخبير جل وعلا.

وقد أثاروا مثل هذه الشبهات، مع علمهم أنه عليه الصلاة والسلام كان أميّاً، وقالوا ما حكاه الله عنهم: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: بل القرآن الكريم آيات واضحات، يحملها العلماء والحفَّاظ في صدورهم، فهو غير مقتبس من كتاب، ولا يقدر أحد على تحريفه، وهي ميزة خص الله تعالى بها القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة، فيسَّرَ تلاوةَ آياته وحفظها وتدبُّر معانيها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وفي الحديث القدسي الشريف: «**إنَّما بعثتُكَ لأبتليكَ وأبتليَ بك، وأنزلتُ عليكَ كتاباً لا يغسِلُه الماءُ، تقرؤه نائماً ويقظان**» [رواه مسلم (٢٨٦٥)].

وقوله: «**لا يغسله الماء**» معناه: محفوظ في الصدور، لا يتطرَّق إليه شيء من الزيادة والنقص، بل يبقى على مر الأزمان.

فهو محفوظ في الصدور، ميسَّر على الألسنة، مهيمن على القلوب، معجزٌ لفظاً ومعنًى، ولهذا جاء في الكتب المتقدمة وصف هذه الأمة: **أناجيلهم في صدورهم**(١).

والجدير بالذكر أنَّ الله تعالى حفظه أيضاً في السطور، فقد اتخذ النبيُّ ﷺ

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٠.

كُتَّاباً للوحي، يكتبون له ما ينزل عليه من آيات القرآن الكريم في مجلس نزولها، بإملاءِ النبيِّ ﷺ، وقد جمعت هذه النسخة التي كتبها كُتَّاب الوحي، بعد وفاة النبيِّ عليه الصلاة والسلام بزمن قريب، في عهد خليفته الصديق، ومنها نُسخت المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه.

فلا عذرَ لأحدٍ في الإعراض عنه، وإنكار حقائقه، فهو كتاب الله، مؤيد بالبراهين الواضحة والحجج القاطعة، ولهذا قرر تعالى في ختام هذه الآية:

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي: الظالمون لأنفسهم، بإبعادِها عن الحقيقة، وحرمانها من الهداية، وهو تقبيحٌ لحالهم، وتأكيد لما سبق من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

- **المعجزة الخالدة:**

ثم ذكر الله تعالى بعضاً من صور ظلمهم وجحودهم:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: هلَّا أنزل على محمد ﷺ معجزات من ربه، كناقة صالح وعصا موسى.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: قل لهؤلاء الجاحدين: إنما المعجزاتُ تنزَّل بمشيئته تعالى وحده، فلا علاقة لأحد بذلك.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: فلا شأن لي بإنزال المعجزات، إنَّما شأني محصورٌ بالإنذار، وتبليغ الآيات وتوضيحها.

وقد أجملت الآيةُ هنا ما سبق تفصيله من مقترحاتهم في **سورة الإسراء** عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ

بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾.

وردَّ سبحانه عليهم أيضاً بأنه أنزل على النبي عليه الصلاة والسلام أعظمَ المعجزات، وأوضح الآيات، التي تكفي وتغني عن كل معجزة مقترحة:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ أي: أنزلنا القرآن الكريم يتلى عليهم بشكل دائم، تتحدَّاهم آياته، وهي تقرع أسماعهم، وتزلزل وجدانهم، وهي باقيةٌ لا تزولُ، بخلاف المعجزات التي يقترحونها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنَّ في هذه المعجزة القرآنية الباقية رحمة من الله تعالى عظيمة، وموعظة جليلة، ينتفع بها المؤمنون؛ لأنها تهديهم إلى أقوم المناهج والشرائع.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ﴾ أي: قل لهم: يكفي أن يشهد بصدق رسالتي وصحة نبوتي الله ﷻ، ويشهد عليهم بالتكذيب والجحود.

فكما أنَّ المعجزة القرآنية تكفي عن كل معجزة مقترحة، فإنَّ شهادة الله تعالى تكفي عن غيرها، لكمال علمه جل وعلا:

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ فلا يخفى عليه شأني وشأنكم.

ولقد شهد الله تعالى في عددٍ من الآيات بصدق النبي ﷺ، منها قوله سبحانه: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

وفي مقابل شهادته تعالى بصدق رسوله عليه الصلاة والسلام وصحة نبوته، يشهد بأن كل مخالف له كافر مبطل:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: خاسرون الخسارة الحقيقية التي لا عوض لها.

• المستعجلون للعذاب:

ومن صور جحودهم وظلمهم استعجالهم لنزول العذاب عليهم:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: يستعجلونك بنزول العذاب الذي تتوعدهم به استعجالاً يدل على استهزائهم وتكذيبهم وتعجيزهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

لكنَّ عذابَهم منوطٌ بمشيئته تعالى لا بمشيئتهم، فلا يأتيهم إلا في الأجل المسمَّى، الذي سبق به علمه تعالى وتعلقت به مشيئته.

﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: وليأتينَّهم فجأةً عند حلول أجله المسمى، وهم في غاية الغفلة عنه، والشعور بالأمن منه، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف].

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

وكرره تعالى تعجيباً من شدة عنادهم وجحودهم، أو من شدة جهلهم وغفلتهم، فكيف يستعجلون العذابَ وهو قريبٌ منهم، محيطٌ بهم؟! فلا يفصلهم عن عذاب جهنم إلا آجال قريبة وحياة قصيرة، توشك على الانتهاء.

ويمكن أن يكون هذا تنزيلاً لحال السبب منزلة المسبب، فإنَّ الكفرَ والمعاصي الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم[١].

أو هو على طريقة القرآن في التصوير في استحضار المستقبل كأنه مشهود، ليوقع في الحس رهبة، ويزيد استعجالهم للعذاب نكارة[٢].

ثم تعرض لهم الآيات صورة واقعية من صور إحاطة عذاب جهنم بهم:

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٥﴾.

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ وإذا كان العذاب يغطيهم من فوقهم ومن تحتهم، فلا بدَّ أن يكونَ محيطاً بهم عن أيمانهم وشمائلهم.

﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً: ذوقوا جزاء جحودكم وعنادكم في الدنيا.

• مواساة الغرباء:

إنَّ من أشدِّ ما يُبتلى به المؤمنون بسبب إيمانهم، إكراههم على ترك ديارهم، والنزوح عن أوطانهم، والتضييق عليهم في أرزاقهم، ومحاربتهم في أقواتهم، ولهذا اتجهت الآيات في آخر السورة تحثُّ المؤمنين على مواجهة هذا الابتلاء، واحتماله بصبر وثبات، معتمدين على الله تعالى، الذي جعلوا ولاءهم له وحده.

بدأتِ الآياتُ تثبِّتُ المؤمنين، وتصبرهم على احتمال هذا النوع من الابتلاء بهذا النداء العلوي الكريم:

﴿يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦﴾.

وفي هذا النداء ما فيه من تشريف وتكريم للمؤمنين، ومواساة لهم في غربتهم، وتخفيف كربتهم.

---

(١) تفسير أبي السعود: ٧/ ٤٥.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٤٨.

وما أجمل وصفهم بهذه النسبة الكريمة إلى الله، مع وصفهم بصفة الإيمان، فإن كانت الإضافة في قوله: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ للتشريف، فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ صفة موضحة، وإن كانت للتخصيص فهي صفة مميزة[١].

فالذين لا يستطيعون عبادته تعالى كما ينبغي في بلدانهم وأوطانهم، بسبب تسلُّط الكفار والظلمة عليهم، يجب عليهم الهجرة إلى الأرض التي يتمكنون فيها من طاعة ربهم وعبادته، قال ابن جبير وعطاء: إنَّ الأرضَ التي فيها الظلم والمنكر، تترتب فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها[٢].

وقد مرَّ معنا في **سورة النساء** تفصيل هذا المعنى، عند قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

إنَّ هاجس الأسى لمفارقة الوطن، هو الهاجس الأول الذي يتحرَّك في النفس التي تُدعى للهجرة، ومن هنا يمس قلوبهم بهاتين اللمستين، بالنداء الحبيب القريب: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾، وبالسعة في الأرض: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾[٣].

وأفاد تقديمَ المفعول في قوله: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ على وجوب اختصاصه تعالى وحده بالولاء والعبادة، وإخلاصها له.

وقد وعد الله تعالى المهاجرين في سبيله **بالسَّعة** صراحةً في قوله الكريم في **سورة النساء**: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾.

ثم هوَّن عليهم الله تعالى مفارقة الأوطان بتذكيرهم بالموت، الذي سيفارقون به أوطانهم وأحبابهم فقال:

---

(١) تفسير النيسابوري: ١٠/ ١٢.

(٢) تفسير القرطبي: ١٣/ ٣٥٨.

(٣) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٤٩.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾.

وفي الآية إشارة أيضاً إلى خطر الموت وأسبابه، التي يتعرضون لها في الطريق، وقد كان المشركون من أهل مكة يقطعون على المهاجرين طريقَ هجرتهم، فالآيةُ تشجِّعهم على الهجرة؛ لأنَّ الموتَ أمرٌ محتم ومقدَّر، ولا ينبغي أن يعوقهم الخوفُ من الموت عن الهجرة بدينهم، كما قال سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

هكذا وعد الله المهاجرين في سبيله، بالسعة في الدنيا والجنة في الآخرة، ولهذا قال بعد ذلك يصف بعض ما أعد لهم من نعيم في الجنة؛ لكي تتعلق بها نفوسهم، وتهفو إليها قلوبهم، فينصرفوا عن الحنين إلى أوطانهم، وينسوا مشاعر الحزن ومرارة الاغتراب:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ أي: لننزلنهم المنازل العالية في الجنة.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي: العاملين بطاعته تعالى، والمخلصين في عبادته.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾.

أي: الذين صبروا على ما أصابهم في سبيله من بلايا ومحن، وغربة عن الوطن، فهم يعتمدون على الله وحده، يلتمسون منه التثبيت والمعونة.

وأعداء الإسلام كانوا ولا يزالون يحاربون المسلمين في أرزاقهم، ويضيِّقون عليهم سبلَ الكسب، ويمنعون عنهم أقوات عيالهم وأطفالهم، كما فعل مشركو مكة عندما قاطعوا النبي ﷺ والمسلمين، المقاطعة الظالمة التي

استمرت ثلاث سنوات، ولا شك أن ذلك من أقسى أنواع الابتلاء أيضاً، الذي يتعرض له المؤمنون، ولهذا أنزل تعالى عليهم قوله الكريم:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: وكم من دابة تعجز عن تحصيل رزقها، أو عن حمله أو ادخاره، يرزقها الله ﷻ ويرزقكم أيضاً، فييسر لكلِّ مخلوق رزقه الذي يناسبه في أي مكان كان، في البر والبحر، وهو سبحانه القائل: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

فالحمد لله الذي تكفَّل بأرزاق عباده، وقدَّر لكل مخلوق رزقه قبل أن يخلقه، ومهما حاول الكفَّار والظَّلَمةُ أن يضيقوا الرزق على المؤمنين، فلن يستطيعوا أن يمنعوا عنهم ما قدَّر تعالى لهم من الرزق: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: يسمع أقوالكم، ويعلم أحوالكم، فلا تخافوا من التضييق عليكم بالرزق، ولا تخافوا على معاشكم بالهجرة من أوطانكم.

- **الله الخالق الرازق:**

وكيف لا يرزقكم الله وهو خالق السماوات والأرض، وبيده مقاليدها وخزائنها:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: ولئن سألت المشركين الذين يحاربون المؤمنين في أرزاقهم: من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر؟ ليقولُنَّ: الله، فلا سبيلَ لهم إلى الإنكار والتردد؛ إذ هي الحقيقةُ الكبرى التي فطرهم الله تعالى عليها، وكل الشواهد الفكرية والحسيَّة تدل عليها وتؤكدها.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف يُصْرَفون عن هذه الحقيقة، ويدّعون أن رزق المؤمنين بأيديهم، فخالق السماوات والأرض هو الذي يرزق مخلوقاته في السماوات والأرض، يبسطه لمن يشاء من عباده، ويضيقه أيضاً على من يشاء:

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي: ويضيِّقُه على يشاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: هو العليم بمن يصلح للغنى من عباده، ومن يصلح للفقر.

ولا شكَّ أنَّ إنزال المطر من أهم مفاتيح الرزق، وهو ظاهرة كونية منوطة بمشيئته تعالى وقدرته:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: الحمد لله على كماله وفضله وإحسانه، فالخير كله بيده ﷻ.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: بل أكثر الناس لا يعقلون هذه الحقيقة، وهي أنَّ الأرزاقَ بمشيئته تعالى وتدبيره، فترى كل واحد يسعى ليحوز جميعَ الأرزاق، ويحرمَ غيره منها.

ودلت الآية على أن العالم إذا لم يعمل بعلمه، انتكس إلى مستوى الجاهل الذي لا يستعمل عقله.

- **حقيقة الحياة الدنيا:**

ثم صغَّرت الآيات من أمر الدنيا وحقَّرتها؛ تزهيداً للمؤمنين بها، فلا تتعلق بها نفوسهم، ولا تنشغل بزينتها، بل ترنو إلى الآخرة وتسعى إليها:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: شيء يُلهى به ويُلعب، ثم يضمحل ويزول، فالدنيا إن بقيت لك لن تبقى لها، وهذا كله في أمور الدنيا من المال والجاه والملبس الزائد على الضروري، الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات، وأما ما كان منها لله فهو للآخرة، وهو الذي يبقى، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: وإن الدار الآخرة لهي الحياة الحقيقية التي لا تنتهي ولا تزول ولا موت فيها.

والحيوان: يطلق على كل شيء حي، وهو أبلغ من الحياة، لما في معنى **فعلان** من الحركة والاضطراب اللازم للحياة، ولذلك اختير عليها في هذا المقام المقتضي للمبالغة(١).

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان الناس يعلمون هذه الحقيقة، ما آثروا الحياة الدنيا العارضة الزائلة، على الآخرة الباقية.

وقد أكد تعالى هذا المعنى في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

- **إنعام وكفران:**

ومع أنَّ الحياة الدنيا ضئيلة وحقيرة، فإنَّ كثيراً من الناس يغترون بها،

---

(١) تفسير القرطبي: ١٣/ ٣٦٢.

ويعرِضون عن الحق من أجلها، وفي حالة واحدة فقط يتذكَّرون الحقَّ، ويرجعون إليه، وهي حالةُ انقطاعِ رجائهم عن البقاء في الدنيا، وإحساسهم بالخطر:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: إذا ما ركبوا في السفينة، وهم في حال اغترار بالدنيا وتعلق بزينتها، استمروا على ذلك ما داموا يشعرون بالأمن من الغرق، وأما إذا أحسوا بالخطر وأدركهم الغرق:

﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: لجؤوا إلى الله تعالى مخلصين في دعائهم وخضوعهم.

ففي الآيةِ إجمالٌ فصَّله تعالى في عدد من المواضع، كقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: فلمَّا نجَّاهم من الغرق في البحر إلى البر، عادوا إلى حال الاغترار والجحود والشرك، ولن يدومَ حالهم هذا طويلاً؛ لأنَّ حياتهم في الدنيا حقيرة زائلة، ولهذا قال تعالى لهم متوعداً ومهدداً:

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وشركهم، كما قال سبحانه بعد آية سورة يونس المتقدمة: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

كان عليهم أن يشكروا الله على نعمة الأمن بعد الخوف، فقد نجَّاهم من

خطر الغرق في البحر، وأن يدوموا على حال الإخلاص التي كانوا عليها عند الخطر، وهو تعريضٌ بحال مشركي قريش، الذين كانوا يتمتَّعون بنعمة الأمن في جوار بيت الله الحرام، فقابلوا هذه النعمة بالجحود والكفران، وأعرضوا عن دعوة الرسول ﷺ، ولهذا قال تعالى يذكِّر المشركين بنعمة الأمن التي تفضل بها عليهم، وبموقفهم الجاحد لفضله سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ﴾ أي: فهم يتمتعون بالأمن في جوار حرمه تعالى، بينما يعاني الناس من حولهم من خوف الغزو والسلب والنهب والقتل.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أبَعْدَ هذه النعمة الظاهرة يؤمنون بالأصنام والآلهة الباطلة، ويجحدون فضله تعالى عليهم، فيكفرون به ويعرضون عن دعوة نبيه عليه الصلاة والسلام؟! فما أظلمهم، وهم يقابلون نعمة الله عليهم بالجحود والكفران!:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ﴾ أي: لا أظلمَ ممن كذَّب على الله، فأشرك في عبادته وطاعته، أو كذب دعوة الحق حين جاءته، بواسطة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

ففي الآية تسفيةٌ لهم حيث لم يتأمَّلوا حقيقةَ دعوة الرسول ﷺ، بل سارعوا إلى تكذيبه أول ما سمعوه.

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: ألا يستوجبون بعملهم هذا الإقامة في جهنم.

فالمثوى: مقامُ الإقامة، والاستفهام لتقرير استحقاقهم للعذاب، فولاؤهم للشيطان والأوثان لا يدفع عنهم عذاب الله تعالى ولا يمنعهم من انتقامه.

● **إنعام وإحسان:**

أمَّا المؤمنون الذين أسلموا أمرهم إلى الله تعالى، وتوكلوا عليه، فإنَّه تعالى يؤيدهم، ويسددهم، ويثبتهم، مهما اشتدت عليهم المحن، ويهديهم سبحانه إلى السبل الموصلة إلى فضله ورحمته ورضوانه، فلا يضلون ولا يزلون:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ أي: والذين جاهدوا أعداء الله تعالى، وجاهدوا أنفسهم في طاعته، لنهدينهم إلى سبل الخير، بمعونتهم وتوفيقهم وتأييدهم في الدنيا، وإكرامهم بالثواب والمغفرة والرحمة في الآخرة.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي: وإنَّ الله بجلاله وكماله لمع المحسنين في طاعته وعبادته، معية التأييد والنصرة والمعونة.

ولا يصلُ الإنسان إلى مقام الإحسان إلا إذا استشعر رقابة الله تعالى عليه، فوقف عند أحكام شريعته، كما مرَّ في الحديث النبوي الشريف: «**الإحسانُ أَنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراه، فإنْ لَمْ تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ**» [رواه مسلم (٨)].

فالله سبحانه مع المحسنين، عندما يمتحنون ويفتنون من أجل دينهم: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

وهو سبحانه معهم أيضاً في غربتهم: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وهو سبحانه معهم أيضاً عندما يحارَبون في أرزاقهم وقوت أطفالهم وعيالهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

فما أجمل هذه الخاتمة لهذه السورة الكريمة! وما أعمقَ آثارها الندية

الظليلة في قلب الإنسان المؤمن، وهو في كربته وغربته ومحنته، يستشعر من خلالها معونة الله تعالى ومعيته، فيبقى ثابتاً على ولائه له، لا يتزعزع ولا يضطرب، واثقاً بوعده، ثابتاً على هديه.

أسأله تعالى أن يجعلنا منهم، وأن يأخذ بأيدينا إلى السبل الموصلة إلى فضله ورحمته ورضوانه.

اللهم آمين، اللهم صَلِّ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.





تفسير سورة الروم

الإِنْسَانُ والسُّنَنُ الكَوْنِيَّةُ في سُورَةِ الرُّومِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد: فقد خلق الله تعالى هذا الكون، وجعله يجري على مقتضى نواميس دقيقة مُحْكمة، وسُنَن إلٰهية باهرة، تربط بين أجزائه، من أكبر أجرامه إلى أصغر ذراته، فكل الحوادث الأرضية والسماوية تجري على وفق هذه النواميس.

لقد أظهرت آياتُ سورة الروم هذه الحقيقة، من خلال قوله تعالى في أول السورة، وهو يخبر عن بعض الأحداث الأرضية الكبيرة: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.

وهذه السنن تدل على وجود الخالق العظيم ووحدانيته، وكمال قدرته وطلاقة مشيئته؛ ولهذا عرضت آيات السورة بعضها على أنها دلائل على وجود الخالق ووحدانيته وكمال قدرته، كما بينت الآيات أنَّ هذه السنن موضوعة لفائدة الإنسان، يمكنه أن يستثمرها ويستفيد منها، فيعرف فضل الله تعالى عليه، والمكانة الممتازة التي أكرمه بها بين هذه المكونات، وإن ذلك يُلقي عليه تبعات ومسؤوليات أمام خالقه جل وعلا:

- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠].
- ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣].

ذلك هو موضوع السورة الأساس، ولقد ذهبت السورة فيه شوطاً بعيداً عميقاً، حتى إنَّها بينت أنَّ استمرار السنن الكونية مرتبط بسلوك الناس، ومتوقف على التزامهم بما شرع الله تعالى لهم، وما يقع من خلل واضطراب وفساد، إنما يقع نتيجة الخلل والفساد في اعتقاد الناس وسلوكهم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

هذا مع وقفات تحليلية عميقة لنفس الإنسان وهو يواجه السنن الكونية والأحداث الأرضية، وهمسات لطيفة في أذن الدعاة، توجههم وترشدهم وهم ماضون في طريق الدعوة.

أسأله تعالى الثبات والهداية، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



تفسير سورة الروم

الإنْسَانُ والسُّنَنُ الكَوْنِيَّةُ فِي سُورَةِ الرُّومِ

أحداث ومعارك قرب أرض العرب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾

﴿الٓمٓ ۝١﴾.

سبق الحديث عن مثل هذه الحروف في أوائل السور السابقة، كالبقرة وآل عمران.

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾.

﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أي: غلَبت الدولةُ الفارسية دولةَ الروم في أقربِ أرض من شبه الجزيرة العربية، وهي أطرافُ الشام الجنوبية المتصلة بأرض العرب، فأرضُ الشام أقربُ أرضٍ إلى شبه الجزيرة العربية، وهي امتدادٌ لها من الشمال، بينما هي معزولة عما حولها من اليابسة بالبحار من بقية الجهات.

حدث هذا الصراعُ المسلَّح بين أكبر دولتين في الأرض في ذلك الوقت، والنبيُّ ﷺ في مكة قبل الهجرة، ولما وصلت أخبار انتصار الفرس على الروم إلى مكة، فرحَ المشركون به؛ لأنَّ الرومَ أهلُ كتاب، بينما الفرس أهل أوثان وعبدة نيران، لكن الله تعالى أخبر في هذه الآية، التي أنزلها بهذه المناسبة، أن هذا النصر لن يدوم للفرس، فقال:

﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ أي: والروم من بعدِ تغلُّبِ الفرس عليهم سيغلبون الفرسَ في بضع سنين.

والبضع: ما بين الثلاث إلى التسع.

ولمَّا أنزلَ الله هذه الآية خرجَ أبو بكر الصديق ﷺ إلى المشركين يقول لهم: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا؟! فلا تفرحوا، ولا يقرَّنَّ الله تعالى عينكم، فوالله ليظهرَنَّ الرومُ على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ. فقام إليه أُبي بن خلف فقال: كذبتَ. فقال له أبو بكر ﷺ: أنتَ أكذبُ يا عدوَّ اللهِ، تعال أُنَاحِبُك (أي: أراهنك) عشر قلائص مني وعشر قلائص منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرمتَ، وإن ظهرت فارس غرمتُ، إلى ثلاث سنين. فَنَاحَبَه، ثم جاء أبو بكر إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال ﷺ: «**ما هكذا ذكرتُ، إنَّما البضعُ ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطرِ ومادّه في الأجلِ**»... وظهرت الرومُ على فارس لما دخلت السنة السابعة من الهجرة[1].

وفي خلال هذه السنوات تولَّى هِرَقْلُ الحكم في الدولة الرومية، وأعاد تنظيم جيوشها، وهاجم الفرسَ في جنوب الشام فانتصر عليهم، حدث ذلك في السنة السادسة من الهجرة، في اليوم الذي وقَّع فيه النبي ﷺ صلحَ الحديبية، وقيل: في السنة الثانية من الهجرة، في يوم بدر، ففي «**سنن الترمذي**» [٣١٩٢]: عن أبي سعيدٍ قال: لمَّا كان يومُ بدرٍ ظهرت الرومُ على فارس.

والقول الأول أصح، ففي «**صحيح البخاري**» [٦]: عن ابن عباس: أنَّ أبا

---

(١) روح المعاني: ٢١/١٨.

سفيان أخبره أنَّ هِرَقْلَ أرسلَ إليه في ركبٍ من قريشٍ، وكانوا تجَّاراً بالشام، في المدَّةِ التي كان رسولُ اللهِ ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفَّار قريشٍ، فأتوهم وهم بإيلياء ـ بيت المقدس.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وفي الجهادِ عند المؤلف [٢٩٤٠]: أنَّ هرقل لما كشف الله عنه فارس، مشى من حمص إلى إيلياء شكراً لله. زاد ابن إسحاق عن الزهري: أنه كانت تُبْسَطُ له البسط، وتوضع عليها الرياحين فيمشي عليها. ونحوه لأحمد [٢٣٧١] من حديث ابن أخ الزهري عن عمه»[(١)].

ووصل كتاب النبيِّ ﷺ إلى هرقل يدعوه فيه للإسلام، وهو في بيت المقدس، وكان ذلك سبب دعوته أبا سفيان ومن كان معه من المشركين، لكي يسألهم عن أمر النبي ﷺ.

فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كتب إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام، وبعث بكتابه إليه مع دِحْية الكلبي، وأمره رسول الله ﷺ أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر. وكان قيصر لمَّا كشفَ الله عنه جنود فارس، مشى من حمص إلى إيلياء شُكراً لما أبلاه الله، فلما جاء قيصرَ كتابُ رسول الله ﷺ، قال حين قرأه: التمسوا لي هاهنا أحداً من قومه، لأسألهم عن رسول الله ﷺ. [رواه البخاري (٢٩٤٠)].

• **لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ:**

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ أي: للهِ الأمرُ من قبل هذه الغلبة ومن بعدها، فهو وحده المدبِّر لكل ما حدث.

أخبر تعالى بانفراده بالقدرة، وأنَّ ما في العالم من غلبة وغيرها، إنما هو منه وبإرادته وقدرته[(٢)].

فالحوادث مهما كانت صغيرة أو كبيرة، لا تحدث إلا بإرادته وقدرته جل

---

(١) فتح الباري: ١/ ٣٤.
(٢) المحرر الوجيز: ١١/ ٤٢٦.

وعلا، كما في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقوله سبحانه: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: ويوم ينتصر الروم على الفرس يفرح المؤمنون بتحقُّق وعده، الذي أخبر عنه في كتابه، فإنَّ فيه دليلاً على صدق النبي ﷺ، وأنَّ القرآن الكريم كلامُ الله العليم بما كان وما يكون.

وفي هذا اليوم يفرح المؤمنون أيضاً بما تحقق لهم من فتح ونصر في صلح الحديبية، فقد كان لهذا الصلح أثر كبير في انتشار الإسلام وقوته، وقد أنزل الله تعالى به: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: ينصر من عباده من يشاء نصره، ويخذل من يشاء خذلانه.

فهو تأكيد لما سبق من قوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾ فمشيئته جل وعلا طليقة تامة، ونافذة في جميع الحادثات والمكونات.

وهو العزيز الغالب على أمره، فأمره هو النافذ في مخلوقاته، وهو أيضاً الرحيم بعباده، فلا يحجب عنهم آثار رحمته وفواضل إحسانه في كل مقدَّراته وأقضيته.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ أي: وعد الله وعداً لا يتخلَّف، وهو ما أخبر عنه بانتصار الروم على الفرس، فالخبر في معنى الوعد.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون ذلك، وهو أنه تعالى لا يخلف وعده.

* * *

الغافلون عن حقيقة الحياة

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

وهؤلاء الناس:

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: يعلمون ما يظهر منها ويطفو على سطحها من زخارفها وزينتها، وما يتصل بمعاشها وطرق اكتساب الأموال فيها.

قال الحسنُ: «بلغ والله من علم أحدهم، أنه ينقد الدرهم فيخبرك بوزنه، ولا يحسن أن يصلي»[١].

فعلمهم منحصر في متاع الدنيا الزائل، فهم حذَّاق أذكياء في تحصيله.

﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أي: وهم عن الآخرة التي هي غاية الدنيا والمقصودة منها غافلون، فلا تخطر ببالهم، لانشغالهم بمتاع الدنيا وشهواتها، فقد شغلوا بالوسيلة عن الغاية.

وأفادت الجملةُ الاسمية، وتكرار الضمير (هم) الدلالة على تمكن غفلتهم وشدتها، فالآخرةُ حلقة في سلسلة النشأة، وصفحة من صفحات الوجود الكثيرة، والذين لا يدركون حكمة النشأة، ولا يدركون ناموس الوجود، يغفلون عن الآخرة، ولا يحسبون حسابها، ولا يعرفون أنها نقطة في خط سير الوجود، لا تتخلف مطلقاً ولا تحيد[٢].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ٨٠.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٥٩.

والآيةُ لا تدلُّ على ذم العلم بالدنيا، كما أفادت كلمات بعض المفسرين، فالعلم بشؤون الدنيا، واستثمار ما فيها مطلوب ومشروع، إنَّما المذمومُ هو الانشغالُ بها وبما فيها عن الآخرة، فإذا ما أتقنَ الإنسانُ أمورَ دنياه، وسخرها للتقرُّب إلى الله تعالى، والنجاة يوم القيامة، فإنه يكون عابداً لله ومأجوراً على عمله، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

- **التفكر في الخلوة:**

ولكي يتخلَّص الغافلون من غفلتهم، لا بد أن يتفكروا في أنفسهم وفيما حولهم، ليعرفوا أنَّ هذا الكون قد نُسِّق ورُتِّبَ على أعلى درجات الإتقان والإحكام، وأنَّ هذا التنسيقَ والإحكام لم يأتِ باطلاً عارياً عن الحكمة، ولهذا توجهت الآياتُ تدعوهم لإعمال النظر والتفكير، بأسلوب التوبيخ والتقريع، كأنها توقظهم من غفلتهم، وتقول لهم: يا أيها الغافلون انتبهوا واستيقظوا وتفكروا فيما حولكم.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾ أي: خالين مع أنفسهم.

فخلوة الإنسان مع نفسه تعمق فكرته، وتجعله مستغرقاً فيها، وتبعده عن الشواغل الصارفة له عن التفكر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ﴾ أي: أَوَلَمْ يتفكروا فيعلموا أن الله ما خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً وعبثاً، من غير حكمة وفائدة، إنما خلقهما لحكمة بالغة، وهي قيامُ المكلَّفين بطاعته وعبادته،

ولهذا قدر سبحانه لهذه المخلوقات أجلاً مسمى تنتهي إليه ولا تتجاوزه.

فلا بدَّ لكل حادث من نهاية، ولمَّا كانت المكونات كلّها حادثة مسبوقة بالعدم، فلا بد لها من نهاية تنتهي إليها.

فطبيعةُ هذا الكون تدلُّ على أنَّه محكومٌ بسنن دقيقة محكمة، مما يدل على أنه خُلق بالحق الثابت، الذي لا يضطرب ولا يتزعزع، ومن مقتضيات هذا الحق أن تكون هناك آخرة، يتم فيها الجزاء على العمل(١).

ومع وضوح هذه الحقيقة وظهورها لكل متفكر ومتأمل، فإن أكثر الناس لا يؤمنون بها:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ لأنّهم غافلون لا يتفكرون.

ولو أنَّهم استعملوا عقولهم بتجرد لعرفوا حكمة وجودهم وجوهر حياتهم، وأدركوا أنَّهم مسؤولون عنها أمام ربهم يوم القيامة، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران].

* * *

الاعتبار بتاريخ الأمم الهالكة

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

ثم دعتهم الآيات مرة ثانية بالأسلوب نفسه، إلى الاعتبار بمصائر الأمم الهالكة:

(١) في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٦٠.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: فينظروا نظر المعتبر المتدبر بمصير الأمم الهالكة.

﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: كانوا أشدَّ من مشركي مكة في القوة المادية والغنى.

﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي: ومن قوة الأمم السالفة أنهم قلبوا الأرض للزراعة، واستنباط المياه، واستخراج المعادن، وأقاموا المنشآت العمرانية الكبيرة، وبعضها لا تزال أطلالها باقيةً حتى عصرنا الحاضر، وهذا يدل على أن عمارتهم الأرض أكثر من عمارة المشركين لها في عهد النبي ﷺ.

وقد يكون المرادُ بالعمارة الإقامة فيها، والمعنى: أقاموا فيها إقامة أكثر زماناً من إقامة هؤلاء بها[1].

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: وجاءتهم رسلهم بالمعجزات الدالة على صدق رسالتهم.

فالله تعالى لم يترك الأجيال البشرية المتعاقبة، من غير تكليف ومسؤولية؛ لأنه تعالى ما خلق الخلق باطلاً ولا عبثاً، فكذَّبوا رسلهم، فاستحقوا بحسب سنَّته تعالى في خلقه الهلاك والعذاب، فأهلكهم.

﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: كانوا يظلمون أنفسهم باختيارهم وكسبهم وإعراضهم عن رسالة ربهم.

وهلاكهم في الدنيا ليس هو النهاية:

---

(١) روح المعاني: ٢١/ ٢٣.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي: ثم كانت عاقبتهم بعد إهلاكهم السوأى، وهي عذاب النار يوم القيامة.

والسوأى: تأنيثُ الأسوأ، كما أنَّ الحسنى تأنيثُ الأحسن، والقوم أساؤوا العمل في الدنيا، فاستحقوا العاقبة السيئة يوم القيامة فالجزاء من جنس العمل.

وقد بينتِ الآيةُ كيف أساؤوا العمل في الدنيا:

﴿أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فعاقبتهم السيئة بسبب تكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها. فهو بيان وتقرير لقوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩].

* * *

السُّنَّة الكلية الشاملة

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

فَخَلْقُ الناسِ وتكليفُهم ومسؤوليتُهم وحسابُهم وجزاؤهم كل ذلك مرتبط بسنة إلٰهية قدَّرها العليم الحكيم، بسابق علمه، ويدبرها وحده بقدرته جل وعلا ومشيئته، فلا يشاركه فيها أحدٌ:

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

فهي مراحل متوالية ومرتبطةٌ فيما بينها، فمن يستطيعُ أن يخرق هذا

الناموس، الذي يحيط بالخلائق من بداية وجودها، إلى جمعها وحشرها للحساب والجزاء؟! أين المعاندون والجاحدون؟! وكيف يكون حالهم يوم القيامة؟!.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: يسكتون يائسين وتنقطع حجتهم.

فالإبلاسُ كما قال الراغب: الحزنُ المعترض من شدة اليأس[1].

ففي هذا اليوم يتبيَّنُ إفلاسهم، ويتحقَّقُ إبلاسهم، وهو سكوتٌ مع تحيُّر، ويأس مع بؤس، لا اليأس الذي هو إحدى الراحتين[2].

ومن إبلاسِهم أيضاً يأسُهم من شركائهم:

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ أي: يشفعون لهم، ويخلِّصونهم من العذاب، كما كانوا يزعمون.

﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: وهم في تلك الحالة كافرون بشركائهم؛ لأنهم يئسوا منهم، وعرفوا حقيقة أمرهم، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

وقد يكون المعنى: وكانوا بسبب شركائهم كافرين بالله تعالى.

وينقسِمُ الناسُ إلى فريقين في يوم الحشر والجزاء:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: يتفرقون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

---

(١) روح المعاني: ٢١/ ٢٥.

(٢) تفسير النيسابوري: ٢١/ ٢٨.

وأُعيد ذكرُ اليوم لتهويل وتفظيع ما يقع فيه، فهو تهويل إثر تهويل، والتفريق لا يقع إلا في جزء منه، بعد وقوع أهوال وأفزاع.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: فهم في أرض ذات أزهار وأنهار، يُسرُّون سروراً متوالياً لحظة فلحظة، يظهر أثره على وجوههم، كما في قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

فسرور أهل الجنة دائم متواصل لا ينقطع عنهم أبداً، ولا في لحظة واحدة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: فأولئك في العذاب محضرون على الدوام، لا يغيبون عنه أبداً، ولا في لحظة واحدة.

وصرَّحتِ الآيةُ بتكذيبهم بالآيات، ولقاء الآخرة، مع أنهما مندرجان في الكفر؛ لبيانِ ضخامة جرائمهم وقبحها، وبيان استحقاقهم لهذا العذاب.

* * *

تسبيح الله وحمده

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

وبعد أن بينت الآياتُ السُّنَّة الشاملة، التي تنسحب على جميع الخلائق من بداية وجودهم، إلى مصيرهم النهائي، شرعت في الحديث عن بعض السنن الجزئية، التي تنظم حياة المخلوقات في الدنيا، والتي هي أدلة وبراهين على وجوده تعالى ووحدانيته وكماله.

ولمَّا كان الزمن وارتباطه بدورة الأفلاك أبرزَ هذه السنن وأشملَها وأكثرَها دلالةً على وجود الخالق وقدرته وحكمته، بدأت الآياتُ تتحدَّث عنه بأسلوب غير مباشر، فقد وجهت حديثها المباشر إلى تنزيه الحقِّ تعالى عن أي سوء ونقص، وإلى الثناء عليه لكماله وجلاله:

﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧﴾.

أي: نزِّهوا الله عما لا يليق به في المساء والصباح.

وجاء الأمر بصيغة الجملة الإنشائية، للمبالغة في الدلالة على استحقاقه جلّ وعلا التسبيحَ، وصدرت الجملة **بالفاء** لربط ما قبلها بما بعدها، أو لتجعلَ ما بعدها متفرِّعاً عما قبلها، فكأنه تعالى يقول للمكلَّفين: إذا أردتم أن تكونوا من الذين هم في روضةٍ يُحْبرون، فسبِّحوا الله حين تمسون وحين تصبحون.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾.

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: وله الحمد الثابت في السماوات والأرض.

وحمدُه يدل على كماله جلَّ وعلا، فعلى المكلفين من أهل السماوات والأرض أن يحمدوه، فهي جملة خبرية بمعنى الأمر، أفادت تقريرَ استحقاقه تعالى الحمدَ، وثباته له، كما مرَّ معنا في قوله تعالى في **سورة الفاتحة** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾، فهو غني عن تسبيح المسبِّحين، وحمد الحامدين، فلو لم يحمده حامد فهو أهل الحمد والثناء على الإطلاق.

وقد أخبر سبحانه في عدد من الآيات أنَّ الملائكة كثيراً ما تقرن بين التسبيح والحمد؛ لأن **التسبيح** تنزيهُ الحقِّ تعالى عن كل نقص، **والحمد** إثبات الكمال المطلق له ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧].

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

وفي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«كلمتانِ حبيبتانِ إلى الرحمنِ، خفيفتانِ على اللسانِ، ثقيلتانِ في الميزانِ: سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ، سبحانَ اللهِ العظيم» [رواه البخاري (٧٥٦٣)].

﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ أي: وسبحوه أيضاً في آخر النهار، وحين تدخلون في وقت الظهيرة.

ولعلَّ سرَّ تخصيص هذه الأوقات بالأمر بالتسبيح؛ أنها تدل على قدرته تعالى وحكمته، في نظامها الدقيق وفي إحكامها، فهي تجري بإتقان دون أدنى خلل واضطراب، كما قال تعالى في **سورة يسٓ**: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

فهذه الأوقات مبادئ التغير والانعطاف في الزمن، حسب النظام الذي أبدعه العليم الحكيم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا تسبيحٌ منه تعالى لنفسه المقدسة، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة، الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه»[(١)].

ورأى بعضهم أنَّ في الآياتِ إشارةٌ إلى أوقات الصلوات الخمس المفروضة، التي فيها التسبيح والتحميد، فعن ابن عباس قال: جَمَعَتْ هاتان الآيتان مواقيتَ الصلاة: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ قال: المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الفجر، ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ الظهر[(٢)].

* * *

بعض السنن الإلـهية في الآفاق والأنفس

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

- **خلْق الأضداد من بعضها:**

ومما يدل أيضاً على كمال قدرته تعالى وطلاقة مشيئته، وأن النواميس التي أبدعها لا تقيد مشيئته وقدرته سبحانه أنه:

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: يخلق الشيء من ضده، كإخراج الحيوان والنبات والشجر، من النطفة والحبة والنواة، والعكس أيضاً.

وهي ظواهرُ متجددةٌ بقدرته تعالى، ومبثوثةٌ في كثير من المخلوقات، وتَحْدُث أيضاً في داخل أجسامنا، حيث تتجدَّد في كل لحظة ملايين الخلايا، تنقسِمُ ثم تموت، ويحيي الله غيرها، وفي كل فترةٍ تتخلَّق ملايين الحيوانات المنوية داخلَ أجسامنا، من الدم الذي تمده الأغذية المقطعة والمطبوخة

والممضوغة والمهضومة، وقد ذكر الله تعالى هذه الظاهرة في عدد من الآيات الكريمة كقوله سبحانه: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: ويحيي الأرض اليابسة الميتة بإنزال المطر عليها، وإخراج النبات الحي منها، كما في قوله الكريم: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ومثل هذا الإخراج للنبات من الأرض الميتة، تخرجون يوم القيامة من قبوركم للحساب والجزاء.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: ومن النواميس التي قدَّرها العليم الحكيم وأبدعها، أنه خلقكم من تراب، وذلك بخلق أبيكم آدم من تراب وخلقكم أيضاً من سلالة مستخلصة من التراب، فالنطف التي هي أصلُ التكوين العضوي للإنسان، مستخلصةٌ من الدم، المتكوِّن من الأطعمة التي يأكلها الإنسان، وكلُّها صادرة من التراب، كما تقدَّم عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون].

والخلقُ من التراب مظهر من مظاهر إخراج الحي من الميت:

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ أي: تنتشرون في الأرض، وتتحركون في أغراضكم وأسفاركم.

• **لطيفتان:**

ودلت كلمة (إذا) في الآية على المفاجأة، فالانتقال من التراب الكثيف

الساكن الهامد إلى البشرية المتميزة بحيويتها ونشاطها وحركتها أمرٌ عجيب مدهشٌ، يدل على كمال قدرة الخالق العظيم جل وعلا.

وقد استدلَّ أحدُ قدماء علماء التفسير بموقع (إذا) الفجائي هنا، على بطلان نظرية داروين في النشوء والارتقاء، قبل وجود داروين ونظريته بمئات السنين، وهو الإمام المفسِّر الفخر الرازي، المتوفى سنة (٦٠٤هـ)، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية: «وفي الآية لطيفتان:

إحداهما: قوله: ﴿إِذَآ﴾ وهي للمفاجأةِ، يقال: خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب، وهي أنَّ الله تعالى خلقه من ترابٍ بـ (كن) فكان، لا أنَّه صارَ معدناً، ثم نباتاً، ثم حيواناً، ثم إنساناً... فالله تعالى جعلَ المرتبةَ الأخيرةَ في الشيء البعيد عنها غايةً من غير انتقال من مرتبة إلى مرتبة من المراتب التي ذكرناها.

واللطيفة الثانية: قوله: ﴿بَشَرٌ﴾ إشارةٌ إلى القوة المدركة، لأنَّ البشر بشر لا بحركته، فإن غيره من الحيوانات أيضاً كذلك، يتحرك كالبشر، وليس عنده القوة المدركة التي لدى البشر، وقوله: ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ إشارة إلى القوة المحركة، وكلاهما من الترابِ عجيبٌ»[١].

- **المودة والرحمة بين الأزواج:**

وانتقلت الآيات من الحديث عن الناموس الإلٰهي في خلق البشر، إلى الناموس الذي ينظم حياتهم الاجتماعية، ويستمر به وجودهم وتكاثرهم:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي: ومن دلائل قدرته وحكمته أنْ خلقَ لكم أزواجاً منكم، لتألفوها، وتميلوا إليها، وتطمئنوا

(١) تفسير الفخر الرازي: ٢٥/١٠٩.

بها؛ لأنها جزء منكم، كما مر عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء: ١].

فقد ذكرنا ثَمَّةَ أنَّ الله خلقَ الأمَّ الأولى للبشر، من جزء من أجزاء آدم، وأنّه عليه الصلاة والسلام بيَّن في الحديث الشريف ذلك الجزء بقوله: «**إنَّ المرأةَ خُلِقَتْ من ضلعٍ، لَنْ تستقيمَ لك على طريقةٍ، فإنِ استمتعتَ بها استمتعتَ بها وبها عِوَجٌ، وإن ذهبتَ تقيمُها كسرتَها، وكسرُها طلاقُها**» [رواه مسلم (١٤٦٨/ ٥٩)].

والزوجُ: في لغة العرب يطلق على الرجل والمرأة، فالرجل يكون منفرداً، فإذا اتخذ امرأة فقد صارا زوجين، وأصبح كل واحد منهما زوجاً للآخر.

﴿وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ أي: وجعل بينكم ـ أيها الأزواج من رجال ونساء ـ مودة ورحمة، بسبب الزواج الذي يربط بينكم.

فالزوجان يتوادَّان ويتراحمان من غير سابقةِ معرفةٍ ولا قرابةٍ، ولا سبب يوجب التعاطف، ولا شيءَ أحبُّ إلى أحدهما من الآخر ـ من غير تراحم بينهما ـ إلا الزوجان[١].

ولهذا قالوا: المودة والرحمة بين الأزواج من الله تعالى، بينما التباغض والتنافر من الشيطان.

وذكر تعالى أمرين يفضي أحدُهما إلى الآخر، فالمودة تكون أولاً، ثم إنها تُفضي إلى الرحمة، ولهذا فإنَّ الزوجة قد تخرجُ عن محل الشهوة بكبر أو مرض، ويبقى قيام الزوج بها، وبالعكس[٢].

ولما كانت هذه الأمور لا تدرك إلا بعد إمعان نظر وتأمل، ختم الله الآية بقوله:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعرفون فضله تعالى عليهم، بهذه السنن التي تنظم حياتهم الاجتماعية، ويمتازون بها عن حياة الحيوان.

---

(١) تفسير الخازن: ٥/ ٤٠.

(٢) تفسير الرازي: ٢٥/ ١١٢.

- **الاختلاف في الخصائص والصفات:**

ومن السنن الإلٰهية في المخلوقات، التنوُّع والاختلاف في خصائصها وصفاتها وملكاتها، وارتباط هذا التفاوت والاختلاف بأصل الخلق ومبدأ التكوين.

فالله جلَّ وعلا خلقَ الخلق متفاوتين في الخصائص والصفات من بداية نشأتهم، وكل ما نشاهده من اختلافٍ في صورهم وألوانهم وأشكالهم أمرٌ فطري ثابتٌ غيرُ مكتسب، ولهذا أخبر تعالى عنه مقروناً بخلق السماوات والأرض، فقال:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ أي: اختلاف لغاتكم وألوان بشرتكم، وهو دليل على كمال قدرة الخالق وطلاقة مشيئته، ودقة حكمته، وعظيم تدبيره.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ أي: العالمين بخصائص الأجناس، وتنوع الصفات، وتعدد المواهب والملكات.

فالتنوع في المخلوقات يدلُّ على كمال قدرة الخالق، وباهر حكمته.

وقد ذكر سبحانه هذا المعنى في عدد من آياته، منها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

ومنها قوله سبحانه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

فكما أنَّه تعالى قادر على خلق الأشياء من أضدادها، كما سبق في قوله:

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: ١٩] كذلك هو قادر على خلق الأشياء المختلفة بالصفات والخصائص والأشكال، من أصلٍ واحدٍ ومعدنٍ واحد.

ولهذا التنوع حِكَمٌ كثيرة، منها: تيسير التعارف بين المخلوقات، فلو اتفقت الأصواتُ والصورُ وتشاكلت، وكانت ضرباً واحداً، لوقع التجاهل والالتباس، وتعطَّلت مصالحُ كثيرة، فسبحان من خلق الخلق على ما أراد وكيف أراد! وفي ذلك دليل على سعة القدرة وكمال العظمة(١).

- **هكذا تمضي الحياة:**

ثم انتقلتِ الآياتُ من الحديث عن سُنن الخلق والإبداع، إلى السنن التي تنظم حركة المخلوقات وتقلباتهم وتصرفاتهم، وأبرزها تقسيم حياتهم إلى قسمين:

أحدهما: يصرف في النوم والراحة والسكون.

وثانيهما: يصرف في طلب المعاش وتحصيل الرزق.

ولا شك أن هذا الناموس من النواميس القدرية التي لا يمكن الخروج عليها، ولهذا جاء التعبير عنها بأسلوب الإلزام:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ وتشير الآيةُ إلى أن الليل والنهار ظرفان للنوم والاكتساب، إلا أنَّ الغالبَ تخصيصُ الليل للنوم والراحة، وتخصيصُ النهار للعمل والاكتساب، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: يسمعون سماع تفهُّم واستبصار واستجابة، فإن الحكمة فيه ظاهرة.

---

(١) تفسير الخازن: ٥/ ٤٠.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: ومن آياته الدالة على كمال قدرته، وعظيم فضله وإحسانه، آيةٌ يريكم فيها البرقَ وأنتم في حال خوفٍ وطمعٍ، خوفٍ من الصواعق، وطمعٍ في المطر، مما يدل على شدة ضعفكم، وافتقاركم إلى رحمة ربكم.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ﴾ أي: يحيي الأرض اليابسة بالنبات، كما مرَّ عند قوله: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ [الروم: ١٩].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم لكي يعرفوا فضله تعالى عليهم، وشدة حاجتهم إليه.

- **وهكذا تنتهي:**

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ﴾ أي: ومن آياته الدالة على كمال قدرته ومشيئته، أن يكون دوام السماء والأرض واستمرار وجودهما منوطاً بقدرته تعالى ومشيئته، فكما أنَّ الإيجاد منه، فالإمداد منه أيضاً، فهو الذي يمدُّ المكونات بأسباب الوجود والبقاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١] فهو قيوم السماوات والأرض، وكل النواميس الكونية تجري بمشيئته وقدرته.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي: ومن آياته أيضاً إخراجكم من القبور بعد موتكم، بدعوة واحدة، فمشيئته تعالى نافذة فيكم أحياءً وأمواتاً، كما قال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات].

وقال أيضاً: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٣٦﴾.

أي: خاضعون منقادون لنواميسه القدرية وسننه الكونية.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يعيده بعد فنائه وموته.

﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ أي: هو أهون عليه بالقياس إلى قدرتكم، وإلا فهما عليه سواء جل جلاله.

﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: وله سبحانه الصفة العليا التي لا يتَّصفُ بها غيره في السماوات والأرض، وهي كمال الذات والصفات، كما قال سبحانه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي: وهو القادر الغالب على كل شيء، والحكيم في كل شيء، تقدست ذاته وتسامت صفاته.

* * *

مثل من الواقع

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٢٨ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾.

ثم ضربت الآيات مثلاً مستمداً من واقع حياة الناس، تظهر به بطلان عقيدة الشرك وقبحها:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: مثلاً منتزعاً من أحوالكم، التي هي أقرب الأمور إليكم، وأعرفها عندكم.

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: هل ترضون لأنفسكم أن يكون لكم شركاء من بعض عبيدكم وإمائكم، يشاركونكم فيما رزقناكم من أموال وأملاك، فيتصرَّفون فيها كتصرفكم، من غيرِ فرقٍ بينكم وبينهم، حتى إنَّكم تخافونَ أن يستبدوا بالتصرف دونكم، مثل خيفتكم من الأحرار المماثلين لكم؟..

فإذا لم ترضوا هذا لأنفسكم، فكيف ترضون لربِّ الأرباب، ومالك الأحرار والعبيد، أن تجعلوا بعض عبيده شركاء له؟! إنكم تأنفون من ذلك، فكيف ترضونه لله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢].

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: هكذا نفصل لهم المعاني ونقرِّبها من عقولهم بضرب الأمثال، لعلهم يتفهمونها وينتفعون بها.

وبعد كل هذا البيان والتفصيل، ظل القوم معرضين عن الحق، منتكسين في حمأة الضلال، بسبب اتباعهم أهواءهم وانشغالهم بشهواتهم:

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فلم يعقلوا شيئاً من الآيات المفصَّلة، والأمثال المضروبة، وظلوا على جهلهم.

﴿فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: لا أحدَ يقدر على هداية من أضله الله تعالى، وما لهؤلاء الضالين من ناصرين يخلِّصونهم من تبعات ضلالهم.

* * *

الفطرة والتوحيد

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِۦ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ (٣٩)﴾

وتوجهت الآيات بعد هذا المثل الرائع، الذي بيَّنَ بطلان عقائد الشرك، إلى النبي عليه الصلاة والسلام، تأمره أن يتمسَّكَ بالحق، ويثبتَ عليه، وتكشفُ في ثنايا هذا الخطاب ناموساً من نواميسه تعالى في خلقه، وسنَّة من سننه:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)﴾.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: تمسك بالدين القائم على التوحيد، ودُمْ عليه معرضاً عن كل ما يخالفه.

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي: الزموا أصل الخلقة التي خلق الله الناس عليها.

فالفطرةُ: الخلقةُ وزناً ومعنى، والمراد القابليةُ للتوحيدِ والاستعدادُ له، فاللهُ خلقَ الناسَ قابلين له، غير نابين عنه، ولا منكرين له، لكونه مجاوباً للعقل، مساوِقاً للنظر الصحيح، حتى لو تُركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر[1].

كما في الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ما مِنْ مولودٍ إلَّا يولَدُ على الفطرةِ، فأبواه يهوِّدانِهِ أو ينصِّرانِهِ أو يمجِّسَانِهِ، كما تنتجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاءَ، هل تحسُّون فيها من جَدْعاء؟**» ثم يقول: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾. [رواه البخاري (٤٧٧٥)].

وقد يكونُ المراد من الفطرة عقيدةَ التوحيد نفسها، لا القابلية لها، أي: معرفة الله وتوحيده، **وهو الأوجَهُ**، ويتَّسق هذا مع صدر الآية، التي أمرت بالاستقامة على دين التوحيد، وهذه الفطرة من أثر الميثاق الأول، الذي ذكره الله تعالى في قوله الكريم في **سورة الأعراف**: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تبدِّلوا خلق الله، فتغيِّروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم عليها، فيكون خبراً بمعنى الطلب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] **وهو معنى حسن صحيح**[2].

وقد يكون المرادُ الإخبار عن استحالة تبديل الفطرة نفسها وإزالتها، فالآيةُ

---

(١) روح المعاني: ٢١/ ٤٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٤.

تقرر أنَّ سلامة الفطرة متحققة عند جميع الناس، وعليهم أن يلتزموا بذلك، فمعرفةُ الله تعالى مركوزةٌ في نفس كل إنسان، ولا عبرةَ بمكابرة الملاحدة، من الماديين الدهريين، فهم ينكرون حقيقةً في أعماق نفوسهم، بسبب غرورهم واستكبارهم، تظهر عندما يُواجهون الموت، ويعاينون أسبابه، كما حدث لفرعون عندما أدركه الغرق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: ذلك الذي أُمرتَ بالاستقامة عليه، هو الدين القيم في نفسه، وهو الدين المستوي الذي لا عوج فيه، الذي تؤيده الأدلة والبراهين، وتقبله الفطر الإنسانية الأصيلة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أنه الدين القيم؛ بسبب غفلتهم عن أصل الفطرة، وعدم تدبرهم وتفكرهم.

إن انشغال الناس بشهواتهم، واهتمامهم بمصالحهم المادية، وغرورهم واستكبارهم يغطي أصل الفطرة المركوزة في صدورهم، ويدفعها إلى الساحات اللاشعورية في أعماق نفوسهم، حتى إن الكثيرين يجحدونها وينكرون وجودها، فلا يذكرونها إلا عند إحساسهم بالعجز والضعف، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣].

• عودة الغافلين الشاردين:

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: راجعين إليه تعالى بالتوبة والإخلاص، من: نابَ نوبة ونوباً، إذا رجع مرة بعد أخرى.

والرجوعُ يكونُ بعد الشرود والغفلة، فكأنَّ الآيةَ تخاطب الغافلين عن الفطرة المركوزة في أعماق نفوسهم، تقول لهم: يا أيها الغافلون انتبهوا، ويا أيها الشاردون عودوا إلى الله تعالى وإلى طاعته وعبادته.

وأفادت صيغةُ الجمع عمومَ المخاطبين، ووُجِّه إليه ﷺ في أول الأمر تشريفاً وإظهاراً لخطورة مضمون الخطاب وأهميته.

﴿وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: اتقوا الله بطاعته وترك معصيته، وأقيموا الصلاةَ التي تذكِّركم به سبحانه، وتردُّكم إلى ساحات رحمته وفضله، ولا تكونوا من المشركين الغافلين عن ربهم، أو: ولا تكونوا من المشركين بترك الصلاة، وهذا يدل على أهمية الصلاة، وأن تركها يؤدِّي إلى الكفر، أو هو الكفر بعينه.

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ أي: لا تكونوا من الذين اختلفوا في دينهم فبدلوه وغيروه، فانحرفوا عن أصل الفطرة التي فُطروا عليها، وفي قراءة: (**فارقوا دينَهم**).

وقد حذَّرنا تعالى من الاختلاف والفرقة في الدين، في عدد من الآيات الكريمة، منها قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

ومنها أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي: وصاروا فرقاً وأحزاباً مختلفة، كل فرقة تشايع نحلتها الباطلة وتتعصَّب لها، فهم معجبون بباطلهم ومفتونون به.

ثم أكدت الآيات أن التوحيد أمر فطري، يرجع إليه الغافلون عنه والجاحدون له في حال الضر والشقاء:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي: راجعين إليه تعالى بعد أن كانوا غافلين عنه، شاردين عن ساحات فضله ورحمته.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي: وإذا رحمهم فخلّصهم من الضر، إذا فريق منهم يعودون إلى شركهم وغفلتهم عن ربهم، جاحدينَ فضله تعالى عليهم. ولهذا قال تعالى يتوعَّدهم ويتهدَّدهم:

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: ليجحدوا نعمة الله تعالى عليهم، وليتمتعوا بالسعة والرخاء، بعد أن نجّاهم الله من الضر، فسوف يعلمون عاقبة كفرهم وجحودهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وليس لكفرهم أي مستندٍ من عقلٍ أو نقلٍ، ولهذا قال تعالى بأسلوب الاستفهام الإنكاري:

﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: هل أنزلنا عليهم حجة وبرهاناً تؤيد شركهم وتأمرهم به؟!.

ثم بينتِ الآياتُ بعض الأحوال والصفات النفسية للإنسان، وكأنها تشير بذلك إلى الدوافع الخفية، التي تجعلُ أكثرهم غافلين عن الحقيقة الفطرية المركوزة في أعماق نفوسهم:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ﴾ أي: فرحوا بها فرحاً ينسيهم المنعمَ المتفضّلَ بها عليهم، فالقومُ فرحوا بالنعمة، وأعرضوا عن المنعم.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي: وإن يصبهم ما يسوءهم

بسبب معاصيهم وفجورهم، إذا هم يصابون باليأس وخيبة الأمل، حتى إنَّ بعضهم يصابون بالأمراض العصبية، والعقد النفسية، وبعضهم قد يُقْدم على الانتحار، كما هو مشاهد عند كثير من الناس في المجتمعات المادية الكافرة.

● **الاختبار في الرزق:**

وهذه العوارض التي تحدث لهم، عندما يصابون بمصيبة، سببها جهلُهم بحقيقة الدنيا، وأنَّها دارُ ابتلاءٍ واختبارٍ، ولهذا فإنَّها لا تسيرُ على وتيرة واحدة، وإنَّ من السنن الإلٰهية فيها التغير والتبدل في حياة الناس، وأقربُ مثال واقعي على ذلك: التغير والتبدل في أرزاق الناس ومستوى معيشتهم:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ أي: يوسع الله الرزق لمن يشاء، ويضيِّقه ويقلله لمن يشاء أيضاً.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن في ذلك لدلائل تدل المؤمنين على كمال قدرة الله تعالى وحكمته، ففي حال السعة يعرفون فضله تعالى عليهم، ويؤدون الحقوق الواجبة لأصحابها:

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ﴾ أي: يريدون التقرب إلى الله تعالى والفوز برضوانه.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون باختبار النعمة وسعة الرزق.

وكذلك يلتزمون الحدود المشروعة في تنمية أموالهم وتثميرها، ويتجنبون طرق الكسب المحرمة، كالربا:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ أي: وما قدمتم من أموال ربوية، بقصد تثميرها وتنميتها من أموال الآخرين وحقوقهم، من دون عمل ومشاركة في تحمُّل الخسارة، فلا تزيد عند الله تعالى، فهذه الزيادةُ لا تطيبُ لكم في شرع الله تعالى، ولا يبارك الله في هذه الأموال، ومآلها إلى التلف والهلاك، كما قال سبحانه: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

فالمال الذي يباركه الله تعالى هو المال الحلال المزكَّى، ولهذا قال سبحانه على سبيل المقارنة:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ أي: أولئك ذوو الأضعاف، جمع مضعِف، كالموسِر لذي اليسار.

وعدلَ عن الخطاب إلى الإخبار، إيماءً إلى أنه لم يُخَصَّ به المخاطبون، بل هو عام في جميع المكلفين إلى قيام الساعة، فهو ناموس إلٰهي شامل.

ورأى بعضُهم أنَّه في الهدية، التي يطمع صاحبها بأن يُعطى في مقابلها ما هو أفضل منها، قال ابن عباس: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ يريد هدية الرجل الشيء، ويرجو أن يثاب أفضل منه، فذلك الذي لا يربو عند الله، ولا يؤجر صاحبه، ولكن لا إثم عليه(١).

فهي آية نزلت في هبات الثواب، وما جرى مجراها، مما يصنعه الإنسان ليجازى عليه، كالسلام وغيره(٢).

* * *

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ٣٦.
(٢) تفسير ابن عطية: ١١/ ٤٦١.

التلوث في البيئة والسلوك

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ثم ذكَّرتهم الآيات بسنن الله القدرية العامة، التي لا يستطيعون التملُّص منها، بأسلوب التحدي للمشركين ولآلهتهم:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: سبحوه ونزهوه؛ فإن الشرك لا يليق بكماله وجلاله.

وما خلقكم سبحانه ورزقكم إلا لتعمروا الأرض بعبادته وطاعته، والخللُ والفسادُ لا يحدثُ إلا عند الإعراض عن تحقيق حكمته تعالى في الخلق، وابتعاد الناس عن الالتزام بأحكامه الشرعية، وقد سبقت الإشارة إلى هذه الحقيقة في كثير من آيات السورة، وها هي الآن تصرح بها:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: ظهر الخلل والاضطراب

في بيئة الحياة، وانتشر في البر والبحر؛ بسبب فجور الناس وكفرهم ومعاصيهم، حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما: الفساد في البحر انقطاعُ صيده بذنوب بني آدم.

وقال ابن عطية: «ظهورُ الفسادِ فيهما هو ارتفاعُ البركات، ونزول رزايا، وحدوث فتن، وتغلُّب عدو كافر، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر»[1].

وكأن الآية الكريمة تبين السبب الأساس للخطر الكبير، الذي تنبَّه إليه الناس أخيراً، وهو ما يسمونه تلوث البيئة، وهذا التلوث نتيجة حتمية لتلوث عقائد وأخلاق وسلوكيات أكثر الناس، فالكون مخلوق على أكمل نظام وأحكمه، ومهيَّأ لحياة الناس على أتم الوجوه، وإنَّ من النواميس التي قدَّرها العليم الحكيم، أن يكونَ استمرارُ الإحكام والإتقان في هذا الكون، منوطاً بصلاح عقائد المكلفين، وبالتزامهم بشريعة ربهم، خالق الكون ومدبر أمره.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: وإن ظهور الخلل والاضطراب في بيئة الحياة، إنذار من الله تعالى للشاردين عن بابه، والمنصرفين عن شرعه؛ لعلَّهم يعودون إلى طاعته والتزام أحكام شريعته.

وهذا الناموسُ سنَّةٌ من سننه تعالى في خلقه ماضياً وحاضراً:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ﴾ أي: انظروا نظر المتدبر المعتبر، وفكروا بسبب هلاكهم ودمارهم:

﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾.

ثم بينت الآياتُ طريقَ الخلاص والنجاة من الفساد، وخطر الخلل والاضطراب في بيئة الحياة، فتوجَّهت بالخطاب مرة ثانية إلى النبيِّ ﷺ تأمره

---

(١) المحرر الوجيز: ١١/ ٤٦٥.

بالثبات على دين الله تعالى، والاستقامة على شريعته، فهو سبيل الخلاص والنجاة من الهلاك في الدنيا والآخرة:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣)﴾.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا يقدر أحد على ردِّه؛ لأنَّ الله قدَّره، وتعلَّقت به إرادته، وهو يوم القيامة.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: يتفرَّقون، فريق في الجنة، وفريق في السعير.

والمسؤوليةُ في هذا اليوم شخصيةٌ، وكل إنسان يتحمَّلُ تبعات عمله وكسبه واختياره:

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤)﴾.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي: فعليه وحده وبال كفره.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أي: لأنفسهم يوطِّئون الطريق إلى الجنة، ويصلون بهذا التمهيد إلى فضله تعالى ورحمته.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)﴾.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ فالفضل من الله تعالى أولاً وآخراً.

وخصَّ تعالى المؤمنين بفضله دون غيرهم؛ لأنه لا يحب الكافرين:

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فهم مطرودون من ساحات رحمته وفضله.

* * *

إرسال الرياح والرسل

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

ثم لفتت الآيات الأنظار إلى بعض الظواهر الكونية، التي تبيِّنُ ارتباطَ السنن الإلٰهية بسلوكِ الناس، ومدى استجابتهم لأمر ربهم، وتصديقهم لرسله:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ أي: تبشِّر باقتراب نزول المطر، فهي حوامل السحب الممطرة، بحسب الناموس الذي قدَّره العليم الحكيم لحركة الرياح، وتوزيع الأمطار على بقاع الأرض، وسيأتي تفصيله قريباً.

وقد اقتصرت الآيةُ هنا على بيان أنّه من الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى وإحسانه ورحمته، وأنّ له صلةً أيضاً بحركة السفن في البحار، وتيسير أسباب الرزق لكثير من العباد، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فالمنافع المترتبة على إرسال الرياح متعددة، فالسفن تجري بمشيئته تعالى، ففي الرياحِ طاقةٌ كبيرة،

كان الناس يعتمدون عليها في تسيير سفنهم، للتجارة والصيد وغير ذلك من المنافع.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لعلكم تشكرونه تعالى على هذه النعم الكبيرة.

وشكره تعالى لا يكون إلا باتباع رسله، والتزام شريعته، ولهذا توقفت الآيات عن الحديث عن منافع الرياح المرسلة، لتتحدَّث عن رسالات الرسل، وعن انتقامه تعالى من الذين أعرضوا عن رسالاتهم، فكأنَّ الآيات تقول للناس: إن أردتم أن تبقى أسباب الرزق ميسَّرة لكم، فتمسكوا برسالات الله تعالى، والتزموا بشريعته، وإلا فإن سنَّته تعالى في الأمم السالفة الهالكة ستنسحب عليكم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: جاء المرسلون بالبراهين والدلائل، التي تدل الناس على صدق رسالاتهم، ومع ذلك كذبوهم.

﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا يدل على أنَّ للمؤمنين كرامةً عند الله تعالى، فإنَّ انتقامه من المجرمين لأجل نصر المؤمنين، فما أعظم فضله عليهم!.

وبعد بيان العلاقة القوية، بين إرسال الرياح بالخيرات المادية، وإرسال الرسل بالخيرات المعنوية، عادت الآياتُ تفصِّل الناموس الإلٰهي لحركة الرياح، وما يترتب عليه:

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۖ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ فهو سبحانه المرسل الحقيقي للرياح، وما يقال عن تأثير اختلاف الأنواء، واختلاف درجات الحرارة والبرودة، وعلى حركة

الرياح، كُلُّ ذلك أسبابٌ أبدعها العليم الحكيم أيضاً، وهي لا تؤثر بنفسها إلا إذا وافقت قدر الله تعالى، فهو سبحانه خالق الأسباب والمسببات، كما سبق بيان ذلك في موضوع **سورة الرعد** [١٢ ـ ١٣].

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي: ترفع سحاباً وتحركه وتسيره.

﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: فينشره في سماء البقاع والبلاد كما يشاء تعالى، كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣].

﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ أي: ويجعله تعالى قطعاً متميزة من بعضها، بكثافتها وبرودتها وشحناتها الكهربائية وألوانها.

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ﴾ أي: فترى المطر يخرج من خلال السحاب.

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: إذا هم يفرحون بما يحمل لهم المطر من خير ورزق.

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: وكانوا من قبل نزول المطر عليهم في حال يأس وقنوط وحزن.

- **التغير السريع في أحوال الناس النفسية:**

وأفادت (إذا) الفجائية، في قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ سرعة تقلب أحوال الناس النفسية، من حال اليأس والحزن إلى حال السرور والرجاء، كما أفاد تكرار الضمير العائد على المطر في قوله: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾ شدة يأس الناس وحزنهم، بسبب تطاول احتباس المطر عنهم.

ولهذا جاء التعقيب على الآثار الطيبة الإيجابية، التي أحدثها نزول المطر، في نفوس العباد وفي حياة البلاد، حيث قال ﷻ:

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَانظُرْ إِلَىٰ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ أي: انظر أيها الإنسان نظر المستبصر المعتبر، لتعرف عظمة الخالق، وقدرته في إحياء الأرض اليابسة الهامدة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: إن ذلك لدليل واقعي مشاهد ومتجدد، يدل على قدرته تعالى على إحياء الموتى يوم القيامة، وهو سبحانه قادر على كل شيء.

ولا شك أنّ سرعة تقلب مزاج الإنسان، يدل على افتقاره وضعفه، ولهذا تابعت الآياتُ تقرر هذه الحقيقة، فتصور تحول الإنسان الفجائي المعاكس لما سبق بيانه من تحوله من اليأس والقنوط إلى السرور والرجاء:

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ أي: ريحاً عقيماً لا يحمل سحاباً، ولا يبشِّر بنزول مطر.

﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ أي: رأوا آثاره المدمرة الصفراء، أو: رأوه بلون أصفر، بسبب ما يحمل من غبار وتراب.

﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ أي: لظلوا من بعد الاستبشار يكفرون بالله، ويجحدون نعمته وفضله، وهذا يؤكِّد ضعفهم، ويدل على قِلَّة تثبتهم وصبرهم، وسرعة تزلزلهم، كما يدل على عدم تدبُّرهم، وسوء رأيهم، فإنَّ النظر السوي يقتضي أن يتوكلوا على الله، ويلتجئوا إليه بالتوبة والاستغفار إذا احتبس القطر عنهم، ولم ييئسوا من رحمته[١].

وهذا تأكيد لما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

---

(١) تفسير البيضاوي: ٥/ ٥٢.

والجدير بالذكر هنا أن حال المؤمن في مثل هذه التقلُّبات والأحوال، يختلف عن حال الكافر، فإنَّه يشكر الله عند النعمة، ويصبر عند المحنة ولا ييئس من روح الله، بل يلتجئُ إليه داعياً مستغفراً، كما في الحديث الشريف: «**عجباً لأمرِ المؤمنِ إنَّ أمرَهُ كلُّه خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمنِ، إنْ أصابتْهُ سرَّاءُ شكرَ فكانَ خيراً لهُ، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صبرَ فكانَ خيراً له**» [رواه مسلم (٢٩٩٩)].

ويلاحَظُ أنَّ القرآن الكريم يميز بين **الرياح والريح**، فالتي تحمل المطر وتأتي بالخير **رياح**، بينما التي تحمل الدمار والخراب **ريح**، ولعلَّ ذلك بسبب الواقع المشاهد، فالرياحُ الممطرة تأتي رخية لينة على دفعات، بينما الريح المدمرة تأتي دفعة واحدة، على شكل إعصار قوي مدمر.

* * *

موتى القلوب

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

استمرّتِ الآياتُ في مخاطبة النبي ﷺ؛ تواسيه عما يلقاه من إعراض المشركين وجحودهم:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: وضَّحْتَ الحججَ يا محمَّدُ، لكنهم لإلفهم تقليدَ الأسلاف في الكفر، ماتتْ عقولُهم، وعميتْ بصائرُهم، فلا يتهيأ لك إسماعهم وهدايتهم[1].

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ٤٦٠.

فالمراد موتى القلوب بسبب كفرهم، إذ الكفرُ موتٌ، والإيمان حياةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أي: لا تُسْمِعُ الدعوةَ الذين فقدوا حاسَّةَ السمع إذا أعرضوا عنك فارِّين، فإنَّ الأصم المقبل ربما يفهم شيئاً بواسطة الإشارة.

وهذا يدلُّ على شدة إعراضهم عن دعوة النبي ﷺ. وفي قراءة: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي: وما أنت تقدر على هداية الضالِّين المصرِّين على ضلالهم، فذلك لله تعالى، يضلُّ مَنْ يشاء، ويهدي مَنْ يشاءُ.

سمَّاهم عمياً، جمع أعمى؛ لفقدهم المقصودَ الحقيقي من الإبصار، وهو رؤيةُ الشواهد الدالَّة على الحق، فقد ينتفي الشيءُ لانتفاءِ فائدته، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

أو: لعمى قلوبهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: ما تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا، فإنَّ إيمانَهم يجعلُهم يتدبرون فيها، وينتفعون بها، فهم المنقادون للحق، المستسلمون له.

* * *

تذكير وتحذير وتبشير

﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾

- **سُنَّة الضعف والقوة:**

وأخيراً قبل أن تُخْتَم سورة الروم، سورة السنن الكونية، ذكَّر الله تعالى الناسَ بأسلوب التحدي، بسنَّته القدرية للأطوار الأساس الكبرى في حياتهم:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي: خلقكم من نطفة ضعيفة. أو: خلقكم في حال ضعف، فهو تذكير لنا بما كنا عليه في ابتداء خلقنا.

وقال: ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ ولم يقل: ضعفاء؛ للدلالة على أن الضعف أساسُ أمرنا، فهو كقوله: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] تنزيلاً لما طُبع عليه من الأخلاق منزلة ما طبع منه.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ أي: جعل من بعد ضعف الصغر والطفولة، قوَّةَ الشباب، فهي نعمة من نعمه تعالى، لا يكتسبها الإنسان بجهده، وإنما يتفضل الله بها عليه.

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ﴾ أي: ثم جعل من بعد قوة الشباب ضعف الشيخوخة، وما يصاحبها من الشيب والهرم.

فالتغيير يتناول قوةَ الناس وبنيتهم، وهو يخضع لناموس قدري لا يستطيعُ أحدٌ أن يتملَّص منه، وما أكثر ما بذلوا من جهود للتملص منه، أو لتأخير سريانه فيهم، فما حصلوا إلا على السراب، ضاعت جهودهم، وفشلت أبحاثهم، وكان الأَوْلى بهؤلاء الباحثين عن إكسير الشباب، والراكضين وراء السراب، أن يوجِّهوا جهودهم لاغتنام القوة في طاعته تعالى، وعمارة حياتهم بعبادته، كما في الحديث الشريف: «**بادروا بالأعمالِ سبعاً: هل تنظرونَ إلا فَقْراً مُنْسِياً، أو غِنًى مُطْغِياً، أو مَرَضاً مُفْسِداً، أو هَرَماً مُفنداً، أو مَوْتاً مُجْهِزاً، أو الدَّجَّالَ، فشرُّ غائبٍ يُنْتَظَرُ، أو الساعةُ، فالساعةُ أدهى وأمرُّ**» [رواه الترمذي (٢٣٠٦) وقال: حديث حسن].

وعن **ابن عباس** رضي الله عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لرجلٍ وهو يعظه: «**اغتنمْ خَمْساً قبلَ خَمْسٍ: شبابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قبل سَقَمِكَ، وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قبلَ شُغْلِكَ، وحياتَكَ قبلَ مَوْتِكَ**» [رواه الحاكم (٤/ ٣٠٦) وصححه].

وإنَّ هذا الناموسَ عامٌّ شاملٌ، يسري حتى على الأنبياء، صفوتِهِ تعالى من خلقه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤].

وهو يتم بمحض مشيئته تعالى وقدرته وسابق علمه، ولهذا قال سبحانه في ختام الآية:

﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾.

- **يوم البعث:**

ويأتي الموتُ بعدَ الضعف والشيبة، وتسري على الإنسان بعد الموتِ سننٌ جديدةٌ، ونظم مختلفة عن السنن والنظم الدنيوية، إنها سنن البرزخ، الممتد من الموت إلى البعث، عندما يُبعث الخلائق ليوم المسؤولية والجزاء:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي: ويوم تقوم الساعة، التي هي عَلَمٌ على يوم القيامة، يقسم المجرمون أنهم ما مكثوا في قبورهم أو في الدنيا، أو فيهما معاً، غيرَ ساعةٍ، وهي قطعةٌ من الزمان قصيرةٌ معروفةٌ، فبين الكلمتين جناس تام مماثل، ولم يقع في القرآن الكريم هذا النوع من الجناس إلا في هذا الموضع[1].

استقصروا الأزمان الماضية؛ بسبب ما يرون من أهوال وأفزاع يوم القيامة، وما ينتظرهم من العذاب الدائم فيه.

﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: مثل ذلك الإفك العجيب، وهو الانصراف عن الحقيقة، كانوا في الدنيا يصرفون عن الحقيقة.

ويبادر المؤمنون إلى تذكيرهم بالحقيقة التي صرفوا عنها:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: وقال الذين أعطوا العلم بحقيقة الدنيا، ولم يغترُّوا بها، وهدوا إلى الإيمان: لقد مكثتم مدَّةً طويلةً قدَّرها الله تعالى، وكتبها في لوح المقادير، امتدت إلى يوم البعث من القبور.

وجاء وصفُ المؤمنين بأنهم أوتوا العلم والإيمان متسقاً مع الذين أفكوا عن الحقيقة وصُرفوا عنها، ومقابلاً له، فشتان بين الذين عرفوا الحقيقة، فعاشوها اعتقاداً وسلوكاً، وعمَّروا بها دنياهم وآخرتهم، وبين الذين صُرفوا عنها، فعاشوا حياتهم تائهين حائرين في ظلمات الضلالة، وخربوا آخرتهم.

---

(١) روح المعاني: ٢١/ ٦٠.

﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: فها أنتم تواجهون يوم البعث حقيقة واقعة، بعد أن كنتم في الدنيا غافلين عنه.

أو: فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا.

ولا يخفى ما في كلام المؤمنين من توبيخ وتقريع للكافرين.

● **الجزاء من جنس العمل:**

لقد انتبه الغافلون من غفلتهم، وحاولوا أن يعتذروا عن تفريطهم وتقصيرهم:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: لا ينفعهم في هذا اليوم معذرتهم، ولا يُدعون إلى إرضاء ربهم بالتوبة والطاعة؛ لفوات وقتهما.

فالاستعتابُ: طلبُ العُتبى، وهي الاسم من الإعتاب، وهو إزالة عتب الله تعالى، والمراد به غضبه تعالى عليهم[(١)]

يقال: استعتبني فلان فأعتبته، أي: استرضاني فأرضيته.

قال ﷻ: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية].

لقد أقام الله عليهم الحجةَ البالغةَ في القرآن الكريم؛ ولهذا لا يقبل اعتذارهم، ولا يأذن لهم بالاستعتاب، فما ترك الله أسلوباً من أساليب بيان الحقيقة وتقريبها من أذهانهم إلا ذكره في كتابه الكريم، ومع ذلك أعرضوا عن الحق بعناد وجحود، وتطاولوا على أهل العلم الصحيح.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ﴾ أي: من كل مثل يدلُّهم على الحق

---

(١) روح المعاني: ٢١/ ٦١.

ويقرِّبه لهم، وقد مرَّ في السورة بعض هذه الأمثال، ولكنهم أعرضوا مستكبرين.

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي: ولئن جئتهم بآية من آيات القرآن الكريم، الناطقة بالحق، ليقولن الذين كفروا للمؤمنين: ما أنتم إلا مبطلون.

وهذا يدل على شدة عنادهم وعتوهم وقسوة قلوبهم:

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: هكذا يختم الله على قلوب المصرِّين على جهلهم وكفرهم، والجزاء من جنس العمل.

- **تحذير وتبشير:**

ولا شك أنَّ مواجهة مثل هؤلاء المعاندين، ابتلاء من الله تعالى كبير، لا يمكن القيام به إلا بالثبات والصبر، وهذا ما أمر الله تعالى به النبي ﷺ في ختام السورة:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ﴾ أي: إن وعد الله بنصر دينه وإعزازه وإظهاره، حق لا بد من إنجازه.

﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: لا يحملنَّك هؤلاء المعاندون الجاهلون على الخفة والعجلة، فتتصرف تصرفات غير حكيمة ولا موزونة.

ولا شك أنَّ المراد بهذا الخطاب كل داعية إلى الله تعالى، فعليه أن يتَّصف بالأناة والحذر، فلا تصدر منه أفعال عاطفية، هي ردودُ فعلٍ انعكاسية على مواقف العناد والجحود، التي يلقاها من المعارضين لدعوته.

والواجبُ على كلِّ داعيةٍ أن يملك نفسه، ويسيطر على عواطفه، فلا يسمحُ لأعداء الإسلام أن يجرُّوه إلى مواقف يندم عليها، ويدفعوه إلى ارتكاب حماقات

خاطئة طائشة، تعودُ عليه وعلى دعوته بالضرر والفشل والعواقب الوخيمة، كما فعلوا مع كثير من الدعاة في العصر الحاضر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

على الدعاة إلى الله تعالى أن يحذروا أن يكونوا مثل جنود فرعون وبطانته وحاشيته، الذين عطَّلوا عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، فاستخف بهم، وقادهم إلى الهلاك، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

ولا سبيل لكبح العواطف الثائرة وامتلاكها، إلا بالتفقه في دين الله تعالى، وتدبُّر آياته الكريمة تدبُّراً صحيحاً، قائماً على منهج علمي متكامل، لا على فهم جزئي مبتور، فالطريق طويل، والنصر آتٍ بإذن الله تعالى، وأعمارُ الأمم والشعوب ليست كأعمار الأفراد: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ﴾ كما سبق تقريره في صدر السورة [٤]، فاثبتوا على طريق الدعوة، ولا تستبطئوا نصر الله تعالى، ولا تستبقوا الأحداث، فلكل أجل كتاب، وتأملوا الاتساق العجيب بين قوله تعالى في أول السورة: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ وبين قوله في ختامها: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾.





٣١

تفسير سورة لقمان

المُقَابَلَةُ الحَكِيْمَةُ والمُوَازَنَةُ المُسْتَحِيلَةُ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأكملُ الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعدُ: فإنَّ نعمَ الله على الإنسان كثيرة، لا تعدُّ ولا تحصى، وظاهرة وخفية، ومهما بذلَ الإنسانُ من جهد للوقوف على مداها، فلا يمكنه ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

والإنسانُ العاقل الحكيم هو الذي يقرُّ بهذه الحقيقة، ويعترف بعجزه عن شكر نعم الله تعالى عليه.

ولقد تجلَّت حكمة لقمان، عندما أدرك هذه الحقيقة، ووجَّه ولَدَه إليها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

فإقرار الإنسانِ بفضل الله تعالى عليه، واعترافُه بتقصيره عن القيام بحق شكر هذه النعم، هو عينُ الحكمةِ التي أدركها لقمان، وهي تدل على أنَّ الإنسان العاقل، يمكنه أن يعرفَ فضل الله عليه، من دون أن يكون نبيّاً يوحى إليه.

وكم في الناس من يغفلُ عن هذه الحقيقة، ويصرف مداركه وحواسه إلى لهو الحياة وزخارفها وباطلها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

بل إنَّ في الناس من يجادِلُ لإنكار هذه الحقيقة، والتملُّص من مسؤولياتها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

تلك هي الأفكار الأساس التي تدور آياتُ السورة في فلكها: **إظهارُ فضل الله على الإنسان**، والحكيمُ في الناس من يقرُّ بفضله، ويعترف بعجزه وقصوره عن القيام بحق شكره.

أسأل الله تعالى أن يؤتينا الحكمة، وأن يجعلنا من الشاكرين لآلائه وأفضاله، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.



تفسير سورة لقمان

الـمُقَابَلَةُ الـحَكِيمَةُ وَالـمُوَازَنَةُ الـمُسْتَحِيلَةُ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ

الكتاب الحكيم بين المحسنين والمضلِّين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٩ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾.

- **الكتاب الحكيم:**

بدأ تعالى سورة لقمان كما بدأ سورة العنكبوت:

﴿الٓمٓ ۝١﴾.

قد سبق الحديثُ عن هذه الحروف في فواتح عدد من السور، كالبقرة وآل عمران.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

أي: تلك آياتُ القرآن المتصف بالحكمة، أو: الناطق بالحكمة، أو: المحكم عن الكذب والافتراء.

ويأتي الحكيمُ بمعنى الحاكم، وهو تقريرٌ لحقيقةٍ لا شك فيها؛ لأنّ القرآنَ الكريمَ كلامُ الحكيم العليم.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣﴾.

أي: أنزل الله آيات الكتاب الحكيم لهداية المحسنين ورحمتهم.

وفي قراءة: (**هدًى ورحمةٌ للمحسنين**) أي: وهي هدى ورحمة للمحسنين.

والمحسنون: هم الذين أحسنوا القيام بعبادة الله تعالى، كما تقدَّم في الحديث الصحيح: «**الإحسانُ أن تعبدَ الله كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراه فإنَّه يراكَ**» [رواه مسلم (٨)].

ولمَّا أحسنوا في عبادته تعالى وطاعته أكرمهم بالانتفاع بآياته، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

ثم أبرزت الآيات بعض صفات هؤلاء المحسنين:

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾.

أي: الذين يؤدون الصلاة مستقيمةً تامةً، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون إيماناً لا ريب فيه بيوم القيامة، وما فيه من حساب وجزاء.

فهذه أشهرُ خصالِ المحسنين، وهي الأعلامُ الدالَّة عليهم، وبهذا أبرزتِ الآيةُ فضلَ الصلاة والزكاة والتصديق بيوم القيامة، وفضل الذين يتصفون بها، وأكدت هذا بثنائه تعالى عليهم بقوله:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾.

أي: أولئك على طريق الهداية والفلاح، وهو الخلود في النعيم، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

• **لَهْو الحديث والغناء المحرم:**

ثم ذكرت الآيات في مقابل المحسنين، الضالِّين المضلين، المعرضين عن الكتاب الحكيم:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ أي: وبعض الناس يشتري ما يلهي من الحديثِ الباطلِ؛ لكي يبعدَ الناسَ عن دين الله تعالى، وهو يجهلُ قبحَ عمله وعاقبته الوخيمة، ويستهزئُ بآياتِ الكتاب الحكيم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: أولئك لهم عذابٌ فيه إهانةٌ وإذلال؛ لأنهم فضَّلوا الباطل على الحق، واستهزؤوا بآياته.

ورأى جمهورُ العلماء أنَّ المراد من لهو الحديث: الغناء المحرم، والاستماع إليه، ولمَّا سُئل عبد الله بن مسعود ﷺ عن هذه الآية قال: الغناءُ والذي لا إلٰه إلا هو. يردِّدها ثلاثَ مرَّات. [رواه ابن جرير]. وقال ابن عباس: الغناء وأشباهه. [رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٨٦)، والبيهقي في سننه][1].

قال القرطبيُّ ﵀: «هذه إحدى الآيات الثلاث التي استدل بها العلماء على كراهة الغناء والمنع منه، والآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٦١] قال ابن عباس: هو الغناء بالحميرية، والآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] قال مجاهد: الغناء والمزامير، وذكره أبو

---

(١) الطبري: ٢١/ ٤٠.

الفرج ابن الجوزي عن الحسن وسعيد بن جبير وقتادة والنخعي، وهذا أعلى ما قيل في هذه الآية»[١].

وعن الحسن: لهوُ الحديثِ كل ما شغلك عن عبادة الله تعالى وذكره من السمر والأضاحيك والخرافات والغناء ونحوها.

والاشتراءُ استعارةٌ لاختيار لهو الحديث على القرآن واستبداله به، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦].

واشتهر أنَّ الآية نزلت في النضر بن الحارث، وفي رواية جويبر عن ابن عباس: أنَّ النضر اشترى قَيْنَةً، فكان لا يسمعُ بأحدٍ يريدُ الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، ويقول: أطعميه واسقيه وغنيه، ويقول: هذا خير ممَّا يدعوك إليه محمَّد.

وفي «**أسباب النزول**» للواحدي: عن الكلبي ومقاتل: أنَّه كان يخرج تاجراً إلى فارس، فيشتري أخبارَ الأعاجم، فيرويها، ويحدِّث بها قريشاً، ويقول: إنَّ محمداً يحدِّثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدِّثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة.

وقيل: إنَّها نزلت في ابن خطل، اشترى جارية تغنِّي بالنسيب (الغزل).

ولا يأبى نزولها فيمن ذكر الجمع في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ﴾[٢] أي: لهم ولأمثالهم، فحكم الآيةِ عامٌّ ينسحِبُ على الذين نزلت بهم وعلى أمثالهم، وما أكثرهم في عصرنا الحاضر.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي: وإذا تتلى على أحد هؤلاء آياتنا، أعرض عنها، مبالغاً في إظهار التكبر والنفرة منها، كأنَّ في أذنيه صمماً مانعاً له من السماع، إذ لا يتصوَّر ممن يسمع آيات القرآن الكريم

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ٥٢.

(٢) روح المعاني: ٢١/ ٦٤.

الإعراض والاستكبار؛ لأنها تدعو إلى الخشوع والخضوع، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهو وعيد شديد، زاد في شدته أسلوب التهكُّم بذكر البشارة.

ذلك هو مصير المعرضين عن الكتاب الحكيم، المنشغلين بالغناء واللهو والعبث، أما المصدِّقون به والعاملون بأحكامه، فقد بيَّن تعالى مصيرهم بقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

أي: وهو تعالى الغالب، الذي لا مانع يمنع من تحقيق وعده، الحكيم في أقواله وأفعاله.

- **هذا خَلْق الله:**

ومن مظاهر حكمته في أفعاله إبداعه للمكونات على هذا النظام المحكم المتقن المتناسق:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: خلق السماوات مرفوعة بالنسبة للأرض، بغير عمد كما ترونها، فهي مرفوعة بقدرته تعالى بغير أسباب، كما في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: وألقى في الأرض جبالاً شامخة ثابتة؛ لئلا تضطرب بكم، فباطنُ الأرض سائل ملتهب، فثبَّت الله بقدرته وحكمته

قشرتها بالجبال، فهي لها كالأوتاد، وقد مرَّ تفصيل ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥].

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي: ونشر فيها من كل نوع من أنواع الدواب التي تدب عليها، ويعيش كل نوع في البيئة المناسبة له، مما يدل على الحكمة الباهرة للخالق الحكيم.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي: وأنزلنا من جهة السماء ماء، فأنبتنا في الأرض من كل صنف جميل نافع.

ولا يَخْفَى ما في أسلوب الالتفات من الغيبة إلى التكلُّم من فصاحة وحكمة، فإنزال الماء، وإخراج النبات ظاهرة كونية، تحدث بمقتضى نواميس، كما مرَّ في **سورة الروم** عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

وهذه النواميس ليست سوى أسباب، لا تؤثر بنفسها، إلا بمشيئته تعالى وقدرته، فهو وحده الخالق المدبِّر، ولهذا توجَّهت الآيات تتحدى الجاحدين المعاندين قائلة لهم:

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ أي: ماذا خلقت آلهتكم المزعومة التي تعبدونها من دونه تعالى.

ثم عقَّبت الآيةُ على تحدِّيهم فوراً، بأسلوب الإضراب والانتقال المباشر، لتظهر عجزهم وبطلان عقائدهم.

﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ظاهر واضح، والظالمون: البعيدون كل البعد عن الحكمة والصواب، الذين يضعون الأشياء في غير مواضعها المناسبة لها.

* * *

لقمـان الحكيم

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

توحيد الله تعالى رأس الحكمة ولبُّها، ولا يكون الإنسان حكيماً إذا لم يكن موحِّداً، قال الغزالي رحمه الله: من عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله، لم يستحق أن يسمى حكيماً[١].

ويستطيع الإنسان العاقل أن يكون حكيماً مُوَحِّداً، ولو لم يكن نبيّاً أو سامعاً دعوة نبي، فهذا لقمان الحكيم، رجل آتاه الله الحكمة، فكان بحكمته موحداً لله تعالى وداعياً إلى توحيده:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: أعطيناه حُسْنَ الفهم والعلم، أو الإصابة في

---

(١) تنوير الأذهان: ٣/ ٢٠١.

القول والعمل، فهي موهبة من الله غير مكتسبة، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وقد اختلف المفسِّرون في هوية هذا الرجل الحكيم، وفي زمنه وبلده وصنعته، ولا حاجة إلى معرفة هذه الأمور والخوض فيها، فالمهم أنه تعالى أعطاه الحكمة، فكان الرجل حكيماً ولم يكن نبيّاً.

وقد نسبوا إليه كثيراً من الحكم المتداولة، ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شيءٌ، ولا ثبتَ إسنادٌ صحيحٌ إلى لقمان بشيءٍ منها(١).

وقد بين سبحانه الحكمة التي أكرمه بها:

﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ فشكرُ الله تعالى رأسُ كلِّ عبادةٍ، وجميعُ العبادات والمعتقدات دائرةٌ على شكره تعالى، وما يتفرَّع عنه.

ولا يكونُ العبد شاكراً لله تعالى إذا لم يتقه بطاعته وترك معصيته، فحقيقةُ الشكرِ الاعترافُ بنعمة المنعِم، وأنَّه تعالى وحدَه المنعم المتفضل، واستعمالُ النعمةِ في طاعته تعالى والثناءِ عليه وحمده، كما تقدَّم في موضوع **سورة النحل**.

وأول ثمار الشكر أنْ يوفِّقَ الله تعالى الشاكرَ، ويسدده إلى الحق في أقواله وأفعاله، فيكونُ بهذا حكيماً، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقال أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

ولا شكَّ أنَّ لقمان الحكيم كان صالحاً، فنوَّر الله تعالى بصيرته وقلبه، وسدَّده ووفقه، وجعل له فرقاناً يفرق به بين الحق والباطل، وكان بهذا حكيماً.

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: ومن يشكر الله تعالى على نعمه، فإنما يشكر لأجل نفسه، فهو يريد المزيد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

---

(١) فتح القدير: ٤/ ٢٤٠.

فمنفعة الشكر تعود على الشاكر، والله سبحانه غني عن شكر الشاكرين.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: ومن جحد فضل الله تعالى، فإنَّ وبال ذلك يعود عليه أيضاً، وقد تقدم في **سورة الروم** قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

والله غني عن شكر الشاكرين، حقيق بأن يُحمد؛ وإن لم يحمده أحد، فهو المحمودُ، وجميعُ المخلوقات ناطقةٌ بلسان حالها بحمده، ويستحق الحمد لكمال ذاته وصفاته ﷻ.

- **من حكمة لقمان:**

ومن حكمة لقمان أنه بدأ بإصلاح ولده، فالرجل الحكيم يهتم بخاصة نفسه قبل العامة، وهذا من صفات الأنبياء، فإنهم يبدؤون بدعوة أهلهم وأولادهم وإصلاحهم، كقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقد مرَّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] كيف بدأ النبي ﷺ بدعوة أهله وأقربائه وعشيرته.

ومن حكمة لقمان أيضاً: أنه بدأ بإصلاح عقيدة ولده، فهي أهم شيء في الإنسان، وإذا ما صلحت أمكن إصلاح الإنسان عبادة ومعاملة وأخلاقاً، فحذَّر ولده من الشرك، وبيَّن له خطره الشديد، وما يترتب عليه من ظلم وفساد في الاعتقاد والسلوك:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ أي: وهو يذكِّره ويؤدبه ويرشده.

ولا شك أنَّ الوالدَ يقدِّم لولده أفضل ما عنده، ويسعى أن يصب في قلبه حشاشة روحه، وعصارة حكمته وخبرته وتجاربه، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده، وقد ذكره الله تعالى بأحسن الذكر، وهو

يوصي ولده، الذي هو أشفقُ الناس عليه، وأحبهم إليه، فهو حقيقٌ أن يمنحه أفضل ما يعرف، ولهذا أوصاه أولاً أن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً»[١].

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي: لا تشرك بالله أحداً مطلقاً.

و(بُنيَّ) تصغير ابن، وهو تصغير إشفاق ومحبة.

﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنه يسوِّي بين الخالق المنعم، وبين المخلوق الفقير الذي لا نعمة له أصلاً، يسوي بين من يستحق العبادة، وبين من لا يستحقها، وهذا هو الظلم العظيم، وكل ما يتصف به المخلوق يتنزَّه عنه الخالق جل وعلا، ولا يتَّصف به، فهو واحد في ذاته وصفاته وأفعاله.

وفي الحديث الشريف: عن **عبد الله بن مسعود** ﷺ قال: لمَّا نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] شقَّ ذلك على أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وقالوا: أيُّنا لا يَظْلِمُ نفسَه؟! فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ليسَ هُوَ كما تظنونَ، إنَّما هو كما قالَ لقمانُ لابنه: يا بنيَّ لا تُشْرِكْ باللهِ إنَّ الشِّرْكَ لظلمٌ عظيمٌ**» [رواه مسلم (١٢٤)].

● **المقابلة الحكيمة:**

توقفت الآياتُ فجأة عن حكاية وصية لقمان لولده، وانتقلت إلى بيان وصية الله تعالى للإنسان بوالديه، فهما السببان اللذان أوصل تعالى بواسطتهما للإنسان كثيراً من نعمه وإحسانه عليه، وبهما دفع الله تعالى كثيراً من أسباب الهلاك والضر عنه، فعلى الإنسان أن يشكرَ لوالديه ويحسن إليهما، بعد أن يشكرَ لله تعالى، الذي خلقَ فيهما الدواعي والبواعث، لكي يكونا سببَ وصولِ نعمه تعالى وإحسانه إلى ولدهما.

تلك هي المقابلةُ الحكيمةُ التي برزت من خلال الآيات الكريمة، فالشكر في الأصل ينبغي أن يكون لله تعالى، والطاعة له سبحانه وحده، وشكر الوالدين يأتي بعد شكر الله تعالى.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ٦٤.

وثَمَّة معانٍ لطيفة كثيرة، ستظهر لنا من خلال الحديث عن وصيته تعالى بالوالدين:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ وما أحكم هذه الوصية وما أجملها! وقد سبق الحديث عن معانيها في **سورة العنكبوت** [٨]، ومع أنَّ موضوع الآيات في الموضعين واحد، وسبب نزولها أيضاً في الموضعين واحد ـ كما ذكر علماء التفسير ـ لكنَّ الآيات أنزلت في كل موضع بصياغة خاصة، كما أضافت في كل موضع معاني جديدة تتفق مع موضوع السورة، وتتناسب مع موقعها ومكانها بين آياتها.

في **سورة العنكبوت** [٨] التي دارت آياتها في فلك موضوع الابتلاء والولاء، بادرت الآيات بعد ذكر الوصية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ إلى الحديث عن ابتلاء الولد المسلم بمعارضة والديه الكافرين: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾.

أما هنا فقد ذكرت الآيات أولاً الوصية مطلقة مفتوحة، ثم بادرت قبل بيان مضمون الوصية إلى إظهار معاناة الأم بولدها:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: حملته في بطنها، وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف، فالأنوثة ضعف، ويزداد هذا الضعف بالحمل، وكلَّما نما الجنين في رحمها وزاد وزنه أثقلها، وزاد من ضعفها ومعاناتها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

ويبلغ الضعف ذروته عند المخاض والوضع، ولا تتوقَّفُ معاناة الأم بوضعه، بل تنتقل إلى المعاناة والتعب بإرضاعه والاهتمام برعايته ونظافته، ولهذا قال تعالى:

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيۡنِ﴾ أي: وفطامه من الرضاع في عامين من ولادته.

وفي قراءة: (**وفصله في عامين**) وهو بيانٌ لأقصى مدة الرضاع، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

فالآية تلفت نظر الولد إلى أنَّ عليه أن يزيدَ من عنايته بأمه، ويقدم شكرها وبرَّها على شكر والده وبرِّه؛ لأن نعم الله تعالى الواصلة إليه عن طريقها أكثر من النعم الواصلة إليه عن طريق والده، فالواجبُ أن يكون شكرها مقدماً على شكر الوالد، وبِرُّها أكثر من بره؛ تحقيقاً للموازنة الحكيمة بين النعمة والشكر.

وقد جاء الحديث الشريف يؤكد هذه الموازنة، فعن **أبي هريرة** ﵁ قال: جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ، مَنْ أحقُّ بِحُسْنِ صَحَابتي؟ قال: «**أُمُّكَ**» قال: ثُمّ مَنْ؟ قال: «**أُمُّكَ**» قال: ثم مَنْ؟ قال: «**أُمُّكَ**» قال: ثم مَنْ؟ قال: «**ثُمَّ أبوك**» [رواه البخاري (٥٩٧١)].

ومقتضى الحديث: أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر؛ وذلك لصعوبة الحمل ثم الوضع ثم الرضاع، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها، ثم تشارك الأب في التربية[١].

- **الموازنة المستحيلة:**

ثم بينت الآيات مضمون وصيته تعالى:

﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِى وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ أي: وصينا الإنسان أن يشكرني أولاً ويشكر والديه، فالشكر له تعالى أولاً؛ لأنه هو المنعم الحقيقي، وشكر الوالدين من شكره سبحانه؛ لأنهما سبب وصول كثير من نعمه تعالى إلى الإنسان.

ودلَّ أمره تعالى بشكر الوالدين على حكمته ورحمته وإحسانه، فهو الخالق الحقيقي والمنعم الحقيقي لكل النعم، وهو الذي خلق في الوالدين الرحمة والحنان والشفقة، التي تحملهما على العناية بولدهما، فالفضل له أولاً وآخراً، والحمد والشكر له دائماً وأبداً، ومع ذلك أمر تعالى بشكر الوالدين تكريماً

---

(١) فتح الباري: ١٠/٤٠٢.

لهما، إذ جعل لهما كسباً واختياراً في كل ما يبذلان من أجل ولدهما، وقرن تعالى شكرهما بشكره، وكل ذلك يبيِّنُ لنا فضلَه وإحسانه علينا، ويجعلنا نشعر بتقصيرنا عن شكر نعمه، فله حقيقة الشكر، كما له حقيقة النعمة، ولغيره مجازه، كما لغيره مَجازُها[1].

والجديرُ بالذكر هنا أنَّ الإنسان مهما قدَّم لوالديه من إحسان وبر، لا يكافئ ما قدماه له، فلا يمكن تحقيق الموازنة بين ما قدمه الوالدان لولدهما، وما يقدمه الولد لوالديه، مع أنَّ دورهما لا يتعدَّى كونهما وسيلتين مذللين ومسخرين لإيصال بعض نعم الله تعالى علينا.

وإذا كان الحال هكذا مع الوالدين، فكيف يكون مع الله تعالى؟! فمهما أقبلنا على شكره بقلوبنا وجوارحنا وألسنتنا، فنحن مقصِّرون في حق شكر نعمةٍ واحدةٍ من نعمه التي لا تُحصى، وإن شكرنا له تعالى يحتاج إلى شكر، فهو الذي هدانا لشكره، واستعملنا في طاعته، فنحن المقصِّرون، ونسأله تعالى أن يعفوَ عن تقصيرنا وضعفنا بمنِّه وكرمه، فالموازنة بين النعمة والشكر مستحيلة.

ولا شكَّ أنَّ الشعور بالتقصير متفاوت بين المؤمنين، وكلَّما ازداد الإنسانُ معرفةً بربِّه وفضله وإحسانه، زاد شعوره بتقصيره، فأقبل على الله تعالى تائباً مستغفراً، ولما كان الأنبياء أكثر الناس إيماناً ومعرفة بالله تعالى، فهم أكثر الناس شعوراً بتقصيرهم عن شكر نعمه، وأعظمهم حياء منه ﷻ.

وهذا يفسّر لنا كثرة استغفار رسول الله ﷺ وطول قيامه في الليل، وقد تقدَّم معنا أنه كان يقومُ من الليل حتى ترم قدماه الشريفتان.

وفي الآيةِ إشارةٌ من جانب آخر، إلى أنَّ إعجاب الإنسان بعبادته وطاعته ذنب كبير، يتنافى مع الشكر الواجب عليه، ويؤدي هذا الذنب الكبير إلى حبوط عمله، وعدم قبوله، وحرمانه من ثوابه يوم القيامة، وهو ما أشارت إليه الآية في ختامها:

﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، فالصالحون يتَّهمون أنفسهم دائماً بالتقصير، فيقبلون على الله

---

(١) تنوير الأذهان: ٣/ ٢٠٢.

تعالى بالأعمال الصالحة، وهم خائفون ألا يقبلها منهم، وهم يعلمون أنه ليس لأحد سابقةُ استحقاقٍ على الله تعالى، وأن الفضل له أولاً وآخراً، وبدءاً وختاماً.

- **صحبة الوالدين:**

وشكره تعالى مطلق غير مقيد، بينما شكر غيره مقيد بطاعته سبحانه، فلا طاعة لأحد في معصيته:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فهو كما مرَّ معنا في **سورة العنكبوت** [٨]: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾.

وأشار قوله هنا: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ﴾ إلى أنَّ جهدهما منصبٌّ على تكفير ولدهما، وحمله على الشرك، أمَّا في آية العنكبوت ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ فجاء موافقاً لما قبله ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٥].

وأفاد قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ تحقيرَ كلِّ الشركاء، فهي لا تستحق أن تكون شيئاً معلوماً، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٤٢].

وزاد تعالى هنا أمره الكريم بحسن صحبتهما، ولو كانا مشركين عدوين لله تعالى:

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صاحبهما في الدنيا بالمعروف، وهو ما يرتضيه الشرع، ويقتضيه الكرم والمروءة.

والآيةُ تحثُّ على صِلَةِ الأبوين الكافرين، فما أحكمَ هذا التشريع! إنَّه تشريع الإلٰه الحكيم العليم، الذي لم يؤثر على حكمته جحود الجاحدين وصدود المشركين.

ويلاحظ أنَّ الآية قيدت حُسْنَ الصحبة بالدنيا فقط، فإذا ماتا كافرين انقطعت الصحبة بالمعروف، فلا يجوزُ أن يبرَّهما بدعاء ولا استغفار، كما تقدم

عند قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي: اتبع أيها الإنسانُ سبيل المخلصين الموحدين التائبين، وأعرضْ عن سبيل والديك المشركين.

وقيل: المرادُ بِمَنْ أنابَ إليَّ أبو بكر الصديق ﷺ، فإنَّ سعد بن أبي وقاص، الذي أنزلت الآية بسببه، أسلم بدعوة أبي بكر الصديق ﷺ.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ثم رجوعك ورجوع أبويك يوم القيامة إليَّ، فأُجازي كلَّ واحدٍ بما صدر عنه من شكر أو كفر.

- **توجيه وإرشاد:**

ثم عادت الآياتُ مرَّةً ثانية إلى حكمة لقمان، وهو يوصي ولده:

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أي: إن الخصلة من الخير والشر مهما تكن صغيرة وبعيدة وخفية، يأت بها الله، ويجازي عليها، فلا يضيع عن علمه وقدرته تعالى أيُّ شيء، كما قال سبحانه: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣].

ويدل هذا المثل على حكمة لقمان أيضاً، فَضَرْبُ الأمثالِ الصحيحةِ الموافقةِ لمقتضى الحال يدلُّ على حكمةِ قائلها، وقد ضرب لقمان هذا المثل لابنه لكي يبينَ له كمالَ قدرة الله تعالى وعلمه، وأنه وحده المستحقُّ للعبادة، ومثَّلَ بحبة الخردل لضآلة العمل وقلته، وكونه في الصخرة لخفائه، وكونه في السماوات أو في الأرض لبُعده، وقال بعد ذلك: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ ليبين كمال علمه وقدرته سبحانه.

وقد قوَّى لقمان ـ بهذا المثل ـ في نفس ولده الشعور بمراقبة الله تعالى، كما عرَّفه بمسؤوليته الكاملة عن كل أعماله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: إن الله لطيف بالإتيان بها، خبير بمستقرها وكنهها وحقيقتها.

وبعد أن بيَّن لقمان لولده أصولَ الاعتقاد الصحيح، أمره أن يقوم بالتكاليف الشرعية، التي تدلُّ على صحة اعتقاده، واستسلامه لربه وانقياده، واختار أهمها:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: أدِّ الصلاةَ كاملةً مستقيمةً، فهي أهم العبادات وأعظمها تأثيراً في نفس الإنسان وسلوكه وأخلاقه.

ومِنْ واجبِ الوالدِ نحو ولده أن يأمره بالصلاة، ويحمله عليها، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وفي الحديث الشريف: أنَّه عليه الصلاة والسلام قال: «**مُرُوْا أولادَكُم بالصلاةِ وهم أبناءُ سبعِ سنينَ، واضربوهم عليها وَهُمْ أبناءُ عشرٍ، وفرِّقوا بينَهم في المضاجعِ**» [رواه أبو داود (٤٩٥) والترمذي (٤٠٧)، وقال: حسن صحيح][(١)].

﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: وأْمُر بكل خير، وانْهَ عن كلِّ شرٍّ.

ولا شك أنَّ تعويدَ الولد على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقوِّي شخصيته، ويساعده على مواجهة أعباء الحياة، وتحمل المسؤولية، فاهتمامُ لقمان بهذا الجانب في إرشاده لولده، من معالم حكمته.

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ أي: اصبر على ما أصابك من مكروه، بسبب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووطِّنْ نفسك على مواجهة عقبات الطريق.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: إنَّ ذلك من الأمور المقطوع بها، الواجبة في

---

(١) إذا كان الولد يؤمر بالصلاة وهو ابن سبع، فتعليمه وتعويده الصلاة يتم قبل ذلك.

دين الله، أو: إنّ ذلك من الأمور التي يحتاج القائمون بها إلى عزم وحزم وجد، فلا ينهضُ بها إلا أصحابُ الهمم العالية، كما قال أبو الطيب:

على قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تأتي العَزَائِمُ   وَتَأْتِي عَلى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

وبهذا التوجيه الكريم، عمل لقمان على رفع همة ولده، وشدِّ عزمه، ليتمكنَ من تحمُّل تكاليف الحياة، وهو في مقتبل عمره وبواكير حياته.

ثم نهاه عن العادات القبيحة، والأخلاق السيئة المذمومة:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تتكبر على الناس، وتميل وجهك عنهم تكبراً، بل أقبل عليهم متواضعاً مؤنساً مستأنساً. وقرئ: **(تُصاعر)** و **(تُصعِر)** وكلها من الصعر، وهو الميل[1].

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: لا تمشِ متبختراً متكبراً مختالاً.

ولعلَّه قصدَ بذكر الأرض، المعنى المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

أو لعله أراد: لا تمشِ في الأرض لأجل المرح والبطر، وما يترتب على ذلك من إفساد فيها.

ثم قال معللاً للنهي ومؤكداً له:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: إنَّ الله لا يحب المختال المتعاظم في نفسه، والفخور المتطاول على الناس بما أنعم الله عليه، فيلزم اجتناب الاتصاف بصفتيهما.

ثم بيَّن لقمان لولده كيف ينبغي أن يكون مشيه:

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: توسَّط فيه، فالقصدُ هو الاعتدال بين الإسراع

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ٧٠.

المذهب للبهاء والوقار، وبين الإبطاء الذي يدل على الكسل والضعف والتماوت.

وقد قيل: إنَّ عمر رأى رجلاً متماوتاً فقال: لا تمت علينا ديننا، أماتك الله تعالى. ورأى رجلاً مطأطئاً فقال: ارفع رأسك فإن الإسلام ليس بمريض[١].

وقد يكونُ المرادُ من القصد التواضع، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي: اخفض من صوتك في محل الخطاب والكلام، فإن رفع الصوت من غير حاجة من العادات القبيحة المذمومة.

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أي: إن أقبحها وأوحشها لصوت الحمير، وهو النهيق، ومعلوم ما فيه من وحشة ونفرة وقبح.

وقد جاء في الحديث الشريف: أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال: «**إذا سمعتُمْ صياحَ الديكةِ فاسألوا الله مِنْ فضلِه، فإنَّها رأتْ ملكاً، وإذا سمعتم نهيقَ الحِمَارِ فتعوَّذوا بالله مِنَ الشيطانِ، فإنَّها رأتْ شيطاناً**» [رواه مسلم (٢٧٢٩)].

* * *

جحود وعناد

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

ولما أنهت الآيات حديثها عن موعظة لقمان الحكيم لولده، شرعت تبيِّنُ استحالةَ الموازنة بين نعم الله تعالى وبين شكرها، فهي نعمٌ لا تُحصى ولا تُحد، مبثوثة في السماوات والأرض، ظاهرة وباطنة:

(١) هامش روح المعاني: ٢١/ ٦١؛ النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/ ٨٠٩.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ألم تعلموا أيها الناس، أنَّ الله سخَّر لأجل مصالحكم ومعاشكم جميع المخلوقات والمكونات السماوية والأرضية.

والتسخيرُ جَعْلُ المسخَّر بحيثُ ينتفِعُ به المسخَّرُ له، سواء كان منقاداً له وداخلاً تحت تصرُّفه أم لا[1].

وقد فصَّلت لنا آيات أخرى بعضَ المخلوقات المسخرة لنا، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم].

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية].

فكل هذه المخلوقات من أصغر ذراتها إلى أعظم أجرامها محكومةٌ بنواميسَ إلٰهية؛ لأجل تحقيق مصالحكم ومنافعكم، فكيف يمكنكم أن تؤدُّوا حقَّ شكرها، وأنتم لا تستطيعون الإحاطة بها؟! لأن كثيراً منها نِعَمٌ باطنة خفية لا تنالها وسائل الإدراك والتمكين لديكم.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي: وأتمَّ سبحانه عليكم نعمه المحسوسة المدركة، ونعمه الخفية التي لا تدرِكُها حواسُّكم وعقولكم.

فثَمَّةَ نعمٌ كثيرة ضرورية لحياتنا ووجودنا لا نعلمها، وهذا يدل على عجزنا وضعفنا، وشدة افتقارنا إلى خالقنا وبارئنا، كما يدل على قصورنا عن القيام

---

(١) فتح القدير: ٤/ ٢٤١.

بحق شكر نعمه وإحسانه تعالى، ومع ذلك فإنَّ كثيراً منا يجحدُ فضله، وينكر إحسانه، ويجادل في ذلك:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي: يجادل في توحيده واستحقاقه للعبادة والشكر، بغير علم مكتسب، وبغير هدًى مستمَدٍّ من نبي مرسل وكتاب منزل، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

وقوله بعد ذلك: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾﴾ [الحج].

فجدالهم لا يستند إلى عقل ونقل، ولا يصدرون في جدالهم إلا عن تقليد آبائهم تقليداً أعمى، دون أدنى تعقُّل واستبصار:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ فهم يعرضون عن قول الله تعالى المنعم المتفضل، ويأخذون بأفعال آبائهم الجهلة.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: أيفعلون ذلك دون تعقُّل ونظر، حتى ولو كان الشيطانُ يدعو آباءهم إلى عذاب السعير في جهنم، وهو سؤالُ تعجيب وتوبيخ وإنكار لحالهم الذي هم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

هكذا تبدو المجادَلةُ مستغربةً ومستنكرَةً في جوار النعم السابغة، الظاهرة والخفية، ويبدو الجحودُ والإنكارُ بشعاً شنيعاً قبيحاً؛ لأنه لا يستند إلى علم ولا يهتدي بهدى، ولا يستمد من كتاب ينير الطريق ويدل على الحقيقة.

* * *

استسلام وإذعان

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وفي مقابل هذا العناد البشع والجحود القبيح، تظهر الآيات جمال الاستسلام لله تعالى، والإذعان لأحكامه القدرية والشرعية، وأثره الكريم في الوصول إلى الأمن والسلام:

﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: ومن يجعل عمله خالصاً لله تعالى، وهو متقن له، يؤديه على أكمل الوجوه المشروعة، فقد تعلَّقَ بأوثق أسباب السلامة والنجاة.

وهذا تمثيلٌ لحال المستسلم لله تعالى، الراضي بأحكامه، والمؤدي للتكاليف التي كُلِّف بها، بحال من أراد أن يصعد جبلاً شاهقاً، فتمسَّك بأوثق عرى الحبل المتدلي منه؛ ليأمن من التردي والسقوط، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته.

ودلَّتِ الآيةُ على أنَّ الخطرَ كبيرٌ، ومزالِقَ السقوط كثيرةٌ، وأسبابُ النجاةِ: الالتزامُ بطاعة الله وشكره والتمسك بشرعه.

وقد عوَّدنا الله تعالى في كتابه، أنه كلَّما بيَّنَ عنادَ المعاندين، وجحودَ الكافرين، التفتَ إلى النبيِّ ﷺ مواسياً ومثبتاً، فهو المواجه الأول لهم، والذي يتلقى عنادهم وجحودهم:

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ أي: وَمَنْ جحدَ فضلَ اللهِ عليه، وأعرضَ عن شكره، فإنَّ كفره لا يضرك، فلا تحزن عليه.

﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا يخفى على الله شيء من أمرهم.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: نمتِّعهم في الدنيا متاعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً، ثم نلجِئهم إلى عذاب ثقيل لازم، لا يقدرون على الخلاص منه.

لقد أوقعهم عنادُهم وجحودُهم، والتقليد الأعمى لآبائهم، في تناقضات عجيبة ومفارقات غريبة:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فهم يقرُّون بأنه تعالى هو الخالق المنعم، ومع ذلك يعرضون عن عبادته وطاعته.

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي: قل الحمدُ للهِ على إقرارهم بأنَّه تعالى هو الخالق، فهو المستحق للحمد والشكر.

أو: قلِ الحمدُ للهِ الذي نجَّانا من هذه التناقضات العجيبة، الواقع بها كثير

من الناس، كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون بما يلزمهم به إقرارهم من طاعته تعالى وشكره.

* * *

كلمات اللّه تعالى

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ثم توجهت الآيات بأسلوب تقريري حازم جازم، إلى بيان كمال ملكه تعالى وقدرته وغناه:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: لله ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً، فهو الغني عن طاعتهم وشكرهم، المحمود أزلاً وأبداً.

وملكه جلَّ وعلا أوسعُ مما في السماوات والأرض، ومقدوراته سبحانه لا تُحصى ولا تُعد، وهي أعظمُ من السماوات والأرض وما فيهما:

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ أي: ولو أنَّ كُلَّ شجرة في الأرض صارت أقلاماً.

﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ أي: والبحر المعهود المحيط، تمدُّه من بعدِ نفادِه سبعةُ أبحرٍ مثلُه في السَّعةِ وكثرةِ الماءِ.

والمرادُ بالسبعةِ الكثرةُ، لا خصوصَ العددِ المعروف.

وأفاد نظمُ الآية جعلَ البحر المحيط بمنزلة الدواةِ، وجعل أبحر سبعة مثله مملوءةً مداداً، وهي تصبُّ فيه صباً لا ينقطع، كما تؤذن به صيغة المضارع ﴿يَمُدُّهُۥ﴾.

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: ما تناهت كلماتُ الله، وفي الكلام حذفُ إيجازٍ، دل عليه السياق، وتقديرُه: ولو أنَّ ما في الأرض من شجرة أقلام، والبحرُ ممدودٌ بسبعةِ أبحرٍ، وكُتِبَت بتلك الأقلام وبذلك المداد كلماتُ الله تعالى، ما نفدت لعدم تناهيها، ونفدت تلك الأقلام والمداد لتناهيها[(١)].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

والمرادُ بكلماته تعالى كلمات علمه وحكمته جل شأنه، أو المراد مقدوراته سبحانه وكلماته التكوينية، التي دل عليها قوله الكريم: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: ٢٨].

وأفاد ذكر (**شجرة**) بصيغة المفرد، تفصيل كل شجرة وتقصيها، حتى لا يبقى من جنس الشجر واحدةٌ إلا وقد بريت أقلاماً.

وذكرت (**الكلمات**)، وهي جمع قلة، ولم يذكر الكلم، وهو جمعُ كثرةٍ؛ فأفادَ ذلك أن كلماته تعالى لا تفي بكتابتها البحار، فكيف بِكَلِمِه؟!.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: إنه تعالى لا يعجزه شيءٌ، ولا يخرج عن علمه وحكمته شيء.

فاعرفوا فضله عليكم، وأذعنوا لحكمه، وأقروا بعجزكم عن شكره، فما أنتم إلا خلق حقير، وجزء صغير من مخلوقاته ومكوناته، التي يدبِّر أمرها بكلمة واحدة من كلماته التكوينية جل وعلا:

---

(١) روح المعاني: ٢١/ ١٠٠.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي: ما خلقكم أيها الناس، ولا إحياؤكم بعد موتكم، وإخراجُكم من قبوركم، إلا كخلقِ وإحياءِ نفسٍ واحدةٍ، فلا يشغله سبحانه شأنٌ عن شأنٍ، ولا يصعبُ على قدرته كثرة الإيجاد والإعدام، فإنَّ تعلُّقَ قدرته بمقدورٍ واحدٍ، كتعلقها بمقدوراتٍ كثيرةٍ غيرِ محصورةٍ، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

فلا يأمر تعالى بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء كما أراد جل وعلا: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات].

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: إنَّه تعالى يسمع كل المسموعات في زمن واحد، ويبصر كل المبصرات في زمن واحد، من غير أن يشغله شيء عن شيء.

* * *

الجاريات في الأفلاك والبحار

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

ودورةُ الفلكِ التي بلغت الغايةَ في الدقة والإحكام، والتي تنظِّم كل شؤون الزمن ووحداته، من أبرز الظواهر الدالة على كمال قدرته تعالى وتمام حكمته:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ألم تر أيها الإنسان أنَّ الله يُدْخِلُ كلّاً من الليل والنهار في الآخر، فيتفاوتان زيادة ونقصاناً، بنظام دقيق محكم، وأنَّه جعلَ الشمسَ والقمرَ يسيران سيراً منتظماً دقيقاً، مستمرّاً إلى أجل مقدر.

ولا شكَّ أنَّ هذا التنظيم والتسخير لفائدة الإنسان، فهي ظاهرة محسوسة يدركها كل إنسان، ويترتب عليها التسليم لخالقها، ومبدعها، بكمال القدرة والعلم، وهو ما أشارت إليه الآية في ذيلها:

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ويدل ذلك دلالة قاطعة ملزمة، على التصديق بأنه تعالى هو الحق الثابت الواجب الوجود.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أي: وتدل أيضاً على بطلان الآلهة المزعومة التي يعبدونها من دونه تعالى.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: وتدلُّ أيضاً على أنه تعالى هو العلي في صفاته، الكبير في ذاته، فهو أكبر من كل كبير، متعال عن الأشباه والأنداد والشركاء، وعن كل صفات النقص والعجز، ذو الكبرياء في ربوبيته وسلطانه جل جلاله.

وأضافت الآيات شاهداً آخر، على كمال قدرته وباهر حكمته، وفيض إنعامه وإحسانه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ألم تر أن السفن تجري في البحر بسبب النواميس والنظم التي أبدعها سبحانه لجريان السفن، ولولا هذه النواميس والأسباب، ما جرت سفينةٌ في بحر.

فالمرادُ بنعمة الله: إحسانه سبحانه في تهيئة أسباب الجري، فالباء للسببية.

ويمكن أن يرادَ بنعمته تعالى: المنافع التي تتحقق للإنسان من سير السفن، أي: تجري مصحوبة بنعمته تعالى، فالباء للملابسة والمصاحبة[1].

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ أي: ليريكم من عجائب قدرته وبدائع حكمته.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: إنَّ في ذلك لآيات لكل مؤمن، كثير الصبر على بلائه، كثير الشكر على نعمائه.

وجاء الوصفان مناسبين تماماً لحال المؤمن الراكب في السفينة، فهو لا يخلو عن الصبر والشكر في البلاء والرخاء.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: إذا علاهم وغطَّاهم موجٌ هائل مرتفع، كالسحب المرتفعة المتراكمة التي تظلُّهم، توجهوا إلى الله تعالى داعين متضرعين بإخلاص، وعادوا إلى فطرتهم التي فُطروا عليها، وزال عنهم ما غطَّاها من الهوى والتقليد.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: فلمَّا نجاهم إلى البر انقسموا قسمين، فمنهم مقتصد بعبادته تعالى وشكره، ومنهم جاحد لفضله وإحسانه.

---

(١) روح المعاني: ٢١/١٠٥.

والمقتصد: المتوسط في الإخلاص والشكر، وهي تشير إلى أنَّ الإخلاصَ الحادِثَ عند الخوف الشديد، قلَّما يبقى للإنسان، كما تشير إلى استحالة الموازنة بين النعمة والشكر.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي: وما يجحد بآياتنا إلا كل غدَّارٍ مبالغ في الغدر، كفور مبالغ في كفران نعم الله تعالى.

* * *

خاتمة السورة

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾

- **الوالد والولد يوم القيامة:**

وفي ختام السورة عادتِ الآياتُ إلى الحديث عن الوالد والولد يوم القيامة، من خلال خطاب وجهته إلى الناس، تأمرهم فيه بتقوى الله تعالى وخشيته وتعظيمه، فالنواميس الإلٰهية يوم القيامة تختلِفُ عن نواميس الدنيا؛ في الدنيا ينتفعُ الولدُ بنصح والده ووعظه وتأديبه، وينتفع الوالد ببرِّ ولده وإحسانه، وأمَّا في الآخرةِ فالأمرُ يختلِفُ تماماً، والمسؤولية فيه شخصية، ولا يتحمل أحد وزر أحد:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي: لا يقضي عنه شيئاً من الحقوق، فلا يحمل من سيئاته، ولا يعطيه شيئاً من طاعاته.

والمراد من **الولدِ**: الولدُ الصبيُّ القريب، فهو أقرب الناس إلى الوالد.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ﴾ أي: وكذلك لا يؤدي ولد شيئاً من الحقوق عن والده، مع أنَّ حقَّ الوالد على الولد عظيم، لكن هذا الحق العظيم واجبٌ عليه في الدنيا، ولعلَّ هذا سر تأكيد نفي الجزاء في جانب الولد، أكثر من نفيه في جانب الوالد، فجاءت الأولى فعلية، والثانية اسمية.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: إنَّ وعدَ الله في مجيء يوم القيامة، حق لا يتخلف، فالدنيا زائلة صائرة إلى الانتهاء.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فلا تخدعنَّكم الحياةُ الدنيا بزينتها وزخارفها، فتشغلكم عن شكر الله تعالى وطاعته.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ أي: ولا يخدعنَّكم الشيطانُ أيضاً، فهو أخبث الغارين.

وأصل **الغرورِ** من: غرَّ فلاناً، إذا أصاب غرته وغفلته، ونال منه ما يريد، **والغرة بالله: حسنُ الظنِّ به مع سوء العمل**، وهو ما حذَّر منه النبيُّ عليه الصلاة والسلام في الحديث الشريف: «**الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعَمِلَ لما بعدَ الموتِ، والعاجِزُ مَنْ أتبعَ نفسَه هواها وتمنَّى على اللهِ**» [رواه ابن ماجه (٤٢٦٠) والترمذي (٢٤٥٩) وقال: حديث حسن صحيح].

• مفاتح الغيب:

وختم الله السورة ببيان ما استأثر بعلمه، وما يدل على كمال قدرته، تذكيراً للإنسان بعجزه وضعفه، وقصوره عن شكر نعم الله تعالى عليه، فَثَمَّةَ حدودٌ لا يستطيعُ مجاوزتها مهما حصَّل من علوم، وحاز من فنون:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: إنَّ الله وحدَه عنده علم وقت يوم القيامة،

فلا يعلَمه غيره، كما مرَّ معنا في الحديث الصحيح، عندما سأل جبريلُ النبيَّ ﷺ: متى الساعةُ؟ قال: «**ما المسؤولُ عنها بأعلمَ مِنَ السائلِ**» [رواه مسلم (٨)].

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ أي: وينزل الغيث في المكان والزمان الذي سبق بهما علمه، وتعلَّقت بهما مشيئته، كما قال سبحانه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣].

وأفادَ الالتفاتُ من الجملة الاسمية إلى الفعلية، الدلالة على التجدد والاستمرار، فظاهرةُ نزولِ الغيث المتجددة، تتمُّ بمشيئته تعالى وقدرته، ولم يستطع الإنسان بعد أن اكتشف بعض الأسباب والنواميس المؤدية لنزول الغيث، أن يتحكَّم بهذه الظاهرة، التي تتوقف عليها كثير من مصالحه وأسباب عيشه ووجوده، ولا تزال كثير من البلاد تعاني من احتباس المطر وقلَّته، وبلاد أخرى تعاني من كثرته وفيضاناته وسيوله المدمرة.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: ويعلمُ علماً كاملاً محيطاً بكل ما في الأرحام، وهذا يعني الإحاطةَ بكلِّ المخلوقات حالاً ومآلاً، وما هو كائن منها وما سيكون، وكيف سيكون، وما يتصل بكل فرد منها من خصائص وأطوار، مما يجعل الفكر البشري عاجزاً عن تصوره، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

أضف إلى ذلك ما قررته العلوم الحديثة، بأنَّ كلَّ مخلوق يحمل معه خصائص وموروثات جميع المخلوقات التي ستتفرع عنه وتتناسل منه، فَعِلْمُ ما في الأرحام علمٌ يمتدُّ عبرَ الزمان، مع تسلسل المخلوقات وتوالدها، إلى نهاية عمر الدنيا، عندما يتوقف التوالد والتكاثر.

وتمكن الإنسان المعاصر بالعلوم الجزئية التي فتح الله بها عليه، من معرفة جنس الجنين، ذكراً أو أنثى، لا يعد من علوم الغيب؛ لأنه علم ذلك بواسطة آلات التصوير والتحاليل المخبرية، التي قربت هذه الحقيقة إليه، فأصبحت مكشوفةً محسوسةً، ولا يزال الإنسان عاجزاً ابتداء من دون الآلات والتحاليل،

عن معرفة هذه الحقيقة الصغيرة جداً بالنسبة لما في الأرحام من أسرار وعلوم غيبية، لا يحيط بها إلا خالقها وبارئها جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي: وما تدري أي نفس مخلوقة ما يصدر عنها في المستقبل من أفعال وأقوال؛ لأنَّها لا تملِكُ المستقبل.

وما أكثر الذين يعزمون على عمل فلا يدركون زمانه، وإن أدركوا زمانه فلا يملكون أسبابه، وإن أدركوا زمانه وملكوا أسبابه، فكثيراً ما يفعلون غيره، ويستشعرون في داخل أنفسهم الصوارف التي تصرفهم عما عزموا عليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف].

فالإنسانُ لا يملِكُ إلا اللحظة الحاضرة التي يعيشها؛ لأنه محدود ضعيف لا يدري متى تنتهي حياته وبأي أرض يموت.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ وكذلك لا يدري متى يموت، واللحظة التي تنتهي بها حياته الدنيا.

وفائدةُ العدول عن الإثبات إلى النفي في قوله: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ﴾ وكذا التعبير بالدراية دون العلم؛ للمبالغة والتعميم؛ إذ الدراية اكتساب علم الشيء بحيلة، فإذا انتفى ذلك عن كل نفس، مع احتيالها لتحصيله، كان عدم اطلاعها على غيره من باب أولى[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ أي: عليم بأحوال مخلوقاته، خبير بحقائقها وكنهها.

وفي الحديث الشريف: عن **ابن عمر** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال: «**مفاتيحُ الغيبِ خمسٌ**» ثم قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾، وفي رواية: «**مفاتحُ الغيبِ خمسٌ لا يعلمهنَّ إلا الله**» [رواه البخاري (٤٧٧٨)].

ولا شكَّ أنَّ هذه الخمس هي الأصول الكبرى التي تتفرع عنها أكثر المغيبات: **فعلمُ الساعةِ** معناه الإحاطةُ بعلم الدنيا وزمانها من بدايتها إلى

---

(١) انظر: فتح الباري: ١/ ١٢٤.

نهايتها، **وتنزيلُ الغيث** يعني الإحاطة بأرزاق المخلوقات ومقاديرها وكيفية توزيعها، **وعلم ما في الأرحام** يعني الإحاطة بكل المخلوقات حالاً ومآلاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

الله تعالى عنده علم الغيب، وبيده الطرقُ الموصلة إليه، لا يملكها إلا هو، وقد ذكرنا في موضوع **سورة الأنعام**: أنه يمكن أن يكون معنى **مفاتح الغيب** خزائنه، جمع مفتح وهو المخزن، ويكون المعنى: وعنده خزائن الغيب، ويراد منه القدرة الكاملة على كل الممكنات، فللّه تعالى كمال العلم وكمال القدرة، ويبقى الإنسان مهما حصَّل من علوم، محدوداً عاجزاً ضعيفاً، وتمام حكمته أن يقرَّ بفضل الله عليه، بتقصيره عن شكر نعمه، وهو ما دارت آيات السورة في تقريره، ودعت الإنسان إلى الإقرار به.

أسأله تعالى أن يجعلنا من الشاكرين لأفضاله ومننه التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، اللهم آمين.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.





بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعدُ: فإنَّ الله هو الربُّ، أي هو الخالقُ المالكُ، الذي يدبِّر أمرَ مخلوقاته، فالتدبيرُ له جلَّ وعلا وحدَه، والإحكامُ والإتقانُ في الخَلْقِ يدلُّ على كمال قدرته، وطلاقة مشيئته، وتمام حكمته: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

ويستدعي الإحكامُ في الخلق تنزيلَ الشرائع الإلـٰهية، لتنظِّمَ سلوك المكلَّفين، وتحكمَ تصرفاتهم، فيتمَّ الانسجام والاتساق والتكامل بين الإحكام في الخلق، والانتظام في السلوك والتصرف.

ويؤدي تركُ الخلقِ من دون إلزامهم بتشريع، إلى إحداث الخلل والفوضى والفساد، كما مر في موضوع **سورة الروم**.

وتدبيره تعالى لأمر المُكَوَّنات ثابتٌ لا يتغيَّر ولا يتبدل؛ لأنه منوط بمشيئته تعالى وقدرته، وأمَّا التنزيل والتشريع فهو من أمرِ اللهِ تعالى أيضاً، ولكنه منوطٌ باختيارِ المكلفين وإرادتهم وكسبهم، فمن رضي به، وأعلن بالسجود لله تعالى

انقياده واستسلامه له، فقد نجا وسلم وأمن، ومن أعرض عنه وجحده عوقب وعُذِّب، فلا ينبغي التسوية بين الفريقين، ولا بدَّ من يومٍ يفصِلُ الله فيه بينهما.

ذلك هو الموضوع الأساس الذي دارت آيات سورة السجدة في فلكه، وهو موضوع الارتباط بين التدبير والتنزيل، فكما أنَّ التدبير له تعالى، فالتنزيل أيضاً له جل وعلا، وهو من آثار رحمته وفضله على خلقه.



تفسير سورة السجدة

التَّدْبِيرُ والتَّنْزِيلُ في سُورَةِ السَّجْدةِ

التدبير والتنزيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾.

افتتح الله تعالى سورة السجدة بالحروف الثلاثة التي افتتح بها السور السابقة: **لقمان والروم والعنكبوت**.

﴿الٓمٓ ۝١﴾.

وقد تقدّم الكلام عليها في فواتح سور: **البقرة وآل عمران ويونس**.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾.

أي: هذا الكتابُ تنزيلٌ لا شكَّ فيه من رب العالمين.

وقد أجمع القراء على قراءة ﴿تَنزِيلُ﴾ بالرفع، مع أنَّه مصدرٌ يجوز نصبه[1]، فالجملة اسميةٌ تقرِّرُ تنزيل القرآن الكريم وتؤكِّده، وتبيِّنُ أن تنزيله من رب

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ٨٤.

العالمين مباشرةً، فهي حقيقةٌ مسلَّمةٌ لا شكَّ فيها ولا ريب، كما تقدَّمَ في فاتحة **سورة البقرة**: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾.

ويلاحظ أن الاسم الكريم (**الرب**) ذُكر كثيراً في السورة، ومرَّ معنا أنَّ معناه: الخالق والمالك والمربي، الذي يدَبِّرُ أمرَ مخلوقاته ويصلحها، ولا شك أن تنزيل القرآن الكريم مظهرٌ من مظاهر تدبيره تعالى أمر مخلوقاته، وإصلاحها وتكميلها.

فتنزيل الكتاب بما فيه من تكليف وتشريع، من تدبير رب العالمين أَمْرَ مخلوقاته، وكما أنَّه تعالى يمدُّهم بأسباب وجودهم ونمائهم، يمدُّهم أيضاً بأسباب صلاحهم وكمالهم.

فتنزيلُ الكتابِ أمرٌ ضروري لا بد منه، أنزله سبحانه بمحض مشيئته، يدل على حكمته سبحانه ورحمته، وأنزل فيه مؤيدات صدقه، بحيث لا يرتاب في تنزيله مرتاب، ومع ذلك أضرب الجاحدون المعاندون عنه مرتابين:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: بل يقولون: افتراه.

والمفتري في زعمهم هو المنزَّل عليه الكتاب، محمد عليه الصلاة والسلام، ولا شك أن قولَهم هذا قولُ متعنِّتٍ مكابر، أو جاهل عميت منه النواظر، ولهذا أضرب تعالى عن قولهم هذا فقال:

﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: بل القرآن الكريم هو الحق المنزل من ربك، فالحق كله فيه، وهو مصدر كل حق وحقيقة؛ لأنه من ربك، فلا تلتفتْ إلى شغب المعاندين، وجهل الجاهلين.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: أنزله عليك لتنذر به قومك الذين لم يأتِهم نذير قبلك منذ عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهذا يدل على شدة الضلال الذي وصلوا إليه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: لعلهم يبصرون الحق ويتبعونه، ويتخلَّصون من ضلالهم.

* * *

الخالق المدبر

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦)﴾.

ثم شرعتِ الآياتُ تبين أن الله هو رب العالمين، خلقاً وملكاً وتدبيراً، بأسلوب التقرير، فهي حقيقة لا ينازع بها عاقل:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤)﴾.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: الله وحده خلق كل المكونات السماوية والأرضية، خلقاً متدرجاً في ستة فترات زمنية.

ويدل التدرُّجُ بالخلق على طلاقة إرادته سبحانه وكمال مشيئته، فما خلق الخلق مجبراً، ولا فاضت عنه المخلوقاتُ من دون إرادة، كما زعم الضالون من الفلاسفة.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على الوجه اللائق بكماله وجلاله، كما مر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالاستواءُ على العرش صفةٌ من صفات كماله وجلاله، تدل على عظمة قدرته، نؤمن بها كما أخبر عنها سبحانه، من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما لكم إذا أعرضتم عنه أحد ينصركم ويشفع لكم؛ لأنه هو وحده خالقكم ومالككم ومدبر أمركم.

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾.

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: وكما خلق السماوات والأرض، فإنه يدبر أمرهما، وتدبيره عام شامل لجميع المخلوقات السماوية والأرضية، من أكبر أجرامها إلى أصغر ذراتها.

﴿ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: ثم يرجع إليه أمر تدبيرها أيضاً في يوم القيامة، فهو وحده يدبر أمر الخلق في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

ولا يتعارضُ التعبيرُ عن مقدار يوم القيامة بألف سنة، بما ورد أيضاً في قوله سبحانه: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج: ٤] فالزمن أمر نسبي، يختلف باختلاف الأحوال والأماكن، فاليومُ الأرضيُّ مثلاً، يختلف عن يوم الأجرام السماوية، ويومُ الفرح والسرور أقصر من يوم الهمِّ والحُزْنِ.

وفي الحديث: عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه: قيل: يا رسولَ اللهِ يومٌ كانَ مقداره خمسينَ ألف سنةٍ، ما أطولَ هذا اليوم! فقال عليه الصلاة والسلام: «**والذي نفسِي بيدِه، إنَّه ليخفَّفُ على المؤمنِ، حتَّى يكونَ أخفَّ عليه مِنْ صلاةٍ مكتوبةٍ يصلِّيها في الدنيا**» [رواه أحمد (٣/ ٧٥) وأبو يعلى (١٣٩٠). وقال الشيخ أحمد محمد شاكر محقق المسند: إسناده حسن].

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦﴾

أي: ذلك الذي يدبِّر أمرَ جميع المخلوقات في الدنيا والآخرة، هو **العالمُ** المحيط بها علماً، فلا يغيبُ عنه شيء منها، **العزيز** النافذ أمره فيها، فلا ينازعه

أحد، **الرحيم** بعباده، فلا يحجب عنهم آثار رحمته وفواضل إحسانه، في كل مقدراته وأقضيته.

* * *

الخلق المحكم

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: الذي أتقنَ وأحكمَ كلَّ شيء خلقه.

فَخَلْقُ اللهِ تعالى خَلْق متقن محكم، لا خلل فيه ولا تفاوت، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك].

وهذا يدل على كمال قدرته تعالى، وباهر حكمته، وبديع صنعته، فقد وضع كُلَّ مخلوقٍ في موضعه الملائم له، وأعطاه الصفات والخصائص المناسبة للدور المنوط به بين بقية المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه].

ولما كان الإنسان متميزاً في خلقه، وفي دوره المكلف به، خصَّه تعالى بالذكر فقال:

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ أي: بدأ خلق الإنسانِ الأولِ، آدم عليه السلام، من طين. أو: بدأ خلق الإنسان من نطفة مستخلصة من طينٍ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

لكنَّ المعنى الأول هو الأوجه هنا؛ لقوله تعالى بعد ذلك:

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: ثم جعل ذريته تتكاثر وتتوالد من ماء قليل، وهو المني، المذكور في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧].

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي: ثم كمَّل أعضاءه وصورته، كما شاء سبحانه.

﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي: وجعل روحه تتعلَّق ببدنه وتسري فيه، وأضاف تعالى الروحَ إليه إضافة تشريفٍ، وإشعاراً بأنها سِرٌّ من الأسرار التي استأثر سبحانه بعلمها.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: وجعل لكم وسائل التمكين، التي تمكنكم من اكتساب المعارف والعلوم، وإدراك الحقائق.

وأفاد التفاتُ الآيةِ من الإخبار إلى الخطاب، بعد نفخ الروح، أنَّ الإنسان يكتمِلُ خلقُه بروحه، وأنَّ وسائل الإدراك والتمييز من أعظم النعم التي أنعم الله بها عليه، ومع ذلك فإن أكثر الناس يجحدون فضله، ويكفرونه ولا يشكرونه، وإن شكروه فإن شكرهم لا يوازي فضله وإحسانه، كما تقدَّم في **سورة لقمان**، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله:

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

* * *

جحود وإنكار

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ومن كُفرانهم وجحودهم، إنكارُهم يوم القيامة، وغفلتهم عمَّا في الكون من إحكام وإتقانٍ، فكل عاقل يدرك ضرورة التكليف والمسؤولية والحساب والجزاء، ولا يُعْقَلُ أَنْ يخلق الله تعالى هذا الخلقَ المتقنَ المحكمَ عارياً عن حكمة التكليف، يتنزه الله العليم الحكيم عن ذلك، وهو القائل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

إن إنكار يوم القيامة جراءة على الله تعالى، ووصف له بصفات لا تليقُ بكماله وجلاله، ولهذا شدَّدت الآيات النكير عليهم:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ أي: أإذا ضاعت أجزاؤنا في تراب الأرض بعد الموت، أنبعثُ ويجدَّدُ خلقنا؟!.

وهو استفهامٌ إنكاري، أنكروا فيه قدرة الله تعالى على إعادتهم بعد الموت، وهو أمرٌ قبيح أضربَ عنه تعالى إلى ذكر ما هو أقبح منه وأشنع فقال:

﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي: بل هم جاحدون للقاء ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء.

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾﴾.

أي: قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين: إنَّ ملك الموت الموكل بكم يقبضُ أرواحكم حين تحين آجالكم، ثم بعد الموت تردُّون إلى الله تعالى، فلا تغيبون بالموت عن علمه، ولا تخرجون عن قبضة قدرته جل وعلا.

ثم وصفتِ الآياتُ بعض أحوالهم، عندما يرجعون إلى ربهم يوم القيامة:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: ولو ترى المجرمين يطأطئون رؤوسهم خجلاً وحياءً من الله تعالى، قائلين:

﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: أبصرنا الحقيقة التي كنا نجحدها، فارجعنا إلى الدنيا لنستدركَ ما فاتنا من العمل الصالح.

وهذا إقرار منهم بأنهم عطلوا أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم عن سماع الحق ورؤية حججه وبراهينه.

ثم بيَّن تعالى كمال قدرته وطلاقة مشيئته، فقال:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ أي: رشدها وتقواها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ولكنَّ حكمته تعالى اقتضت أن تكونَ الدنيا دارَ اختبارٍ وتكليف، أساسُه اختيار المكلفين.

﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي: ولكن

ثبتَ القولُ مني لأملأن جهنمَ من كافري الجن والإنس، الذي يجحدون نعمتي ويكذِّبون رسلي.

ويقال لهم توبيخاً وتقريعاً:

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ١٤﴾.

﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْۖ﴾ أي: ذوقوا العذاب بسبب جحودكم يوم القيامة، وترككم العمل له، إنا نترككم اليوم في العذاب، محجوبين عن رحمتنا وفضلنا.

والنسيانُ هنا معناه: الترك والإعراض، والله سبحانه لا ينسى، ولكنَّه تعالى تهويناً لشأنهم، وتحقيراً لهم يعاملهم معاملة الشيء المنسي المهمل، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ذوقوا العذاب الدائم الذي لا ينتهي، بسبب كفركم وفجوركم.

وكرره تعالى ليبين أنه نتيجة كسبهم واختيارهم، وأنه تعالى ما ظلمهم ولكن أنفسهم كانوا يظلمون.

* * *

سجود وإذعان

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧﴾

وشتَّانَ بين هؤلاء الجاحدين لفضل ربهم، وبين الذين عرفوا حقيقة

عبوديتهم لله تعالى، وأدركوا حكمة وجودهم في هذا الكون البديع المحكم، فصدَّقوا بآياته، وانقادوا لرسالات رسله، وعمروا حياتهم بطاعته وعبادته:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: كلَّما وعظوا بآيات الله، استجابوا لربهم، وسجدوا لله تعالى من غير تسويفٍ ولا تأخيرٍ، معبِّرين عن انقيادهم لأمره، واستسلامهم لحكمه، مسبحين حامدين.

إنَّ السجودَ لله تعالى يدلُّ على غاية التذلل والخضوع له ﷻ، وعندما يضعُ العبدُ وجهه على الأرض ساجداً لله تعالى، يكون في أشدِّ حالاتِ القرب منه جل وعلا، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**أقربُ ما يكونُ العبدُ مِنْ ربِّهِ وهو ساجِدٌ، فأكثروا الدعاء**» [رواه مسلم (٤٨٢)].

ولو قدر له أن يعذَّب في النار بسبب معاصيه، فإنَّ النارَ لا تصيبُ مواضعَ السجود من وجهه، وقد جاء في الحديث الشريف: «**حتَّى إذا أرادَ الله رحمةَ مَنْ أرادَ مِنْ أهلِ النارِ، أمر اللهُ الملائكةَ أن يُخْرِجُوا مَن كانَ يَعْبُدُ اللهَ، فيخرجونَهم ويعرفونَهم بآثارِ السجودِ، وحرَّم اللهُ على النارِ أَنْ تأكلَ أثرَ السجودِ**» [رواه البخاري (٨٠٦)].

فالسجود لله تعالى شرفٌ وعزٌّ للعبد الساجد، يحرم منه الجاحدون المعاندون يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم].

ويمدُّ الله تعالى الساجدَ بطاقةٍ روحية هائلة، تعينه على القيام بأعباء ما كُلِّف بِهِ، ولعل ذلك سرُّ قراءة النبي ﷺ سورة السجدة، كل يوم قبل أن ينام، ولا بدَّ معها أن يسجدَ لله تعالى عند تلاوة آيتها، فعن **جابر** رضي الله عنه قال: **كان النبيُّ ﷺ لا ينامُ حتَّى يقرأ** ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾. [رواه أحمد (٣/ ٣٤٠) والترمذي (٢٨٩٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٠٦) والحاكم (٢/ ٤١٢)].

وكذلك كان عليه الصلاة والسلام يقرؤها أيضاً مع ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ في فجر يوم الجمعة. [رواه البخاري (٨٩١)].

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ويسجدون ولا يستكبرون، كما يفعلُ الجاحد الذي يسمع الآيات، ويعرض عنها مستكبراً، كأنَّه لم يسمعها، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

- **الصلاة في جوف الليل:**

ومن شأنهم الدوام على عبادة ربهم، وخاصة في جوف الليل، الناس راقدون في فرشهم؛ بينما هم في محاريبهم سُجَّداً لله تعالى، يناجونه ويدعونه:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي: تبتعد أجسامهم عن مواضع النوم، لأجل الصلاة في الليل، وهي أفضل النوافل، وأفضلها ما كان بعد النوم في الأسحارِ، لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

وعن **معاذ بن جبل** رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال له: «**ألا أدُلُّكَ على أبوابِ الخيرِ؟ الصومُ جُنَّةٌ، والصدقةُ تطفِئُ الخطيئةَ، وصلاةُ الرَّجل في جوفِ الليلِ**» ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾. [رواه أحمد (٥/ ٢٣١) والترمذي (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣)].

وقال بعضُهم: نزلت في **انتظار صلاة العشاء**، واستدلوا بما في «**سنن الترمذي**» [٣١٩٧] عن أنس: أنَّها نزلتْ في انتظارِ الصلاةِ التي تُدعَى العَتَمَةَ؛ لأن النبيَّ عليه الصلاة والسلام كانَ يؤخِّرُها إلى نحو ثُلُثِ الليلِ.

وفي قول ثالث: أنَّها نزلت في **التنفُّلِ بَيْنَ المغرب والعشاء**.

وفي قول رابع: أنها **نزلتْ في الرَّجُلِ يصلِّي العشاءَ والصبحَ بجماعة**[١].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ١٠.

والجمهورُ على القول الأول، وهو الأشهر، ويؤكده قوله تعالى في الثناءِ على المصلِّين في الليل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: تتجافى جنوبهم عن المضاجع، وهم يدعون ربهم خوفاً من عذابه، وطمعاً في رحمته.

وأفادت صيغةُ المضارع ﴿يَدْعُونَ﴾ استمرارهم على الصلاة في جوف الليل، والدعاء خوفاً وطمعاً، ومن شأن المؤمن أن يبقى دائماً بين الخوف من الله تعالى ورجاء رحمته، فلا يأمنُ عذابه، ولا ييئسُ من رحمته، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: وينفقون بعض أموالهم في وجوه الخير المشروعة، فهم يجمعون بين العبادات البدنية والمالية.

- **قرة أعين أهل الجنة:**

ثم أخبرت الآيات بأسلوب التشويق عن بعض ما أعد الله تعالى لهم من الكرامة والنعيم في الجنة:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: فلا تعلمُ نفس مهما كانت ـ ولو نفس مَلَك مُقرَّب أو نبي مرسل ـ ما أُخفيَ لهؤلاء مما تقرُّ به أعينهم.

والعينُ تُسَرُّ، ويتعلَّقُ بصرها بكل ما هو جميل ونفيس، وعندما ترى هذا الجمال تتعلق به، ولا تطمح إلى غيره.

وفي إضافة **القُرَّةِ** إلى **الأعينِ** على الإطلاق، لا إلى أعينهم، تنبيه على أنَّ ما أخفي لهم في غاية الحسن والجمال، فكل عين تراه تتعلق به، ولا تنظر إلى غيره.

وفي الحديث الشريف: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**قال الله تباركَ وتعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قَلْبِ**

بشر» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. [رواه البخاري (٤٧٧٩)].

وعن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى ربَّه: ما أدنى أهلُ الجنَّةِ منزلةً؟ قال: هو رجلٌ يجيءُ بعدما أُدْخِلَ أهلُ الجنَّةِ الجنةَ، فيقال له: ادخلِ الجنَّة، فيقول: أيْ ربِّ، كيف؟ وقد نزل الناسُ منازِلَهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أنْ يكونَ لك مثْلُ مُلْك مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ ربِّ. فيقول: لك ذلك، ومثلَه ومثلَه ومثله ومثلَه. فقال في الخامسةِ: رضيتُ ربِّ! فيقول: هذا لك وعشرةُ أمثالِه، ولكَ ما اشتهتْ نفسُكَ، ولذَّتْ عينُكَ، فيقول: رضيتُ ربِّ. قال: ربِّ فأعلاهم منزلةً؟ قال: أولئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتَهم بيدي، وختمتُ عليها، فلم ترَ عينٌ، ولم تسمعْ أُذُنٌ، ولم يخطرْ على قلب بشرٍ. قال: ومصداقُهُ في كتاب الله ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» [رواه مسلم (١٨٩)].

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: تَفَضَّل الله عليهم بهذا النعيم، جزاء على ما كانوا يعملونه من الأعمال الصالحة في الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

* * *

المأوى والنُّزل

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

إن إنكارَ يوم القيامة، وما فيه من مسؤولية وحساب وجزاء، معناه التسوية بين الصالح والفاسد، والظالم والمظلوم، وهذا يتنافى مع حكمة العليم الحكيم، الذي أحسنَ كُلَّ شيءٍ خلَقه.

وإنَّ من إتقان الخلق وإحكامه وضعَ كلِّ مخلوق في مكانه المناسب له، ولهذا ردَّتِ الآيات على منكري المسؤولية والحساب بهذا السؤال:

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨﴾.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًاۚ﴾ أي: لا يكونُ المؤمنُ كالفاسقِ الخارجِ على الإيمان، فالإجابةُ المنطقيةُ الحكيمة:

﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾.

ومن لوازم هذه الإجابة تقرير الحساب والجزاء، وما يترتب عليهما من نعيم وعذاب، النعيم للمؤمنين الصالحين:

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾.

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: فلهم المأوى والمسكن الحقيقي الذي لا يتحوَّلُ أهلُه عنه، ولهذا لا تعد الدنيا مأوًى لأهلها؛ لأنهم ظاعنون عنها غير مستقرين فيها.

﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي: كرامةً وضيافةً من الله تعالى، أنزلهم في جنات المأوى، بسبب ما كانوا عليه من إيمانٍ وعملٍ صالحٍ.

والنزلُ: ما يُهَيَّأُ للنازلِ والضيفِ، والقوم حلُّوا ضيوفاً على الرحمن في دار كرامته ورحمته.

وفي مقابل النعيم للمؤمنين العذاب للخارجين عن الطاعة، المعاندين المستكبرين:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: النار منزلهم ومسكنهم ومستقرهم القسري الإجباري، فلا خروج لهم منها.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج].

ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً، زيادة في حسرتهم وألمهم:

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: كنتم تكذّبون به، وتنكرون الحساب والجزاء والمسؤولية.

لقد كذبوا بهذا العذاب مع أن الله ابتلاهم في الدنيا بمقدماته وبما يدل عليه:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: والله لنجعلنَّهم يذوقون العذاب الأقرب قبل العذاب الأكبر؛ لعلَّهم يرجعون عن عنادهم وتكذيبهم وفجورهم.

والمراد من العذاب الأدنى مصائبُ الدنيا وأسقامُها وآفاتُها وهمومُها، أو تسليط المؤمنين الصالحين عليهم بالنصر والغلبة، فمن شأنِ الشدائدِ والمِحَنِ أن تليِّنَ النفوسَ، وترقِّقَ القلوبَ، وتبعدَ عنها أسباب الغرور والاستكبار والطغيان، حتى تصبحَ أكثر استعداداً لقبول الحق والإذعان له.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أي: لا أظلمَ ممَّن يقابِلُ آيات الله بالإعراضِ والجحودِ، فعقابُ هؤلاء ضرورةٌ لا بد منها.

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

* * *

ضرورة يوم الفصل

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وانقسام الناس إلى فريقين: فريقٍ منقادٍ للحق ومستسلم له، وفريقٍ جاحدٍ له ومعرض عنه، أمرٌ قديم عند الناس، وظاهرةٌ ظهرت في جميع الأمم، وأوضح مثال على ذلك اختلاف بني إسرائيل وانقسامهم حول رسالة موسى عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة.

﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ أي: لا تكن في شك من لقاء موسى التوراة وإنزالها عليه.

والخطابُ وإن كان موجهاً لنبينا عليه الصلاة والسلام، فالمراد منه التعريضُ بالمعرضين عن رسالة التوراة، الذين أنكروا نزولها على موسى عليه السلام، مع أنَّ الله تعالى أنزلها عليه مكتوبةً في ألواح، كما مرَّ عند قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: وجعلنا في الكتاب المنزل على موسى أسباب هداية بني إسرائيل إلى صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

ومع ذلك اختلفوا وافترقوا إلى فريقين، واكتفت الآياتُ بذكر الفريق الصالح المذعن للحق، فبينت فضله تعالى عليهم؛ بسبب قبولهم للحق وانقيادهم له:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ أي: وجعلنا منهم قادةَ خيرٍ وفلاحٍ يُقتدى بهم، وهم الأنبياء وأتباعهم، الذين كانوا يدعون الناسَ إلى طاعة الله تعالى وعبادته وحده، وذلك بسبب صبرهم وثباتهم على الحق.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي: يصدِّقون بها تصديقاً لا ريب فيه.

وهذا الفريق المؤمن لا يمكنُ أن يتميز من الفريق الجاحد الكافر، إلا يوم الحساب والجزاء، فهو يوم ضروري للفصل بين الفريقين:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

أي: إنه تعالى هو الذي يقضي بينهم بعدله يوم القيامة، ويميِّز المحق من المبطل.

* * *

يوم الفتح

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وعادت الآيات إلى معارضي رسالة النبي ﷺ، الجاحدين ليوم القيامة، تدعوهم إلى الاعتبار بمصير الأمم السابقة:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ۝٢٦﴾.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي: أو لم نبيِّن لهم في هذا الكتاب المنزل كثرة الأمم الهالكة قبلهم، وهم يمشون في بلادهم ومنازلهم كما قال سبحانه: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أفلا يسمعون سماعَ تدبُّر واتعاظ وتعقل، كما قال سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨].

ودعتهم الآياتُ أيضاً إلى تأمل الظواهر الكونية المحيطة بهم، والتي تدل على كمال قدرة الله تعالى وحكمته:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۝٢٧﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أي: إلى الأرض التي لا نبات فيها؛ لأن نباتها جُرِزَ، أي: قطع وأزيل.

﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: أفلا يبصرون الأدلَّة التي تدل على قدرته تعالى على بعثهم وحسابهم وجزائهم، ومع ذلك يعرضون عن هذه الأدلة، ويصرُّون على إنكار يوم القيامة، ويتساءلون مستهزئين منكرين:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٨﴾.

أي: متى يكون الحكم والفصل بين العباد، إن كنتم حقّاً صادقين فيما تقولون؟.

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: لا ينفعهم الإيمان يوم القيامة، ولا يؤخر عنهم العذاب.

ويلاحظ أنَّ الجوابَ هنا جاء متفقاً تماماً مع ما سبق ذكره في السورة عند قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وخُتمت السورة بمواساة النبي ﷺ وتثبيته، في مواجهة عنادهم واستهزائهم:

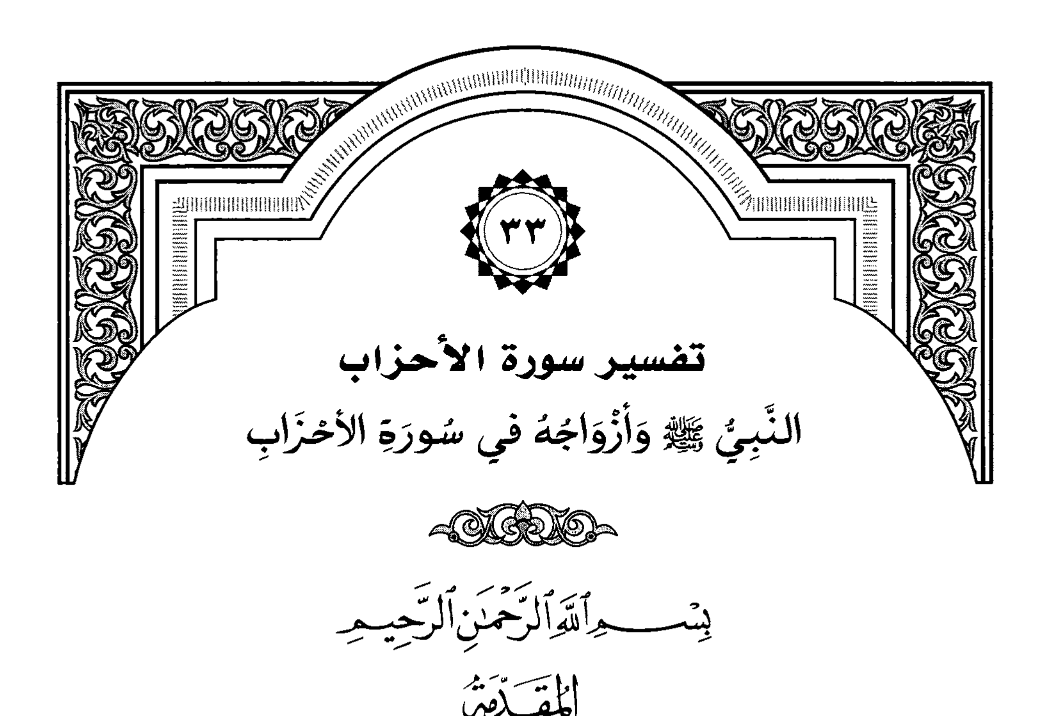
﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: لا تبالِ باستهزائهم وتكذيبهم، وبلِّغهم دعوة الله، وأقم عليهم حجته البالغة، وانتظر نصره تعالى وتأييده، فإنه ناصرك، وهو لا يخلف الميعاد.

إنهم ينتظرون موتك، كما حكى تعالى عنهم ذلك في قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، والحقيقة أنهم ينتظرون يوم هلاكهم وعذابهم، والله سبحانه ما خلق هذا الكون المحكم للمجرمين والمفسدين، إنما خلقه للمؤمنين الصالحين.

أسأله تعالى أن يجعلنا منهم، ويحشرنا يوم القيامة في زمرتهم، تحت لواء سيد المرسلين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة الأحزاب

النَّبِيُّ ﷺ وَأَزْوَاجُهُ فِي سُورَةِ الأحْزَابِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنَّ شمائل نبينا ﷺ وخصائصه، التي خصَّه الله سبحانه بها تكريماً وتشريفاً، كثيرة وكبيرة، لا يمكن لأحدٍ أن يحصرها بعدد، ولا أن يحيطَ بها في كتاب.

وثَمَّة جوانبُ كثيرة من كمالاته ﷺ، لم يتناولها العلماء والمؤلفون الذين تحدثوا عن شمائله، وألفوا كتباً في خصائصه ﷺ، فلا يعلمُ عظيمَ قدره عليه الصلاة والسلام حَقَّ العلم إلا ربه ﷻ، الذي أدَّبه فأحسنَ تأديبه، وجمَّله بأعلى الصفات، ورفعه إلى أعلى المقامات، وخَصَّه بأسمى الغايات، وشرَّفه بأعظم أمانة، وحمَّله أكمل رسالة، وجعل ـ سبحانه ـ أخلاقَ النبيِّ ﷺ العالية وصفاته الكاملة دليلاً يدل على صدق رسالته، وصحة نبوته؛ ولهذا فإنَّ معرفته عليه الصلاة والسلام تستوجِبُ الإيمان برسالته، وتستلزم التصديق بنبوته؛ قال جل وعلا في معرض الإنكار على الكفار المعرضين عن الإيمان به عليه الصلاة والسلام: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

فما أحاط بكمالاته ﷺ وخصائصه وشمائله إلا كتابُ رب العالمين، الذي

قال ﷻ فيه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

وإنَّ في كتاب الله تعالى لسوراً كاملةً، خصص الله سبحانه أكثر آياتها للحديث عن النبيِّ ﷺ، وتكريم الله سبحانه له، وبيان عظيم فضله جل وعلا عليه ﷺ؛ ليعرفَ الناسُ قدره عند ربه، فيؤمنوا برسالته، ويتمسَّكوا بهديه وسنَّته، ويسعدوا بمحبته في الدنيا والآخرة.

وإنَّ المسلمين في أشدَّ الحاجة إلى معرفة النبي ﷺ من خلال آيات التنزيل الحكيم؛ لأنهم في أشد الحاجة إلى هديه وسنته، ولا خلاصَ لهم مما يعانون من اختلافٍ وتمزُّقٍ وضعفٍ وتفرُّقٍ، إلا بالعودة إلى سنته، وتطبيق شريعته عليه الصلاة والسلام.

وإنَّ في هذا الكتاب دراسةٌ لبعض ما في سورة الأحزاب من تكريم الله سبحانه لنبيه ﷺ، وبعض ما خصه الله سبحانه من خصائص، وتكريم أزواجه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وتأديب الله سبحانه لهنَّ؛ ليكنَّ جديراتٍ بمكانتهن في بيت النبوة، وتشرفهنَّ بزواج النبي ﷺ منهنَّ، رضي الله عنهن وأرضاهن، ولا بدَّ لكل امرأة مسلمة من التأسي بهنَّ رضي الله عنهنَّ، والتأدب بالآداب والأخلاق التي أدبهنَّ الله بها، حتى تكونَ جديرةً بالإسلام، والانتساب إلى خير أمة أخرجها الله للناس، أمة النبي ﷺ.

أسأله تعالى أن يزيدني والمسلمين معرفةً بقدره عليه الصلاة والسلام، ومحبةً له ﷺ، بعد أن أكرمني بالسكنى في مدينته، ويسَّر لي الصلاة في مسجده الشريف، والسلام عليه ﷺ من قريب.

وأسأله سبحانه أن يحسنَ ختامنا، فنموتَ على ملَّتِهِ، ونُحْشَرَ يوم القيامة مع أمته وتحتَ لوائه، ونردَ عليه الحوض، ونشربَ منه شربة لا نظمأ بعدها أبداً، ونسعدَ في عرصات القيامة بشفاعته.

اللهم آمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

❁ ❁ ❁

تَمْهِيد
مَوْضُوع السُّورَةِ

النبيُّ ﷺ هو الموضوع الأساس لسورة الأحزاب، والمتدبِّر لسور القرآن الكريم لا بدَّ أن يدركَ أنَّ موضوعَ كلِّ سورة من سور القرآن الكريم، يُذْكَرُ في الآيات الأولى منها غالباً، فإذا قرأت الآيات الأولى من سورة الأحزاب، تصلُ بعون الله تعالى إلى أنَّ شخصيةَ النبيِّ ﷺ، والجانب الاجتماعي من حياته عليه الصلاة والسلام، هو الموضوعُ الأساس لسورة الأحزاب، وفي فلك هذا الموضوع تدور آيات السورة من أولها إلى آخرها.

بدأت السورةُ بمخاطبة النبي ﷺ بهذا الخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ والجديرُ بالذكر أنّ الله سبحانه خاطبَ النبيَّ ﷺ بهذا الخطاب خمس مرات في سورة الأحزاب في الآيات: (١، ٢٨، ٤٥، ٥٠، ٥٩).

ولعل من المناسب أن أضعَ أمام القارئ الكريم إحصاءً لعدد المرَّات التي ذُكر فيها عليه الصلاة والسلام في سورة الأحزاب:

محمد: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٠).

النبي: ذكر خمس عشرة مرة، في الآيات (١، ٦، ١٣، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٨، ٤٥، ٥٠، ٥٣، ٥٦، ٥٩).

رسول: ذكر ثلاث عشرة مرة، في الآيات (١٢، ٢١، ٢٢، ٣١، ٣٣، ٣٦، ٤٠، ٥٣، ٥٨، ٦٦، ٧١).

خاتم النبيين: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٠).

شاهد: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٥).

مبشر: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٥).

نذير: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٥).

داعٍ إلى الله: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٦).

سراج منير: ذكر مرة واحدة في الآية (٤٦).

علماً بأن عدد آياتها ثلاث وسبعون آية، وعدد كلماتها ألف ومئتان وثمانون كلمة، وعدد حروفها خمسة آلاف وسبعمئة وتسعون حرفاً، كما ذكر الخازن في تفسيره.

وقد ركَّزت السورةُ على الجانب الاجتماعي من حياته ﷺ، مع أزواجه، وفي بيته، فأجملت أولاً، ثم فصَّلت، فعرضت كثيراً من جوانب حياته الشخصية عليه الصلاة والسلام، مما يُعَدُّ من خصائص حياة الإنسان، ولكنَّه عليه الصلاة والسلام النبي الأسوة الحسنة، والقدوة الطيبة للمؤمنين كما قال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

فحياته ﷺ العامة والخاصة لربه ولدينه.

ولهذا كان أزواج النبي ﷺ اللواتي شاركنه حياته الخاصة به عليه الصلاة والسلام، وشاهدنها من قرب، لا يكتمنَ شيئاً منها، ولا يخفينه، فإذا ما سُئلتْ إحداهنَّ عن أي جانب من جوانب حياة النبي ﷺ الشخصية، تجيبُ السائل كائناً من كان، بكلِّ صراحة ووضوح، مما يدلُّ على تقديرهنَّ رضي الله عنهن لمسؤوليتهنَّ؛ فحياتُهنَّ مع رسولِ اللهِ ﷺ ليستْ مِلكاً لهن، إنَّما هي مِلكٌ للإسلام والمسلمين، وسأبيِّنُ في تفسير هذه السورة بعض جوانب حياته ﷺ الاجتماعية، مع ما فيها من التشريف والتكريم، والمنازل الرفيعة التي خصَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها.

❁ ❁ ❁

الفَصْلُ الأَوَّلُ

فِي غَزْوَةِ الأَحْزَابِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ

لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا (١٥) قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا (٢٧)﴾.

- **يا أيها النبي:**

بدأت سورة الأحزاب بمخاطبة ربِّ العزة ذي الجلال والإكرام النبيَّ ﷺ بهذا الخطاب:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (٣)﴾.

ولابدَّ أن أشير قبل كل شيء، إلى ما في نداء الله سبحانه للنبيِّ ﷺ بعنوان

النبوة، مِنْ تكريمِ اللهِ سبحانه له وتشريفه، وتنبيهٍ على سموٍّ مكانته عليه الصلاة والسلام، فلم يقل سبحانه: يا محمد، كما قال لغيره من الأنبياء: يا موسى، يا عيسى، يا إبراهيم، يا آدم... بل كرَّمه سبحانه، ونوَّه بفضله، بندائه بصفة النبوة، التي كرَّمه الله سبحانه بها.

فإنْ قلتَ: إن لم يُوقع اسمه في النداء، فقد أوقعه في الإخبار، في قوله سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قلتُ: ذلك لتعليمِ الناس أنَّه رسولُ اللهِ، وتلقينٌ لهم أن يسموه بذلك[١].

وهو الأدبُ الذي أدَّب الله سبحانه به المؤمنين ألا ينادوا النبي ﷺ إذا أرادوا تكليمه باسمه ﷺ الذي سمِّيَ به، بل عليهم أن ينادوه بصفة النبوة والرسالة التي شرَّفه سبحانه بها؛ واحتراماً له ﷺ وتعظيماً كما تقدم في **سورة النور** [٦٣] عند قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾.

قال ابن عباس: كانوا يقولون: يا محمد، يا أبا القاسم، فنهاهم الله ﷻ عن ذلك؛ إعظاماً لنبيه ﷺ. قال: فقولوا: يا نبيَّ الله، يا رسولَ الله[٢].

ولا يخفى على القارئ المتدبر لهذه الآيات، أنَّ الله سبحانه كلَّف النبيَّ ﷺ بثلاثة أمور، هي: التقوى، اتباع الوحي، التوكل على الله. ونهاه عن أمر واحد هو: طاعة الكفار والمنافقين.

والتكليفُ تشريفٌ، وكلَّما كان المكلَّف كبيراً وعظيماً، كان التشريف كبيراً وعظيماً، كما قال الشاعر أبو الطيب المتنبي:

على قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تأتي العَزَائِمُ   وتأتي على قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

وقد كان تكليفُ النبيِّ ﷺ بحمل رسالة الإسلام إلى جميع الأنام أعظمَ تكليف، مما يدل على ما له عليه الصلاة والسلام عند ربه سبحانه من عظيم

---

(١) روح المعاني: ٢١/ ١٤٣.

(٢) تفسير ابن كثير.

المكانة ورفيع المنزلة، إذ اختاره ربه واصطفاه لحمل أعظم رسالة وأكبر أمانة، قال سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

• **التقوى والتوكل واتباع الوحي:**

ولا شكَّ أنَّ النبيَّ ﷺ أتقى الناس، وأعظمهم توكلاً على الله سبحانه، وأكثرهم اتباعاً لما أنزل تعالى عليه، قال ﷺ للنفر الثلاثة، الذين قال أحدهم: أصومُ الدهرَ ولا أُفطرُ، وقال الآخرُ: أعتزلُ النساءَ، ولا أتزوجُ أبداً، وقال الثالث: أصلي الليل ولا أنام: «**أما واللهِ إنِّي لأخشاكم للهِ، وأتقاكُم له، ولكنِّي أصومُ وأفطِرُ، وأصلِّي وأرقدُ، وأتزوَّجُ النساءَ، فمن رغبَ عن سنتي فليس مني**» [رواه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١) عن أنس رضي الله عنه].

وفي رواية ثانية للبخاري [٦١٠١] ومسلم [٢٣٥٦] عن **عائشة** رضي الله عنها: **قال**: «**ما بالُ أقوامٍ يتنزَّهون عن الشيءِ أصنعُه، فواللهِ إنِّي لأعلمُهم بالله، وأشدُّهم له خشيةً**».

وكان عليه الصلاة والسلام متوكِّلاً على الله سبحانه في جميع أحواله وأعماله، وهذا ظاهر في حياته ﷺ، وخاصةً في أثناء الشدائد والصعاب، انظر إلى توكله عليه الصلاة والسلام وثباته وثقته بربه، عندما كان في الغار مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه، والمشركون يحيطون بالغار من كلِّ جانبٍ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكان عليه الصلاة والسلام يُحْرَسُ من قبلِ بعض أصحابه، حتى أنزل الله تعالى عليه قوله الكريم: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

فقال عليه الصلاة والسلام: «**يا أيها الناس، انصرفوا عني، فقد عصمني الله** عز وجل» [رواه الترمذي (٣٠٤٦)].

وعن **جابر بن عبد الله** رضي الله عنهما: أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فنزل

رسول الله ﷺ تحت شجرة، فعلَّق سيفَه بغصن من أغصانها، وتفرَّق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، فقال رسول الله ﷺ: «**إنَّ رجلاً أتاني وأنا نائمٌ، فأخذَ السيفَ، فاستيقظتُ وهو قائمٌ على رأسي، والسيفُ في يده صلتاً، فقال: مَنْ يمنعُكَ منّي؟ قلتُ: الله، فشامَ السيفَ (أي: أغمدَه)، وهاهو ذا جالس**» [رواه مسلم (٨٤٣)].

ورسول الله ﷺ أكثرُ الناس تمسُّكاً بالوحي واتباعاً له، كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وبعدَ هذا لا بدَّ أن **يسأل سائل فيقول**: ما وجهُ أمرِ النبيِّ ﷺ بالتقوى واتباع الوحي والتوكل، والأمرُ بالشيءِ لا يكونُ إلا عند عدم الاشتغال به، فلا يقال للساكتِ: اسكت، ولا للجالسِ: اجلس؟!.

وأجابَ أكثرُ علماء التفسير عن هذا بأنَّ المرادَ من الأمر بالتقوى والتوكل على الله واتباع الوحي: الثبات عليها والازدياد منها؛ لأنَّ لهذه المأموراتِ باباً واسعاً لا يُنال مداه، كما قال العلامة أبو السعود في تفسيره.

وقال النسفي في تفسيره: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: اثبت على تقوى الله، ودم عليه، وازدد منه، فهو بابٌ لا يُدركُ مداه.

ذكر الفخر الرازي هذا في تفسيره الكبير، وزاد عليه معنًى آخر لطيفاً فقال: المَلِكُ يُتقى من عبادِه على ثلاثة أوجه: بعضُهم يخافُ من عقابه، وبعضُهم يخافُ من قطعِ ثوابه، وثالثٌ يخاف من احتجابه، والنبيُّ ﷺ لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الأول ولا بالمعنى الثاني، فالأمر بالتقوى يوجِبُ استدامةَ الحضور مع الله سبحانه، والنبيُّ ﷺ في كل لحظةٍ يزدادُ علمُه ومرتبته، حتى كان حالهُ فيما مضى بالنسبة لما هو فيه تركاً للأفضل، فكان له في كُلِّ ساعةٍ تقوى متجددة، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنَّه ليُغَانُ على قلبي، حتَّى أستغفرَ اللهَ في اليومِ مئةَ مرَّةٍ**» [رواه مسلم (٢٧٠٢)] ومعنى «**يغان**»: يغطى ويغشى.

ولا شك أنَّ للنبيِّ ﷺ في كل وقت تقوى متجددة؛ لأنه عليه الصلاة والسلام يزدادُ علماً ومعرفةً بما يفيضه الله سبحانه عليه، وهو سبحانه الذي علَّم نبيه ﷺ أن يقول: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وفي زيادةِ العلمِ زيادةٌ في الرفعة والمرتبة، كما قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

ويمكن أن نقولَ أيضاً: إنَّ المرادَ من أمر النبي ﷺ بالتقوى واتباع الوحي والتوكل، أمَّته عليه الصلاة والسلام، فالخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ منه أمته.

ذكر هذا الخازنُ في تفسيره، إلا أنَّه ذكره بصيغة تدل على أنه يراه قولاً ضعيفاً، حيث قال: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: دم على التقوى، وقيل: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به أمته.

ولكني أرى هذا القول وجيهاً وسديداً، ويؤكده قوله سبحانه في ختام الآية الثانية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فصدر الآية خطاب للنبي ﷺ، وآخرُها خطاب لأمته عليه الصلاة والسلام.

ولهذا نظائر كثيرة في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ﴾ [الطلاق: ١].

وقد يقول قائل: ما فائدةُ توجيه الخطاب للنبي ﷺ إذا كان المراد به أمته؟.

وأقول: إنَّ في ذلك فوائد كثيرة، منها: تشريف النبي ﷺ، وتعريف الناس بأهمية التكليف، فإذا كان النبيُّ ﷺ مأموراً بالتقوى واتباع الوحي والتوكل، وهو إمام المتقين، وسيدُ المتوكلين، والمبلِّغُ لوحي الله إلى العالمين، فالأمر في حق غيره آكد وأعظم.

وإن الصالحين أكثر إدراكاً لهذه المعاني من غيرهم، إنهم يتذوقونها قبل غيرهم؛ بسبب صفاء قلوبهم، ورقَّة نفوسهم وشفافية أرواحهم.

أذكر على سبيل المثال: أنِّي كنت مرةً مع سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى في سيارةٍ خارجَ البلد، وكان مذياعُ السيارة يبثُّ قراءةَ قارئٍ يقرأُ من سورة

الإسراء، ولما قرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [الإسراء].

انفجر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ باكياً بكاءً شديداً، ما رأيته يبكي مثله أبداً، وهو يقول: إذا كان حال النبي ﷺ مع الله سبحانه هكذا، فكيف يكون حالنا؟!.

ورحم الله ابن كثير، فقد قال في تفسير هذه الآية: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنَّه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله ﷺ بهذا فلأن يأتمرَ به مَنْ دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى[١].

- **المحافظة على الأنساب:**

ومن التقوى أن ينتسبَ الإنسان إلى أبيه الحقيقي، فلا يجوز الانتساب إلى غيره، كما لا يجوز أن يَنسب الإنسان إلى نفسه غير ولده الحقيقي الصلبي، قال تعالى:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤﴾.

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ﴾ أي: كما لم يجعل الله قلبين في جوف رجل، لم يجعل الزوجةَ المظاهَرَ عنها أُمّاً لزوجها، ولم يجعل المتبنَّى ولداً لمدَّعيه.

﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ﴾ أي: قولكم للزوجة هي أمٌّ، وللمتبنى الدعي هو ابن، مجرد قول تقولونه بأفواهكم، لا حقيقة له في الواقع.

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: والله يقول القول الثابت المطابق للواقع، ويهديكم إلى سبل الحق والرشاد، وقد بينهما تعالى بقوله:

---

(١) تفسير ابن كثير.

﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥﴾.

﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: انسبوهم إلى آبائهم الحقيقيين، هو أعدل عند الله وفي دينه وشرعه.

وفي الحديث الشريف: عن ابن عمر رضي الله عنهما: **أن زيد بن حارثة مولى** رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾. [رواه البخاري (٤٧٨٢) ومسلم (٢٤٢٥)].

﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾ أي: إن لم تعلموا آباءهم الحقيقيين، فهم إخوانكم وأولياؤكم في الدين.

﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ أي: وليس عليكم إثم فيما فعلتموه خطأً قبل ورودِ النهي عنه.

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ أي: ولكنَّ الإثم فيما تعمدت قلوبكم، ولهذا قال: «**ليسَ مِنْ رجلٍ ادَّعى لغيرِ أبيه، وهو يعلمُه، إلَّا كفرَ، ومَنِ ادَّعى ما ليسَ له فليسَ منا، وليتبوَّأ مقعدَه من النار، ومَنْ دعا رجلاً بالكفر، أو قال: عدو الله، وليس كذلك، إلا حارَ عليه**» [رواه مسلم (٦١)]. «**حار**» أي: رجع عليه.

وفي الحديث الشريف أيضاً: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إن الله وضع عن أمتي: الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه**» [رواه ابن ماجه (٢٠٤٣) وابن حبان (٧١٧٥)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ أي: كان ولا يزالُ سبحانه غفوراً رحيماً، يعفو عن المخطئِ، ويقبَلُ توبةَ المتعمد، بفضله ورحمته.

- **مكانة النبي ﷺ بين المؤمنين:**

ثم بينت الآيات المكانة الواجبة للنبي ﷺ عند المؤمنين، بقوله تعالى:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: النبيُّ أجدر وأحق بالمؤمنين من أنفسهم، في جميع الأمور الدينية والدنيوية.

بهذا التقرير الجازم رفعت هذه الآيةُ النبيَّ ﷺ إلى أرفع منزلة وأعلى مكانة عند المؤمنين، فجعلته بهذه المنزلة أولى بالمؤمنين من أنفسهم في كلِّ الأمور؛ لأنها جاءت مطلقة غير مقيدة.

وقد بيَّن ابن كثير سببَ هذه المنزلة الرفيعة التي أنزلَ اللهُ بها نبيه ﷺ فقال: «علمَ اللهُ تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونُصحِه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم»(١).

قال تعالى في بيان شدة شفقة رسول الله ﷺ على أمته، وعظيم نصحه لهم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

فهو منة الله الكبرى على المؤمنين، كما في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وشفقته عليه الصلاة والسلام على المؤمنين، ورأفته بهم وحرصه على سلامتهم وسعادتهم ليس قاصراً على الحياة الدنيا، بل يمتد إلى ما بعد الموت، إلى يوم القيامة، قال عليه الصلاة والسلام: **«ما من مؤمنٍ إلا وأنا أولى الناسِ بهِ في الدنيا والآخرة، واقرؤوا إن شئتم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيُّما مؤمنٍ تركَ مالاً فليرثه عصبتُهُ مَنْ كانوا، فإن تركَ دَيناً أو ضياعاً فليأتِني وأنا مولاه»** [رواه البخاري (٤٧٨١)].

---

(١) تفسير ابن كثير.

يقضي النبيُّ ﷺ دينَ مَنْ يموت من أصحابه، ويتولى رعاية أولادهم بعدهم، فما أعظم رحمته بالمؤمنين، وما أشد شفقته عليهم!.

ينشغِلُ يومَ القيامة كلُّ إنسان بنفسه عن جميع الناس، حتى عن أحبِّ الناسِ إليه، وأقربهم منه، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس].

بل يتمنى الإنسان المعذَّب أن يدفع عن نفسه العذاب بأحب الناس إليه، قال سبحانه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج].

كل إنسان ينشغل يوم القيامة بنفسه، إلا النبيَّ ﷺ، فإنه يأتي إلى مقام مناجاته لربه ﷻ، فيخرُّ أمام العرش ساجداً لله تعالى، ويفتحُ الله عليه بأنواع المحامدِ ما يفتحُ، ثم يناديه ربُّ العزة: «**يا محمّدُ ارفع رأسَكَ، وَقُلْ يسْمَعْ لك، وسَلْ تُعْطَ، واشفعْ تُشَفَّعْ. فيقول: يا ربِّ أمتي**» [رواه البخاري (٧٥١٠) ومسلم (١٩٣) من حديث الشفاعة].

فلا أحد أرحم بالمؤمنين وأشفق عليهم بعد الله سبحانه من رسول الله ﷺ، فهو أرحم بالمؤمن من نفسه التي بين جنبيه، وأشفق على نفس المؤمن من نفسه، فالنبيُّ ﷺ يشفع للمؤمنين، ويسعى لإنقاذهم من غضب الجبار وعذابه وانتقامه، بينما أجزاءُ الإنسان وأبعاضُه تشهد عليه بما فعل في الدنيا من المعاصي والآثام، كما قال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يسٓ: ٦٥].

وعندما تشهدُ على الإنسان أعضاؤه وأجزاؤه يتجه إليها صاحبها باللوم والعتاب، تدبَّر معي قول الله ﷻ في **سورة فصلت**: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن

ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

فهل رأيتَ أعجبَ من هذا الحوار؟! يتحاور الإنسان مع أبعاضه وأعضائه معاتباً وموبخاً، وهو يذوب حسرة وكمداً، بينما رسول الله ﷺ يشفع للمؤمنين، ويسأل الله سبحانه لهم مغفرة ذنوبهم وستر عيوبهم!.

أهواؤنا وشهواتنا تدفعُنا في الدنيا إلى النار، وتعرَّضنا لغضب العزيز الجبار، وأعضاؤنا وأبعاضنا تشهدُ علينا يومَ القيامة، بينما رسول الله ﷺ يدعونا إلى دار السلام، ويشفع لنا يوم القيامة بين يدي الملك العلام، فما أجملَ المثلَ الذي ضربه لنا وله عليه الصلاة والسلام عندما قال: «**إنَّما مثلي ومثلُكم كمثل رجل استوقدَ ناراً، فلمَّا أضاءت ما حوله جعل الفَرَاشُ وهذه الدوابُّ التي تقعُ في النار يَقَعْنَ فيها، فجعلَ يزعهنَّ ويغلبْنَهُ، فيقتحمنَ فيها، فأنا آخُذُ بِحُجَزِكُم عن النار وأنتم تقحَّمُونَ فيها**» [رواه البخاري (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤)].

• **عموم ولاية النبي ﷺ وشمولها:**

ولاية النبي ﷺ على المؤمنين عامة وشاملة، فهي أكمل وأعلى من ولاية الوالد على ولده، والسيد على عبده.

فالوالد لا يستطيع شرعاً أن يزوِّج ابنته البالغة من دون رضاها؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تُنْكَحُ الأيـمُ حتَّى تُسْتَأْمَرَ، ولا البِكْرُ حتَّى تُسْتَأْذَنَ**» فقالوا: يا رسول الله فكيف إذنها؟ قال: «**أنْ تسكتَ**» [رواه البخاري (٥١٣٦) ومسلم (١٤١٩)].

وقد ردَّ رسول الله ﷺ زواج فتاة؛ زوَّجها أبوها من دون رضاها، فعن **عبد الله بن عباس** رضي الله عنهما: **أن جارية بكراً أتت النبي ﷺ فذكرت أن أباها زوَّجها وهي كارهة، فخيرها النبي ﷺ**. [رواه أبو داود (٢٠٩٦) وابن ماجه (١٨٧٥)].

وهذا يدلُّ على أنَّ ولايةَ الوالد على ولده قاصرة غير كاملة، أما النبي ﷺ فله أن يزوِّج أي فتاة مسلمة ممن يريد عليه الصلاة والسلام، وليس لأحد مهما

كان أن يعترض على أمره ﷺ، حتى الفتاة نفسها لا تملك إلا التسليم لأمره عليه الصلاة والسلام.

وسيأتي معنا: أنه لما خطب النبيُّ ﷺ السيدة زينب بنت جحش ابنة عمته، لمولاه زيد بن حارثة كرهت زينب هذا الزواج؛ لأن زيداً كان عبداً ثم أعتقه النبي ﷺ فأنزل الله سبحانه قوله الكريم: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وهل أتاك خبر زواج جُليبيب، الصحابي السيد الشهيد رضي الله تعالى عنه، وكان قصيراً دميماً، فخطب النبيُّ ﷺ له امرأة من الأنصار، فقال أبوها: حتى أستأمر أمها، فانطلق الرجل إلى امرأته، فذكر ذلك لها فقالت: لا ها الله، إذن ما وجد رسول الله ﷺ إلا جليبيباً، وقد منعناها من فلان وفلان! وكانت الجارية في سترها تسمع، فقالت: أتريدون أن تردُّوا على رسول الله ﷺ أمره؟ إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه. فقالا: صدقتِ. فذهب أبوها إلى النبي ﷺ فقال: إن كنت قد رضيته فقد رضيناه، قال: «**إني قد رضيتُه**» فزوَّجها، ثم فزع أهل المدينة، فركب جليبيبُ، فوجدوه قد قتل، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم. قال أنس راوي الحديث: فلقد رأيتُها وإنها لمن أنفق بيت في المدينة. [رواه أحمد (٣/ ١٣٦) وابن حبان (٤٠٥٩)].

وهذا يؤكد لنا شمول وعموم ولاية النبي ﷺ على المؤمنين، وأنَّها أعلى وأعظم من ولاية الأبوة، وثَمَّة فارقٌ كبير بين ولاية النبوة وولاية الأبوة، ولما أكرم الله سبحانه أزواج النبي ﷺ بمقام الأمومة على المؤمنين بقوله الكريم: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ لم تذكر الآيةُ مقام الأبوة للنبيِّ ﷺ؛ لأنها كرَّمته عليه الصلاة والسلام بولاية أعظم وأشرف، تلك هي ولاية النبوة على جميع المؤمنين والمؤمنات.

قال العلَّامة الصاوي: وإذا كان أولى بهم من أنفسهم، فهو أولى بمالهم

وأولادهم وأزواجهم من أنفسهم بالأولى، فحقُّه ﷺ أعظم من حق السيد على عبده[(١)(٢)].

- **أمهات المؤمنين:**

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي: وأزواجُ النبيِّ ﷺ أمهاتٌ للمؤمنين، فلهنَّ عند المؤمنين منزلةُ الأمهاتِ، في وجوب تعظيمهن واحترامهن وتحريم نكاحهن، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وأما فيما عدا ذلك، فهن كالأجنبيات، فلا يجوزُ النظر إليهن، والخلوة بهن، لما سيأتي من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وكذلك هن كالأجنبيات في الميراث، لقوله تعالى:

﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: الأقارب أحقُّ بالميراثِ من المؤمنين والمهاجرين، وكان المسلمون بعد الهجرة يتوارثون في أول الأمر بأخوَّة الإسلام والهجرة، ثم نُسِخَ ذلك بهذه الآية، وبقوله تعالى أيضاً: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال: ٧٥].

﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ أي: إلا إذا أردتم أن تحسنوا إلى مَنْ توالونهم، فيجوز تقديم بعضِ المال إليهم بواسطة الوصية، بشرط ألا تزيد عن ثلث المال.

---

(١) الصاوي على الجلالين.

(٢) وقد روي عن أبي بن كعب وابن عباس ﷺ أنهما قرأا: (**النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم**) وروي نحوه عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن، وهي قراءة شاذة لأنها تخالف رسم المصحف. وقد روى أبو داود: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما أنا لكم بمنزلة الوالد؛ أعلمكم...**» الحديث. رواه أبو داود، رقم (٨).

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي: كان كل ما ذكر من أولوية النبي ﷺ، وتكريم أزواجه، وتوارث ذوي الأرحام، مثبتاً في اللوح المحفوظ.

- **مكانته عليه الصلاة والسلام بين الأنبياء:**

ثم أشارت الآيات إلى مكانته عليه الصلاة والسلام بين الأنبياء، بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: واذكر إذ أخذنا من النبيين عهدهم بتبليغ الرسالةِ، وحملِ أعباء الدعوة.

وخصَّت الآية هؤلاء الخمسة بالذكر، مع أنَّهم من جملة النبيين والمرسلين، تنويهاً بفضلهم، وبياناً لكرامتهم وشرفهم، فهم أصحابُ الشرائع المشهورة، وأولو العزم من الرسل.

ولما كان سيدنا محمد ﷺ أفضلهم، قُدِّمَ عليهم، ولولا ذلك لَقُدِّمَ مَنْ قدَّمَهُ زمانُهُ(١).

ورأى بعض المفسرين أنَّ الله سبحانه قدَّمه بالذكر؛ لأنه أكرمه بالنبوة في عالم الأرواح قبل الأنبياء، فَبِنبوَّتِه افتتحت النبوَّات في عالم الأرواح، وبنبوته أيضاً خُتمت في عالم الأجساد والأشباح، كما سيأتي عند قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

وقد استدلوا على ذلك بما روى الترمذيُّ [٣٩٣٦]: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة؟ قال: «**وآدم بين الروح والجسد**» [قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، ورواه أبو نعيم في الدلائل (٨)

---

(١) تفسير النسفي: ٥/ ٨٧.

والبيهقي في الدلائل أيضاً (٢/ ١٣٠) والحاكم (٢/ ٦٠٩) وصححه]، وقد ذكره الشوكاني في تفسير الآية وقال: وفي الباب أحاديث قد صح بعضها[(١)].

قال القرطبي رحمه الله: «وقدم محمداً في الذكر لما روى قتادة، عن الحسن، عن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] قال: «**كنتُ أولهم في الخلق وآخرهم في البعث**» وقال مجاهد: هذا في ظهر آدم عليه السلام»[(٢)].

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهداً عظيم الشأن مؤكداً.

وأفاد تكرير الميثاقِ بيان أهميته وخطورته، حتى إنه تعالى يسأل الأنبياءَ يوم القيامة عنه:

﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

﴿لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي: لكي يسأل الأنبياء الصادقين عن صدقهم في الوفاء بهذا الميثاق، فالمسؤوليةُ يومَ القيامة عامةٌ شاملةٌ، حتى للأنبياء والمرسلين، فإنهم يُسألون عن التبليغ، كما يُسْأَلُ غيرهم عن القبول والاستسلام والإذعان، قال جل جلاله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

ولاشك أنَّ في تقرير سؤال الأنبياء وعيدٌ شديدٌ لغيرهم؛ ولهذا أتبعه الله بوعيد آخر للكافرين برسالة الأنبياء فقال:

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

- **غزوة الأحزاب:**

برزت في غزوة الأحزاب كثير من الشمائل الرفيعة والأخلاق الكريمة للنبي ﷺ ـ كما سيأتي معنا ـ وهو في أحرج الأوقات التي مرَّت على النبي ﷺ في حياته، والشدائد والمحن تظهِرُ حقيقة الرجال، وصفاءَ معدنهم، ولقد كشفت

---

(١) فتح القدير: ٤/ ٢٦٧.

(٢) تفسير القرطبي: ١٤/ ١٢٤.

أحداثُ هذه الغزوة عن المعدن الثمين الكريم للنبيِّ ﷺ، وبادرت الآيات في مستهلِّ حديثها عنها، إلى وصف أهوالها، وأخطارها:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ وهم جنود الأحزاب من قريش وبني أسد وغطفان وبني عامر وبني سُليم ومن يهود بني النَّضير، وانضمَّ إليهم بعد ذلك بنو قُرِيْظة، فنقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ، وكان مجموعُهم عشرةَ آلافٍ في القول المشهور، وفي قول آخر: خمسة عشر ألفاً.

ولمَّا سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم، حصَّنَ المدينة بحفر خندق من الجهة الشمالية من المدينة المنورة بين الحرتين، بإشارة من سلمان الفارسي، وجعله بينه وبين جنود الأحزاب، الذين ضربوا الحصارَ على المدينة المنورة، الذي استمرَّ قرابةَ شهر، ولم تقع حربٌ بين الفريقين سوى الرمي بالنبل والحجارة، واشتد في أثناء ذلك الخوف، وخاصة بعد أن نقض بنو قريظة عهدهم، واتفقوا مع الأحزاب على أن يمكنوهم من دخول المدينة من جهة حصونهم، ولكنَّ الله تعالى لطف بالمؤمنين وثبتهم، وأنزل نصره عليهم:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ أي: أرسلنا على جنود الأحزاب ريحاً، وكانت ريحاً باردة شديدة، قوَّضت خيامهم، وأكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وسفَّت الترابَ في وجوههم وعيونهم، وهي الريح التي قال عنها النبي ﷺ: «**نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ**» [رواه البخاري (٤١٠٥)].

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي: وأرسلنا عليهم أيضاً جنوداً لم تروها، وهم الملائكةُ الذين بثوا الرعب في قلوب الأحزاب، فأسمعوهم قعقعة السلاح والتكبير، فاضطربت خيولهم ونفرت، فتنادوا فيما بينهم: النجاةَ النجاةَ، وانهزموا مِنْ غير قتال.

وقد وصف حُذيفة بن اليمان ﵄ هزيمتهم فقال: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وقَرٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا رجلٌ يأْتيني بخبرِ القومِ، جعلَه اللهُ معي يومَ القيامةِ؟**» فسكتنا، فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «**ألا رجلٌ يأتينا بخبرِ القومِ، جعله اللهُ معي يومَ القيامةِ؟**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «**ألا رجلٌ يأتينا بخبرِ القومِ، جعله اللهُ معي يومَ القيامةِ؟**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: «**قُمْ يا حذيفةُ، فائتنا بخبرِ القومِ**» فلم أجد بدّاً إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: «**اذهب فَأْتني بخبرِ القومِ، ولا تذعرهم عليَّ**» أي: لا تحرِّكهم عليك، فإنهم إن أخذوك كان ذلك ضرراً علي، فلما وليتُ من عنده جعلتُ كأنما أمشي في حمَّام، حتى أتيتُهم، فرأيتُ أبا سفيان يُصْلي ظهره بالنار (أي: يدفئه)، فوضعت سهماً في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «**ولا تذعرهم عليَّ**» ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلمَّا أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قرِرْتُ، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلِّي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحتُ، فلما أصبحتُ، قال: «**قُمْ، يا نومان**» [رواه مسلم (١٧٨٨)].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ أي: بصيراً بضعفكم وافتقاركم إلى تأييده ونصره، فأمدكم بالريح والجنود.

• **الحصار:**

﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ﴾ أي: جاؤوكم من الجهة المرتفعة، وهم غطفان ومن تبعهم من أهل نجد.

﴿وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ﴾ أي: وجاؤوكم من أسفل الوادي، وهم قريش ومن تبعهم، وهذا يدل على أنهم أحاطوا بالمدينة المنورة من جميع جهاتها.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: وإذ مالت الأبصار، لكثرة ما رأت من عدد جنود الأحزاب وُعدَدِهِمْ.

﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي: اضطربت القلوب اضطراباً شديداً، وهو تمثيل لشدة الخوف، فعن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: «**نعم، اللهمَّ استرْ عوراتِنا، وآمِنْ روعاتنا**» [رواه أحمد (٣/٣)].

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي: وتظنون بالله تعالى الظنون المختلفة، فلقد أحسن المؤمنون الظنَّ بالله، وأنَّه منجزُ وعده، وناصرهم ومُعزُّهم، كما سيأتي عند قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وأما المنافقون فقد أساؤوا الظن بالله تعالى، كما سيأتي عند قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

أي: في ذلك الزمن المرعب المخيف، اختُبِرَ المؤمنون، وامتحنوا، واضطربوا اضطراباً شديداً. ومحَّصَ الله تعالى في هذا الابتلاء المؤمنين، وكشف نفاق المنافقين.

- **تشكيك وخذلان:**

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: ما وعدنا إلا وعداً باطلاً.

وهذا تشكيك للمؤمنين بصدق وعد الله تعالى، ووعد رسوله عليه الصلاة والسلام الذي كان يشدُّ من عزائمهم، ويبشرهم بالنصر القريب، وهم يحفرون الخندق.

ولم يكتفِ المنافقونَ بهذا، بل كانوا يدعون المؤمنين إلى الاستسلام والتخاذل وترك القتال:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي: يا أهل المدينة لا مقام لكم هنا، ولا ثبات في وجه جيوش الأحزاب، فَارجعوا إلى بيوتكم.

ويثرب: اسمُ المدينة المنورة، ولا ينبغي تسميتها به، لما أخرج أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه: عن **البراء بن عازب** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**من سمَّى المدينة يثربَ فليستغفرِ الله تعالى، هي طابةُ، هي طابةٌ**» [رواه أحمد (٤/ ٢٨٥)].

والله يحكي هنا قول المنافقين. وشفعوا قولهم هذا بترك القتال:

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: إنَّ بيوتنا غير حصينة، معرَّضة للخطر.

وكذَّبهم الله تعالى وبيَّن حقيقة مرادهم، فقال:

﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: بل هي حصينة، وما أرادوا بالاستئذان إلا الفرار وترك القتال.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: لو دخلت جيوش الأحزاب من نواحي المدينة وجوانبها، وطلبوا من المنافقين إعلانَ كفرهم وردَّتهم، لبادروا إلى إجابتهم، وسعوا إليهم دونَ توقف، وما تأخروا إلا زمناً يسيراً، ريثما يتم السؤال والجواب.

ويدل هذا على ميلهم للكفار وحبِّهم للكفر.

وفي قراءة: (**لَأَتَوْها**) من دون مدٍّ، أي: لسَعَوا إليها بأنفسهم.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ أي: عاهدوا الله على الثبات وعدم الفرار، من قبل مجيء الأحزاب.

﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي: مسؤولاً عن الوفاء به، ومجازى عليه يوم القيامة.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء المتخاذلين عن القتال: لن يحميكم الفرار من الموت أو القتل، فالمقدَّر كائنٌ لا محالة، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: إن كان حضر أجلكم لم ينفعكم الفرار، وإن لم يحضر وفررتم، لم تمتعوا في الدنيا إلا قليلاً، وهي مدة أعماركم(١).

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي: من يردُّ عنكم ما قدَّر الله لكم من نفع أو ضر، إذ الأمور كلها بيده سبحانه، لا معقب لحكمه، ولا رادَّ لقضائه.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ولا يجدون غير الله تعالى وليّاً يتولاهم، ونصيراً ينصرهم.

واستمرتِ الآياتُ تتوعد المنافقين، وهي تفضح مواقفهم، وتكشف قبائحهم:

---

(١) تفسير النسفي: ٥/٩٨.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: الله يعلم المثبِّطين عن الجهاد مع رسول الله ﷺ، والقائلين لإخوانهم في النسب من المجاهدين: تعالوا إلينا واتركوا القتال، فإنا نخاف عليكم، وهم لا يحضرون القتال إلا زمناً قليلاً، للرياء والسمعة، ثم يبادرون إلى الفرار معتذرين بأن بيوتهم عورة.

وكلمة ﴿قَدْ﴾ تأتي للتحقيق أو للتقليل، وهي هنا للتحقيق.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي: يعوقونكم عن القتال، متظاهرين بالخوف عليكم، وأنهم يضنُّون بكم، والحقيقة أنهم يخافون على أنفسهم.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: فإذا جاء العدو رأيتهم ينظرون إليك نظر الخائف المستجير بك، وأعينهم تدور من شدة اضطرابهم وفزعهم، كالذي حضره الموت، ونزلت به غشياته وسكراته.

هذا حالهم عند الخطر، وأما عند زواله وانسحاب العدو فحالهم يتغير:

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: بسطوا ألسنتهم الحادة القاسية فيكم، وآذوكم بكلامهم، وخاصة عند قسمةِ الغنيمة، فهم أجبنُ الناس عند الحرب وأشجعهم عند الغنيمة.

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ أي: على المال، فلا ينفقون منه شيئاً في سبيل الله، ويبالغون في المخاصمة من أجله عند قسمة الغنائم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أولئك المتَّصفون بهذه الصفات لم يؤمنوا الإيمانَ الصحيح، ولهذا أبطل الله أعمالهم التي يعملونها للرياء والسمعة.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: وذلك هين عليه تعالى لهوانهم عليه، فلا يبالي بهم ولا بأعمالهم.

ولمَّا انهزم الأحزابُ، ورجعوا إلى بلادهم خائبين، ووصلت أخبار هزيمتهم إلى المدينة المنورة، لم يصدِّقِ المنافقون هذه الأخبار، من شدة خوفهم وجُبنهم:

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾.

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ أي: إن يأتِ الأحزابُ يتمنَّى المنافقون أن يكونوا في البادية مع الأعراب بعيدين عن المدينة.

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: وحتى في مثل هذه الأحوال، لو كانوا معكم ما قاتلوا إلا قتالاً قليلاً للسمعة والرياء.

- **الأسوة الحسنة:**

وبعد أن وصف الله تعالى جوَّ الحصار الخانق المرعب، وتخاذل المنافقين عن القتال، وتثبيطهم المجاهدين، وإشاعتهم الأراجيف السيئة، ذكر آية الأسوة برسول الله ﷺ، فجاءت في موقعها هذا نجماً يتألق في قلب الظلام، وأملاً يثبِّت القلوب المضطربة، ويسكِّنُ النفوس القلقة، فببركة الأسوة برسول الله ﷺ، ثبت المؤمنون في وجه أعدائهم، وتبعه النصر والتمكين في الأرض، وتغير بعد غزوة الأحزاب ميزانُ الصراع بين الإيمان والكفر، فرجحت كفة الإيمان، وتحول موقف النبيِّ ﷺ والمؤمنون من الدفاع إلى الهجوم، حتى قال النبي عليه الصلاة والسلام حين جلا الأحزاب: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم**» [رواه البخاري (٤١١٠)].

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه في نفسه أسوةٌ حسنة، أي: قدوةٌ، وهو المؤتسى به، أي المقتدى به.

وثانيهما: أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها وتتبع، وهي المواساة بنفسه.

وما أكثر ما واسى رسولُ الله ﷺ بنفسهِ المؤمنين في غزوة الأحزاب، قال ابن كثير: «هذه الآية أصلٌ كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمرَ تبارك وتعالى الناسَ بالتأسّي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته، ومرابطته و مجاهدته، فقال للذين تضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾»(١).

فقد كان رسول الله ﷺ في هذه الأوقات العصيبة مصدر ثقة واطمئنان وأمان للمسلمين، ولقد أحسن سيد قطب في قوله في ظلال هذه الآية الكريمة: «وقد كان رسولُ اللهِ ﷺ على الرغم من الهول المرعب، والضيق المجهد، مثابة أمانٍ للمسلمين، ومصدرَ الثقةِ والرجاءِ والاطمئنان، وإنَّ دراسةَ موقفه ﷺ في هذا الحادث الضخم، لممَّا يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم، وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وتطلبُ نفسُه القدوةَ الطيبةَ، ويذكر الله ولا ينساه»(٢).

رحم الله سيد قطب، لو أنَّ الدعاة إلى الله في زماننا، وقادة الجماعات الإسلامية، تفهَّموا مواقفه عليه الصلاة والسلام في غزوة الخندق، واقتدوا به، وترسَّموا خطاه، لجنبوا أنفسهم والمسلمين كثيراً من البلاء والمشقة والعنت، ولحققوا للدعوة الإسلامية كثيراً من التقدم والنجاح.

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) في ظلال القرآن.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فلننظر إليه ﷺ في غزوة الأحزاب، ولنتأمل بعض مواقفه فيها:

١ ـ لما سمع رسولُ اللهِ ﷺ بمسير جيش الأحزاب استشار أصحابه، فأشار عليه سلمانُ الفارسيُّ رضي الله عنه بحفر الخندق، فأُعجب عليه الصلاة والسلام برأي سلمان، وأمرَ بحفر الخندق شمالي المدينة بين الحرتين، وطبَّق عليه الصلاة والسلام في هذا مبدأ الشورى ونفَّذه.

٢ ـ شارك رسول الله ﷺ أصحابه بحفر الخندق بنفسه، وتحمَّل معهم مشقة العمل وشدته، ففي «**الصحيحين**» [البخاري (٤١٠٦) ومسلم (١٨٠٣)]: عن البراء رضي الله عنه قال: **رأيتُ رسول الله ﷺ وهو ينقلُ معنا الترابَ، ولقد وارى الترابُ بياضَ بطنه، وهو يقول:**

واللهِ لولا اللهُ ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صَلَّينا
فأنزلنْ سكينةً علينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقينا
والمشركونَ قد بَغَوْا علينا ... إذا أرادوا فتنةً أَبَيْنا

ويرفع بها صوته.

ولنا أن نتصور ـ كما يقول سيد قطب ـ هذا الجوَّ الذي يعمل فيه المسلمون ورسول الله ﷺ بينهم، يضرِبُ بالفأس، ويجرف بالمسحاة، ويحمل في المكتل، ويرفع صوته مع المرتجزين، وهم يرفعون أصواتهم بالرجز أثناء العمل، فيشاركهم الترجيعَ، لنا أن نتصورَ أيَّ طاقة يطلقها هذا الجو في أرواحهم، وأيَّ ينبوع يتفجَّر في كيانهم بالرضا والحماسة والثقة والاعتزاز.

٣ ـ ولقد تمكن الصحابةُ رضي الله عنهم من حفر الخندق في وقت قصير، قبل وصول جيش الأحزاب، رغم المصاعب الهائلة التي واجهتهم، ومن أشدها عليهم البردُ والجوعُ، ومن المعروف أنَّ البردَ والجوعَ من أكبر المعوقات التي تؤخر العمل، إذ لا يستطيعُ أيُّ عامل يعاني من البرد والجوع الشديدين أن يعملَ أبسطَ الأعمال، فما بالك بأشق الأعمال، من حفر للأرض، وتكسير للصخر، ونقلٍ

للتراب والأحجار، ولكنه رسول الله ﷺ النبيُّ القائد، الذي فجر في قلوبهم شعلة الإيمان، وبثَّ في سواعدهم عزمَ اليقين، فشقُّوا الأرض، وقطَّعوا الصخر، رغم ما بهم من تعب ونصب وبرد وجوع.

عن **أنس** رضي الله عنه قال: خرجَ النبيُّ ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرونَ في غداةٍ باردةٍ، ولم يكنْ لهم عبيدٌ يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النَّصَبِ والجُوْعِ قال:

«اللهمَّ إنَّ العيشَ عيشُ الآخِرَه فاغفر للأنصار والمهاجِرَه»

فقالوا مجيبين له:

نحنُ الذين بايعوا محمَّدا على الجهادِ ما بقينا أبدا

[رواه البخاري (٤٠٩٩) ومسلم (١٨٠٥)].

٤ ـ وكيف لا يعملون، ورسول الله ﷺ أسوتهم وقدوتهم، يعمل معهم، ويتحمل شدة البرد وقسوة الجوع أكثر منهم، عن **أبي طلحة** رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول اللهِ ﷺ الجوعَ، ورفعنا عن بطوننا عن حجرٍ حجرٍ، فرفعَ رسولُ اللهِ ﷺ عن حجرين. [رواه الترمذي (٢٣٧١)].

هكذا كان ﷺ يؤتسى به، ويواسي كلَّ أفرادِ الأمة بنفسه وبأخلاقه وشمائله.

٥ ـ لم يُؤْثِرْ رسول الله ﷺ نفسه بشيء دونَ أي فرد من أفراد الأمة، حتى بلقمة طعامٍ يسدُّ بها جوعه، فلا يأكلُ حتى يطعمَ أصحابه، فلا يبقى فيهم جائع.

فعن **جابر** رضي الله عنه قال: إنا كُنَّا يوم الخندق نحفر، فعرضت كُديةٌ (صخرة) شديدة فجاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضتْ في الخندق، فقال: **«أنا نازلٌ»** ثم قامَ وبطنه معصوبٌ بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوقُ ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعولَ، فضرب فعاد كثيباً أهيل (رملاً لا يتماسك) فقلت: يا رسول الله، ائذنْ لي إلى البيت، فقلتُ لامرأتي: رأيتُ بالنبيِّ ﷺ خمصاً (جوعاً) شديداً فعندكِ شيءٌ؟ فقالت: عندي شعيرٌ وعناقٌ (أنثى المعز).

فذبحتُ العناق، وطحنتُ الشعيرَ، حتى جعلنا اللحمَ في البُرْمةِ، ثم جئتُ

النبيَّ ﷺ فقلتُ: طُعَيِّمٌ لي، فقم أنتَ يا رسول الله ورجلٌ أو رجلان، قال: «**كم هو؟**» فذكرتُ له فقال: «**كثيرٌ طيبٌ، قل لها: لا تنزعي البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي**» فقال: «**يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع سؤراً فحيهلا بكم**».

فقام المهاجرون والأنصار، فدخلتُ عليها فقلتُ: ويحكِ قد جاء النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألكَ؟ قلتُ: نعم، قال ﷺ: «**ادخلوا ولا تضاغطوا**» (لا تزاحموا) فجعل يكسرُ الخبزَ، ويجعلُ عليه اللحمَ، ويخمِّرُ (يغطي) البرمة والتنورَ إذا أخذَ منه، ويقرِّب إلى أصحابه، فلم يزل يكسرُ ويغرفُ حتى شبعوا، وبقيَ منه فقال: «**كلي هذا وأهدي، فإنَّ الناسَ أصابتهم مجاعةٌ**» [رواه البخاري (٤١٢٠) ومسلم (٢٠٣٩)].

٦ ـ وكان رسول الله ﷺ يبشرهم بالنصر، وهو في قلب الخندق يضربُ الصخر بمعوله، لا النصر في معركة الأحزاب فقط، وإنما النصر على أعظم دول الأرض، على الفرس والروم، ويخبرهم بأن الإسلامَ سينتشر ويمتد رواقه إلى مشارق الأرض ومغاربها.

قال ابن إسحاق في «السيرة»: وحُدِّثْتُ عن **سلمان الفارسي** رضي الله عنه: أنه قال: ضربتُ في ناحيةِ الخندقِ، فغلظت عليَّ صخرةٌ، ورسولُ اللهِ ﷺ قريبٌ مني، فلما رآني أضربُ، ورأى شدة المكان عليَّ نزل، فأخذَ المعولَ من يدي، فضربَ به ضربةً لمعتْ تحتَ المعولِ برقةٌ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقةٌ أخرى، ثم ضرب الثالثة فلمعتْ تحته برقةٌ أخرى، قلتُ: بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله، ما هذا الذي رأيتُ لمعَ تحت المعول وأنت تضرب...؟ قال: «**أوقد رأيتَ ذلك يا سلمان؟**» قلتُ: نعم، قال: «**أمَّا الأولى فإنَّ الله فتحَ عليَّ بها اليمنَ، وأمَّا الثانيةُ فإنَّ الله فتحَ عليَّ بها الشامَ والمغربَ، وأمَّا الثالثةُ فإنَّ الله فتحَ عليَّ بها المشرقَ**» [سيرة ابن هشام: ٢/ ٢١٩].

وروي عن **البراء** رضي الله عنه قال: لـمَّا كانَ حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرضتْ لنا في بعض الخندقِ صخرةٌ لا تأخذُ فيها المعاول، فاشتكينا ذلك للنبي ﷺ، فجاء فأخذَ المعولِ فقال: «**بسم الله**» ثم ضربها فنشر ثلثها،

وقال: «**اللهُ أكبرُ أعطيتُ مفاتيحَ الشام، واللهِ إنِّي لأبصرُ قصورَها الحمرَ الساعة**». ثم ضربَ الثانية فقطع ثلثاً آخر فقال: «**الله أكبر أعطيت مفاتيحَ فارسَ، والله إني لأبصرُ قصرَ المدائن الأبيضَ الآن**». ثم ضربَ الثالثة فقطعَ بقيةَ الحجر فقال: «**اللهُ أكبرُ أعطيتُ مفاتيحَ اليمنِ، والله إني لأبصرُ أبوابَ صنعاءَ مِنْ مكاني الساعةَ**» [رواه أحمد (٤/ ٣٠٣) والنسائي (٦/ ٤٣ ـ ٤٤)].

وكان **أبو هريرة** رضي الله عنه يقول في زمن عثمان: افتتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفسُ أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى اللهُ محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك[١].

ويؤيد ذلك قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

فكلُّ فتح في الإسلام حدث بعد وفاة سيدنا رسول الله ﷺ، أعطي النبيُّ ﷺ مفاتيحه مِنْ قبلُ، حين كان يحفر الأرض، ويضربُ بالمعول في قلب الخندق، وقد بشَّر به أصحابه، فكان علماً من أعلام صدق نبوته وصحة رسالته ﷺ.

٧ ـ وكلَّما تعاظمَ الخطبُ، واشتدَّ الخوفُ، وازداد الخطر، زادت ثقة النبيِّ ﷺ بربه، واستبشر بقرب النصر، وبشر أصحابه به.

لمَّا نقضَ بنو قريظة العهد، واتفقوا مع الأحزاب على مساعدتهم في قتال المسلمين، أرسل النبيُّ ﷺ بعضَ أصحابه إلى بني قريظة ليكشفوا له حقيقة موقفهم، فرجعوا، وأخبروه بنقض بني قريظة للعهد، فما كان منه ﷺ إلا أنْ قال: «**الله أكبر، أبشروا يا معشرَ المسلمينَ**»[٢].

٨ ـ وعندما وصلتْ جيوشُ الأحزاب، خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ والمسلمون، حتى جعلوا ظهورهم إلى جبل سَلْعٍ، في ثلاثة آلاف، فضرب هناك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، واستعمل على المدينة ابن أمِّ مكتوم، وأمر بالذراري

---

(١) إنارة الدجى في مغازي خير الورى.

(٢) سيرة ابن هشام.

والنساء فجُعلوا في الآطام، وهي حصون منيعة كانت داخلَ المدينةِ، ولما سمع ﷺ بنقض بني قريظة عهدهم وغدرهم، ردَّ ثلث الجيش إلى داخل المدينة لحماية النساء والأطفال من بني قريظة، مما دل على حرصه ﷺ على حماية الضعفاء من الأمة، فسلامتهم مقدَّمةٌ على سلامة المجاهدين أنفسهم، وعلى المجاهدين أن يكونوا حرماً وحرساً للنساء والأطفال والضعفاء، ولا يجوز لهم أن يتخذوا من النساء والأطفال حِرْزاً يختبئون وراءه، وحصناً يتحصَّنون به، فيعرضونهم بهذا العمل لضربِ العدو لهم، وفتكه بهم وانتقامه منهم.

٩ ـ ومع عظيم توكله عليه الصلاة والسلام وثقته بربه ﷻ، فقد قام ﷺ بأعلى أعمال الحيطة العسكرية، التي يقوم بها كل قائد عسكري بعيد النظر:

نظَّم ﷺ أصحابه، فجعلَ لواء المهاجرين بيد زيد بن حارثة، ولواء الأنصار بيد سعد بن عبادة، وعلى الحرس عباد بن بشر رضي الله عنهم أجمعين، وجعل كلمة التعارف بين المسلمين في ليالي الخندق (حم، لا ينصرون) ونشر جنوده حول الخندق من الداخل لحراسته، ومنع جنود الأحزاب من اجتيازه، وخاصة في الأماكن التي يمكن أن يتسلل منها جنود العدو.

وكان ﷺ يشارك أصحابه في الحراسة ليلاً، ويقف في أخطر المواقع، كما كان يتفقَّد الحرس في الليل بنفسه عليه الصلاة والسلام.

ويجب أن نعلمَ أنَّ النبي ﷺ ليس أسوة حسنة في الفضائل العالية والمناقب الكريمة، التي ظهرت له في غزوة الأحزاب فقط، فنزول آية الأسوة الحسنة بسبب غزوة الأحزاب لا يعني خصوص السبب، إذ من المعلوم أن خصوص السبب لا يعني خصوص الحكم، بل الآية الكريمة تأمرنا أن نقتدي به ﷺ في كل شؤون الحياة، وما من شأن من شؤون الحياة إلا والنبي ﷺ المثل الأعلى والأسوة الحسنة الطيبة فيه، فقد جمع الله تعالى للنبي ﷺ مكارم الأخلاق كلها، حتى إنه سبحانه بعثه عليه الصلاة والسلام ليُتَمِّم مكارمَ الأخلاق، فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» [رواه البيهقي في السنن الكبرى: ١٠/ ١٩١ وفيه ضعف].

فهو ﷺ القدوة الطيبة والأسوة الحسنة، في جميع الفضائل الأخلاقية الكريمة، والآداب الإنسانية الرفيعة، وكيف لا يكون كذلك، وقد أدبه الله سبحانه على عينه، وآواه إلى كنفه ورعايته منذ بداية حياته، وأنزل عليه بعد ذلك قوله الكريم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**أدَّبني ربي فأحسن تأديبي**» [رواه ابن السمعاني من حديث ابن مسعود، وفيه ضعف].

جمع الله تعالى للنبي ﷺ كلَّ الكمالات الأخلاقية التي أنعم بها على الأنبياء والمرسلين، ولهذا أمره سبحانه أن يقتدي بجميع الأنبياء والمرسلين، ليجمع له سبحانه كل الفضائل التي أكرمهم بها، فقال ﷻ في **سورة الأنعام**: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

هكذا رفع سبحانه هؤلاء الأنبياء والمرسلين بحكمته وعلمه درجاتٍ عالية رفيعة، ثم أمر النبي ﷺ أن يقتدي بهم، ليحوز كل مناقبهم وفضائلهم، وليكون بفضل الله سبحانه إمامهم وسيدهم، والقدوة الطيبة والأسوة الحسنة للمؤمنين.

فما أعظم هذه الفضائل! وما أشرف هذه الشمائل! فضائل وشمائل الصفوة المختارة من الخلق، الذين اختارهم الله سبحانه من جميع الأمم والشعوب، في أزمنة وأمكنة مختلفة ومتباعدة، جمعها الله في زمن واحد، ومكان واحد، وإنسان واحد، جعله الله رحمة مهداة منه سبحانه لكل العالمين، ﷺ.

وإن الذين يتأسَّون به حقيقة، ويستفيدون من أخلاقه وشمائله ﷺ، يتَّصفون

بصفات خاصة، وهي ثلاثُ صفاتٍ ذكرها سبحانه في آية الأسوة بقوله:

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

فتأمل كيف قرر سبحانه واجب التأسي برسول الله ﷺ على جميع المؤمنين، بقوله في صدر الآية: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ثم خَصَّصَ بعد هذا التعميم، فبين أن شرف التأسي به عليه الصلاة والسلام، لا يناله إلا منْ كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً.

ـ فقوله سبحانه: ﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: يرجو ثواب الله، وهذه هي الصفة الأولى للمتأسين برسول الله ﷺ، **فهم يتأسون به طلباً لثواب الله سبحانه**، لا يطلبون أي منفعةٍ دنيويةٍ، إنما أملهم ورجاؤهم في رحمة الله وفضله وثوابه.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ أي: **يخشون يوم القيامة**، الذي فيه جزاءُ الأعمال، وهذه الصفة الثانية للمتأسين برسول الله ﷺ، فهم يخشون عذاب الله سبحانه يوم القيامة، ومعنى هذا أنهم يجمعون في قلوبهم بين صفتي الرجاء والخوف، فلا ييئسون من رحمة الله، ولا يأمنون من عذابه سبحانه.

وقد صرح سبحانه في الآية بفعل الرجاء لدلالته على الرحمة، وأخفى الفعل الذي يدل على الخوف والخشية، وذكر ما يدل عليه بقوله: ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾؛ لأنَّ الآية تتحدث عن النبي ﷺ نبي الرحمة.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: أكثر من ذكر الله سبحانه في كل أحواله وأوقاته، **فلا يغفل عن الله سبحانه أبداً**، وهذه الصفة الثالثة للمتأسين برسول الله ﷺ، فالذاكرون الله كثيراً والذاكرات، هم الذين شرَّفهم الله سبحانه وأكرمهم بالاقتداء برسول الله ﷺ، وقد جاء في **سورة الأحزاب** بعد ذلك أمر الله سبحانه للمؤمنين بالإكثار من ذكره تعالى، بقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

- **ثبات واستشهاد:**

كان ثبات المؤمنين في وجه جيوش الأحزاب، أول ثمار التأسي برسول الله ﷺ:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: هـذا مـا وعدنـا الله ورسوله من الاختبار والابتلاء، الذي يأتي بعده النصر، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: ظهر صدق وعد الله ورسوله ﷺ.

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي: وما زادهم ما رأوا من جند الأحزاب إلا تصديقاً بالله تعالى وتسليماً لأمره، ورضا بقضائه وقدره.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: من المؤمنين رجال حققوا الصدق فيما عاهدوا الله عليه.

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: فمنهم من وفى بنذره، فثبت مع رسول الله ﷺ، وقاتل حتى استشهد، كحمزة، ومُصعب بن عمير، وأنس بن النضر، وغيرهم من شهداء أحد، قال **أنس بن مالك** رضي الله عنه: عَمِّي الذي سُمِّيتُ به (يعني: أنس بن النضر) لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدراً، فشقَّ عليه فقال: أولُ مشهدٍ شهده رسول الله ﷺ غِبْتُ عنه، وإنْ أراني الله مشهداً فيما بعدُ مع رسولِ الله ﷺ، ليراني اللهُ تعالى ما أصنعُ، قال أنس: فهابَ أن يقولَ غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبلَ سعد بن معاذ، فقال له أنسٌ: يا أبا عمرو أينَ؟ فقال: واهاً لريح الجنة أجدُه دون أحدٍ. فقاتلهم حتى قُتلَ، فوُجِدَ في جسده بضع وثمانون، من بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمتي الربيعُ بنتُ النضر: فما عرفتُ أخي إلا ببنانه، ونزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن

قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ قال أنس: فكانوا يرونَ أنَّها نزلت فيه وفي أصحابه. [رواه مسلم (١٩٠٣)].

قوله: (واهاً) كلمة تَمَنٍّ وتلهف، والقائل هو أنس بن النضر.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ أي: ومنهم من ينتظر قضاء نذره، فيموت شهيداً.

وفي وصفهم بالانتظار إشارة إلى كمال اشتياقهم إلى الشهادة.

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي: وما بدلوا عهدهم وما غيروه، بل ثبتوا عليه راغبين فيه.

ولا يخفى ما في الآية من تعريض بالمنافقين وتخاذلهم، وقد سبق الحديث عنهم قبل آية الأسوة.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: قدَّر الله تعالى ما قدَّر من قتال وجهاد، ليجزي الصادقين بما صدر عنهم من صدق في العهد، وثباتٍ وتضحيةٍ.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: وليعذب المنافقين بما صدر عنهم من جبنٍ وخذلانٍ وتعويق عن القتال، أو يتوب عليهم إن تابوا عن النفاق وحسنت سرائرهم ونواياهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

- **النصر بلا قتال:**

وجاء النصر بلا قتال في غزوة الأحزاب، ببركة الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ وثبات المؤمنين وصدقهم:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ أي: ردَّ الله عن المدينة المنورة

جيوش الأحزاب خائبين مغتاظين بل بكامل غيظهم، لم يحققوا لأنفسهم أي خير.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أي: كفاهم سبحانه تحمُّلَ مشقات القتال، بما أرسل من ريح وجنود على جنود الأحزاب.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي: كان الله ولا يزالُ قادراً غالباً.

وتوالت على النبي ﷺ وعلى المؤمنين نِعَمه تعالى، فنقلهم من نصر إلى نصر آخر:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: أنزل يهود بني قريظة، الذين أيدوا الأحزاب، ونقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ من حصونهم المنيعة التي تحصَّنوا بها.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي: جعل في قلوبهم الخوف، فنزلوا من حصونهم مستسلمين من غير قتال.

ومرَّ معنا أنَّ الرعبَ جند من جنود الله تعالى، أُيِّدَ به النبيُّ ﷺ في مواطن كثيرة.

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم المقاتلون من الرجال.

﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وهم الصغار والنساء.

وفي الحديث: عن **عائشة** ﵂ قالت: أصيبَ سعدٌ يومَ الخندقِ، فضربَ النبيُّ ﷺ خيمةً في المسجدِ، ليعودَه منْ قريب، فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق، وضعَ السلاح واغتسل، فأتاه جبريلُ ﵇ وهو ينفضُ رأسَهُ من الغبارِ، فقال: قد وضعتَ السلاحَ، والله ما وضعْتُهُ، اخرجْ إليهم. قال النبي ﷺ: «**فأين؟**» فأشار إلى بني قريظة، فأتاهم رسول الله ﷺ فنزلوا على حكمه، فردَّ الحكم إلى سعدٍ، قال: فإني أحْكُمُ فيهم أنْ تقتلَ المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسَّمَ أموالهم. [رواه البخاري (٤١٢٢)].

وفي رواية **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**يا سعدُ، إن هؤلاء نزلوا على حكمك**» قال: فإني أحكمُ فيهم أن تقتلَ مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم، قال ﷺ: «**حكمتَ بحكم الله**» [رواه البخاري (٣٨٠٤)].

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾.

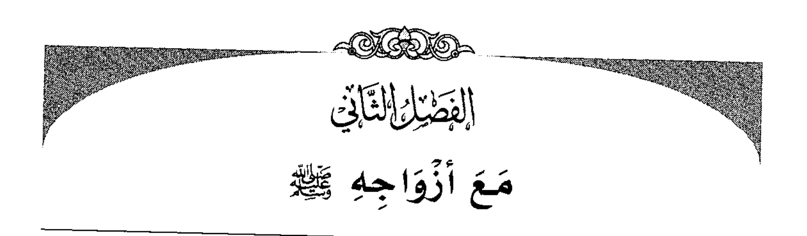
﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: وأورثكم مزارعهم وحصونهم ومواشيهم ونقودهم.

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ أي: وأورثكم أيضاً في علمه وتقديره أرضاً ما وطئتها أقدامكم من قبل، وهي بلادُ فارس والروم، وقيل: كل أرض تفتح على المسلمين، وتظلها راية الإسلام إلى يوم القيامة.

وهي من المبشِّرات التي بشَّر الله تعالى بها الأمة المسلمة، إذا ما تمسكت بهدي رسول الله ﷺ وائتست به.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ أي: قادراً على أن يملِّككم ما يشاء، وقد فعل بما فتح على الأمة المسلمة من فتوح، وهو قادر أيضاً على أن يفتحَ عليها مرة ثانية إن عادت إلى التمسك بسنَّته والتأسي به عليه الصلاة والسلام، كما مرَّ من قول **أبي هريرة** رضي الله عنه: افتتحوا ما بدا لكم، فو الذي نفسُ أبي هريرة بيدهِ، ما افتتحتم من مدينةٍ، ولا تفتتحونها إلى يومِ القيامةِ، إلا وقد أعطى اللهُ محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك.

❁ ❁ ❁



الفصل الثاني

مع أزواجه ﷺ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ

أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ

وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞.

- **النبي القائد ﷺ:**

تحدثت السورة أولاً عن بعض جوانب شخصية النبي ﷺ العسكرية في ميدان الجهاد، فإذا بنا أمام **قائد عسكري** أعطاه الله سبحانه كل الصفات العالية الرفيعة للقائد الذي يقود جنوده إلى النصر، في أصعب المواقف وأشدها حرجاً.

قائد لا يستبدُّ برأيه، بل يستشيرُ جنوده، ويأخذُ برأي أحدهم عندما يراه حقّاً ومفيداً.

قائد متواضع يشارك جنوده في كل أعمال القتال، من تحصين وحراسة

ومواجهة للعدو، ويتحمل معهم كلَّ مشقات القتال، من برد وجوع وتعب ونصب، كما سبق بيانه.

قائد يبثُّ في نفوس جنوده الثقة بنصر الله، فيملأ قلوبهم حماسة، ويشد عزائمهم، ويثبتُ نفوسهم في مواقف تضطرب فيها القلوب، وتتزلزل النفوس، حتى تبلغ القلوب الحناجر.

قائد ذي نظر بعيد وتفكير سديد، لا يدعُ فرصة مهما كانت، إلا ويستفيد منها ليهزم أعداءه وينتصر عليهم، حتى إنه لما جاءه نعيم بن مسعود الأشجعي مسلماً، يعرضُ مساعدته على النبي ﷺ، قال له عليه الصلاة والسلام: «**إنَّما أنتَ فينا رجلٌ واحدٌ، فخذِّلْ عنا إنِ استطعتَ، فإنَّ الحَرْبَ خَدْعَةٌ**»[1].

وقوله ﷺ: «**الحَرْبُ خَدْعَةٌ**» [رواه البخاري (٣٠٣٠)].

قائد قلبُه موصولٌ باللهِ سبحانه، يأخذ بأعلى أسباب الحيطة العسكرية، وفي الوقت نفسه يسألُ الله النصر، متوكلاً عليه سبحانه وحده، فما أكثر ما كان ﷺ يصلي لله في ليالي حصار الأحزاب، يدعو الله سبحانه، ويستمدُّ منه النصر والتأييد، ويعلِّم جنوده الثقة بالله، والتوكل على الله وحده، قائلاً لهم: «**قولوا: اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا**» [رواه أحمد (٣/ ٣)].

قائد جمعَ بين صفتي الرحمة والحزم، يضع الرحمة في مواضعها وعند من يستحقها، ويضعُ الحَزْمَ في مواضعه، وعند من يستحقه، بلغ من رحمته عليه الصلاة والسلام أنَّ جنديّاً من جنوده ـ وهو حُذيفة بن اليمان ـ كان قد كلَّفه ﷺ بمهمة استطلاعية، داخلَ صفوفِ العدو في ليلةٍ باردةٍ من ليالي الخندق، وعندما عاد الجنديُّ من مهمته، كان يرتجفُ من شدةِ البرد، وكان ﷺ يصلي، فأشفق عليه، ولم ينتظر حتى ينتهي من صلاته، بل أشارَ إليه أن يدنو منه، فلمَّا دنا منه أسبل عليه الصلاة والسلام عليه شَمْلَتَهُ (عباءته) وتركه نائماً فيها حتى أصبح، وقد تقدم الحديث في ذلك عند تفسير الآية (٩) من هذه السورة.

---

(١) سيرة ابن هشام.

كما بلغ من حزمه عليه الصلاة والسلام، أنه أمر بقتل جميع رجال بين قريظة، الذين نقضوا عهدهم معه ﷺ، وحاولوا الغدر بالمسلمين، وانحازوا للأحزاب المشركين، كما مرَّ معنا عند تفسير الآية (٢٦) من هذه السورة.

• **النبي القائد ﷺ خير الأزواج:**

ثم انتقلت السورة مباشرة من ميدان الجهاد إلى ميدان الأسرة، لتحدثنا عن خير الأزواج، عن رسول الله ﷺ، الزوج الذي كان يقول: «**خيرُكم خيرُكم لأهلِهِ، وأنا خيرُكم لأهلي**» [رواه الترمذي (٣٨٩٥) وحسنه].

ويقول أيضاً: «**إنَّ مِنْ أكملِ المؤمنينَ أحسنُهم خُلقاً وألطفُهم بأهلِهِ**» [رواه الترمذي (٢٦١٢) وحسنه].

فتكشف لنا آياتُ السورة كيف كان النبي ﷺ يعامل زوجاته، وتكشف لنا أيضاً عن نصرٍ كبيرٍ آخر، حققه النبي ﷺ في حياته الاجتماعية مع زوجاته، نصرٍ لا يقلُّ أهمية عن النصر في معركة الخندق، بل يفوقه أهمية، لأنه جرى في ميدان الجهاد الأكبر، حيث يجاهد الإنسان نفسه وميوله وشهواته.

وما أكثر الأزواج الذين ينهزمون في هذا الميدان، ويسقطون صرعى أهوائهم وشهواتهم، ولهذا تكرر في الآيات القرآنية الكريمة التحذير من الافتتان بالأزواج والأولاد، فإن كثيراً منهم يدفعون الإنسان إلى معصية الله والتعرض لسخطه وغضبه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن].

وقوله أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال].

كل هذه الآيات تدل على خطورة ميدان الأسرة، وشدة الفتنة التي يتعرض

لها الإنسان فيه، ولقد أحرز النبي ﷺ في هذا الميدان نصراً عظيماً كبيراً، تكشف عن مداه آيتا التخيير، إذا أضفنا إليهما بيان أسباب هذا التخيير وزمنه، والنتائج التي ترتبت عليه.

• **من القديم والحديث:**

و يجدرُ بي بعد أن بينتُ رأيي في هذا الموضوع، أن أعرض للقارئ الكريم آراء بعض أهل العلم، لعله يجد فيها موافقة للصواب أكثر من رأيي، مفوِّضاً علم الحقيقة لله سبحانه، فهو أعلم بكلامه وأسرار كتابه.

فمن القديم: اعتنى العلَّامة الفخر الرازي رحمه الله، في تفسيره **«مفاتيح الغيب»** كثيراً ببيان الصلة بين الآيات والسور، والكشف عن الحكمة لمواقع الآيات في السور، قال عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ...﴾ [٢٨ ـ ٢٩]: فوَجْهُ التعلقِ هو أنَّ مكارم الأخلاق منحصرة في شيئين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله.

ثم إن الله تعالى لما أرشد نبيه ﷺ إلى ما يتعلق بجانب التعظيم لله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة، وبدأ بالزوجات، فإنهن أولى الناس بالشفقة، ولهذا قُدِّمن بالنفقة[١].

ولكني لا أرى في آيتي التخيير المعنى الذي ذهب إليه الفخر الرازي رحمه الله، فليس فيها استجابة لمطالب أمهات المؤمنين بتوسيع النفقة عليهن، بل هما على العكس جاءتا تخيرهنَّ بين الرضا بمعيشتهن مع رسول الله ﷺ، أو طلاقهن إذا تمسكن بمطالبتهن بالتوسع في النفقة.

ومن الحديث: اهتم سيد قطب رحمه الله ببيان مواضيع السور، والصلة بين آيات السورة الواحدة في الموضوع، في كتابه: **«في ظلال القرآن»**، وقد قال رحمه الله في شأن موضوع سورة الأحزاب والصلة بين آياتها: «هذه السورة تتناول قطاعاً حقيقيّاً من حياة الجماعة المسلمة، في فترة تمتد من بعد غزوة بدر الكبرى، إلى

---

(١) التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»: ٢٦/٢٠٦.

ما قبل صُلح الحديبية، وتصورُ هذه الفترة حياة المسلمين في المدينة تصويراً واقعيّاً، وهي مزدحمة بالأحداث التي تشير إليها خلال هذه الفترة، والتنظيمات التي أنشأتها وأقرتها في المجتمع الإسلامي الناشئ»[١].

فعلاقة آيتي التخيير بما قبلها من آيات السورة، في موضوع غزوة الأحزاب، علاقة أحداث جمعها زمن واحد، ووقعت في فترة واحدة، في رأي سيد قطب، فهو يرى أنَّ السورة تعالج موضوعات فترة معينة من حياة الجماعة الإسلامية، تمتد من غزوة بدر، إلى ما قبل صلح الحديبية.

لكني أرى سيداً رحمه الله لم يوفَّق إلى الصوابِ في هذا الموضوع، لأن التخيير ونزول آيتيه، لم يكن من أحداث هذه الفترة التي حددها، بل كان التخيير بعد هذه الفترة بزمن كبير، فهو من الأحداث التي وقعت بعد فتح مكة، كما سأبينه إن شاء الله تعالى، فهو بعد الفترة التي حددها سيد قطب لموضوعات سورة الأحزاب، والتي وصفها رحمه الله بقوله: «ولهذه الفترة التي تتناولها السورة من حياة الجماعة المسلمة سمة خاصة، فهي الفترة التي بدأ فيها بروزُ ملامح الشخصية المسلمة في حياة الجماعة، وفي حياة الدولة، ولم يتمَّ استقرارها بعد، ولا سيطرتها الكاملة، كالذي تم بعد فتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، واستتباب الأمر للدولة الإسلامية والنظام الإسلامي»[٢].

لكنَّ حادثة التخيير لم تقع في الفترة التي بدأ فيها بروز ملامح الشخصية المسلمة، بل حدثت بعد فتح مكة في الفترة التي استتبَّ الأمر فيها للدولة الإسلامية والنظام الجديد، والدليل على ذلك ما يأتي.

● **زمن التخيير:**

عندما نزلت آيتا التخيير، كانت أمهات المؤمنين اللواتي أكرمهن الله بزواج النبي ﷺ منهن عنده ﷺ، يعشن معه كلهنّ، عدا السيدة خديجة رضي الله عنها، التي

(١) في ظلال القرآن.

(٢) المرجع السابق.

توفيت قبل الهجرة. روى ابن كثير عن عكرمة أنه قال: «وكان تحته يومئذٍ تسعُ نسوة، خمسٌ من قريش: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، و سودة، وأم سلمة ـ رضي الله عنهن ـ وكان تحته صفية بنت حيي النضرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقية، رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين»(١).

ومن المعلوم أنَّ السيدة ميمونة رضي الله عنها، هي آخر من تزوج رسول الله ﷺ، وقد تزوجها عليه الصلاة والسلام في العام السابع من الهجرة، أثناء عمرة القضاء، وقد اختلفَ العلماءُ في حكم زواج المحْرِم تبعاً لاختلاف الرواية عنه ﷺ عندما تزوج بالسيدة ميمونة، هل كان ﷺ حلالاً أم كان مُحْرِماً، وصحَّت الرواية عن ابن عباس ابن أخت السيدة ميمونة، أنه ﷺ تزوجها وهو مُحْرِمٌ، وبنى بها بِسَرِفٍ، وهو موضع يبعد عن مكة ستة أميال، في طريق عودته إلى المدينة، بعد إكمال مناسك العمرة(٢)، وهذا يدلُّ على أنَّ آيتي التخيير نزلتا بعد العام السابع من الهجرة.

ومما يؤكد أن التخيير كان بعد فتح مكة، حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي رواه عنه ابن عباس رضي الله عنهما، وإلى القارئ الكريم الحديث بأكمله، لأنه يتصل اتصالاً وثيقاً بموضوع التخيير، ومعاملة النبي ﷺ لأزواجه رضي الله عنهن:

روى البخاري [٢٤٦٨]: عن **ابن عباس** قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمرَ عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: ٤] حتى حجَّ عمر، وحججتُ معه، فلما كان ببعض الطريق، عدل عمرُ وعدلتُ معه بالإداوةِ، فتبرزَ ثم أتاني، فسكبتُ على يديه فتوضأ، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، منِ المرأتان من أزواجِ النبي ﷺ، اللتانِ قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: ٤]؟ فقال عمر: واعجباً

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) انظر كتاب: عبد الله بن عباس، للمؤلف. **قلت**: وقد توفيت رضي الله عنها بسرف أيضاً ودفنت هناك، وما زال قبرها على يمين القادم إلى مكة المكرمة.

لك يا ابنَ عباس ـ قال الزهري: كره والله ما سأله عنه، ولم يكتمه ـ قال: هما عائشةُ وحفصةُ.

قال: ثم أخذ يسوقُ الحديث، قال: كنا معشرَ قريشٍ قوماً نغلبُ النساءَ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفقَ نساؤنا يتعلمنَ من نسائهم. قال: وكان منزلي في دار أمية بن يزيدٍ بالعوالي، فغضبتُ يوماً على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرتُ أن تراجعني، فقالت: ما تنكرُ أن أراجعك، فوالله إنَّ أزواج رسولِ اللهِ ﷺ ليراجعْنَهُ، وتهجرهُ إحداهنَّ اليوم إلى الليل، قال: فانطلقتُ فدخلتُ على حفصة، فقلت: أتراجعينَ رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم. قلتُ: وتهجره إحداكنَّ اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم. قلتُ: قد خابَ منْ فعلَ ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكنَّ أن يغضبَ الله عليها لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكتْ، لا تراجعي رسول الله ﷺ، ولا تسأليه شيئاً، وسليني من مالي ما بدا لكِ، ولا يغرنَّكِ أنْ كانت جارتك هي أوسم (أجمل)، وأحبُّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ منك (يريد عائشة).

قال: وكان لي جارٌ من الأنصار، وكنا نتناوبُ النزولَ على رسولِ الله ﷺ، ينزلُ يوماً، وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك، قال: وكنا نتحدَّثُ أنَّ غسانَ تنعلُ الخيلَ لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً، ثم أتى عشاءً، فضرب بابي، ثم ناداني فخرجت إليه، فقال: حدثَ أمرٌ عظيمٌ، فقلتُ: وما ذاك، أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظمُ من ذلكَ وأطولُ، طلَّقَ رسول الله ﷺ نساءَه، فقلتُ: قد خابت حفصةُ وخسرتْ، قد كنتُ أظنُّ هذا كائناً.

حتى إذا صليتُ الصبحَ، شددتُ علي ثيابي، ثم نزلتُ، فدخلتُ على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكنَّ رسولُ اللهِ ﷺ؟ فقالت: لا أدري، هو ذا معتزلٌ في هذه المَشْربةِ، فأتيتُ غلاماً له أسود، فقلتُ: استأذنْ لعمر، فدخلَ الغلامُ ثم خرجَ إليَّ فقال: قد ذكرتكَ له فصمتَ.

فانطلقتُ حتى أتيتُ المنبرَ، فإذا عنده رهطٌ جلوسٌ يبكي بعضهم، فجلستُ عندَهُ قليلاً، ثم غلبني ما أجدُ، فأتيتُ الغلامَ فقلتُ: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إلي فقال: قد ذكرتُك له فصمت.

فخرجتُ فجلستُ إلى المنبر، ثم غلبني ما أجدُ، فأتيتُ الغلام فقلتُ: استأذن لعمرَ، فدخل، ثم خرجَ إلي فقال: ذكرتكَ له فصمت. .

فوليتُ مدبراً، فإذا الغلامُ يدعوني، فقال: ادخل قد أذن لك.

فدخلتُ فسلمتُ على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكئٌ على رمالِ حصير، وقد أثر في جنبه، فقلتُ: أطلقتَ يا رسول الله نساءَك؟ فرفع رأسه إليَّ، وقال: «**لا**» فقلتُ: اللهُ أكبرُ، ولو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشرَ قريشٍ قوماً نغلبُ النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفقَ نساؤنا يتعلمنَ من نسائهم، فغضبتُ على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرتُ أن تراجعني، فقالت: ما تنكرُ أن أراجعك؟ فوالله إنَّ أزواج النبي ﷺ ليراجعْنَهُ، وتهجرُه إحداهنَّ اليوم إلى الليل، فقلت: قد خابتْ منْ فعلتْ ذلك منكن وخسرتْ، أفتأمنُ إحداكنَّ أن يغضب الله عليها لغضب رسولهِ، فإذا هي قد هلكت؟ فتبسَّم رسولُ الله ﷺ.

فقلتُ: يا رسول الله قد دخلتُ على حفصة فقلت: لا يغرنَّكِ أنْ كانت جارتكِ هي أوسم أو أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك. فتبسَّمَ أخرى.

فقلت: أستأنسُ يا رسول الله؟ قال: «**نعم**» فجلستُ فرفعتُ رأسي في البيت، فوالله ما رأيتُ شيئاً في البيت يردُّ البصرَ إلا أهبٌ معلقةٌ، فقلتُ: ادعُ الله يا رسول الله أن يوسِّعَ على أمتكَ، فقد وسعَ على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالساً وقال: «**أفي شكٍّ أنتَ يا بنَ الخطَّابِ؟ أولئكَ قومٌ عُجِّلَتْ لهم طيِّباتُهم في الحياةِ الدنيا**» [رواه البخاري (٢٤٦٨)].

وقول عمر رضي الله عنه في الحديث: «**وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا**» يدل على أنَّ آيتي التخيير نزلتا قبل غزوة تبوك، أي: في العام التاسع من الهجرة. وقوله: «**أهب**» جمع إهاب وهو الجلد الذي لم يدبغ بعد.

- **سبب التخيير:**

تدل آيتا التخيير نفساهما على سبب نزولهما، إذ كان أزواج النبي ﷺ يشارِكْنَهُ عليه الصلاة والسلام شدة العيش، وشظف الحياة، التي كان عليه

الصلاة والسلام يحياها، ولما أعزَّ الله نبيه عليه الصلاة والسلام، وأظهرَ دينَهُ بعد فتح مكة، وكثرت الغنائم، ووسع الله على المسلمين، طلبَ أزواجُ النبي ﷺ منه أن يوسِّعَ عليهن في العيش، ولكنه عليه الصلاة والسلام اختار لنفسه ولأزواجه معيشة الكفاف، وبقي محافظاً على معيشته الأولى، التي كان عليها منذُ بدأ يدعو إلى الله سبحانه.

وليس اختيارهُ عليه الصلاة والسلام لهذه المعيشة عَجْزاً عن حياة المتاع، فقد عاش عليه الصلاة والسلام حتى دانت أرضُ العرب وأطرافها بالإسلام، وكثرت الغنائم والهدايا والهبات، إنما اختار هذه المعيشة استعلاء على متاع الدنيا، ورغبة خالصة فيما عند الله، ليكون ذلك علماً من أعلام نبوته، ومؤيداً من مؤيدات صدقه وإخلاصه، فلم تكن دعوته إلا دعوة ربانية خالصة لله سبحانه، مبرأة عن أي حظ من حظوظ الدنيا، ولو كان للنبي ﷺ في دعوته أدنى مطلب دنيوي، لوسَّع في معيشته، واستجاب لطلب أزواجه، ولكنها النبوة في سموِّها ورفعتها وصفائها.

ولقد كان الأنبياء عليهم السلام عندما يدعون الناس إلى الله سبحانه، يعلنون للناس في أول الدعوة بصراحة ووضوح، أنهم لا يريدون من هذه الدعوة أجراً ماديّاً ولا كسباً دنيويّاً، إنما يدعون إلى الله ومن الله ولله سبحانه:

ولقد قال **نوح** عليه السلام لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [هود: ٢٩].

وقال **هود** عليه السلام لقومه: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧].

وقال **صالح** عليه السلام أيضاً لقومه: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٥].

ولوط عليه السلام قال الكلمة نفسها: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٤].

ونبي الله **شعيب** عليه السلام، قال أيضاً مثل ما قال الأنبياء من قبله: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٠].

ونبينا وسيدنا **محمد** ﷺ، أمره الله سبحانه أن يقول مثل ما قال الأنبياء قبله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [الفرقان].

وما أكثر ما أدَّب الله سبحانه النبي عليه الصلاة والسلام بمثل قوله الكريم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر].

وقوله سبحانه أيضاً: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه].

أفبعد هذا الأدب الرباني الكريم، يمدُّ النبي ﷺ عينيه إلى شيء من متاع الدنيا؟! اللهم لا.

والجديرُ بالذكر أن الآيات الكريمة التي سبق ذكرها، توجِّهُ النبي ﷺ توجيهاً كريماً إلى البعد عن فضول العيش وزينة الدنيا، ولا تلزمه بذلك إلزاماً، فليس ثمة مانع شرعي يمنع النبي عليه الصلاة والسلام من التوسُّع في المعيشة، ضمن حدود ما أحل الله سبحانه، وهو القائل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

ولا بد لنا ـ حتى يظهر لنا سبب مطالبة أمهات المؤمنين النبي ﷺ بأن يوسع عليهن في المعيشة ـ أن نعرض صوراً من صور المعيشة التي كنَّ عليها معه ﷺ:

ـ أمَّا بيوتهن رضي الله عنهن:

فقد كنَّ يسكنَّ مع رسول الله ﷺ في حجرات صغيرة، بُنيت من جريد النخل، مستورة أبوابها بمسوح الشعر، مصفوفة تسع حجرات شرقي المسجد وشماليه وقبليه، وأبواب الحجرات التسعة شارعة إلى المسجد، قال الحسن البصري رحمه الله: كنتُ أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان، فأتناول سقفها بيدي[(١)].

---

(١) انظر كتاب: عائشة، للمؤلف، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

وحينما أمر الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي بهدم الحجرات وضمها إلى المسجد قال سعيد بن المسيب رحمه الله: ليتها تُرِكَتْ فلم تُهْدَمْ، حتى يقتصر الناس عن البناء، ويروا ما رضي الله لنبيه ﷺ، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده[١].

ـ وأمَّا أثاث الحجرات:

فقد وصفت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها فراش النبي ﷺ قالت: إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينام عليه أدماً حشوه ليف. [رواه مسلم (٢٠٨٢)].

ولما أهدت لها امرأة أنصارية، بعد أن رأت فراش رسول الله ﷺ، فراشاً حشوه صوف، قال لها رسول الله ﷺ: «**ما هذا يا عائشة؟**» قالت: يا رسول الله، فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك، فذهبت فأرسلت إليَّ بهذا. فقال: «**ردِّيه يا عائشةُ، فو اللهِ لو شئتُ لأجرى الله معي جبالَ الذهب والفضة**» [رواه البيهقي].

ولم يكن في حجرة السيدة مصباحٌ تستضيءُ به، دلَّ على ذلك قولها: كنتُ أنامُ بين يدي رسول الله ﷺ، ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني فقبضت رجليَّ، فإذا قام بسطتُهما، قالت: والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيحُ. [رواه البخاري (٥١٣)].

وسبب عدم وجود المصابيح، عدمُ وجود زيتٍ أو دهنٍ للمصباح، وقد أجابت السيدة عائشة رضي الله عنها من سألها عن ذلك قائلة: لو كان عندنا دهنُ مصباحٍ لأكلناه. [رواه أحمد (٦/ ٩٤) والطبراني][٢].

ـ وأمَّا معيشتهن رضي الله عنهن:

فقد وصفتها السيدة **عائشة** رضي الله عنها لابن أختها عروة فقالت: ابن أختي، إنْ كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما يوقدُ في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ. فقال عروة: يا خالة ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيرانٌ من الأنصار، وكانت لهم منائحُ، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا. [رواه البخاري (٦٤٥٩) ومسلم (٢٩٧٢)].

---

(١) انظر كتاب: السيدة عائشة، للمؤلف.

(٢) انظر: المرجع السابق، إذا أردت التوسع في هذا الموضوع.

ولما سُئلتْ رضي الله عنها: أنهى النبيُّ ﷺ أنْ تؤكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث؟ قالت: ما فعله إلا في عام جاعَ الناسُ فيه، فأراد أن يُطعم الغني الفقير، وإن كنا لنرفعُ الكراعَ فنأكله بعد خمسَ عشرة. قيل: ما اضطركم إليه؟ فضحكت وقالت: ما شبعَ آلُ محمدٍ ﷺ منْ خبزِ بُرٍّ مأدوم ثلاثة أيامٍ حتى لحق باللهِ. [رواه البخاري (٦٦٨٧)].

ولما توفي رسول الله ﷺ قالت رضي الله عنها: توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رفٍّ لي، فأكلتُ منه حتى طال عليَّ، فَكِلْتُه ففني. [رواه البخاري (٣٠٩٧)].

ووصفَ خادم النبي عليه الصلاة والسلام **أنس بن مالك** رضي الله عنه، معيشته عليه الصلاة والسلام فقال: مشيتُ إلى النبي ﷺ بخبزِ شعير وإهالة سنخة (دهن مذابٍ متغير) ولقد رُهن له درعٌ عند يهودي بعشرين صاعاً من طعام أَخَذَهُ لأهله، ولقد سمعتُهُ ذاتَ يوم يقول: «**ما أمسى عند آل محمد صاعٌ منْ تمرٍ ولا صاع حَبٍّ**» وإن عنده يومئذٍ لتسع نسوة. [رواه البخاري (٢٠٦٩)].

• **الاختيار:**

حملت شدة العيش هذه أمهات المؤمنين على أنْ يسألن رسول الله ﷺ أن يوسع عليهن في النفقة، فغضب عليه الصلاة والسلام منهن، واعتزلهن في مشربةٍ له (غرفة عالية) وأقسمَ عليه الصلاة والسلام ألا يدخل عليهن شهراً، وفي أثناء ذلك أنزل الله عليه آيتي التخيير، فمكث عليه الصلاة والسلام تسعة وعشرين يوماً، فدخل على السيدة عائشة، فقالت: أليس قد كنتَ آليتَ شهراً، فعددتُ الأيامَ تسعاً وعشرين، فقال رسول الله ﷺ: «**الشهر تسع وعشرون**» أي: هذا الشهر. [رواه مسلم (١٤٧٨)].

قال ابن كثير في تفسير آيتي التخيير: «هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ، بأن يخيِّر نساءه، بأن يفارقْنَهُ فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده، من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى

في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة»[١].

وروى البخاري [٤٧٨٥]: عن **عائشة** رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخيِّر أزواجه، قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: «**إني ذاكرٌ لكِ أمراً، فلا عليكِ أَنْ لا تستعجلي حتَّى تستأمري أبويكِ**» وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «**إنَّ الله تعالى قال**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ...﴾ إلى تمام الآيتين. فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبويَّ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

وفي رواية: زادتْ عائشة فقالت: وأسألك ألا تذكر لامرأةٍ منْ نسائكَ ما اخترتُ. فقال ﷺ: «**إنَّ الله لم يبعثني معنِّفاً، ولكنْ بعثني معلِّماً ميسِّراً، لا تسألني امرأةٌ منهنَّ عمَّا اخترتِ إلا أخبرتُها**» [رواه مسلم (١٤٧٨) وأحمد (٦/ ٤٥، ٤٧)].

ومعنى قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾

أي: أعطيكن متعة الطلاق، وأطلقكن طلاقاً لا ضرر فيه.

وبعد اختيارهن ـ رضي الله تعالى عنهن ـ الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة، كرمهن الله تبارك وتعالى، وكافأهن على اختيارهن أحسن تكريم وأعظم مكافأة، إذ وصلن بهذا الاختيار إلى مرتبة الإحسان، لقوله تعالى:

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٢٩﴾

وفي ذلك دلالة على أنَّ اختيارهن رسول الله ﷺ، سبب مرضاة الله تعالى والوصول إلى مرتبة الإحسان.

---

(١) تفسير ابن كثير.

وسوف أتحدث فيما يلي عن ألوان التكريم الإلٰهي، لهؤلاء السيدات الفضليات.

- **تكريم وتأديب:**

كرم الله سبحانه أزواج النبي ﷺ ـ بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة ـ بتوجيه الخطاب لهن مباشرة في القرآن الكريم، فبعد آية التخيير خاطبهن الله تبارك وتعالى مرتين بقوله الكريم: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ...﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣٢]، بينما كان الخطاب في آيتي التخيير للنبي ﷺ، فقبل الاختيار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ...﴾ وبعد الاختيار: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ...﴾.

أرأيت عظيم فضل الله عليهن، كيف أكرمهن وشرفهن، لأنهن اخترن البقاء مع رسول الله ﷺ؟! فما أكرم رسول الله ﷺ على الله تعالى! وما أعظم مكانته عند الله سبحانه!.

ـ **الخطاب الأول:**

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

لأزواج النبي ﷺ منصبٌ كبير وخطير، إذ هنَّ أمهات المؤمنين، وزوجات خير المرسلين، ويترتبُ على ذلك أنهن رضي الله عنهن يتحملن مسؤوليات جساماً وتبعاتٍ عظاماً، ولهذا تضمَّن النداء الأول من الله تعالى لهن هذا التهديد الخطير، بمضاعفة العذاب ضعفين لمن تأتي منهن بفاحشة مبينة.

والمرادُ من **الفاحشة المبينة**: النشوز وسوء الخلق، وقال بعضهم: هي الزنى، وحاشاهن رضي الله عنهن عن ذلك، إنما جاء التهديدُ في هذا الخطاب بياناً لخطورة ورفعة المكانة التي أكرمهن الله بها، عندما أصبحن زوجات رسول الله ﷺ وأمهات المؤمنين.

ومهما قيل عن الفاحشة المبينة، فهي شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع، مثل قوله تعالى للنبي ﷺ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وحاشاه ﷺ عن ذلك.

ومن المقرر عند العلماء أن الله ﷻ صان زوجات الأنبياء عن الفاحشة، التي هي الزنى، وقالوا في قوله تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]: ليس المراد بقوله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في فاحشة، بل في الدين، فإنَّ نساء الأنبياء معصوماتٌ عن الوقوع في الفاحشة، لحرمة الأنبياء.

قال ابن عباس: ما بغت امرأة نبيٍّ قط، إنما كانت خيانتهما في الدين. وفي رواية أخرى: قال: خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما[١].

ومضاعفة العذاب إذا أتت بفاحشة مبينة، بسبب ما في الفاحشة المبينة من المفاسد، وبسبب إيذاء النبي ﷺ، والإزراء بمنصبه الرفيع، ففي التهديد بمضاعفة العذاب دليلٌ على شرفهنَّ رضي الله عنهن ورفعة مكانتهن، ولهذا كان عقابُ الحرة إذا زنت ضعف عقاب الأمة، إظهاراً لشرف الحرة وكرامتها.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ جاء في مقابلة قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ فالغُنْمُ بالغرم، ومضاعفة الأجر والثواب منوطٌ بطاعة الله سبحانه ورسوله عليه الصلاة والسلام والعمل الصالح، وليس منوطاً بمنزلتهنَّ العالية، فالتكليف في الإسلام لا يسقط عن أحد أبداً، مهما كانت منزلته رفيعة، وقد سبق وذكرتُ أن التكليفَ تشريفٌ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام مكلفاً بالعبادة والطاعة أكثر من سائر المؤمنين، حتى قالوا: إنَّ قيام الليل فرضٌ في حقه عليه الصلاة والسلام، بينما هو سُنَّة في حق غيره، لأنه ﷺ أشرف الخلق وأفضلهم.

إنَّ أمهات المؤمنين إذا أطعن الله ورسوله ﷺ، وعملن العمل الصالح الذي

---

(١) تفسير ابن كثير.

كلفهن الله به، أكرمهن الله تعالى بمضاعفة الثواب، والرزق الكريم في الجنة، فإنهن رضي الله عنهن في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين، وفوق منازل الخلق أجمعين، في الوسيلة التي هي أقربُ المنازل إلى العرش العظيم، رضي الله عنهن وأرضاهن.

ـ **الخطاب الثاني:**

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾﴾.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ بدأ الخطاب الثاني ببيان مكانة أمهات المؤمنين وفضلهن على سائر النساء، لكونهن زوجات النبي ﷺ، فعليهن رضي الله عنهن أنْ يوفينَ هذه المكانة حقها، ويقمنَ بما تفرضه عليهن هذه المكانة الرفيعة التي ليست لأحد غيرهن من سائر نساء العالمين، وفضيلة هذه المكانة لا تتمُّ إلا بالتقوى، ولهذا شرط سبحانه عليهن شرط التقوى، فهن في أعلى المراتب إن اتقين الله سبحانه، وبهذا يظهر فضلهن لا بمجرد اتصالهن برسول الله ﷺ، فالمسألة إذاً ليست مجرد قرابة من النبي ﷺ، بل لا بد من القيام بحق هذه القرابة في ذات أنفسهن وفي سلوكهن.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: شرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى، لا بنفس اتصالهن برسول الله ﷺ.

وقال سيد قطب رحمه الله: «ذلك هو الحق الصارم، الذي يقوم عليه هذا الدين، والذي يقرره رسول الله ﷺ وهو ينادي أهله، ألَّا يغرهم مكانهم من قرابته، فإنه لا يملك لهم من الله شيئاً»[١].

والحديث الشريف الذي أشار إليه سيد قطب، رواه الإمام مسلم [٢٠٥]: عن **عائشة** رضي الله عنها قالت: لما نزلت ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] قام

(١) في ظلال القرآن.

رسول الله ﷺ فقال: «**يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم**».

● **صوت المرأة:**

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ ومن التقوى ألا يخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، أي: ألا يكون في نبرات كلامهن ذلك الخضوع اللين، الذي يثير شهوات الرجال، ويحرِّك غرائزهم، فيطمع فيهن مرضى القلوب.

ويدل هذا التحذير على ما في صوت المرأة، حين تليِّنُ كلامها، وترقِّقُ صوتها، وتميِّعُ لهجتها، من إثارة للشهوات، وتهييج للغرائز والنزوات.

وهذا ما جعل كثيراً من الفقهاء يرون أنَّ صوت المرأة ـ إذا كان فيه خضوع في القول وتكسُّر وتغنُّج ـ فهو عورة، يحرم على المرأة أن تُسمِعَه الرجالَ الأجانبَ عنها.

نقل الفقيه الحنفي ابن عابدين عن أبي العباس القرطبي قوله: ولا يظن من لا فطنة عنده أنَّا إذا قلنا: صوت المرأة عورة، أنا نريد بذلك كلامها، لأن ذلك ليس بصحيح، فإنا نجيزُ الكلام مع النساء للأجانب، ومحاورتهن عند الحاجة إلى ذلك، ولا نجيز لهن رفع أصواتهن ولا تمطيطها، ولا تليينها ولا تقطيعها، لما في ذلك من استمالة الرجال إليهن، وتحريك الشهوات منهم، ومن ثَمَّ لم يجز أن تؤذنَ المرأة(١).

وكذلك لا تلبِّي جهراً، ولا تقرأ في الصلاة جهراً، ولهذا منع عليه الصلاة والسلام النساء من التسبيح بالصوت لإعلام الإمام بسهوه إلى التصفيق(٢).

ففي «**صحيح مسلم**» [٤٢٢]: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**التسبيحُ للرجالِ، والتصفيقُ للنساءِ**» وزاد في رواية: «**في الصلاةِ**».

وبيَّن الإمامُ النوويُّ في شرحه «**صحيح مسلم**» كيفية التصفيق فقال: تضربُ

---

(١) رد المختار: ١/ ٢٧٢.

(٢) المرجع السابق نفسه.

المرأة بطن كفها الأيمن على ظهر كفها الأيسر، ولا تضربُ بطنَ كفٍّ على كفٍّ على وجه اللعب واللهو، فإنْ فعلت هكذا على وجه اللعب بطلت صلاتها، لمنافاته الصلاة.

وقوله سبحانه: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ يدلُ على أن المرأة المسلمة، إذا اتقت الله سبحانه، تتميز على سائر النساء بتقواها وخشيتها وطاعتها لربها سبحانه، والخطاب وإن كان لنساء النبي ﷺ، فالنساء المسلمات تبع لهن في ذلك، وكل ما في الخطاب من آدابٍ وأخلاقٍ يهدف إلى إبعاد المرأة المسلمة عن منطقة الخطر، وتجنيبها الطرق التي تؤدي بها إلى الوقوع في المعاصي والآثام.

وإنما جاء الخطابُ لنساء النبي ﷺ، لأنهن في مركز القدوة الطيبة والأسوة الحسنة، لما لهن من مكانة في بيت النبوة، فهن أمهات المؤمنين، وعندهن الكثير من الأحكام الشرعية والسنة النبوية التي لا يعلمها غيرهن، وهن معرَّضات للحديث مع الرجال الذين يأتون إلى بيوتهن، يسألونهن عن الوحي والسُّنَّة، ولهذا أمرهن تعالى أن يكون كلامهن مع الناس جادّاً حازماً، لا لغو فيه ولا هزل ولا مزاح، حتى لا يطمع فيهن من في قلبه فسقٌ وفجورٌ، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ وكما لا يكون في القول المعروف هزل ولا لغو ولا مزاحٌ، كذلك لا يكون فيه منكر ولا إيذاء.

إنَّ من واجب المرأة المسلمة في هذا العصر أن تتفهَّم أبعاد خطاب الله سبحانه لنساء النبي ﷺ، وأن تعلم أن الله تعالى الذي خلق الرجال والنساء، يعلم ما في صوت المرأة حين تخضعُ بالقول من إثارة لرغبة الرجال فيها، ويعلم سبحانه أيضاً أنَّ القلوب المريضة التي تثور وتطمع موجودة في كل عهد، وفي كل بيئة، وتجاه كل امرأة، ولو كانت أم المؤمنين وزوجة سيد المرسلين، وأنه لا طهارة من الذنب، ولا تخلُّص من الرجس، حتى تمتنع الأسبابُ المثيرة من الأساس.

ولقد جاء الخطاب ـ كما قال سيد قطب رحمه الله ـ في خير العصور، وفي أطهر

مجتمع عرفه تاريخ البشرية، فكيف بمجتمعنا الحاضر الذي نعيش فيه؟! المجتمع الذي تهيجُ فيه الفتن، وتثور فيه الشهوات، وترفُّ فيه الأطماع.

كيف بنا في هذا الجو الذي كل شيء فيه يثير الفتنة، ويهيِّج الشهوة، وينبه الغريزة، ويوقظ السعار الجنسي المحموم؟! النساء فيه يتخنثنَ في نبراتهن، ويتميعن في أصواتهن، ويجمعن كل فتنة الأنثى، وكل هتاف الجنس، وكل سعار الشهوة، ثم يطلقنه في نبرات ونغمات.

إنَّ على المرأة المسلمة أن تضع دائماً في قلبها ووجدانها خطاب الله سبحانه لنساء النبي ﷺ، عندما تتكلم مع الغرباء، سواء كانت في بيتها أو بواسطة الهاتف، أو في السوق، أو في مكان العمل، لتكون حقّاً مقتدية بأمهات المؤمنين، وتكون فعلاً ليست كأحد من النساء في مجتمعها وعصرها.

● **المرأة والعمل:**

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أمرهن الله ﷻ أن يقمن في بيوتهن فلا يخرجن منها إلا للضرورة، فالبيت مملكة المرأة، ولهذا أضاف سبحانه البيوتَ إليهن، للإشارة إلى هذه الحقيقة فقال: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾.

والمرأة لا تشعر بحقيقتها، غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة إلا في بيتها وفي مملكتها، وحتى تتفرَّغ المرأة لبيتها ورعاية زوجها وأولادها أوجب الله سبحانه النفقة على الزوج، ولم يكلف المرأة بها، حتى يُتاح لها من الجهد والوقت وهدوء البال ما تشرف به على تربية الأولاد، وتعطي بيت الزوجية عطره وبشاشته ونظافته، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

ورحم الله سيد قطب عندما قال: «الأمُّ المكدودة بالعمل للكسب، المرهقة بمقتضيات العمل، المقيدة بمواعيده، المستغرقة الطاقة فيه، لا يمكن أن تهب للبيت جوَّه وعطره، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها، وبيوت الموظفات والعاملات ما تزيد على جوِّ الفنادق والخانات، وما يشيع فيها من الأرج الذي يشيع في البيت، فحقيقة البيت لا توجد إلا أن توجد فيه امرأة، وأرج البيت لا يفوح إلا أن تطلقَهُ زوجة، وحنان البيت لا يشيع إلا أن تتولاه أم، والمرأة أو الزوجة أو الأم التي تقضي وقتها وجهدها وطاقتها الروحية في العمل، لن تطلق في جو البيت إلا الإرهاق والكلال و الملال.

وإن خروج المرأة للعمل خارج البيت كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة، أما أن يتطوع بها الناس، وهم قادرون على اجتنابها، فتلك هي اللعنة التي تصيبُ الأرواح والضمائر والعقول، في عصور الانتكاس والشرور والضلال»(١).

إن قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ يدل على أن البيت هو الأصل في حياة المرأة، فهو مقرها الذي أمرت أن تقرَّ فيه، وخروج المرأة من البيت استثناء طارئ للحاجة والضرورة، قالت **عائشة** ﵂: خرجت سودة بنت زمعة ليلاً، فرآها عمر فعرفها، فقال: إنك يا سودة ما تخفين علينا. فرجعت إلى النبي ﷺ فذكرت ذلك له، وهو في حجرتي يتعشَّى، وإن في يده لعرقاً (قطعة عظم عليها شيء من اللحم) فأُنزل عليه، فرفع عنه، وهو يقول: «**قد أُذِنَ لكنَّ أن تخرجنَ لحوائجكنَّ**» [رواه البخاري (٥٢٣٧) ومسلم (٢١٧٠) واللفظ للبخاري].

- **تبرُّج النساء:**

وهذا يدل على أن الله سبحانه أباح للنساء أن يخرجن من بيوتهن لقضاء

---

(١) في ظلال القرآن.

حوائجهن، إلا أنه سبحانه شرط عليهن أن يخرجن متسترات متعففات غير متبرجات تبرج أهل الجاهلية الأولى، فقال سبحانه:

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

والتبرجُ: التكشُّفُ والظهورُ للعيون، ومنه بروجٌ مشيدة، أي: ظاهرة مرتفعة، وبروجُ السماء، لظهورها وارتفاعها، ومنه قولهم: سفينة بارجة، أي: ظاهرة لا غطاء عليها.

فلا يجوز للمرأة أن تظهرَ زينتها، حتى لا يراها الرجال الأجانب عنها، وقد أمرها الله سبحانه بإخفائها، إلا عن زوجها أو الرجال الأقارب منها، الذين يحرمُ عليهم الزواج منها، قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

فإن أظهرت المرأة شيئاً من زينتها أمام غير هؤلاء الذين ذُكروا في الآية السابقة، كانت متبرجة ومخالفة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

والجاهلية الأولى: هي الجاهلية التي كان عليها الناس قبل الإسلام، ووصف هذه الجاهلية بصفة الأولى فيه إشارة إلى جاهلية أخرى ستحدثُ بعد الإسلام، قال الشوكاني في «**تفسيره**»: «يمكن أن يراد بالجاهلية الأخرى ما يقع في الإسلام من التشبه بأهل الجاهلية بقول أو فعل، فيكون المعنى: ولا تبرجن أيتها المسلمات بعد إسلامكن تبرجاً مثل تبرج أهل الجاهلية التي كنتن عليها، وكان عليها مَنْ قبلكن، أي: لا تحدثن بأقوالكن وأفعالكن جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل»(١).

---

(١) فتح القدير.

وقد ذكر المفسرون صوراً لتبرج النساء في الجاهلية الأولى، تبدو محتشمة وساذجة حين تقاس بتبرج النساء في عصرنا هذا، في جاهليتنا الحاضرة.

قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين الرجال، فذلك تبرج الجاهلية.

وقال قتادة: كان لهن مشية تكسرٍ وتغنجٍ، فنهى الله تعالى عن ذلك.

وقال مقاتل بن حيان: التبرج أنها تلقي الخمار على رأسها، ولا تشده ليواري قلائدها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج.

وقال ابن كثير: كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة أذنها، فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن.

هذه صور من صور التبرج في الجاهلية الأولى، التي حرمها الله ونهى عنها، فأين منها صور التبرج في عصرنا الحاضر، صور النساء الكاسيات العاريات، المائلات المُميلات، الكاشفات عن كل مواضع الفتنة في أجسادهن؟!.

ولقد تحدث النبي ﷺ عن صور التبرج هذه التي ستحدث بعده، ووصفها ﷺ كأنه رآها رأي عين، ممَّا جعل هذا الحديثَ من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام، فقال ﷺ: «**صنفانِ مِنْ أهلِ النَّارِ لَمْ أرَهُما: قومٌ معهم سياطٌ كأذنابِ البقرِ، يضربونَ بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهنَّ كأسنمةِ البُخْتِ** (الإبل) **المائلة لا يدخلنَ الجنَّةَ، ولا يجدنَ ريحَها، وإن ريحَها ليوجدُ مِنْ مسيرةِ كذا وكذا**» [رواه مسلم (٢١٢٨)].

ومهما تكلمنا ـ نحن أبناء هذا العصر ـ في وصف تبرج نساء عصرنا، فلن نبلغ مبلغ وصف رسول الله ﷺ، الذي آتاه الله جوامع الكلم، وأعلمه الله تبارك وتعالى عما يحدث بعده من أحداث وفتن حتى قيام الساعة.

إنَّ منْ أوجب واجبات المرأة المسلمة عندما تخرج من بيتها لحوائجها، أن تتميز عن سائر النساء بمظهرها وعفتها، بملابسها السابغة الساترة لها عن أعين الفسَّاق والفجَّار، وما أكثرهم في هذا العصر، كما سيأتي عند قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

- **صلاة المرأة في المسجد:**

الصلاة في المسجد من الحوائج الشرعية، يجوز للمرأة الخروج من بيتها لأجلها، بشرط أن تخرج غير متطيبة ولا متزينة، قال عليه الصلاة والسلام: «**لا تمنعوا إماءَ اللهِ مساجدَ الله، وليخرجنَ وهُنَّ تَفِلاتٍ**» [رواه مسلم (٤٤٢)] أي: غير متطيبات، لأن للرائحة الطيبة من المرأة تأثيراً كبيراً على الرجال.

روي: أنَّ امرأة خرجت على عهد عمر رضي الله عنه متطيبة، فوجد ريحها، فعلاها بالدُّرةِ ثم قال: تخرجنَ متطيبات فيجد الرجال ريحكن، وإنَّما قلوب الرجال عند أنوفهم، اخرجن تفلاتٍ. [رواه عبد الرزاق].

وعن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «**إذا شهدتْ إحداكنَّ المسجدَ فلا تمسَّ طيباً**» [رواه مسلم (٤٤٣)].

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**أيّما امرأةٍ أصابتْ بخوراً فلا تشهدْ معنا العشاءَ الآخرة**» [رواه مسلم (٤٤٤)].

والأفضل للمرأة الصلاة في بيتها، لقوله عليه الصلاة والسلام: «**إنَّ المرأةَ عورةٌ، فإذا خرجتْ استشرفَها الشيطانُ، وأقربُ ما تكونُ بِرَوْحَةِ ربها** (رحمة ربها) **وهي في قَعْرِ بيتها**» [رواه الطبراني في الأوسط].

ولما شاهدت عائشة رضي الله عنها ما استحدث النساء بعد رسول الله ﷺ من الزينة والطيب وحسن الثياب، قالت: لو أنَّ رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء، لمنعهن المساجد كما مُنعت نساء بني إسرائيل. [رواه مسلم (٤٤٥)].

تُرى لو أدركت رضي الله عنها عصرنا الحاضر، ورأت ما قدمت الحضارة الحديثة للنساء من أنواع الزينة والطيب وأشكال الثياب، ورأت تبرج النساء، ماذا كانت قائلة؟!.

ثم قال تعالى:

﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: بعد أن نهى الله سبحانه

أمهات المؤمنين رضي الله عنهن عن الشر وأسبابه، أمرهن جل وعلا بالخير وأسبابه، أمرهن بإقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده، وإيتاء الزكاة، وفيها إحسان إلى المخلوقين، ثم أمرهن بطاعة الله ورسوله ﷺ طاعة كاملة مطلقة، ليبين لهن أن التكليف ليس محصوراً في الصلاة والزكاة فقط، بل عليهن طاعة الله ورسوله ﷺ في كل أمر من أمور الحياة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ من قبيل عطف العام على الخاص، لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة طاعة لله ورسوله ﷺ، وجاء ذكرهما أولاً على وجه الخصوص، لأهميتهما ومكانتهما الكبيرة في الإسلام، إذ هما أهم العبادات البدنية والمالية.

ولا شك أنَّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أعظم وسائل تربية النفس وتهذيبها وتزكيتها وتطهيرها، وقد جاءت هذه الأوامر الثلاثة في ختام الخطاب الثاني لنساء النبي ﷺ، ليربط الله سبحانه قلوب أمهات المؤمنين بذكره وعبادته، ويرفع أبصارهن إلى الأفق الوضيء الذي يستمدون منه النور والعون، حتى يستطعن القيام بأعباء المكانة الكبيرة التي بوَّأهن الله إياها، في بيت النبوة الكريم ومقام الأمومة العظيم، ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

- **أهل البيت:**

كل هذه التوجيهات الكريمة التي سبق ذكرها، من أجل طهارة ورفعة أهل البيت، ولا شك أنَّ البيت المراد من الآية الكريمة هو بيت رسول الله ﷺ، وجاء ذكره في الآية من دون وصف ولا إضافة، تكريماً وتشريفاً لرسول الله ﷺ، كأن بيته عليه الصلاة والسلام هو البيت الواحد في هذا العالم، المستحق لهذه الصفة.

وقد جاء ذكر أهل البيت أيضاً في **سورة هود**، في قوله تعالى وهو يتحدث عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ

أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

وهذا يدل على أنَّ المراد من أهل البيت، أهل بيتِ النبوة، الذي تمتد شجرته الكريمة عبر أعماق الزمان، من عهد والد الأنبياء إبراهيم عليه السلام، إلى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ.

ولقد شرَّفَ الله سبحانه أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، وأكرمهن بالانتماء إلى هذا البيت الكريم، عندما تشرفن بالزواج من النبي ﷺ، فالآية نزلت بسببهن، والخطابُ موجهٌ إليهن، وهذا نصٌّ في دخولهنَّ في أهل البيت، لأنهنَّ سبب نزول الآية، وسببُ النزول داخلٌ فيها قولاً واحداً، كما قال ابن كثير رحمه الله.

وليس المراد أنهن فقط دون غيرهن أهل البيت، فقد روى مسلم [٢٤٢٤]: عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبي ﷺ غداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ من شعرٍ أسودَ، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمةُ فأدخلها، ثم جاء عليٌّ فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

- **مهبط الوحي:**

وختم الله سبحانه الخطاب الثاني لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن بقوله الكريم:

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

أي: اعلمنَ بما ينزلُ الله على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسُّنَّة، واذكرن هذه النعمة التي خُصصتنَّ بها من بين الناس، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس.

وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أولاهن بهذه النعمة، فإنه لم ينزل على

رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك رسول الله صلوات الله وسلامه عليه[1].

والحديث الذي أشار إليه ابن كثير، روته السيدة عائشة فقالت: كان الناس يتحرَّون بهداياهم يوم عائشة، فاجتمع صواحبي إلى أمِّ سلمة فقلن: يا أمَّ سلمة واللهِ إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريدُ عائشة، فمُرِي رسول الله ﷺ أن يأمرَ الناسَ أن يهدوا إليه ما كان أو حيث ما دارَ، قالت: فذكرتْ ذلك أم سلمة للنبي ﷺ. قالت: فأعرضَ عني، فلما عاد إليَّ ذكرتُ ذلك، فأعرضَ عني، فلما كان في الثالثة ذكرتُ له فقال: «**يا أمَّ سلمةَ لا تُؤْذِيْني في عائشة، فإنَّه واللهِ ما نزلَ عليَّ الوحيُ وأنا في لحافِ امرأةٍ منكنَّ غيرَها**» [رواه البخاري (٣٧٧٥)].

ولهذا كانت بيوتهن رضي الله عنهن مهابط للوحي، لأن النبي ﷺ كان يدور عليهن، ويقسم لهن، وظلت هذه البيوت مهابط الوحي و منائر الهدى مدى حياته عليه الصلاة والسلام، فلما انتقل رسول الله ﷺ إلى جوار ربه، أصبحت هذه البيوت مثابة للناس، يقصدونها من سائر البلاد، متعلمين مستفتين، أو ملتجئين مستغيثين، فكانت تهدي الحائر، وتعلِّم الجاهل، وتحمي الملتجئ، وتنجد المستغيث.

وهذا من حكمة الله سبحانه ولطفه ورحمته بهذه الأمة، أنْ جعل بيوت أمهات المؤمنين رضي الله عنهن مدارس لنشر العلم والسُّنَّة، بقي فيها من أزواج صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام من تعيد سيرته، وتذكِّر الناس بسنَّته، على مدى خمسين عاماً بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، كأنَّ الوحي لم ينقطع، وكأنَّ الناس من أنواره في شمس لا يلمُّ بها أفولٌ.

وهذا من حكم وفوائد تعدد زوجات رسول الله ﷺ، فقد كان لهن رضي الله عنهن دورٌ كبير في حفظ السُّنَّة، وتعليمها للناس، ومن أراد التوسع في هذا

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير.

الموضوع فليقرأ كتابي عن «**السيدة عائشة** رضي الله عنها، **أم المؤمنين وعالمة نساء المسلمين**»[(١)].

• **المساواة بين الرجال والنساء في التكليف والجزاء:**

ويبدو أن إنزال هذه الآيات الكريمات في أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، جعل بعض نساء المؤمنين يتشوفن إلى أن ينزل الله تعالى فيهن أيضاً قرآناً يُتلى، فعن قتادة قال: دخل نساء على نساء النبي ﷺ فقلن: قد ذكركن الله في القرآن، ولم نذكر بشيء، أما فينا ما يذكر؟ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ. . .﴾[(٢)].

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ أي: إن المستسلمين لله تعالى والمستسلمات.

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ والمصدقين بوجوده تعالى ورسالاته والمصدقات.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ والطائعين والطائعات.

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ والمخلصين في عبادتهم والمخلصات.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ والصابرين على عبادته وطاعته والصابرات.

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ والمتواضعين لله تعالى والمتواضعات.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ والمؤدِّين حقوق الله في أموالهم والمؤدِّيات.

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ كما شرع سبحانه وفرض.

---

(١) المطبوع ضمن سلسلة (أعلام المسلمين) التي تصدرها دار القلم بدمشق.

(٢) تفسير الطبري: ٢٢/ ٨.

﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ أي: عن الفجور والفواحش.

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ فلا يغفلون عنه تعالى جَلَّ جَلَالُهُ.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: أعد لهم مغفرة لذنوبهم، وأجراً عظيماً في الجنة بفضله ورحمته.

هكذا أظهرت الآية المساواة التامة بين الرجال والنساء في التكليف والجزاء، وبينت أيضاً أنَّ الفضائل والآداب، التي أدب الله بها أزواج النبي ﷺ، والمكانة الرفيعة التي أكرمهن الله بها، يمكن لعموم المسلمات أن ينلن مثلها، إذا ما تأسَّين بأمهات المؤمنين، واقتدين بهن، فطريق الفضائل والمكارم مفتوحٌ للجميع في الشريعة الإسلامية.

• **زيد وزينب:**

عادت الآيات إلى أزواج النبي ﷺ، لتتحدث عن زواجه عليه الصلاة والسلام من أمِّ المؤمنين السيدة زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فبينت كيف شرَّفَ الله النبي ﷺ، وسخَّر حياته الخاصة لرفع صرح المجتمع الإسلامي الجديد، وهدم العادات والأعراف الجاهلية السائدة في المجتمع العربي.

وقد سبق أن مهدت الآيات في صدر السورة لهذا الموضوع، عندما حرمت أن ينتسب الإنسان إلى غير أبيه.

خطب رسول الله ﷺ السيدة زينب بنت جحش الأسدية ـ بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب ـ لمولاه زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فاستنكفت عنه وقالت: أنا خيرٌ منه حَسَباً، فأنزل الله قوله الكريم:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اختيار، على ما أمر الله به ورسوله ﷺ، فالنبي ﷺ

أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وما يختاره لهم مقدمٌ على ما يختارونه لأنفسهم، فليس لأيِّ مؤمن أو مؤمنة اختيارٌ فيما أمر الله به، وفيما أمر به رسوله عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أي: فقد أخطأ خطأً واضحاً، فمخالفة أمر الله تعالى أو أمر رسوله ﷺ، معصية وضلال.

ولما نزلتْ هذه الآية رضيتْ زينبُ بزيدٍ، فتزوجته، وعاشت معه قرابة سنة أو أكثر، إلا أنها كانت تدلُّ عليه بحسبها، وكان زيدٌ يشكوها إلى النبي ﷺ فيقول ﷺ له: «**أَمْسِكْ عليكَ زَوْجَكَ واتَّقِ اللهَ**» ويخفي عليه الصلاة والسلام في نفسه ما أخبره تعالى به، أنها ستكون زوجة له:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: واذكر إذ تقول لزيد، الذي أنعمَ الله عليه بالهداية للإسلام، وأنعمت عليه بحسن التربية والإعتاق: أمسك عليك زوجك، واتق الله في أمرها، ولا تطلقها.

﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ أي: وتخفي في نفسك أنها ستكون زوجتك، والله منجزٌ هذا الأمر ومظهره.

فإن قيل: كيف يأمرهُ بالتمسك بها، وقد علم أنَّ الفراقَ لا بدَّ منه؟ وهذا تناقض.

قلنا: بل هو صحيح للمقاصدِ الصحيحة، لإقامة الحجةِ، ومعرفة العاقبة،

ألا ترى أن الله تعالى يأمرُ العبدَ بالإيمان، وقد علمَ أنه لا يؤمنُ، فليس في مخالفة متعلق الأمرِ لمتعلق العلمِ ما يمنع من الأمر به عقلاً وحكماً[١].

فالذي أخفاه في نفسه رسول الله ﷺ هو ما أعلمه الله تعالى أنَّها ستكون زوجة له، قال ابن حجر رحمه الله: «أخرج ابنُ أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي، فساقها سياقاً واضحاً حسناً، ولفظه: بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوِّجها زيدَ بن حارثة مولاه، فكرهتْ ذلك، ثم إنها رضيتْ بما صنع رسول الله ﷺ، ثم أعلم الله ﷻ نبيه ﷺ بعدُ أنها من أزواجه، فكان يستحيي أن يأمره بطلاقها.

وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه، وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا: تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنَّى زيداً.

وعنده من طريق علي بن زيد، عن علي بن الحسين بن علي قال: أعلم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه، قبل أن يتزوجها.

وعقَّب ابن حجر على هذا فقال: ووردتْ آثارٌ أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري، ونقلها كثيرٌ من المفسرين، لا ينبغي التشاغلُ بها، والذي أوردته منها هو المعتمد، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوجَ امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمرٍ لا أبلغ في الإبطال منه، وهو تزوُّجُ امرأة الذي يُدَّعى ابناً، ووقوع ذلك من إمام المسلمين، ليكون أدعى لقبولهم»[٢].

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي: وتخاف لومَ الناس وتعييرهم إياك أنك تزوجتَ زوجة ولدك بالتبني، والله أحق أن تخشاه.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ لم يُرَدْ به أنه لم يكن يخشى الله فيما سبق، فإنه

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤/ ١٩١.

(٢) فتح الباري: ٨/ ٥٢٤.

عليه الصلاة والسلام قد قال: «**أنا أخشاكم للهِ وأتقاكم له**» ولكنه لما ذكر الخشية من الناس، ذكر أنَّ الله أحقُ بالخشية، في عموم الأحوال، وفي جميع الأشياء[١].

وما ذكره بعضُ المفسرين أنه (عليه الصلاة والسلام طلب زيداً في داره، فلم يجده، ورأى زينب حاسرة فأعجبته، وأنه أخفى في نفسه حبها، وإرادة تطليق زيدٍ لها) غير صحيح، وذكر من دون سند، إلا ما رواه الطبري في هذا، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وقد ضعفه أحمد والدارقطني[٢].

وهذا إقدام عظيم من قائله، وقلة معرفةٍ بحق النبي ﷺ وبفضله، وكيف يقال: رآها فأعجبته، وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذُ ولدتْ، ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ، وهو زوَّجها لزيد، فلا يشكُّ في تنزيه النبي ﷺ عن أن يأمر زيداً بإمساكها، وهو يحبُّ تطليقَهُ إياها، كما ذكر عن جماعة من المفسرين[٣][٤].

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ أي: لما قضى زيد منها حاجته، ولم يبق له فيها رغبة وطلقها، وانقضت عدتها، زوجناكها، فالله ﷻ هو الذي زوَّجها من رسول الله ﷺ من دون ولي ولا شهود.

فعن **أنس** قال: جاء زيدُ بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: «**اتق الله وأمسك عليك زوجك**» قال أنسٌ: فلو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه، وكانت زينبُ تفخرُ على أزواج رسول الله ﷺ تقول: زوَّجكنَّ أهاليكن، وزوجني الله من فوقِ سبع سماوات. [رواه البخاري (٥١٢٠)].

وبيَّن تعالى الحكمة من ذلك فقال:

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي:

---

(١) تفسير الخازن: ٥/ ١٢١.

(٢) المغني في الضعفاء، للذهبي: ١/ ٥٣٧.

(٣) تفسير الخازن: ٥/ ١٢٠.

(٤) انظر كتاب: مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش ـ دراسة تحليلية، للدكتور زاهر عواض الألمعي.

زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين إثمٌ وضيقٌ إذا تزوجوا زوجات أدعيائهم بالتبني، بعد طلاقهن وانقضاء عدتهن، بخلاف زوجة الولد الصلبي، فإنها لا تحل لأبيه أبداً، لقوله تعالى في آية المحرمات: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: كان قضاءُ الله نافذاً وكائناً لا محالة.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: فيما قسم له أو قدَّر له من النساء، أو أباح له من الزواج وغيره.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: وذلك سنَّة من سننه تعالى في السابقين من الأنبياء والمرسلين، وقد كان لهم أزواجٌ وسرائرُ، حتى كان لداود مئة امرأة، ولسليمان ثلاثمئة[1].

ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي: وكان أمر الله فيما قدَّر وحكم قضاء مبرماً لا يُعترض عليه.

- **خاتم النبيين والمرسلين:**

ثم أثنى تعالى على أنبيائه ورسله عموماً، مبيِّناً مكانته عليه الصلاة والسلام بينهم، وأنه خاتمهم فلا نبي بعده:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي: الأنبياء والمرسلون

---

(١) تفسير النسفي: ٥/ ٣٢٢.

هم الذين يبلغون رسالات الله التي كُلِّفوا بها، ويعظمونه ولا يعظمون غيره.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي: حافظاً لأعمال عباده، ومحاسباً عليها، فهو وحده الجدير أن يُخشى ويُعَظَّم.

ولما قال بعضهم: تزوج محمد امرأة ابنه، ردَّ الله تعالى عليهم بقوله الكريم:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم حتى تحرم عليه امرأته، وأخرج قوله: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ أبناءه عليه الصلاة والسلام، فقد ماتوا صغاراً، كالقاسم والطيب وإبراهيم.

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي: ولكن أكرمه الله تعالى بحمل الرسالة، وختم به النبوة، فلا ينبأ أحدٌ بعده، وعيسى عليه السلام نبي قبله، ويَنزل بعده حَكَماً مقسطاً على شريعته عليه الصلاة والسلام، فرسالته عليه الصلاة والسلام خاتمة الرسالات، أرسله بها إلى كل الأجيال والأمم حتى قيام الساعة.

قال ابن كثير: «فهذه الآية نصٌّ أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبيَّ بعده، فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخصُّ من مقام النبوة، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ»(١).

وعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ مَثَلِي ومَثَلَ الأنبياءِ مِنْ قبلي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بيتاً فأحسنَهُ وأَجْمَلَهُ إلا مَوْضِعَ لبنةٍ مِنْ زاويةٍ، فجعلَ الناسُ يطوفون بِهِ، ويعجبون له، ويقولون: هلَّا وُضِعَتْ هذه اللبنةُ؟ قال: فأنا اللبنةُ وأنا خاتمُ النبيين**» [رواه البخاري (٣٥٣٥)].

وعن **جبير بن مطعم** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لي خمسةُ أسماءٍ: أنا**

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ١٠٠.

محمَّدٌ، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشر الناسُ على قدمي، وأنا العاقِبُ» [رواه البخاري (٣٥٢٢)].

وزاد في رواية عند مسلم [٢٣٥٤]: **«الذي ليسَ بعدَه نبيٌّ»**.

وقوله: **«أنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي»** يحتمل أن يكون المراد بالقدم الزمان، إشارة إلى أنه ليس بعده نبي ولا شريعة(١).

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ الرسالةَ والنبوَّةَ قد انقطعتْ فلا رسولَ بعدي ولا نبيَّ»** [رواه أحمد (٣/ ٢٦٧) والترمذي (٢٢٧٢) وقال: حسن صحيح].

فكلُّ من ادَّعى هذا المقام بعده فهو كذَّاب أفَّاك دجَّال ضالٌّ مضلٌّ(٢).

وقد قامت عقيدة ختم النبوة بحراسة هذا الدين من كذب الدجالين وافتراءاتهم وبدعهم وفتنهم، ولولا عقيدة ختم النبوة لفقد الإنسان ثقته بنفسه، وبقي في ريب دائم، يشخص ببصره إلى السماء ينتظر وحياً جديداً، وبهذا يقعُ فريسة المتنبئين من الدجَّالين، ولهذا كان أخطر شيء في ادِّعاءات المرزا غلام أحمد القادياني محاولة نقض عقيدة ختم النبوة وهدمها، وإشاعة الفوضى والبلبلة في الفكر الإسلامي.

وقد أكد النبي ﷺ أنه لا نبي بعده ولا نبوة، في مناسبات متعددة، فعن **سعد بن أبي وقاص** رضي الله عنه قال: خلَّف رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال: يا رسول الله، تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال: **«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي»**.

وفي رواية: **«إلا أنه لا نبوة بعدي»** [رواه مسلم (٢٤٠٤)].

وقد أدرك الصحابة هذه الحقيقة، وعرفوا عمق المصيبة التي حلت بهم عندما توفي النبي ﷺ، فبوفاته انقطع الوحي، ولن ينزل على أحدٍ بعده أبداً، فعن **أنس** رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه:

---

(١) فتح الباري: ٦/ ٥٥٧.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ١٠٠.

انطلقْ بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ، فقالت: ما أبكي ألا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها. [رواه مسلم (٢٤٥٤)].

لقد توفي النبي ﷺ، وختمت النبوات والرسالات، وانقطع الوحي من السماء، فحُرِست بذلك الشريعة الإسلامية من دجل الدجالين، وعبث العابثين من أدعياء النبوة، الذين أخبر النبي ﷺ عنهم، فعن **أبي هريرة** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقومُ الساعةُ حتى يقتتل فئتانِ، فيكونُ بينهما مقتلةٌ عظيمةٌ، دعواهما واحدة، ولا تقومُ الساعةُ حتى يُبْعَثَ دجَّالون كذَّابون قريباً من ثلاثين، كلُّهم يزعمُ أنَّه رسولُ اللهِ**» [رواه البخاري (٣٦٠٩)].

فلا عجب ولا غرابة بعد ذلك أن يسعى الدجَّالون من أمثال غلام أحمد القادياني، للتسلُّق وراء هذه النصوص، ومحاولة نقض ختم النبوة، التي حرس الله بها دينه، وخلَّد شريعته.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ وقد علم سبحانه أنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ ولا رسول، وأن رسالته عامة باقية إلى قيام الساعة، ولهذا أعلن في التنزيل الحكيم أنه خاتم النبيين.

- **الإكثار من ذكر الله وتسبيحه:**

ألقى ختم النبوة برسالة الإسلام على المسلمين أعباء ثقيلة جسيمة؛ إن عليهم أن يقوموا بحمل هذه الرسالة والمحافظة عليها، وإيصالها إلى الأجيال البشرية المتتابعة، وخير معين لهم على هذه الأعباء، الإكثار من ذكره تعالى، والإقبال على طاعته وعبادته، وهو مضمون الخطاب التالي للمؤمنين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾.

أي: اذكروه في كل الأحوال والأوقات، ولا تغفلوا عنه، فإنه تعالى

يذكركم إذا ذكرتموه، ويمدكم بمعونته وتأييده، كما قال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال ابن عباس: لم يفرض الله ﷻ على عباده فريضة، إلا جعل لها حدّاً معلوماً، ثم عذر أهلها في حال العذر، غير الذكر، فإنه لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه(١).

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

أي: نزِّهوه وقدِّسوه في الصباح والمساء، فإذا ذكرتموه يجب أن يكون ذكركم إياه على وجه التعظيم والتنزيه.

ويشير ذكر الصباح والمساء إلى المداومة على ذكره وتسبيحه في جميع الأوقات، ويجوز أن يراد بالذكر وإكثاره تكثير الطاعات والعبادات، فإنها من جملة الذكر.

ورأى بعضهم أن في ذكر الصباح والمساء إشارة إلى صلاة الفجر وصلاة العصر، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧].

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي: هو الذي يرحمكم، وملائكته تستغفر لكم وتدعو لكم.

وهذا حث وتهييج لهم على الإكثار من ذكره وعبادته، فكأنه تعالى يقول لهم: هو يرحمكم، وملائكته تستغفر لكم، وأنتم غافلون عنه.

---

(١) تفسير الخازن: ٥/ ١٢٤.

﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي: وبسبب رحمته لكم يخرجكم من ظلمات الكفر والجهل والضلال، إلى نور الإيمان و هدايته.

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي: كان سبحانه ولا يزال رحيماً بالمؤمنين.

وهذا يدل على أن المراد من الصلاة الرحمة، وأن رحمته تعالى بعباده المؤمنين عامة غير مخصوصة بالمؤمنين وقت الوحي، بل هي عامة لجميع المسلمين(١).

ورحمته العظمى للمؤمنين يوم القيامة:

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ أي: تحية المؤمنين يوم يلقونه تعالى سلامٌ يتفضل به عليهم، كما في قوله سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يسٓ: ٥٨].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ أي: وأعد لهم في الجنة أجراً كريماً، سالماً عن كل مكروه.

والجدير بالذكر أنه تعالى تفضَّل بالسلام على أم المؤمنين، السيدة خديجة رضي الله عنها، في الدنيا، ففي الحديث الشريف: عن **أبي هريرة** رضي الله عنه قال: أتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت، معها إناءٌ فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شرابٌ ـ الشك من الراوي ـ فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربِّها ومني، وبشِّرها ببيت في الجنة من قصبٍ، لا صخبَ فيه ولا نصب. [رواه البخاري (٣٨٢٠)].

زاد الطبراني في الرواية المذكورة: فقالت: هو السلامُ، ومنه السلامُ، وعلى جبريل السلامُ.

والنسائي من حديث **أنس** قال: قال جبريل لرسول الله ﷺ: إنَّ الله يُقرئ خديجة السلام، فقالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته(٢).

---

(١) تفسير الخازن: ٥/ ١٢٥.

(٢) فتح الباري: ٧/ ١٣٥.

• **مهمة النبي ﷺ وأثرها:**

ورجعت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ، تبيِّن له طبيعة المهمة التي شرفه الله تعالى بها، وما فيها من خير وصلاح للمؤمنين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي: أرسلناك بعظَمتنا شاهداً على من بُعثت إليهم، تراقب أحوالهم وتشاهد أعمالهم، وتشهد عليهم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذا يدل على أن الله تعالى أكرم نبيه ﷺ بمقام الشهادة على أمته، وأكرم أيضاً أمته بهذا المقام، ليشهدوا على غيرهم من الأمم، قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

وفي الحديث الشريف: عن **أبي سعيد الخدري** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**يُدْعَى نوحٌ يومَ القيامةِ، فيقولُ: لبيكَ وسعديكَ يا ربِّ، فيقول: هل بلغتَ؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا نذيرٌ، فيقول: مَنْ يشهدُ لك؟ فيقول: محمَّدٌ وأمته، فيشهدون أنَّه قد بلَّغَ، ويكون الرسولُ عليكم شهيداً**» [رواه البخاري (٤٤٨٧)].

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أي: وأرسلناك مبشراً، تبشر المؤمنين بفضل الله تعالى عليهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يتفضل عليهم سبحانه بالنصر والتمكين، إن تمسكوا بدينهم وأحكام شريعتهم، وفي الآخرة يتفضل عليهم بالمغفرة والرضوان ودخول الجنة.

﴿وَنَذِيرًا﴾ أي: وأرسلناك نذيراً، تنذر المعرضين عن دعوتك بغضب الله تعالى وعذابه.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: وأرسلناك داعياً إلى الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته، وإلى عبادته وطاعته، بتيسيره سبحانه وتوفيقه، أو بأمره.

وهذه شهادة من الله تعالى رفيعة، تدل على إخلاصه عليه الصلاة والسلام في دعوته، فهي دعوة خالصة لله تعالى، منه وإليه، وهي دعوة أيضاً إلى دار جنته ورضوانه، فلا بد أن تكون بإذن رب الدار.

وتدل الآية على أن الداعي إلى الله سبحانه هو الذي يدعو إلى الله لا إلى نفسه، ويجمع الناس على الله سبحانه، لا على نفسه، فلا يتأثر بكثرة الناس حوله أو قِلَّتهم، لأن قلبه مع الله، لا مع الناس ولا مع نفسه.

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ أي: وأرسلناك سراجاً منيراً، تنير طريق الحق، وتبين الحجج والبراهين.

وقد جلا الله تعالى به ظلمات الشرك، واهتدى بهديه الضالُّون.

وجاء التشبيه بالسراج المنير لا بالشمس، مع أنها أشد إضاءة من السراج، لأن الشمس تغيب في الليل ويذهب نورها، وذلك في جزء من الأرض أما أنواره عليه الصلاة والسلام فلا تغيب.

وقد جمع الله تعالى للنبي ﷺ النور المعنوي والنور الحسي، فنور هدايته عليه الصلاة والسلام أضاء العالمين، وهو النور المعنوي، ونور جماله أجمع عليه كل من رآه وتشرَّف بالنظر إليه، عليه الصلاة والسلام، قال **أبو هريرة** رضي الله عنه: ما رأيتُ أحسنَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ، كأنَّ الشمسَ تجري في وجهه. [رواه الترمذي في الشمائل (١١٧)].

وقال **هند بن أبي هالة** رضي الله عنه: كان رسولُ الله ﷺ فخماً مفخَّماً، يتلألأ وجهُهُ تلألُؤَ القمرِ ليلةَ البدرِ. [رواه الترمذي في الشمائل (٣٣٤)].

وقال **أنس بن مالك** رضي الله عنه: لـمَّا كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينةَ أضاءَ منها كلُّ شيءٍ، فلما كان اليومُ الذي ماتَ فيه أظلمَ فيها كلُّ شيءٍ. [رواه أحمد (٢٢١١٣) والترمذي في الشمائل (٣٨٠)].

إنَّ النبي ﷺ بشر كسائر البشر، إلا أن الله سبحانه اصطفاه ونوَّره خَلْقاً وخُلقاً، ونوَّر به عليه الصلاة والسلام العالمين.

أما القول بأنَّه عليه الصلاة والسلام خُلِقَ من نورٍ فغيرُ صحيح، ويتنافى مع النصوص القطعية في القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾.

وهذا تحقيق لصفة البشارة. ثم قال تعالى له في مواجهة أهل النذارة:

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي: لا تبالِ بجحودهم وعنادهم وإيذائهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: توكَّل عليه تعالى فإنه يكفيك، وكفى به حافظاً وناصراً ومعيناً.

- **أحكام خاصة للنبي ﷺ مع أزواجه:**

وللنبي ﷺ في تعامله مع أزواجه أحكام خاصة، خصَّهُ الله تعالى بها، بيَّنها سبحانه في الآيات التالية، ومهَّد لها ببيان بعض الأحكام العامة التي كلَّف بها المؤمنين:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ

عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ أي: إذا تزوجتم النساء ثم طلقتموهن قبل الدخول بهن، فما لكم عليهن من عدة تستوفون عددها.

والعدة: هي المدة التي تبقى المرأة المطلقة فيها من دون زواج بعد طلاقها، وقد ذكرها تعالى بقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: أعطوهن المتعة، وهي شيء من المال يقدمه المطلق للمرأة، إذا لم يسمِّ لها مهراً، أما إذا سمى لها مهراً، فتستحق في هذه الحالة نصفه، قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وعليهم بعد ذلك أن يخلُّوا سبيلهن بالمعروف، من غير إضرار ولا أذًى، ففي الآية إرشاد إلى الأخلاق الكريمة، التي ينبغي أن تعامل بها المرأة المطلقة.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن.

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: وأحللنا لك أيضاً الجواري المملوكات مما فتح الله عليك.

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي: وأحللنا لك النساء القريشيات، اللاتي هاجرن إلى المدينة المنورة.

﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ أي: وأحللنا لك امرأة مؤمنة، وهبت نفسها للنبي ﷺ، ليتزوجها من غير مهر، فتنال بذلك شرف الزواج منه عليه الصلاة والسلام، وهو حكمٌ خاص به عليه الصلاة والسلام دون سائر المؤمنين.

وهذا ما أرادت الآية إبرازه، فللنبي عليه الصلاة والسلام أن يتزوج من النساء المذكورات ما شاء، بمهر أو بغير مهر، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي: قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين، من حقوق لأزواجهم وإمائهم، وقد فرض الله على المؤمنين من شروط العقد وحقوقه، ما لم يفرض عليه ﷺ، تكرمة له وتوسعة عليه.

واللواتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثيرات، ومع ذلك ما تزوج ﷺ منهن، قال ابن عباس: لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له. [أخرجه الطبري بإسناد حسن][(١)].

وكذلك أكرمه الله تعالى أيضاً في معاملته لأزواجه، فلم يوجب عليه أن يقسم بينهن كما أوجب على غيره، فقال سبحانه:

﴿۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴿٥١﴾﴾.

﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ أي: تؤخر من تشاء من أزواجك، وتترك مضاجعتها، وتضم إليك من تشاء منهن، من غير التفاتٍ إلى نوبةٍ وقَسْمٍ.

﴿وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ﴾ أي: وإذا أردت أن ترجع إلى مضاجعة من عزلت من أزواجك، فلا حرج عليك في ذلك، والأمرُ مفوضٌ إلى مشيئتك.

---

(١) فتح الباري: ٨/٥٢٦.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ أي: ما ذكر من تفويض الأمر إلى مشيئتك، أقربُ إلى قرة عيونهن، وقلة حزنهن، ورضاهن جميعاً، لأنه حكم من الله تعالى، فتطمئن به نفوسهن، ويذهب التنافس والغيرة.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ أي: والله يعلم ما في الضمائر والخواطر، فاجتهدوا في دفع الخواطر والأفكار السيئة.

ودلت الآية على أن الله تعالى ما كلَّف النبي ﷺ أن يقسم بين أزواجه، ومع ذلك كان يقسم بينهن تطوعاً، حتى إنه كان ـ كما قالت السيدة عائشة ـ يستأذن في يوم المرأة منا، بعد أن أنزلت هذه الآية: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ [رواه البخاري (٤٩٨٩)].

وروي عنها: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: «**اللهمَّ هذا قسمي فيما أملكُ، فلا تَلُمْنِي فيما تَمْلِكُ ولا أَمْلِكُ**» [رواه أبو داود (٢١٣٤) والنسائي (٧/ ٦٣) والترمذي (١١٤٠) وابن ماجه (١٩٧١)].

وقوله هذا دليل على عظيم خشيته عليه الصلاة والسلام لله تعالى، ويمكن أن يكون قد قال هذا قبل نزول هذه الآية عليه.

- **حرمة أزواج النبي ﷺ وبيوته:**

ومن تكريم الله لأمهات المؤمنين، بعد أن اخترن الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة، أنه قصرَ النبي ﷺ عليهنَّ، وحرَّم عليه أن يتزوج غيرهن، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن، فقال:

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد أمهات المؤمنين التسع، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ وذلك بأن تطلق واحدة وتنكح مكانها أخرى، ولو أعجبك حسنها.

وفي هذا دليل على أن نصاب رسول الله ﷺ من الأزواج تسع، كما أن الأربع نصاب أمته[١].

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ﴾ أي: من الإماء، وهذا استثناء من النساء، لأنه لفظ يتناول الحرائر والإماء، فله عليه الصلاة والسلام أن يتسرَّى بمن يشاء من الإماء، ومع ذلك ما صح أنه عليه الصلاة والسلام تسرَّى إلا بمارية القبطية، التي أهداها له ملك مصر.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾.

والجدير بالذكر أن بعضهم يرى أن المراد من قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أنه لا يحل له أن يتزوج من أصناف النساء اللواتي لم يذكرن في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ...﴾ [الأحزاب: ٥٠] وينسب هذا الرأي إلى أبي بن كعب ومن وافقه، أخرجه عبد الله بن أحمد في زيادات «**المسند**»، وإلى الثاني ذهب ابن عباس ومن وافقه، وأن ذلك وقع مجازاة لهن على اختيارهن إياه[٢].

ثم أثبتت الآياتُ لبيوت النبي ﷺ حرمة مخصوصة، وشرعت أحكاماً تنظم دخول الناس إليها وجلوسهم فيها، وقد كانت قبل هذه الآية مثابة للناس، وخاصة أصحاب الحاجات والجائعين:

---

(١) تفسير النسفي: ٥/ ١٣١. عن عائشة رضي الله عنها أنه «ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له النساء» رواه الترمذي (٣٢١٦) والنسائي (٦/ ٥٦) وأحمد (٦/ ١٨٦) وله شاهد عند ابن أبي حاتم من حديث أم سلمة (ن).

(٢) فتح الباري: ٨/ ٥٢٦.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ أي: لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ من دون إذنٍ، وإن أذن لكم بالدخول إلى طعام، فلا تدخلوا قبل نضجِ الطعام، وتمكثوا فيها تنتظرون نضجه.

وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه، أن يبكِّر من شاء إلى دار الدعوة، ينتظرون طبخ الطعام ونضجه، وكذلك إذا انتهوا منه جلسوا كذلك، فنهى الله المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي ﷺ، ودخل في النهي سائر المؤمنين[1].

﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ أي: إذا أكلتم فاخرجوا من البيت وتفرقوا.

﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ أي: ولا تطيلوا الجلوسَ ليستأنسَ بعضكم بحديث بعض.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْۖ﴾ أي: إن جلوسكم في بيت النبي ﷺ يؤذيه، ويضيق عليه وعلى أهله، وهو عليه الصلاة والسلام يستحيي من إخراجكم، إذ كان أشدَّ الناس حياءً، فلا يحملنكم شدة حيائه على الإثقال عليه.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ﴾ أي: إن إخراجكم حقٌّ لا ينبغي أن يُستحيا منه، ولهذا أمركم الله بالخروج.

وفي الآية تأديبٌ للثقلاء، والواجب على الضيف ألا يجعل نفسه ثقيلاً، بل عليه أن يخفف الجلوس.

وقد روى **أنس بن مالك** رضي الله عنه سبب نزول هذه الآية فقال: أولَم رسول الله

---

(١) المحرر الوجيز: ١٢/ ١٠٣.

ﷺ حين بنى بزينب بنت جحشٍ، فأشبع الناس خبزاً ولحماً، ثم خرج إلى حُجَر أمهات المؤمنين، كما كان يصنعُ صبيحة بنائه، فيسلم عليهنَّ ويدعو لهن، ويسلمن عليه، ويدعون له، فلما رجعَ إلى بيته، رأى رجلين جرى بهما الحديثُ، فلمَّا رآهما رجع عن بيته، فلمَّا رأى الرجلان رسول الله ﷺ رجع عن بيته، وثبا مسرعين، فما أدري أنا أخبرتُهُ بخروجهما أم أُخبرَ، فرجع حتى دخل البيت، وأرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب. [رواه البخاري (٤٧٩٤)].

ثم أكدت الآية حُرمة أمهات المؤمنين، فأوجبتْ على أصحاب الحاجات أن يكلموهن من رواء حجابٍ، كما حرَّمتْ الزواج منهن بعد رسول الله ﷺ:

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي: إذا سألتم نساء النبي ﷺ حاجة، فاسألوهنَّ منْ وراء ستر، فلا يجوز لأحد أن ينظر إلى إحدى أمهات المؤمنين، متنقبة كانت أو غير متنقبة.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: أطهر من الريب والخواطر الخبيثة.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ وهذا تعظيم لحرمتهن، وتأكيد لمقام الأمومة الذي شرفهن الله به بقوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] فلهن رضي الله عنهن مقام الأمومة في حياته عليه الصلاة والسلام وبعد وفاته.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي: ذنباً عظيماً.

وهذا من أعلام تعظيم الله لرسوله ﷺ، وإيجاب حرمته حيّاً وميتاً[١].

وبالغت الآيات في تحذيرهم من هذا الأمر، فلا يجوز لأحد أن يفكر فيه ولا أن يضمره في قلبه:

﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

أي: فاحذروا أن تحوم خواطركم حول حرم رسول الله ﷺ، فإن الله يعلمها ويجازيكم عليها.

---

(١) تفسير الخازن: ٥/ ١٣٥.

ثم استثنت الآياتُ محارم أمهات المؤمنين من الرجال وغيرهم، الذين لا يجب عليهن الاحتجاب عنهم:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ﴾ أي: من العبيد والإماء، أو من الإماء خاصة، كما تقدَّم في آية **سورة النور** [٣١] ولم تذكر الآية العمَّ والخال، لأنهما كالوالدين.

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: اتقين الله فيما أمرتن به، فإنه عليمٌ بجميع أحوالكن، وأفاد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب تشديد الأمر بالتقوى.

- **الصلاة والسلام على النبي ﷺ:**

وبعد أن بينت الآياتُ حرمة أمهات المؤمنين، وحرمة بيوت النبي ﷺ، أكدت ذلك ببيان مكانته عليه الصلاة والسلام عند ربه جل وعلا، وعند ملائكته في الملأ الأعلى، بقوله سبحانه:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ﴾ أي: إن الله يصلي على النبي، وملائكته يصلون عليه.

وقد جاءت ﴿إِنَّ﴾ في صدر الجملة الاسمية لتدل على التأكيد، وجاءت كلمة ﴿يُصَلُّونَ﴾ لتدل على الدوام والاستمرار.

ومن المعلوم أنَّ صلاة الله على نبيه عليه الصلاة والسلام: رحمته وثناؤه عليه، وأنها من الملائكة: دعاءٌ وثناءٌ، وهذا يدل على أن رحمات المولى الكريم تتوالى على النبي ﷺ دون فتور وانقطاع، في حياته وبعد موته، وتكريم الله تعالى له ورفعه لدرجاته مستمر، لا يتوقف ولا ينقطع.

وصلاة الله على نبيه رحمته المقرونة بالتعظيم، ومن الله على غير النبي مطلقُ الرحمة، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فانظر إلى الفرق بين الصلاتين والفضل بين المقامين[١].

قال ابن عطية ﵀: «هذه الآية شرَّف الله بها رسوله ﷺ، وذكر منزلته منه، وظهر بها سوء فعل من استصحب من جهته فكرة سوءٍ في أمر زوجاته ونحو ذلك»[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾ أي: يا أيها الذين آمنوا عظِّموا شأن النبي ﷺ، فأنتم أولى بذلك، وقولوا: «**اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد**» [رواه الترمذي (٣٢٢٠)].

وهذا اللفظ يدلُّ على طلب التعظيم لشأنه ﷺ من الله ﷻ لقصور وسع المؤمنين عن أداء حقه ﷺ[٣].

﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ أي: وسلِّموا عليه تسليماً مع الصلاة عليه، أو انقادوا لحكمه، وتمسكوا بسنته، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

قال ابن حجر ﵀: «وقد سئلتُ عن إضافة الصلاة إلى الله دون السلام، وأمر المؤمنين بها وبالسلام. **فقلتُ**: يحتمل أن يكون السلام له معنيان: التحية والانقياد، فأمر به المؤمنون لصحتها منهم، والله وملائكته لا يجوز منهم الانقياد، فلم يضفْ إليهم دفعاً للإيهام، والعلم عند الله»[٤].

---

(١) حاشية الصاوي على الجلالين.
(٢) المحرر الوجيز: ١٢/ ١١٠.
(٣) روح المعاني: ٢٢/ ٧٧.
(٤) فتح الباري: ٨/ ٥٣٣.

فكل المؤمنين مكلَّفون بالصلاة والسلام عليه، سواء كان النبي ﷺ حاضراً أم غائباً، حيّاً أم ميتاً، لأن الأمر الإلٰهي بذلك أتى مطلقاً عن أي قيد من القيود.

وقد يقول قائل: إذا كان الله سبحانه يصلِّي على نبيه ﷺ فأي حاجة إلى صلاة الملائكة والمؤمنين عليه؟.

والجواب: أنَّ الله سبحانه شرع الصلاة على النبي ﷺ إظهاراً لتعظيم الملائكة والمؤمنين له، ولم يشرعها لحاجة النبيِّ ﷺ إليها مع صلاة الله عليه، فهو ﷺ معظَّم ومكرم في الملأ الأعلى بصلاة الملائكة عليه، ومعظم أيضاً ومكرَّم في الملأ الأدنى بصلاة المؤمنين عليه.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره للآية: «المقصود بالآية أنَّ الله تعالى أخبر عباده بمنزلة نبيه وعبده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه»(١).

وأزيدك في الجواب أمراً آخر، يستدعي منا أن نحمد الله حمداً كثيراً، ونشكره شكراً جزيلاً، لأنه كلَّفنا بالصلاة والسلام على نبيه عليه الصلاة والسلام، ففي ذلك رحمة بنا، إذ ثوابُ صلاتنا عليه ﷺ يعود علينا، فضلاً منه تعالى، وتكريماً لنبيه عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال ﷺ: **«مَنْ صلَّى عليَّ واحدةً صلَّى اللهُ عليه عشراً»** [رواه مسلم (٤٠٨)].

فما أكرم هذا النبي ﷺ على الله! وما أعظم منَّة الله علينا به عليه الصلاة والسلام!.

وعن **أنس بن مالك** رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: **«مَنْ صلَّى عليَّ صلاةً واحدةً صلَّى الله عليه عشرَ صلواتٍ، ويحطُّ عنه بها عشرَ سيئاتٍ، ورفعه بها عشرَ درجاتٍ»** [رواه أحمد (٣/ ١٠٢) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٦٢ و٦٣) واللفظ له].

وإذا كنت تحبُّ أن تكون قريباً منه عليه الصلاة والسلام يوم القيامة، فأكثر من الصلاة عليه، فعن **ابن مسعود** رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ أولى الناسِ بي يومَ القيامةِ أكثرُهم عليَّ صلاةً»** [رواه الترمذي (٤٨٤) وابن حبان (٩٠٨)].

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ١١٠.

وإذا أردت أن يكفيك الله هموم الدنيا، فينشرح صدرك، وتسكن نفسك، ويطمئن قلبك، وأن يضع عنك أثقال أوزارك يوم القيامة، ويغفر لك ذنوبك، ويستر عيوبك، فاجعل ثواب صلاتك له عليه الصلاة والسلام، ففي الحديث: عن **أبي بن كعب** رضي الله عنه، قلتُ: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «**ما شئتَ**» قلت: الربعَ؟ قال: «**ما شئتَ، فإنْ زدتَ فهو خيرٌ لك**» قلت: النصفَ؟ قال: «**ما شئتَ فإنْ زدتَ فهو خيرٌ لكَ**» قلتُ: فالثلثين؟ قال: «**ما شئت، فإن زدت فهو خير لك**» قلتُ: أجعل لك صلاتي كلَّها، قال: «**إذاً تكفى همَّك، ويُغْفَرُ لكَ ذنبُكَ**» [رواه الترمذي (٢٤٥٧) وقال: حسن صحيح].

إن صلاتنا على النبي ﷺ تشريف لنا وتكريم، لأننا نقتدي بربنا ﷻ في الصلاة عليه وتعظيمه، وفيها أيضاً مكأفاة النبي ﷺ على بعض حقوقه علينا، ولا بد لنا عندما نصلي عليه أن نتذكر بعض شمائله الكريمة، ومحاسنه الخُلقية والخَلقية، فنحيا ولو لفترة من الزمان بقلوبنا وأفكارنا معه عليه الصلاة والسلام.

إن الصلاة على النبي ﷺ حبلٌ من نور يصلنا بمهبط الرحمات الإلٰهية، ومركز الإفاضات الربانية، مهما بعُد بنا الزمان والمكان.

ومن السُّنَّة عند الدعاء أن نصلي فيه على النبي ﷺ، لأنها دعاء مقبول قطعاً، والله سبحانه أكرمُ من أن يقبل بعض الدعاء ويردَّ بعضه، قال عليٌّ رضي الله عنه: كل دعاء محجوب حتى يُصلَّى على محمد ﷺ. [رواه الطبراني موقوفاً، وروي مثله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه].

وعلينا ألا نبخل بالصلاة عليه ﷺ كلَّما ذُكر، فإننا إذا لم نصلِّ عليه نبخل على أنفسنا بالرحمات والبركات والحسنات، التي يتفضل الله بها علينا، وقد روي من طرق كثيرة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**البخيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عندَه ولم يصلِّ عليَّ**» [رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٥٦) والترمذي (٣٥٤٦) ابن حبان (٩٠٩)].

وعلينا أن نصلِّي عليه كلما ذُكر، سواء ذكر نُطقاً أو كتابة، ولا تكفي إشارة (ص) في الكتابة، لأن الرمز لا يدل على أنك صليت عليه فعلاً.

● **التحذير من إيذاء النبي ﷺ:**

ثم حذرت الآيات من إيذاء النبي ﷺ، فعظمت ذلك، وقرنته بإيذاء الله جَلَّ جَلَالُهُ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: إن الذين يؤذون رسول الله ﷺ، وذكر اسم الله للتشريف، فكأنَّ أذى رسول الله ﷺ أذى لله تعالى.

وللآية نظائر في كتاب الله تعالى، منها قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

ومنها قوله سبحانه: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢].

﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: طردهم الله من ساحات رحمته وفضله في الدارين، وأعدَّ لهم في الآخرة عذاباً أليماً فيه ذلة ومهانة.

والله ﷻ يغضب لعباده المؤمنين عندما يتعرضون للأذى، بلهَ رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ولهذا قال:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي: بغير جناية استحقوا بها الأذى.

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: فقد احتملوا كذباً عظيماً، وإثماً ظاهراً كبيراً.

● **الحجاب للمرأة المسلمة:**

بهذه الآيات مهَّد الله تعالى لتشريع الحجاب للمرأة المسلمة، عندما تضطر للخروج من بيتها، كما مهَّد تعالى لتطهير المجتمع من آفة خطيرة، منتشرة في

المجتمعات الجاهلية، وهي تعرُّضُ الرجال الفساق للنساء خارج منازلهن، وإسماعهن كلمات مؤذية تخدش الحياء وتخرم المروءة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي: يُرخين عليهن جلابيبهن، ويغطين بها وجوهَهن وأعطافهن، يقال: إذا زال الثوب عن وجه المرأة: أدن ثوبك على وجهك[1].

والجلابيب: جمع جلباب، وهو الملاءة أو الملحفة التي تلبسها المرأة فوق ثيابها.

والإدناء: التقريب، يقال: أدناني؛ أي: قربني، وضمن معنى الإرخاء أو السدل، ولذا عُدِّيَ بـ (**على**).

قال ابن عباس: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عيناً واحدة.

وقال محمد بن سيرين: سألت عَبيدةَ السلماني عن قول الله ﷻ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ فغطى وجهه ورأسه، وأبرز عينه اليسرى[2].

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: ذلك التستر أولى أن يجعلهن معروفات بالعفة، فلا يتعرض لهن أحدٌ، فإن المرأة إذا كانت ظاهرة التعفف والتستر لم يتعرض لها أحد بالأذى، أما المتبرجة فإنها المطموع فيها من قبل الفساق.

ثم وجهت الآيات الوعيد الشديد إلى أولئك الفساق وأمثالهم:

---

(١) تفسير النسفي: ٥/ ١٣٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٣/ ١١٤.

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهم الذين يروِّجون الأخبار الكاذبة في المدينة المنورة، بقصد أذى المؤمنين والمؤمنات، وإحداث الفتن في المجتمع.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لنسلطنك عليهم، ونأمرك بالتضييق عليهم وملاحقتهم، حتى يضطروا إلى ترك المدينة المنورة، فلا يسكنون بجوارك فيها إلا زمناً يسيراً، ريثما يجلون عنها.

وفي الآية تنويه بسُكنى المدينة بجوار رسول الله ﷺ، وأنَّ على من أكرمه الله بهذا الجوار أن يتأدب مع رسول الله ﷺ ويتحفظ، تقديراً لهذه النعمة التي أكرمه الله تعالى بها.

﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾.

أي: تلازمهم لعنة الله في كل مكان، فلا تنفصل عنهم، أينما ظُفِرَ بهم أُخِذوا، وقتِّلوا أكبر قتل وأقبحه، تطهيراً للمجتمع من شرِّهم وفسادهم.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

أي: وهذه العقوبة الشديدة سنَّة قديمة سنَّها الله تعالى لكل المفسدين، الذين ينافقون، ويسعون في نشر الفتن والفساد في الأرض، وهي سُنة ثابتة مستمرة لا تبديل لها.

- **تهديد ووعيد:**

وتابعت الآيات تهديدها ووعيدها لهؤلاء الفاسدين المفسدين، بوصف

مشاهد من المعذبين في جهنم يوم القيامة، ومهدت لذلك بتقرير هذا اليوم والرد على منكريه:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يسألك الناس عن وقت قيام الساعة، وكان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عنها جحوداً واستهزاءً، والمنافقون يسألونه إيذاء وإرجافاً، واليهود يسألونه اختباراً، وهم يعلمون أنه لا يعلم وقتها.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يعلم وقتها إلا الله تعالى، كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤].

فالمنازل الرفيعة العالية التي رفع الله تعالى إليها النبي ﷺ، لم تزحزحه عن مقام عبوديته لربه ومحدوديته، فهو لا يعلم من الغيب إلا ما أعلمه الله تعالى.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي: وما يدريك لعلها تقع وتحدث في وقت قريب، عند ذلك يندم الجاحدون، ويصدق المكذبون، ويستيقن المرتابون.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾.

أي: لعنهم وهيأ لهم ناراً شديدة التوقد.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾.

أي: ماكثين فيها أبداً، لا يجدون وليّاً يحفظهم، ولا نصيراً يمنع العذاب عنهم.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: تحرك في النار من جهة إلى جهة لتُشوى من كل الجهات، فلا يبقى فيها مكان لا تلفحه النار.

﴿يَقُولُونَ يَالَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ أي: وهم يقولون متحسِّرين نادمين: يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول.

فثمة نارٌ أخرى تتسعَّر في قلوبهم ونفوسهم، وهي نار الندامة والحسرة، وخاصة عندما يتذكرون رؤوس الضلال وزعماء الكفر:

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ (٦٧)﴾.

أي: أبعدونا عن سبيل الحق والهدى.

﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨)﴾.

أي: ضاعف لهم العذاب بسبب ضلالهم وإضلالهم، وشدد اللعنة عليهم.

وعندما وصلت الآيات إلى هذا المدى من التهديد والوعيد، وهيأت النفوس والقلوب للانقياد والإذعان، وجهت الخطاب إلى المؤمنين، مرشدة واعظة ومحذرة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا (٦٩)﴾.

أي: لا تكونوا كرؤساء الضلال في بني إسرائيل، الذين كانوا يسعون في نشر الأراجيف والأكاذيب عن نبي الله موسى عليه السلام، بقصد إيذائه وتشويه سمعته، وقد تقدَّم في **سورة القصص** أن قارون كان يفعل ذلك، وأنه تعالى ردَّ عن نبيه عليه السلام مقالة السوء، وفضح قائليها، وحفظ لموسى عليه السلام مكانته ووجاهته، فلا تفعلوا هذا بنبيكم عليه الصلاة والسلام، فإنَّ له من الوجاهة والمكانة عند الله، أعظم مما لموسى عليه السلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠)﴾.

أي: قولوا الحق الذي فيه الصدق والصواب.

أو: قولاً قاصداً إلى الحق والسداد.

ولعل الآية تشير إلى أنَّ بعضهم خاضوا في موضوع زواجه عليه الصلاة والسلام من السيدة زينب، لمجيئه على خلاف عاداتهم وإلفهم.

ثم بينت الآيات ما يؤدي إليه قول الحق، من صلاح في الدنيا ومغفرة في الآخرة:

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾.

وهذا الفوز العظيم، هو النجاة من النار، والدخول في الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

- **الإنسان والتكليف بالطاعة:**

الإقرار بالحق والخضوع له، وطاعة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، في كل أمر ونهي، مسؤولية كبيرةٌ، وأمانة عظيمة، عظَّمها تعالى، وبيَّن أهميتها وثقلها، وما يترتب عليها من مسؤولية وجزاء، بقوله:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: إنا عرضنا التكليف بطاعة الله ورسوله ﷺ، وما يترتب عليه من مسؤولية وجزاء، على هذه الأجرام الثقيلة الكبيرة، فأَبَيْنَ حمل أمانة التكليف، إشفاقاً وخوفاً من تبعاته ومسؤوليته.

وسمَّى سبحانه التكليف بالطاعة أمانة، لأنه واجب الأداء، فالتقصير في الطاعة خيانة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ودلَّ قوله تعالى: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ على أنَّ امتناعهن عن حمل الأمانة، كان

خوفاً وخشية وتعظيماً لطاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، لا معصية ومخالفة لأمره، مع العلم أن العرض عليهن كان تخييراً لا إلزاماً.

ورأى بعض المفسرين أنَّ المراد في هذه الآية ضَرْبُ مثلٍ لبيان عِظَم التكليف، وأن السماوات والأرض والجبال على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها، لثقل عليها، لما فيه من مسؤولية وحساب.

وهذا صرفٌ للآية عن ظاهرها لا حاجة إليه، ولا مانع أن نقول بأنَّ في الآية إخباراً عن حقيقة أنَّ الله سبحانه عرض حمل التكليف على هذه الأجرام، بعد أن ركبَ فيها القوة المدركة والناطقة، فامتنعت تعظيماً لأمره، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: التزم الإنسان بحملها، بما له من اختيار وإرادة وكسب، والتي هي أساس التكليف.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ أي: إنه كان كثير الظلم مفرطاً بالجهل.

والمراد من الظلم ظلمه لنفسه بالكفر والمعاصي، والمراد من الجهل حمقه وطيشه، وعدم تقديره لمسؤولية التكليف، وهي صفة الجهالة التي يتصف بها العصاة والفجار، عند اقترافهم للمعاصي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

وهذا دليل على أن المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ بعض الناس الذين لم يقوموا بواجب الطاعة لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام، وهم أكثر الناس، كما صرحت بذلك آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

أما الأنبياء والصالحون، فلا تنسحب الآية عليهم، ولا يوصفون بظلم وجهل.

ثم بيَّن تعالى ما يترتب على التكليف بالطاعة من مسؤولية وجزاء فقال:

﴿لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: ليعذبهم بسبب ظلمهم وجهلهم.

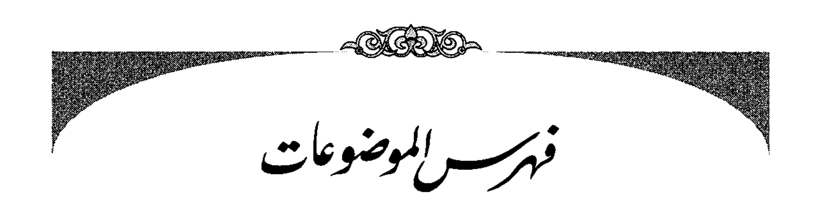
﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾ أي: ممَّا يصدر عنهم أحياناً من ضعف وفتور وغفلة وتقصير.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: كان سبحانه ولا يزال غفوراً رحيماً.

أسأله تعالى أن يوفقنا لطاعته تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، وأن يرحم ضعفنا، ويغفر لنا تقصيرنا، ويستر عيوبنا وذنوبنا، إنه غفور رحيم.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.





فهرس الموضوعات

تفسير سورة النور

التَّشْرِيْعُ وَالهِدَايَةُ فِي سُورَةِ النُّورِ

تفسير سورة الفرقان

أَسْبَابُ الضَّلَالِ فِي سُورَةِ الفُرْقَانِ

تفسير سورة الشعراء

العِنَادُ والعِقَابُ في سُورَةِ الشُّعَرَاءِ

تفسير سورة النْمل

المُعْجِزَةُ وَالإِعْجَازُ فِي سُورَةِ النَّمْلِ

تفسير سورة القصص

عَاقِبَةُ الطُّغْيَانِ وَالفَسَادِ في سُورَةِ القَصَصِ

تفسير سورة العنكبوت

الابْتِلَاءُ وَالوَلَاءُ في سُورَةِ العَنْكَبُوتِ

تفسير سورة الروم

الإنْسَانُ والسُّنَنُ الكَوْنِيَّةُ في سُورَةِ الرُّومِ

تفسير سورة لقمان

المُقَابَلَةُ الحَكِيمَةُ والمُوَازَنَةُ المُسْتَحِيلَةُ فِي سُورَةِ لُقْمَانَ

تفسير سورة السجدة

التَّدْبِيرُ والتَّنْزِيلُ في سُورَة السَّجْدَةِ

تفسير سورة الأحزاب

النَّبِيُّ ﷺ وَأَزْوَاجُهُ في سُورَةِ الأَحْزَابِ

❁ ❁ ❁